

جامعة القاهرة
معهد البحوث والدراسات الأفريقية

مجلة الدراسات الأفريقية

العدد ٢٥
٢٠٠٣

مجلة الدراسات الإفريقية



العدد الخامس والعشرين ٢٠٠٣

يصدرها سنوياً معهد البحوث والدراسات الإفريقية ـ جامعة القاهرة

ترسل المقالات والأبحاث على العنوان التالى :

الأستاذ الدكتور السيد على أحمد فليفل

معهد البحوث والدراسات الإفريقية

جامعة القاهرة

رمز بريدى ١٢٦١٣ أورمان / جيزة

(ج.م.ع)

## المحتويات		صفحة

كلمة

الأستاذ الدكتور السيد على أحمد فليفل

عميد المعهد

ورئيس تحرير مجلة الدراسات الافريقية

بين يدي القارئ الكريم العدد الخامس والعشرون من مجلة الدراسات الأفريقية لعام ٢٠٠٣ ، بعد ان انتظم صدورها وتطورت إصداراتها في ثوب قشيب.

ويتضمن العدد مجموعة متميزة من البحوث المحكمة التي تتوافق مع طبيعة المعهد وتكوينه العلمي وأدائه واتصالاته .

فالبحث الأول يعرض لقضايا الدولة في أفريقيا ، أعده الدكتور / جمال ضلع المدرس بالمعهد بقسم السياسة والاقتصاد .

أما البحث الثاني ، فهو عن هجرة العمالة في الجنوب الأفريقي ، أعدته الدكتورة / ماجدة إبراهيم عامر . الأستاذ المساعد بقسم الجغرافيا بالمعهد .

والبحث الثالث هو بحث في التاريخ الحضاري الكلاسيكي ، أعدته الدكتورة / منيرة الهمشري ، الأستاذ المساعد بكلية الآداب ، جامعة المنوفية .

أما البحث الرابع ، هو بحث في الانثروبولوجيا عن الظاهرة الأثنية مفهوما واستعمالاتها ، للبحث د. محمد جويلي، الباحث في علم الاجتماع ، بالجامعة التونسية.

والبحث الخامس ، أعده الدكتور / كمال محمد جار الله بشعبة اللغات الأفريقية ، مركز البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة أفريقيا العالمية بالسودان ، وهو حول إطار نظري لمستقبل اللغات النيلية - الصحراوية في دارفور .

أما البحث السادس والأخير ، فهو بحث عن الحقيقة والمجاز في لغة الهوسا ، أعده الدكتور / صبري سلامة الأستاذ المساعد بقسم اللغات بالمعهد .

وإذ أرجو ان يجد القارئ الكريم مبتغاه في بحوث « مجلة الدراسات الأفريقية » ، فإنني أتقدم بجزيل الشكر لكل من بذل الجهد من زملائي بالمعهد، الذي عاونوا بصدق في تحكيم البحوث ، وفي إخراج المجلة في ثوبها الجديد .

وبالله التوفيق ،،،

أ.د.السيد فليفل

قضايا الدولة في أفريقيا

د.جمال محمد السيد ضلع(*)

مقـدمة:

علي الرغم من أن الأزمة التي تعايشها وتعانيها الدولة في أفريقيا قد بلغت أقصى وأقسى مدى لها ـ في بعض الحالات ـ وعلي الرغم من المساعي والجهود المبذولة من أجل إنقاذ ما يمكن إنقاذه, فان الأمل يظل نبراساً ومصدراً للتفاؤل بإمكانية التغيير للأفضل. إن الأزمات ليست شراً مطلقاً تماماً, كما أنها ليست خيراً مطلقاً، وكما تصنع الدول الأزمات فان الأزمات يمكن أن تصنع الدول، وهذا يدفع إلى افتراض أن الدولة في أفريقيا مهما كانت شدة الأمر الذي يحز بها, فإنها لن تكون غنميه أو فريسة لكل طامح للسلطة ولا لأي طالح فيها، سواء كان هذا أو ذاك أجنبياً دخيلاً أو أهليا خسيساً، فكم من المستعمرين الغاشمين وكم من الدكتاتوريين المستبدين انقلبوا علي أعقابهم صاغرين, وظلت الشعوب وظلت البلاد شامخة تستنهض الهمم والعزائم في إطار تطوري وتحولي للوصول إلى أفضل ما يمكن الوصول إليه من مكانة, وفي مواجهة التحديات التي ما تنفك تتنامي وتتعاظم في هذا العالم المتغير.

إن الدولة الأفريقية وان كانت قد مرت بمراحل مريرة في صراعها من أجل البقاء، فإنها بحاجة ماسة إلى مراجعة ماضيها وتفعيل حاضرها واستقراء

(*) مدرس العلوم السياسية ، بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية ، جامعة القاهرة.

مستقبلها, وفي كل ذلك محاولة للوقوف علي مواطن الضعف والتهديد والسلبية ومحاولة الحد منها واستئصالها، وللتعرف وللاطمئنان علي مكامن القوة والقدرة والإيجابية ومحاولة تنميتها وتعظيمها, ولبث الثقة والمصداقية والفعالية في إمكانية الاعتماد علي الذات عند التعامل مع الفرص المتاحة, والتهديدات الحاضرة، و التحديات المستقبلية المنظورة.

ولعل مراجعة حالة وواقع الدولة في أفريقيا خلال تلك المرحلة الراهنة من مراحل تطورها هو أمر ضروري نظراً لخطورة ولعظم المتغيرات والتحديات التي تواجهها وتقف منها موقف المهدد أو المحفز لها وذلك حسب الظروف والأحوال وحسب مدي التوافق أو التعارض مع القوة أو القوي الفاعلة والمؤثرة في ما يسمي بالنظام الدولي الجديد لمرحلة ما بعد الحرب الباردة والذي لم تتحدد معالمه وأبعاده وأهدافه وخصائصه بعد وما زال الغموض يكتنفه وبدرجة تبعث علي الترقب والقلق من المصير الذي يمكن أن تلقاه الدولة الأفريقية حاضراً ومستقبلاً، ومن ثم ففي مثل تلك الظروف الضبابية تكون الحاجة أكثر إلحاحاً لمزيد من التحفظ والحرص وتوخي الحذر خصوصا وأن التجارب مع تلك القوي لم تبشر بالخير من قبل وانما كانت الشعوب والدول الأفريقية مطالبة دوماً بضرورة احترام وتعظيم مكاسبها ومصالحها ترغيباً أم ترهيباً.

إن واقع الدولة في أفريقيا يشير إلى أنها حاولت جاهدة إحداث قدر من التحولات في إطار مراحل التطور التي مرت بها، ومن خلال سياساتها وممارساتها الرامية إلى ترسيخ سيادتها واستقلاليتها، واتخذت تلك التحولات صوراً متعددة منها: التحولات السياسية والتحولات الاقتصادية والاجتماعية وغيرها، وإن ظلت في هذا الشأن رهينة المحاولة والخطأ, ليس لسنوات فقط وإنما

لعقود من الزمان، وواقع الحال يشير أيضاً إلى مشكلات ونتائج صعبة ومريرة, تتفاوت بين التخلف والصراع والانهيار، وهو الأمر الذي يستدعي ضرورة التريث والوقوف عنده, ومحاولة إجراء قدر من الفحص والمراجعة والتحليل لواقع الدولة في أفريقيا واحتمالاته المستقبلية, من خلال تلك الدراسة المحدودة, وذلك علي النحو التالي:

المبحث الأول: مفاهيم ونظريات الدولة في أفريقيا.

المبحث الثاني: مراحل تطور الدولة في أفريقيا.

المبحث الثالث: عمليات تحول الدولة في أفريقيا.

المبحث الرابع: تقييم الدولة في أفريقيا.

المبحث الأول

مفاهيم ونظريات الدولة في أفريقيا

إن دراسة الدولة في أفريقيا وإن كانت تتطلب قدراً كبيراً من الحرص والخصوصية فانه من الضروري أيضاً محاولة القيام بذلك, و يمكن في هذا الصدد البدء بالتعرف علي المفاهيم والنظريات ذات الصلة بهذا الأمر كمدخل للإحاطة بماهية تلك الدولة والأسس التي تقوم عليها وذلك علي النحو التالي:-

المطلب الأول: مفاهيم الدولة في أفريقيا

هناك العديد من المفاهيم التي أثيرت حول الدولة في أفريقيا, ومن خلال تلك الدراسة سيتم التركيز علي ما يلي:-

أولاً. الدولة في أفريقيا وفقا للمفهوم التقليدي:

يمكن توضيح ذلك كما يلي :

أ. الدولة في أفريقيا وفقا لمفهوم « ماكس فيبر » :

من المفاهيم والتعريفات التي أثيرت حول الدولة, ما أورده " ماكس فيبر" بان الدولة: "هي أداة حكم تحتكر استخدام القوة في إقليم محدد وتسيطر علي شعب محدد...", وهذا المفهوم يركز بدرجة أساسية علي الوسائل لا علي الغايات, وتتمثل تلك الوسائل في القوة ,Force وهو ما يترتب عليه إضفاء طابع القوة وسياسة الأمر الواقع de facto أكثر من الطابع القانوني والشرعي de jure علي ممارسات وكيان الدولة ,Statehood فالدولة لديه: عبارة عن جماعة تعيش علي إقليم ومع وجود سلطة تمارس احتكار القوة علي الإقليم والشعب، وهكذا فان هذا المفهوم الذي يركز علي الوسائل _ احتكار القوة _ ينصرف إلى الجانب الفعلي وليس الشرعي، إلى الجانب الواقعي وليس القانوني، باعتباره معبراً عن وجود الدولة من عدمه، وبعبارة أخرى فلا يمكن القبول بوجود سلطتين تمتلكان احتكار استخدام القوة علي إقليم وشعب واحد، وإذا ما حدث ذلك فلا معنى للحديث عن وجود دولة علي نحو ما ذهب إليه فيبر, وذلك للاعتبارات التالية: (١)

١ - أن الاختبار الحقيقي (الأساسي) لوجود الدولة يمكن أن يتأتى من مدخلين:

الأول : أن تكون هناك حكومة وطنية تستطيع بسط نفوذها علي إقليم الدولة من خلال احتكار القوة.

الثاني: أن تكون هناك بعض التنظيمات (الخارجية أو الداخلية) التي تستطيع تحدى سلطة وقوة الحكومة الوطنية, وان تتمكن من اقتطاع

جزء من إقليم الدولة، أو أن تحتكر ممارسة القوة عليه لصالحها, ومن ثم يكون هناك احتكاران متلازمان للقوة علي إقليم وسكان الدولة في آن واحد، وهو الأمر الذي يمكن أن يفضي علي الأمد البعيد إلى حالة اللادولة,Statelessness والمثال علي ذلك أن قلة من البلدان الأفريقية هي التي يمكن أن ينطبق عليها وصف الدولة، ففي بعض البلدان استطاعت المعارضة أن تحتكر السلطة, علي أجزاء هامة من الإقليم والشعب، علي مدى فترة ممتدة (بيافرا في نيجيريا _ شرق الكونغو الديمقراطية)، وفي البعض الآخر ظلت بعض أقاليم الدولة خارجة عن أية سيطرة سياسية ، وانتشرت حالة الفوضى فيها (تشاد وأوغندا والصومال وليبيريا وسيراليون وغينيا بيساو وأنجولا...الخ).

٢ - أن العديد من الحكومات الأفريقية لا تسيطر بفاعلية علي النشاطات العامة داخل نطاق اختصاصاتها، وبالتبعية فهي لا تستطيع فرض قوانينها علي كامل الشعب وكامل الإقليم, كما أنها ليست دائما تعمل وفقا للقانون، كما يصعب عليها ضبط حركات وتحركات السكان عبر الحدود, إما لضعفها أو نتيجة لتشتت التجمعات السكانية أو نتيجة لكبر مساحة أقاليم بعض هذه الدول أو لانتشار الغابات والصحارى في البعض الآخر، ومن ثم فان كثيراً من دول أفريقيا جنوب الصحراء يصعب نعتها بالدول - في بعض الأحيان - وان كانت جميعها تعد من الدول الأعضاء في المجتمع الدولي للدول.

٣ - إن العنصر الغائب ، عن تعريف " فيبر" إذن هو الاعتراف الخارجي

(الدولي)، فالدولة نشأت لأن المستعمر وهو يرحل عنها اعترف لها - و تبعته في ذلك بقية الأسرة الدولية - باستقلال وسيادة نخبة محددة علي إقليم محدد، وغالباً ما كان هذا الإقليم محدداً علي الخرائط فقط وعلي السكان المقيمين علي هذا الإقليم بالتبعية، واستغرق الأمر سنوات طويلة و في ظل تنامي صراعات دامية، حتى أمكن لهذه الدول والنخب المسيطرة عليها تحديد رعاياها (باستثناء بعضها: كموريتانيا، والسنغال).

إذن فالعنصر الحاكم في مفهوم الدولة الأفريقية هو الاعتراف الخارجي، والذي أدى غيابه في حالة بيافرا / نيجيريا إلى عدم خروجها للوجود كدولة، في حين كانت تتمتع بحكومة تحتكر السيطرة علي إقليم وشعب، وكذلك الحال بالنسبة لجمهورية ارض الصومال (صوما ليلاند) التي توافر لها الإقليم والشعب والسيادة علي كل من الشعب والإقليم وبالرغم من ذلك فقد حال غياب الاعتراف الخارجي دون إقرار وضعها كدولة، في حين أدى توافر مثل هذا الاعتراف الدولي إلى استمرار اعتبار كثير من الحالات كدول علي الرغم من أن سيطرة حكوماتها لم تكن تتجاوز العاصمة (مثال زائير: الكونغو الديمقراطية حالياً في عهد موبوتو سيسيسيكو) وهو الأمر الذي يجعل عملية الانقلاب مضمونة النجاح في الدولة الأفريقية، إذ يكفي وجود عدة جنود مزودين بالأسلحة الخفيفة للسيطرة علي القصر الرئاسي وبعض الأبنية في العاصمة كي تنتقل السيطرة علي الدولة من نظام حاكم إلى نظام حاكم جديد طالما أن الاعتراف الخارجي متاح، ومن أهم الأمثلة علي ذلك: حالة تشاد التي تتدوال الأطراف المتصارعة فيها الاستحواذ علي السلطة في

الدولة بمجرد السيطرة علي " ندجامينا " ودون الحاجة للادعاء بفرض السيطرة علي مجمل إقليم الدولة.

ومما تقدم يلاحظ أن الدولة في أفريقيا هي - في غالب الأمر وليدة التفاعل مع الخارج وليست نتاجاً لتطورات وعلاقات وتفاعلات قوى داخلية، ومن مظاهر ذلك ما يلي: (٢)

(أ) أن دور الدولة في الداخل ليس المشاركة المتفاعلة في ومع مؤسسات الدولة والنظام السياسي وإنما الطابع العام يقترن بالسلبية.

(ب) تضاؤل أهمية وجود أساس حقيقي لشرعية النظام طالما كانت هناك سيطرة فعلية علي المراكز التي يمكن أن تشكل مصدراً للتهديد (المؤسسة العسكرية ـ الجماعات الإثنية)، أو التي تشكل عنصراً لمساندة التهديد (الإذاعة والتليفزيون والقصر الرئاسي وشخص الرئيس ... الخ)، إن المسئولية هنا لا تكون أمام القوي الداخلية و إنما تكون أمام الأطراف الخارجية، وخصوصاً الدولة الاستعمارية السابقة ممثلة في حكومتها وفي نخبتها السياسية، وأمام الدول المانحة، وأمام المؤسسات المالية والنقدية الدولية، وأمام مراكز التأثير علي الرأي العام الغربي، وخصوصاً الصحفيين و مندوبي قنوات التليفزيون الغربية، أما المسئولية أمام القوي الداخلية فإما غير موجودة أو بادية في الظهور نتيجة رد فعل الضغوط الخارجية, وبذلك فان هدفها هو تقديم كشف حساب جديد للخارج.

ب. الدولة في أفريقيا وفقاً لمفهوم « إيان براونلي » :

من خلال تناول مفهوم الدولة وفقاً لتعريف "ماكس فيبر" تبين صعوبة اعتبار العديد من البلدان الأفريقية دولاً من الناحية الفعلية والواقعية، غير أن كل هذه البلدان ظلت تشكل دولاً واستمرت كأعضاء في المجتمع الدولي, استناداً إلى تعريف آخر للدولة يعطى أولوية للنص القانوني علي حساب الوجود الفعلي، وهو تعريف " إيان براونلي " الذي عرف الدولة: " باعتبارها شخص قانوني يعترف به القانون الدولي" استناداً إلى أربعة أركان هي: (٣)

- الإقليم المحدد .
- السكان الدائمون .
- الحكومة الفعالة .
- الاستقلال وحق الدخول في علاقات مع الدول الأخرى .

وواضح من التعريف السابق أن المفهوم القانوني للدولة إنما يرتبط - بدرجة أساسية - بالإقليم المحدد والاستقلال، أو بالأحري الاعتراف طالما أن ركني السكان الدائمون والحكومة الفعالة يصعب توافرهما في معظم الدول الأفريقية, ويمكن توضيح ذلك كالتالي:

١ - **السكان الدائمون :** إن السكان في كثير من البلدان الأفريقية, مقسمة داخلياً فيما بين الكيانات الإثنية المتعددة، والتي - في غالب الأحيان- تكون منفصلة عن بعضها البعض عن طريق الاختلافات في اللغة والدين و الاثنية ومنطقة الإقامة وغيرها ، فضلاً عن أن الانقسامات الاثنية يمكن أن تعزز وضعية كل منهما في مواجهة الأخرى، وهكذا تستفحل الاختلافات، ففي السودان -

علي سبيل المثال _ يلاحظ أن الانقسام الاثنى بين العرب والأفارقة يتم تعزيزه عن طريق الجغرافيا والدين واللغة, ونتيجة للصراعات المريرة من أجل السيطرة علي الدولة, بالإضافة إلى ذلك فان كثيراً من الكيانات الاثنية تم تقسيمها عن طريق الحدود الدولية لتتوزع علي اثنين أو أكثر من الدول، وكيفما يكون هذا الأمر فان الحدود السياسية والاجتماعية بين هذه الكيانات الإثنية ربما تكون أكثر أهمية علي أساس الاتجاهات والسلوكيات العامة لهؤلاء السكان أكثر من الحدود القائمة بين الدول، ونتيجة لهذا فان التوترات و الصراعات السياسية المتزايدة والناجمة عن تلك الانقسامات الاثنية يمكن أن تؤثر بخطورة وبشدة علي الاستقرار السياسي الوطني وعلي مقدرة الحكومات في السيطرة علي أقاليمهم, والأمثلة علي ذلك كثيرة في السودان ورواندا والكنغو الديمقراطية وإثيوبيا وبوروندي وتشاد وأوغندا ونيجيريا وأنجولا وغيرها.

٢ - الحكومة الفعالة: تعنى الحكومة الفعالة عند براونلي وجود سلطة قانونية ذات طابع إداري مركزي وأجهزة تشريعية، ويلاحظ أن جوهر الحكومة الفعالة - بهذا المعنى - ذات طابع أوروبي لا يقتصر علي الجوانب الإدارية فقط وإنما يقترن بالجوانب التشريعية، بينما في أفريقيا المعاصرة فالحكومات لا تحكم بالضرورة عن طريق التشريع فالحكام الأفراد غالباً ما يمارسون سلطاتهم بأسلوب تعسفي واستبدادي من خلال الأوامر والمراسيم والبيانات وغيرها.

ومن ناحية أخرى فان من مؤهلات الحكومة الفعالة أن يكون لها واجبات ووظائف, وان يكون لها أدوات واليات, وان تكون لها الموارد والمقومات، أما أن يكون السائد علي مستوى الدولة في أفريقيا هو إضفاء الطابع الشخصي علي السلطة السياسية (شخصنة السلطة) ، أكثر من إضفاء الطابع المؤسسي عليها

(مأسسة السلطة)، وان تكون جميع الوظائف الدستورية والمؤسسية غير مستقلة عن السلطة الشخصية للحكام بل مدعمة لهم، وان تكون جميع هذه الوظائف مسيطر عليها عن طريق أفراد (نخبة) سواء كانوا مدنيين أو عسكريين - طالما يملكون زمام هذا الأمر- والأمثلة علي ذلك كثيرة سواء في الحكومات التي سيطر عليها أفراد من قبل: مثل هوفيه بوانييه في ساحل العاج، وكامازو باندا في ملاوي، وعمر بونجو في الجابون, واحمد اهيدجو في الكاميرون, وناسبني اياديما في توجو, وعيدي أمين في أوغندا, وكذلك الحكومات التي تسيطر عليها الأقلية (الاوليجاركية) مثل: ليوبولد سيدار سنجور في السنغال, وجومو كينياتا في كينيا, وجعفر نميري في السوادن وغيرهم، فكل ذلك يؤدى إلى تزايد تدخل الجيش في الحياة السياسية, كما يؤدى ذلك إلى تعاظم مشكلة الضعف المؤسسي في الدول الأفريقية، كما أن عدم الفاعلية تكون متأثرة بالخصائص الاقتصادية للدولة والتي تعد من أضعف وأفقر الاقتصاديات علي مستوى العالم.

٣ - الإقليم المحدد : بدون وجود الإقليم المحدد وبدون الاستقلال فانه لا يمكن الاعتراف بوجود دولة ما، غير انه يلاحظ أن الركنين محل الاهتمام لدى براونلي لم يتولدا داخل القارة الأفريقية أو بفعل شعوبها, ذلك أن حدود أقاليم الدول الأفريقية قد رسمتها القوى الاستعمارية باتفاقيات فيما بينها دون أخذ رأي الشعوب الأفريقية من جهة، و دونما مراعاة للظروف الطبيعية أو الاجتماعية من جهة ثانية، وهي بذلك حددت قسراً حدود الجماعة السياسية (الشعب) بصورة لا تسمح بالحديث عن هوية ثقافية وطنية من جهة ثالثة.

٤ - الاستقلال : يلاحظ أن الدول الأوروبية بتكويناتها المعاصرة إنما كانت نتاج لتطور تاريخي وتفاعلات سياسية اعتملت أساساً داخل القارة الأوروبية ولم

تكن في حاجة إلى الاعتراف الدولي بها، واعتبرته من الأركان المكملة وغير الأصيلة للدولة، أما بالنسبة لدول القارة الأفريقية فإن ركن الاعتراف الدولي ـ الاستعماري / الأوروبي ـ هو الذي جعل بالإمكان إقرار وجود الدولة الأفريقية، حيث صار الاعتراف باستقلال هذه الدول بحدودها الاستعمارية (الموروثة عن الاستعمار) يكاد يكون الركن الأصيل ـ إن لم يكن الوحيد ـ من أركان الدولة الأفريقية في مقابل تواري بقية الأركان، وترتيباً علي ذلك فان عدم اعتراف الغرب باستقلال البانتوستانات في جنوب أفريقيا العنصرية حال دون قيامها كدول، وكذلك الحال في عدم الاعتراف بجمهورية ارض الصومال .

ورغم القناعة بمحدودية التعريف القانوني للدولة، إلا انه ليس بالإمكان تجاهل وجود دول استمرت رغم اختفاء كافة المقومات الفعلية والواقعية لها، ودول أخرى لم تظهر إلى الوجود الدولي (جمهورية شمال الصومال) رغم توافر تلك المقومات الفعلية والواقعية لها، ويلاحظ أن النظام الدولي الذي أعقب الحرب العالمية الثانية قد آثر قيام الدولة القانونية علي الدولة الفعلية وحصنها بمبادئ السيادة الإقليمية وعدم التدخل حتى لو تعارض ذلك مع مبادئ حقوق الإنسان وحق تقرير المصير خدمة لمصالح القوى الكبرى، وهو الأمر الذي أسفر عن زيادة أزمة الاندماج الوطني تعقيداً في معظم الدول الأفريقية، خصوصاً مع رفض العديد من الجماعات داخل هذه الدول الإطار غير الحقيقي الذي أفضى إلى القهر وأبقى علي الفساد والمحسوبية وكرس التخلف والتمييز.

ثانياً ـ الدولة في أفريقيا وفقاً للمفاهيم المعاصرة:

علي الرغم من أن معظم المهتمين بأفريقيا وظفوا مفهوم الدولة بحرية إلا أنهم اختلفوا بدرجة كبيرة في تفسيرهم لمغزاه وخصائصه الأساسية، وعلي الرغم

من حقيقة أن هياكل الدولة وأجهزتها لها جذور عميقة في المجتمع الأفريقي في فترة ما قبل الاستعمار, وفي الحقبة الاستعمارية فان مؤسسات الدولة المركزية خضعت للصراع أثناء إنهاء الاستعمار، لقد كان هناك اهتمام محدود من جانب المراقبين أثناء السنوات الأولى لاستقلال الدولة الأفريقية ولأجهزتها، وبالفعل امتد هذا الإهمال لمعظم سنوات الستينيات حيث كانت الدولة في تلك الفترة ميداناً للسيادة وللإقليمية وربما لبناء الأمة، ولكنها كانت لا ترى كرابطة تربط المؤسسات بعضها ببعض، فأجهزة الدولة والأحزاب والأيديولوجيات وحتى الخدمة المدنية تعمل بانفصال عن بعضها، والجهود المبذولة لإدراك الدولة كفاعل في المجال العام محدودة، وربما زاد الاهتمام بالدولة علي الأقل جزئياً ـ من جانب هؤلاء الذين نظروا إليها كوكيل في الميدان العالمي، وفي هذه المرحلة فالدولة من المنظور المفاهيمي أعيد تقييمها كأداة للاستغلال الرأسمالي، كما أن الروابط الوثيقة بين تكوين الطبقة الرأسمالية المتعلقة بالدولة في أفريقيا جعلت هناك تنوعاً للتعريفات الاجتماعية للدولة الأفريقية, وذلك لان الدولة كانت مدركة كمرادف للطبقة الحاكمة، وقاد الماركسيون الجدد الجهود المبذولة في نهاية السبعينيات لفصل الدولة عن الطبقة الحاكمة والتركيز علي صعوبة الصلة بين الدولة والمجموعات المسيطرة حيث أن مؤسسات الدولة _ وفقاً لتصوراتهم - ربما تعكس وتفرز القوى و الصراعات الاجتماعية في نفس الوقت، والبعض الآخر من المهتمين بالدولة في أفريقيا بدءوا في الحديث عن المصالح المتجددة في الهياكل العامة وأصحابها ومكانتهم ووظائفهم وقدراتهم.

وفي الوقت الراهن فان هناك قدراً من الاتفاق حول تعريف الدولة كتجمع منظم للمؤسسات الدائمة للحكومة، والدولة تبعاً لذلك ينظر إليها كرابطة

للمؤسسات والهيئات التي تدعى السيطرة علي أقاليم محددة وسكانها ومؤسسات تنفيذ القرارات فيها (البيروقراطيات، قوى الأمن ...) وكذلك الأجهزة الوسيطة للقرار (المحاكم القضائية ولجان تقصى الحقائق ...)، ويكون لكل دولة خصوصيتها وطريقتها المحددة لتنظيم هذه المؤسسات وإداراتها بالأسلوب الملائم وفي الوقت المناسب، وفي أوائل الثمانينيات كان هناك اتفاق فيما بين المحللين بالنظر إلى الدولة في أفريقيا كأداة لإضفاء الطابع المؤسسي علي السلطة المركزية، ولم يكن هناك إجماع علي معنى النمو المتعاظم لأجهزة الدولة، وفي الحقيقة فان دولة ما بعد الاستعمار في أفريقيا يمكن تفهمها في ظل وجود المتناقضات المتنوعة: كالضعف والقوة، والخضوع والفاعلية، والهشاشة والتماسك، والتبعية والاستقلالية، والانهيار والثبات والتقوقع والتوسع، وخلال تلك الفترة فقد ظهرت ثلاثة اقترا بات رئيسية لفهم الدولة في أفريقيا: (٤)

الأول: وهو يركز علي اصل وجوهر الدولة Organic, وتبعاً لذلك تكون الدولة فاعل حيوي في الميدان العام الذي يتأثر مباشرة بالعمليات الاجتماعية والاقتصادية ويؤثر في النتائج (المخرجات), ويرتبط بهذا المفهوم أن تكون الدولة وعاء للسيادة وان تكون الدولة فاعلاً موحداً ومستقلاً عن المجتمع وان تكون للدولة وظائف هامة وفعلية وأساس هذا التصور افتراض يقوم استناداً علي مركزية الدولة في فترة الاستقلال.

الثاني: وهو يركز علي الشكل العام للدولة بمعنى أن أدوات الدولة تقدم إطار عمل رئيسي وفي شكل مجموعات اجتماعية تبعاً لأنماطها

الحقيقية للعمل السياسي الذي جعل هناك إمكانية محددة لأن تؤثر النظم ومؤسسات الدولة علي القضايا السياسية المثارة وطريقة التعامل معها، وتأثير الدولة المباشر تبعاً لذلك يترتب عليه أن تكون الأنشطة السياسية لها بمثابة رجع الصدى لاختيارات وبدائل مقدمة عن طريق الإطار المؤسسي لأي دولة معطاة، ومن هذا المنطلق يختلف الاقتراب الشكلي عن الاقتراب الجوهري للدولة ليس في تأكيد أسلوب السيطرة علي الدولة, ولكن في أسلوب النظر إلى تأثير الدولة، فوفقاً للاقتراب الأول (الجوهري) تكون الدولة محصلة مؤهلات شبه إنسانية، ووفقاً للاقتراب الثاني (الشكلي) فهياكل الدولة تتحدد وفقاً لمعدلات أساسية للعمل الاجتماعي.

الثالث: وهو يركز علي التواصلية / التفاعلية, وهو يقوم علي أساس التواصل والتفاعل المستنير للأجيال, بمعنى انه يؤكد علي وجود اهتمام شديد بالهياكل الاجتماعية للدولة وخصوصاً في صورها المعقدة مثل تلك الموجودة في الدولة الأفريقية، وفي ظل وجود مثل تلك المجموعات النوعية المتطورة فان وجود الحكام والاستراتيجيات ربما يكون مقترناً بالتنافس أو حتى الصراع داخل الدولة، ومن أجل فهم تلك الخصوصية فمن الضروري النظر إلى الطريقة التي تتم بها المعاملات بين المجموعات الاجتماعية ومؤسسات الدولة أثناء ممارستها لمهامها، وفي المقابل فان الطبيعة المتغيرة للمؤسسات العامة وبالمثل للتكوينات الاجتماعية وأسلوب وتوسع المؤسسات

العامة فعلياً أوجد مصالح للمجتمع, وبالتالي فقد أصبح هناك مجالاً حيوياً يمكن أن يوضح إمكانية وجود انفراج شديد للحياة السياسية في الدول الأفريقية.

ويلاحظ أن الاقترابات الثلاثة لدراسة الدولة في أفريقيا تعكس المقدمة التطورية المنطقية والتوجهات والاهتمامات والنواحي التنظيمية و الأدوار والممارسات المرتبطة بها بغض النظر عن مدى واقعيتها, ومن ثم يكون التفاعل السياسي سواء وفقاً للاقتراب الجوهري أو الشكلي للدولة ضرورياً ويتوجب أخذه في الاعتبار عند التعامل مع مؤسسات وهياكل الدولة لكونهم بمثابة الفاعلين المباشرين و المؤثرين علي حقيقة وواقع السلوكيات والممارسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها، ويبدو واضحاً في هذا الصدد مدي وضرورة الاهتمام بالاستجابات وردود الأفعال الاجتماعية لما لها من تأثيرات علي قدرات الدولة, وروابطها التي تربط بين المؤسسات في ممارستها لوظائفها في المجال العام ومدي أوجه فعاليتها المختلفة.

إذن فبحلول الثمانينيات كان واضحاً أن الدولة المركزية في ظل حرصها علي توسيع وتعظيم سلطاتها وعلي حساب دورها الإيجابي حيال المجتمع أصبحت أكثر معاناةً وضعفاً، وفي بعض الحالات كانت اقرب ما تكون إلى الانهيار، ودفعها هذا إلى البحث باستمرار عن كيفية فرض ذاتها علي معظم قطاعات الحياة الاجتماعية وبدرجة ملحوظة حتى الوقت الراهن، في حين ظلت مناطق عديدة داخل كثير من الدول الأفريقية خارج نطاق سيطرتها كما هو الحال في: أنجولا وموزمبيق والسودان وإثيوبيا وأوغندا وتشاد، وفي التسعينيات نجد نماذج

أخرى: كالصومال وليبيريا, فالدولة في ظل مثل تلك الأوضاع تعانى من التفسخ *ووصلت إلى مرحلة الانغلاق علي الذات,* ومن ثم فان *التفاعلات الروتينية* للمجتمع _ الدولة هي الأخرى باتت ضعيفة في كثير من تلك الدول, وقد دأبت الكثير من أنظمتها الحاكمة في التركيز علي ما يلي: (٥)

١ - توسع الدولة في السيطرة علي تفاعلات الدولة _ المجتمع.

٢ - توسع الدولة في جهودها للاندماج (التوحد) المجتمعي داخل النطاق العام لها.

درجة سيطرة الدولة		درجة اندماج الدولة		
		عالية	متوسطة	منخفضة
درجة السيطرة	جزئية	ديمقراطية الأغلبية	ديمقراطية اتفاقية (تعاهدية)	متفسخة (غير مندمجة)
	كلية	شعبوية الدولة	اتحادية الدولة	قمعية

تعاون فاعل خارجي
(دولى)

مما سبق يتضح وجود عاملين أساسيين مستقلين يتم بينهما التفاعل وهما سيطرة الدولة ومدى اندماج المجتمع, ويترتب علي عملية التفاعل تلك ستة بدائل لأنظمة حكم متنوعة:

(أ) أربعة منها تعد أنموذجاً للأنظمة المرنة وهي ديمقراطية الأغلبية والشعبوية والديمقراطية التعاهدية والاتحادية.

(ب) أما النمطان الآخران فهما أنموذجان لفساد الدولة / المجتمع حيث تستشري حالات التفسخ والقمع، فعندما تفشل أنظمة الحكم في السيطرة السياسية والاجتماعية فان التعاون من جانب الفاعل الخارجي ربما يأخذ مكانه طالما أن هناك انهيار في قواعد التفاعل الداخلي ويأتي الفاعل الدولي في محاولة لدفع التنمية للأمام في إطار روتين جديد ووفقا لتوجهاته ولسياساته ولمنظومة مصالحه.

إن من الأهمية مراعاة أن الدولة لم تكن أبداً مجرد منظمة أمنية, أو أداة لهيمنة طبقة واحدة علي الطبقات الأخرى، وإنما كما يشير" بيتر انيانج نيونجو" أن الدولة هي: " مجموعة من علاقات القوى التي تنشأ تاريخياً لقيادة عملية إعادة إنتاج العلاقات الاجتماعية وتحقيق تناسقها في المجتمع"، وهي تبعاً لذلك: " نظام يقوم بتنظيم عملية تعايش القوى الاجتماعية داخل المجتمع في ظل إطار خاص للهيمنة الطبقية وللتحرك من أجل توفير أسلوب عمل ملائم لتحقيق تغيير منظم في المجتمع " ، ولهذا فإن أجهزتها ومؤسساتها القانونية والقمعية والبيروقراطية وغيرها , عادة ما تكون من اليسير تحديد دورها ومدى تكيفها مع سلطة الدولة ، ويترتب علي ذلك سلسلة متتابعة من التطورات التاريخية والخبرات المتراكمة التي تكتسبها الدولة تدريجياً سواء فيما يتعلق بعملية التنظيم السياسي أو فيما يتعلق بمستوى تقبل سلطة الدولة _ أي مستوى الإجماع السياسي/ الشرعية السياسية _ في المجتمع , وهو الأمر الذي يمكن أن يساهم بطريقة ما في وجود الدولة ، وفي هذا الصدد يركز نيونجو علي العناصر التالية : (٦)

١- أنه من الأفضل الحديث عن وضعية الدولة "Stateness" للإشارة إلى مدى و درجة تحقيق نسق التنظيم السياسي والسلطة العامة للخصائص التي تعد أساسية في مجال إعادة إنتاج العلاقات الاجتماعية في مجتمع يتألف من طبقات اجتماعية، ومع تغير المجتمع من الناحية التاريخية وتزايد تحقق التعددية بصورة ملموسة من خلال عملية تكوين طبقاته، ومع خبرة الناس في مجال المشكلات الاجتماعية التي تتطلب أنماطاً متنوعة من الترتيبات السياسية بهدف حلها، فان طبيعة الهيمنة الاجتماعية تميل هي الأخرى إلى التغيير, ومن ثم يصدق نفس الشيء علي طبيعة الدولة حيث يتسم دور الدولة - كبؤرة للتماسك والتوجيه الاجتماعي - بأهمية خاصة في المجتمعات التي لم يتح لها وقت كاف يسمح بانصهارها في إطار أمم راسخة, حيث يحمل الناس بعض الذكريات التاريخية والجماعية التي يمكن أن تساعد علي تفسير صراعات محددة, أو تبرير الهيمنة السياسية والاجتماعية, وعلي الأرجح فان الدول الناشئة والضعيفة التي تفتقد إلى خبرة إطار عمل قانوني وثقافة سياسية من أجل تنظيم الصراع سوف تصبح شديدة الهشاشة أثناء محاولاتها تسوية أية صراعات محتملة.

٢- انه لا يمكن إدراك طبيعة الدولة في أفريقيا إلا من خلال تحليل تاريخي و سوسيولوجي، فبينما شهدت أفريقيا في المرحلة السابقة علي الكولونيالية وجود الدولة، فان الدولة الحديثة تعد من جوانب عديدة - وكظاهرة سبق استخدامها - ليست استمراراً لمستعمرات الكولونياليين فحسب, وخصوصاً من زاوية المؤسسات والأجهزة المحددة التي استخدمتها النظم الحاكمة لممارسة

السلطة السياسية. ولكن ما تزال أنواع العلاقات الاجتماعية والتي تحتاجها لمواصلة إعادة الإنتاج اليومي للمجتمع تشكل جزءاً من نمط الإنتاج السائد في المجتمع الكولونيالي، وبمعرفة محتواها الطبقي وميراثها التاريخي والإطار العام لعملياتها المالية يلاحظ أن الدولة في أفريقيا الآن تفتقد أو فقدت قدرتها وطاقتها علي مباشرة البرامج الاجتماعية والاقتصادية الضرورية لعملية إعادة الإنتاج المستمرة لنمط الإنتاج الرأسمالي. ومن المؤشرات التي توضح مدى الأزمة الحالية للدولة وعملية إعادة الإنتاج الاجتماعي، هوعدم إمكانية عدد كبير من الدول الأفريقية من الحفاظ حتى علي بيروقراطياتها وإعادة إنتاجها. فعادة ما تمر شهور لا يحصل فيها موظفو الحكومة علي رواتبهم ويعتمد رجال الجيش والبوليس علي أسلوب الابتزاز سواء علي امتداد الطرق العامة أو غيرها للحصول علي مقابل أجورهم الشهرية، هذا علاوة علي تفكك وانحلال الإدارات الحكومية وتعطل شبكات المياه والكهرباء والتليفونات عن العمل. وغيرها من أوجه الفساد وخصوصاً فيما تعانيه الدولة من أزمة مالية عامة.. ، ومن ثم فانه من أجل التوصل إلى حلول طويلة المدى ينبغي أن تواجه الدولة مشكلة الإنتاج ومشكلة توليد فائض اجتماعي كاف - من الداخل - ليس فقط لضمان إعادة الإنتاج الموسعة للرأسمالية ذاتها وإنما أيضاً إنتاج الدولة وبيروقراطيتها بصفة مستمرة.

٣- انه لا يمكن مواجهة مشكلة الإنتاج فعلياً دون معالجة مشكلة المنتجين المباشرين في إطار السياق الذي يعملون بداخله في المجالين السياسي والأيديولوجي وكذلك المجال الاقتصادي، ويبدو واضحاً أن هذا السياق يعزى

إلى النضال من أجل الاستقلال، فلقد كان دور الجماهير الشعبية في العمل السياسي مؤثراً في العهد السياسي أثناء مرحلة النضال، وذلك من خلال استيائها من الاقتصاد السياسي الكولونيالي والعمل الإجباري والتمييز العنصري و إنتاج المحاصيل النقدية إجبارياً مع الحصول في المقابل إما علي أجور ضئيلة أو لا شئ علي الإطلاق، فضلاً عن سرقات الأرض وغيرها، وقد دفعتهم المثل الديمقراطية إلى المطالبة بالسيادة السياسية بمعنى الاستقلال، وشاركهم في هذا الهدف كل من وسائل الأعلام والنقابات و الإتحادات والأحزاب السياسية وغيرها.

ويشير البعض الآخر إلى أن الدولة في أفريقيا ما هي إلا مجرد هيكل تجريبي أجوف، بالإضافة إلى أنها تفتقد إلى الأولويات والأسس التي أشار إليها ماكس فيبر من حيث ضرورة وجود نظام للسلطة قائم علي المعقولية الذرائعية (العملية) Instrumentalist Rationality [٧] ويضيف البعض الآخر أن الدولة في أفريقيا هي مثال للدولة المتفسخة التي لا يوجد فيها شعور عام بالقيم والقانون والنظام وبالتالي يؤدى ذلك إلى انعدام الاستقرار الذي يصعب الحديث مع استشراءه عن وجود دولة سواء بالمعنى الفيبرى حيث يجب أن تمارس السلطة داخل نطاق حدود إقليمية محددة وتحتكر الدولة وسائل القوة داخل هذه الحدود، أو حتى بالمعنى الماركسي الذي لا يرى في الدولة مجرد مجموعة من المؤسسات الرسمية و إنما أيضاً منظومة من العلاقات الاجتماعية. [٨]

المطلب الثاني: نظريات الدولة في أفريقيا

يختلف الحديث عن الدولة في أفريقيا خلال فترة الستينيات والسبعينات والثمانينيات عنه منذ التسعينيات، وربما يكون السبب الرئيسي في ذلك هو الواقع الحي والملموس الذي تعايشه تلك الدولة علي المستويين التنظيمي والوظيفي والذي يكاد يختلف في ممارساته الفعلية مع كل ما هو متعارف عليه

بالنسبة للدول التقليدية، ومن هذا المنطلق فان النظريات التي يمكن أن تتعامل مع الدولة في أفريقيا ينبغي التعامل معها بمزيد من الحرص والتحفظ حتى لا يكون هناك انزلاق إلي منعطف التعميم والقياس غير المتكافئ، وفي هذا الشأن يمكن الإشارة إلى بعض النظريات التي تتعامل مع الدولة في أفريقيا وفقاً للتوضيح التالي: (٩)

أولاً ـ نظرية التحديث :

ظلت اقتصاديات التنمية تفضل مفهوم الدولة وفقاً لنظرياتها الخاصة حول التنمية خلال الستينيات، بينما أعرض السياسيون عن ذلك بسبب النظر إليها باعتبارها كيان غير ناضج، وظلت النظريات الاقتصادية علي قناعة بأن الدولة لها دور حاسم في تحريك الطلب علي كل من السلع والخدمات، ومن ثم الارتقاء بمستوى النمو الاقتصادي، وتلك النظريات لم تري في الخصائص الشاملة للدولة حلا للمشكلة أو آلية تنسيقية، ومن المعطيات في هذا الشأن أن الدولة ذات الطابع الوظيفي الحقيقي يمكن أن تساعد وان تعمل من أجل الأفضل، وأن الدول المستقلة حديثاً في أفريقيا تحتاج لأن تكون قوة فاعلة بدرجة أساسية، وينبغي أن يتاح لها الخبرات الفنية من الدول الغنية، وعلي أثر ذلك يمكن تصور أن تلحق الدول الأفريقية بالدول الأخرى وخصوصاً في الغرب، لقد كان قرار التنمية هاماً لهذه الاقتصاديات والذي بموجبه برزت الحاجة للتخطيط الشامل للتنمية من أجل أن يتم التعرف الواضح علي احتياجات تلك الدول من رأس المال والخبرة الفنية من العالم الخارجي، ولذلك فإن خطط التنمية الوطنية أصبحت وسائل هامة لإدارة الاقتصاد الكبير، ويلاحظ من الناحية الإجرائية أن الدولة في أفريقيا ظلت كياناً مدعوماً وبدون اقتصاد حقيقي ومسئول عن دورها كقاطرة للتنمية، كما كان

واضحاً أن تكوين راس المال لم يكن وافياً بغرض مقابلة احتياجات التنمية الوطنية المعجلة.

لقد كانت التنمية الاقتصادية واجهة رفعت في مواجهة الذين دأبوا علي تحليل أفريقيا سياسياً وكانت اهتماماتهم في هذا الشأن تختلف عن الاقتصاديين، وهذا الخلاف لم يكن أيديولوجياً خصوصاً فيما يتعلق بنظرة الاقتصاديين للدور الإيجابي للدولة، وانما يرجع إلى الإحجام عن الاستخدام لمفهوم الدولة الذي يتعلق بضرورة الاهتمام والإدراك للتنمية السياسية لهذه المجتمعات استناداً إلى التجارب الديمقراطية الغربية، وكان إطار العمل المفاهيمي للتنمية من منظورهم يتركز علي النظام السياسي، وتبلورت فكرتهم حول الوظائف السياسية من إمكانية تحقيقها في كل مجتمع بغض النظر عن مستوى التنمية ذاته، والاختلاف هنا يقوم علي أساس هيكلي باعتبار أن الهياكل المجتمعية تتيح الفرصة الأكبر أمام استقدام الديمقراطية والتكفل بها، وعلي هذا الأساس فالتنمية الاقتصادية تقترن بالتنمية السياسية، ومن ثم فإن الوظائف الشاملة تتحقق من خلال المشاركة الفعلية، وان كل من المجتمع والدولة يتأثران بالقرارات السياسية من خلال الاتصال السياسي والتنشئة السياسية والتعبير عن المصالح وتجميع المصالح وصنع وتنفيذ القاعدة والتقاضي بموجبها، وتركيزهم في هذا الخصوص أيضاً علي أن الدولة ليست فاعلاً سياسياً فقط، وان هناك حاجة إلى مداخل تمكن من الذهاب إلى ابعد من مجرد الوصف المؤسسي لأعمال الدولة، ومن ذلك دور البيروقراطية في التنمية السياسية، و إعطاء أهمية لعملية بناء الأمة وغيرها من الوظائف والعمليات.

ثانياً ـ النظرية الماركسية الجديدة:

في التحليل الماركسي فان للدولة دائماً مفهوماً رئيسياً يتركز في قيامها بدور هام ومؤثر في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية..الخ، وقد نشط الماركسيون الجدد في نهاية الستينيات وبداية السبعينيات في التنظير للدول النامية، وكانت هناك ثلاثة افتراضات بارزة في أدبياتهم: (١٠)

الأول : ويدور حول التصور الأرثوذكسي عن الدولة كوسيلة للسيطرة، وان الدولة ليست ميداناً ولا وسيطاً منصفاً للمصالح المتصارعة كما هو مفترض في المثال الليبرالي ووفقا لنظرية التحديث، وعلي الرغم من الانتقاد الموجه لهذا الافتراض المتعلق بمفهوم الدولة، والذي يتمثل في الكيفية التي تتم بموجبها مثل هذه السيطرة، فقد كان هناك البعض الذي يري أن الدولة تقوم علي أساس السيطرة ـ وخصوصاً في أفريقيا ـ وتمارس وظائفها ليس بطريقة مستقلة من خلال الطبقة المستأنسة ذات الصلة بالرأسمالية، ولكن عن طريق موظفي الشركات الأجنبية Compradors ، أو البرجوازية البيروقراطية التي استخدمت سيطرتها علي الدولة لتغتنم الفرصة وتثري علي حساب إيرادات الأموال العامة.

الثاني : أن الدولة الأفريقية لم يكن مسيطراً عليها من جانب قوة داخلية أساساً، وانما عن طريق وكلاء للرأسمالية الدولية الذين تعاظم نفوذهم منذ الستينيات عبر حدود دول العالم الصناعي وداخل الدول النامية ومنها الدول الأفريقية، بمعنى أن سياسات تلك الدول كانت مفروضة من جانب القوى الرأسمالية الوطنية، وان تلك الدول أيضاً تأثرت بعلاقاتها العالمية

الشـاملة، وبسـبب إقـامـة نظـام اقـتـصـادي عـالمي، وان هذه الـدول ليس بإمكانهـا التـخلص من سيطرة النظام الرأسمـالي إذا هم أرادوا تعظيم مكانتهم في العالم وتطوير دولة ما عن طريق زيادة فعاليتها في استغلال وتوظيف المصادر الداخليـة إلا من خلال الاعـتـماد علي الذات في الإطار الوطني كشرط لازم من أجل التنمية التي غالبا ما يكون تحقيقها نابعاً من الداخل أكثر من الخارج، وطالما أن النظام الاقتصادي الرأسمـالي يحوز منطقاً خاصاً به، وأن الطريقة المناسبة تتمثل في العودة إلى الاشتراكية كمدخل مستقل لتلك الدول بعيداً عن سياق النظام الاقتصادي العالمي.

الثـالث: ويتمـثـل في تركـيـز الاهتـمـام علي محدودية دور المؤسسـات المتـعـددة الجنسية، بمعنى محاولة إظهار دور راس المال الأجنبي كوسيط للمؤسسات الدولية الذي وإن كان قد قام بدور ما في سياق التنمية الوطنية - لبعض الدول الأفـريقـيـة ـ إلا أن ذلك إنما كـان يحدث في ظل أولوية و مـراعـاة مصلحة هؤلاء الفاعلين.

ثالثاً. نظرية ما بعد التحديث (ما بعد الهيكلية) :

يتركز مـفـهوم هذه النظرية علي اعتـبار أن الدولة ما هي إلا مؤسسة شاملة يمكن التـعـامل معـها من خلال ثقافـات مـختـلفة، وهو مـا يعنى ضرورة الاهتـمـام بالجانب النظري ـ أو ما يعرف بنظرية المعرفة - أكثر من الجانب التطبيقي، ومـؤيدو تلك النظرية يرون أنهـا أكـثـر توضـيـحـاً للعـديد من الاعـتـبـارات الأنثروبولوجية والتـاريخية واللغـوية وغيـرها من الاعتبارات ذات الصلة بالدولة، ومن ثم فان نظرية ما بعد التحديث يقصد بها أساساً مشروعية الإدراك لتأثيرات

النماذج السائدة في المجالات الاجتماعية والإنسانية، وان كانت لتلك النظرية تأثيرات مدركة أيضاً علي الكثيرين نظراً لما يمكن أن تحدثه من تغييرات في معتقداتهم.

رابعاً. النظرية المؤسسية الجديدة:

إن المؤيدين لهذه النظرية يرون أنها ذات طابع تطبيقي شامل، وأنها ذات طابع علمي أكثر من أي نظرية أخرى، بالإضافة لكونها وسيلة لاستشراف المستقبل، وأنها تنبعث من سيكولوجية المنظمات، وتتمحور أساساً حول افتراض أن التاريخ ليس مؤثرا كما يعتقد الاقتصاديون، وان هناك الكثير من التأثيرات الناتجة عن العمل الجماعي (المجتمعي) والعمل العام، بمعنى أن الاهتمام في ظل هذه النظرية ينصرف إلى التفاعل بين الخيارات الجماعية)المجتمعية) من جانب، والمؤسسات العامة من جانب آخر، وان التركيز في هذا الشأن يكون علي ما يحدث في الحاضر، أما المدخلات الماضية فهي تكون فقط مؤشراً لكيفية تأثيرها علي الخيارات التي يمكن إن يجب أن تتم أو تصنع.

خامساً. النظرية الديمقراطية:

وهذه النظرية أكثر ارتباطاً بالهيكل المؤسسي (البناء) في ظل الإدراك الأرثوذكسي، ونموذج النظرية يمكن الحكم عليه ليس من خلال الإطروحات الفلسفية التي تثار حول الديمقراطية، ولكن من خلال الدراسات التي تعمل علي إظهار العلاقات التجريبية التي تشير إلى أن الديمقراطية السياسية في علاقة تبادلية وإيجابية مع وجود أنواع حقيقية من الهياكل والمؤسسات الاجتماعية والديمقراطية فهي تعد من خلال هذا المنظور متغيراً مستقلاً، وقدمت تلك النظرية

افتراضات أخرى ومنها أن الديمقراطية ليس بالإمكان توقعها في الدول النامية الفقيرة كالدول الأفريقية، وان كانت الانتقادات التي وجهت إليها أكدت علي أن محاولة إضفاء الطابع الديمقراطي- وفقاً لها - يتطلب العديد من الإجراءات الطويلة والمضنية، كما أنها تتسبب في إثارة الكثير من المتاعب الكامنة تحت ستار من الاستقرار، كما أنها تمثل نوعاً ما من الرجعية، وبالتالي فهي ليست حركة تقدمية، وان هناك شك كبير في إمكانية أن تكون مثل تلك الدول ديمقراطية في ظل أية ظروف اجتماعية واقتصادية تمر بها.

سادساً. نظرية نظام الحكم:(١١)

إن أحد الاهتمامات المتعلقة بنظرية تحليل نظم الحكم يشير إلى أنها ركزت علي عملية التحول Transformation بالإضافة إلى تركيزها علي مفهوم الحكم Governance ، بمعنى كيفية إدارة العديد من الإجراءات والعمليات، وأيضاً التركيز علي المساعدات لإدراك كيفية أن أنظمة الحكم يمكن أن تتأثر بطريقتها في الاستفادة من المصادر و المدخلات، كذلك فان مجال تركيزها يتمثل - بصفة عامة - في الاهتمام بالقواعد والقيم الوسيطة في ممارسة العمل السياسي والاجتماعي.

إن نظريات التحول (الانتقال) لنظم الحكم أتت أساساً من الدراسات المتعلقة بكل من جنوب أوروبا وأمريكا اللاتينية في نهاية السبعينيات واوائل الثمانينيات، عندما تبنت هذه المناطق نوعاً ما من الديمقراطية التي يمكن من خلالها التعرف علي الدروس المستفادة من هذه التحولات وعوامل تحقيقها كمحددات للتحول الناجح للديمقراطية، وان الاختلاف يمكن أن يكون في كل من الأسلوب والتوجه، وان وجود مثل تلك التحولات النظرية يمكن أن يتيح الفرصة

لتفهم مثل تلك التحولات و إعطاء تصورات عن احتمالات الديمقراطية أكثر من أي شئ آخر.

لقد حازت نظرية نظم الحكم اهتماماً عاماً في الوقت الحالي انطلاقاً من افتراض مؤداه أن المعايير والقواعد المتعلقة بأنظمة الحكم المحددة يمكن أن تتغير وأنها تمارس لخدمة أغراض سياسية واضحة وأنها ارتبطت بإمكانية أن يكون هناك نوع من التفاؤل حول فرص التطوير و التحسين للظروف الإنسانية عن طريق التغييرات المتحققة في هياكل نظم الحكم القائمة.

سابعاً. نظرية التعددية الثقافية:

وتلك النظرية تميل إلى كثير من التحفظ في إبدائها للمقترحات من أجل العمل، كما أن تلك النظرية تميل إلى افتراض أن الهياكل الاجتماعية الموضوعة للتعددية الثقافية تكون صعبة الإصلاح، وذلك لان المآسي قد احتلت مكاناً بارزاً في كثير من المجتمعات المنقسمة وفقاً للخطوط الثقافية (١٢) و كانت هناك بعض الأسباب المعنوية التي تشير إلى صعوبة الامتناع التام عن الاستدلال بمثل تلك التوجهات، وقد تزايدت أهمية تلك النظرية بعد انهيار الاتحاد السوفيتي (سابقا) والتكوين لدول جديدة في كل من أوروبا الشرقية ووسط آسيا، كما أن الاهتمام بهذه القضايا امتد في ظل الأحداث المفجعة في أجزاء عديدة من أفريقيا حيث يقود العنف والصراع الاثنى إلى سفك الدماء علي نطاق واسع كما هو الحال في كل من رواندا وبوروندي، ومن ثم فتلك النظرية تتعامل مع حالات واقعية لهذا النمط من مشكلات العنف والصراع الاثنى مع التركيز علي دور الهوية الثقافية - سواء فيما يتعلق باللغة أو العنصر أو الاثنية أو الدين _ علي التفاعلات الاجتماعية الوسيطة وعلي عمليات التوزيع المباشر للمصادر في المجتمع.

ومما تقدم يتضح انه علي مستوى المحللين السياسيين التقليديين والمعاصرين فان الدولة في أفريقيا تلقى اهتماماً خاصاً، ويتم التعامل من جانب هؤلاء بقدر كبير من الحرص والتحفظ بشأنها نظراً للعديد من الخصوصيات التي تميزها وترتبط بواقعها سواء فيما يتعلق بنشأتها وتطورها ومقوماتها وممارساتها وتفاعلاتها أو حتى علاقاتها، وهو الأمر الذي ينعكس علي كل من المستوى المفاهيمي و التنظيري، كما يتضح مما سبق أن هذا التوجه لم يستقر بعد علي المفاهيم والنظريات المحددة التي يمكن عن طريقها التفسير والتحليل الموضوعي لمفهوم ولطبيعة ولواقع الدولة في أفريقيا، ومن ثم يبقى السجال مفتوحاً بين هؤلاء المحللين والمهتمين بالدولة في أفريقيا في محاولة للسعي نحو إجراء مزيد من التفسيرات والتحليلات ونحو إعطاء مزيد من التصورات المناسبة عن الدولة في أفريقيا تكون أكثر شمولاً ويسراً وكذلك أكثر جدارة ومصداقية في التعامل مع واقعها.

المبحث الثاني

مراحل تطور الدولة في أفريقيا

مرت الدولة في أفريقيا بالعديد من المراحل في إطار عملية تطورها، وقد تأثرت الدولة بذلك في كل مرحلة ببعض الخصائص التي أثرت فيها وتأثرت بها، ويمكن الإشارة إلى تلك المراحل علي النحو التالي:-

المطلب الأول: الدولة الأفريقية في مرحلة ما قبل الاستعمار

لم تكن أفريقيا قبل التكالب الاستعماري عليها _ في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بموجب اتفاق برلين ١٨٨٤ - ١٨٨٥ الذي جعل تلك القارة

فريسة وغنيمة اقتسمتها فيما بينها الدول الأوروبية الاستعمارية ظلما وعدوانا _ مجرد غابات وأدغال ومجاهل، أو كما كان يحلو للأوروبيين تسميتها بالقارة السوداء.(١٣) والتي تعيش حالة من التخلف المزمن تستدعى إنعاشا حضاريا وإنسانيا متمدينا من جانب هؤلاء الأوروبيون، وانما الواقع والحقيقة يشيران إلى أن تلك القارة ظلت دوما زاهرة وذاخرة وواعدة بالحضارات والممالك ظلت كذلك لقرون طويلة و سبقت في رقيها وازدهارها، أوروبا وغيرها.

إذن فأفريقيا لم تكن علي هذا القدر من التأخر و التخلف الحضاري والإنساني ـ الذي روج إليه الأوروبيين، و إنما كانت تنعم بحضارة وتعيش في رقى واستقرار، وتشهد بذلك العديد من الحضارات والممالك الأفريقية القديمة مثل الحضارة المصرية ـ التي ظلت منذ مرحلة ما قبل الميلاد وحتى الوقت الراهن تدل علي أنها كانت حاضرة العالم، وبالمقارنة فان الحضارة الاوروبية أو الغربية كانت حينذاك في رحم الغيب ومن ثم فهي نتاج قريب العهد، كما انه عندما اكتشف الأوروبيون كل من استراليا والأمريكتين لم يكن حال السكان الأصليين يشير إلى وجود مظاهر حضارية، ففي استراليا كان سكانها يعيشون علي حرفتي الجمع والالتقاط وصيد الحيوانات مستعملة في صيدهم أدوات حجريه كتلك التي كانت مستعملة في العصر الحجري، في الوقت الذي كان الأفريقيون قد هجروها منذ أزمان بعيدة تترواح بين ثلاثة آلاف وستة آلاف سنة، كذلك بالنسبة للأمريكتين فقد ظل الهنود الحمر حتى القرن الثالث عشر يستعملون أدوات العصر الحجري الحديث _ الأدوات الحجرية المصقولة _ في الوقت الذي كان الأفريقيون يستغلون الأرض في الزراعة معتمدين علي أدوات جديدة، فضلا علي ما كان ينعم فيه الثلث الشمالي للقارة من حضارة إسلامية فيما بعد، أما بقية القارة الأفريقية

فكان أهلها يخضعون إما لنظام القبائل أو لنظام الولايات والممالك بلغت من القوة والتنظيم والإدراك حدا تستطيع معه طرد الغزاة والمعتدين الطامعين فيها من وراء البحار حتى القرن التاسع عشر، ولعل هذا ما يفسر تأخر تكالب المستعمرين الاوروبيين وتغلغلهم في القارة، كما أن هذا التقدم والرقى الذي بلغه الأفريقيون هو الذي مكنهم من اكتشاف مواردهم وثرواتهم والاتجار فيها، وهو أيضاً الذي دفعهم إلى مقاومة حضارة الأوروبيين لعقود طويلة من الزمان.(١٤)

وإذا كانت زراعة المحاصيل و إنتاج الطعام - كأحد مظاهر الحضارة القديمة - لم تظهر في أفريقيا طفرة واحدة إلا في مصر وذلك منذ تسعة آلاف سنة عندما زرع الفراعنة المصريون المحاصيل الزراعية وقاموا برعي الأغنام والماعز والمواشي، ومن مصر انتشرت الزراعة و الرعي إلى بقية أفريقيا، كما عرفت مصر القرى المحصنة التي اخذ السكان في تحصينها ضد الغارات، كما عرفت الصناعات مثل صناعة المراكب الكبيرة وعمليات الاستخراج للمعادن والتجارة، وتلك المظاهر الحضارية سواء انتقلت من مصر إلى أفريقيا، أو أنها تطورت داخل مناطق متعددة داخل القارة الأفريقية إنما تدل علي السبق الحضاري الأفريقي، كما انه في مجال السياسة يلاحظ أن نظام الحكم في مصر قد وصل إلى مراحل متقدمة من التطور حيث اتحدت الأقاليم أثناء حكم الأسرة الأولى، ثم توالي بعد ذلك حكم الأسرات الذي اتسم في كثير من مراحله بالقوة والتنظيم الجيد وحسن الإدارة، كذلك فقد كانت هناك العديد من الممالك داخل القارة الأفريقية مثل: مملكة مروي في منطقة جنوب كوش (منطقة أسوان)، ومملكة أكسوم في شمال الحبشة في فترتي ما قبل وما بعد الميلاد، كذلك عرفت الحضارة السودانية في المنطقة الممتدة من مصب نهر السنغال غرباً والتي تشمل الأراضي التي تقع جنوب الصحراء

الكبرى والممتدة نحو الشرق حتى النصف الجنوبي لشاطئ البحر الآمر كما تضم أيضاً الأراضي التي تقطنها جماعات البانتو والتي تمتد من منابع النيل حتى منطقة الجنوب الأفريقي، واهم ما ميز هذه الحضارة أن شعوبها الأفريقية المختلفة اتبعت نظماً ودساتير متشابهة وكان علي رأس دول هذه المنطقة ملوك تقدم لهم فروض الطاعة والتقديس، ولم يكن النظام في الحضارة السودانية نظاماً إقطاعياً كما لم يعتمد علي الوراثة أو سلطة العائلات الكبيرة بل كان النظام في عمومه يقترب من البيروقراطية، إذ كانت السلطة في أيدي موظفين لا يباشرون أعمالهم داخل مكاتب لهم و إنما في حضرة الملك عندما يحلو له ذلك، حيث كان يحيط بالملك عدد من ذوى الألقاب بقدر ما تحتمل ميزانية الولايات ويتولى رئاسة الإدارة عدد قليل من كبار الموظفين، ويلي هؤلاء رؤساء الأقاليم والمناطق وهي وظائف يتوارثها الأبناء والأقارب الذين تعلموا في البلاط الملكي، واهم عمل يقومون به هو جباية الضرائب للملك. (١٥)

وأيضاً كان من ابرز نماذج نظم الدولة التي تطورت كأنماط مختلفة للعلاقة بين السلطة المركزية في العاصمة ودوائر الحكم في الإقليم والمناطق التابعة للملك، واللتي شهدتها منطقة غرب أفريقيا هي إمبراطوريات غانا ومالي والولوف والسنغال، وعلي سبيل المثال فان إمبراطورية غانا التي أنشأها شعب السوننكي Soninke ربما خلال القرن الثالث الميلادي في منطقة السافانا الواسعة بين السنغال والنيجر، امتدت لتشمل الشعوب المجاورة، و لتضحي إمبراطورية مترامية الأطراف طورت نوعا من الحكم غير المباشر للمحافظة علي وحدة الإمبراطورية، أما إمبراطورية مالي فقد أنشأها الماندنجو وهي شعوب زنجية كانت تقطن سهل مادنكا الواقع بين السنغال والنيجر، ويعد "منسي كانكان موسى

"المعروف باسم " موسى الأسود" المؤسس لتلك الإمبراطورية التي تأسست في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي تقريباً، وظلت إمبراطورية مالي تخضع لحكم ملوك ينتمون لأسر حاكمة قوية، وقد تمكن هؤلاء الملوك من حكم مختلف أرجاء الإمبراطورية التي أطلق عليها الأقاليم من خلال حكام محليين كانوا ينتمون بدورهم إلى اسر حاكمة ذات نفوذ في مناطقهم الإقليمية، بمعنى أن ملك مالي كان يقوم بتفويض سلطته للحكام في الأقاليم المختلفة الذين يدينون له بالولاء والطاعة وقد حافظت هذه الإمبراطورية علي استقرارها ووحدتها لسنوات طويلة. (١٦)

ويمكن في هذا الصدد الإشارة إلى انه كانت هناك علي مستويات متفاوتة من الكثافة كيانات اجتماعية ترتبط بروابط القربى أو غيرها من الروابط الاجتماعية التي ترتكن علي تقاليد ثقافية أو تستند إلى هيكل إداري - سياسي منظم، وكان علي رأس هذه الأمم طبقات حاكمة تتولى جمع الجزية وترعي عمليات المبادلات التجارية مع الجيران وتحمي طرق التجارة والأسواق و تتولى إعادة توزيع الموارد والفوائض، وقد استخدمت هذه الطبقات الحاكمة أسطورة الأصل المشترك وأيديولوجيات القرابة والتاريخ الشفهي للهجرات والغزوات كأدوات لخلق تقاليد ثقافية مشتركة تخدم عملية تعزيز الهوية الوطنية، وتساعد علي تدعيم الولاء السياسي، ولقد شكل البعد الوطني حقيقة لدي هذه المجتمعات و يؤكد علي ذلك انه بعد أن تم تمزيق هذه المجتمعات نتيجة الغزو الاستعماري فإن محاولات جادة قد تمت لاستعادة هذا الواقع في الفترة التي أعقبت تصفية الاستعمار. (١٧)

و ما يجب التركيز عليه في هذا السياق أن بعض الدول السابقة علي الاستعمار كانت ترتبط بأمة، في حين أن البعض الآخر كان يرتبط بإقليم، ومن

أمثلة الحالة الأولى تلك الدول التي كانت في وسط أفريقيا واصطبغت بالصبغة التجارية أو بعمليات الغزو، واستطاعت أن تنمي هويات وطنية علي مدي قرنين من الزمان في ممالك كونجو Kongo وكوبا Cuba ولوبا Luba ولوندا Londa ومن أمثلة الحالة الثانية والتي افتقرت إلى هويات وطنية، مملكة نزنجا في مانامبا ومملكة امبانجالا في كاسانجي، ومملكة لوندا في كاذيمبي، ومملكة نياموزي بيكي في جارنيجانزي، كذلك فان دول ما قبل الاستعمار ظهرت في بعض مناطق غرب أفريقيا لتكون بمثابة الدولة الديموقراطية الحقيقية والتي هي نمط فريد للدولة التي قامت بدور إنتاجي وتطويري من أجل المجتمع، حيث حركت النمو الاقتصادي والابتكار التكنولوجي، ومعظم ابتكاراتها التقنية مارستها باستقلالية في منطقتها مثل أعمال النسيج والصباغة والأعمال المعدنية، واقترن ذلك بالتوسع في حركة التجارة عبر الصحراء منذ القرن الثامن الميلادي فصاعداً، وهو ما ترتب عليه العديد من النتائج والتأثيرات علي التكوينات الاجتماعية للمنطقة بصفة عامة وعلي طبيعة ووظائف الدولة بصفة خاصة.(١٨)

المطلب الثاني: الدولة الأفريقية في مرحلة الاستعمار

إذا كان ميلاد الاستعمار في أفريقيا قد بدأ رسمياً اعتبارا من مؤتمر برلين ٨٤-١٨٨٥ إلا أن الاستعمار الحقيقي لتلك القارة يمكن إرجاعه إلى بداية التدخلات والممارسات الأوروبية في الشئون الأفريقية منذ القرن الثاني عشر متمثلة في تجارة الرقيق عبر الأطلنطي، ثم بعد ذلك المحاولات الأوروبية لإخضاع جميع المناطق الأفريقية تحت سيطرتها واستعمارها، وهو الأمر الذي ترتب عليه دخول الدولة في أفريقيا مرحلة جديدة من حيث طبيعتها ووظيفتها وتأثيراتها الكارثية.(١٩)

والجدير بالذكر أن الأوروبيين استفتحوا تجارة الرقيق بتصدير المجرمين والمذنبين من سكان مناطق عديدة في القارة الأفريقية، ولكن عندما زاد الطلب علي تلك التجارة فقد بدأ المتاجرون فيها و المتعاونين معهم من ملوك وزعماء محليين في اصطياد وأسر سكان المناطق الداخلية مستعملين في سبيل تحقيق ذلك الأسلحة النارية التي جلبها الأوروبيين وتصديرهم كعبيد، بحيث كان يقدر ما تفقده غينيا علي سبيل المثال كل عام مائة ألف شاب وفتاة خلال القرن الثاني عشر، وقد استشرى هذا الأمر علي مستوى المناطق الأخرى بحلول القرن السابع عشر عندما تعاظم طلب الأوروبيون علي الأيدي العاملة لزراعة المناطق الاستوائية الأمريكية، فكانت المستعمرات الأسبانية تزودهم بالرقيق عبر الأطلنطي وسيطرت تلك التجارة علي كل نشاط الأوروبيين بحيث وصل العدد إلى تسعمائة ألف من الرقيق الأفريقي، واستحوذت أمريكا عام ١٦٠٠ علي حوالي ٢,٧٥ مليون فرد، وفي القرن السابع عشر بلغ العدد سبعة ملايين فرد، و في كل من القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر أربعة ملايين، وقد احتكر هذه التجارة كلا من الهولنديين والفرنسيين والبريطانيين والبرتغاليين فيما يعرف بمثلث الأطلنطي (أوربا _ أفريقيا _ أمريكا) Atlantic Triangular ولعل أكثر ما يمتاز به التطور الذي أصاب الدول الأفريقية في خلال القرن السابع عشر والثامن عشر هو نمو تلك الدول وامتدادها للداخل ، إذ لم تحتمل تلك الدول تجارة الأوروبيين المسعورة في الرقيق وإغاراتهم المستمرة علي المناطق الساحلية لجمع الثروات من وراء تلك التجارة.(٢٠)

وقد ظلت تلك التجارة مزدهرة ورائجة حتى الجزء الأخير من القرن التاسع عشر، ولم تنته فعلا إلا في أوائل القرن العشرين بعد أن تدهورت حالة الشعوب

الأفريقية، وخصوصا عليالمناطق الساحلية كنتيجة مباشرة لهذه التجارة الشائنة والتي تدهورت معها الحضارات التي قامت في تلك المناطق لقرون عديدة.(٢١)

وحتى بعد انتهاء تجارة الرقيق لم تقف المطامع الأوروبية عند هذا الحد المأساوي في تاريخ الإنسانية علي الأرض الأفريقية، وإنما تكيف المستعمرون الأوروبيون مع المستجدات الجديدة وانتقلوا إلى مرحلة أخرى أكثر انتفاعاً واستنزافاً من مجرد تجارة الرقيق، وتتمثل في افتراس القارة الأفريقية بأكملها حيث بدأ الأوروبيون يتسللون إلى مختلف أرجائها، وخلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر تكالب البريطانيون والفرنسيون والهولنديون والبرتغاليون وغيرهم من الأوروبيين من أجل بسط هيمنتهم الاقتصادية والتجارية علي أفريقيا، وثمة مجموعة من العوامل التي أسهمت في التعجيل بعملية "التكالب الاستعماري علي أفريقيا " The Scramble for Africa ومن بينها طموح الملك ليوبولد الثاني ملك بلجيكا ـ آنذاك ـ في بناء إمبراطورية له تشمل منطقة حوض نهر الكونغو، وقيام ألمانيا بضم الكاميرون وشرق أفريقيا وجنوب غرب أفريقيا وتوجولاند، وبناء علي ذلك فقد دعي المستشار الألماني ـ في ذلك الحين ـ بسمارك عام ١٨٨٤ إلى عقد مؤتمر دولي لتخفيف حدة التنافس بين الدول الأوروبية في أفريقيا وانتهي هذا المؤتمر إلى وضع قواعد عامة لتنظيم ولتأسيس مناطق الهيمنة التجارية الاوروبي في أفريقيا.(٢٢)

بالإضافة إلى أن التقسيم الذي تم للقارة لصالح الدول الاستعمارية قد ساعد علي تكريس هذا الاستعمار وإضفاء نوع من المشروعية المصطنعة علي وجوده غير المشروع علي الأقاليم الأفريقية، وبما لا يتفق مع مصالح الشعوب الأفريقية ولامع حقوقها ولامع إرادتها وتطلعاتها، ومع اختلاف النظم والسياسات

الاستعمارية فان ثمة مجموعة من الملامح العامة مثلت قاسماً مشتركاً للحركة الاستعمارية في أفريقيا ومنها:[٢٣]

١ - أن جميع الدول الاستعمارية رفعت شعار " الأبوية السياسية Political Paternalism " أي أنها جاءت إلى أفريقيا من أجل مهمة عالمية حضارية وهي نشر المدنية بين الأفارقة، وحينما تحولت المحميات الأفريقية إلى مستعمرات فان الدول الأوروبية الاستعمارية لم تأخذ هذا الشعار النظري بمحمل الجد وإنما أفصحت عن وجهها الحقيقي و السافر في الاستغلال والاستنزاف المفرط لثروات وخيرات القارة الأفريقية وعلي حساب شعوبها المقهورة والمستضعفة.

٢ - أن الحركة الاستعمارية في أفريقيا واجهت مقاومة عنيفة من الأفارقة خصوصاً بعد انكشاف أغراضها ومطامعها الفعلية والمتمثلة في الاستنزاف المستمر والمنظم لثروات البلاد الأفريقية، والانشغال بالأهداف والمصالح الأوروبية الاستعمارية علي حساب المصالح والأهداف الأفريقية، ومن ثم فان أحد النتائج الهامة لهذا الغزو الاستعماري تمثل في تنامي الروح الوطنية الأفريقية واستمرارها في النضال من أجل الحصول علي الاستقلال.

٣ - أن عملية التكالب علي أفريقيا أفضت إلى خلق ظاهرة الدول الحديثة - وفقا للمنظور الاوروبي - حيث سعت الدول الأوروبية إلى وضع أسس السلطة الاستعمارية فأنشأت الهياكل الإدارية والأبنية الأساسية اللازمة لتحقيق هذا الغرض وأيضاً لخدمة أهداف وسياسات وممارسات الاحتواء والاستيعاب لتلك المستعمرات باعتبارها أقاليم استعمارية وراء البحار، ولم تراع الظروف الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية للمجتمعات الأفريقية،

ومن ثم فإن الدولة الأفريقية المعاصرة في معظم الحالات تعد نتاج استعماري مصطنع، ولا تعبر عن واقع اجتماعي واقتصادي وسياسي وفقاً لمفهوم الدولة القومية، فإقليم الدولة ليس إلا نتاج تحديد تعسفي من جانب القوى الاستعمارية في إطار اختلال منظومة توزان القوى لصالح هؤلاء المستعمرين، وفي إطار التكالب والتقسيم لأفريقيا باتت الشعوب الأفريقية في الحقبة الاستعمارية تموج بالعديد من الجماعات المتمايزة في ثقافاتها ولغاتها ودياناتها، ومن ثم انتفت إرادة التعايش الجماعي التعاوني لتحل محلها رذيلة الصراع والتناحر في سياق تلك الدول المصطنعة، كما أن السيادة التي انتهكتها الدول الاستعمارية واحتكرتها لخدمة مصالحها سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة أكملت إفراغ مضمون الدولة من محتواها، ولذلك فان ظاهرة الدولة الأفريقية التي أنشأها الاستعمار كانت بمثابة تعبير قانوني أكثر من كونها حقيقة واقعية واجتماعية.

إذن فمع الغزو والاحتلال الاستعماري الاوروبي لأفريقيا، فان فرص تطور الهياكل الاجتماعية الأفريقية للتحول إلى أمم قد تقوضت إن لم تكن قد انهارت تماماً مع تدمير هياكل السلطة القائمة فيها ولم تنج من ذلك إلا بعض الدول مثل: مصر وليبيا وتونس والمغرب ورواندا و بوروندي وإثيوبيا وليسوتو وسوازيلاند ومدغشقر، في حين أنه في المستعمرات الأخرى والتي ضمت في إطارها جماعات اثنيه مختلفة كانت كثافة الشعور بالهوية القومية ضعيفة وقد تقدم الزعماء التقليديون هذه الجماعات كممثلين لها أمام الإدارة الاستعمارية، وكانت مهام هؤلاء الزعماء بالأساس استخراجية لخدمة المصالح الاستعمارية كجباية الضرائب وتجنيد العمالة والعمل الإجباري والحفاظ علي الأمن والنظام، وهو ما أسفر عن

كراهية المواطن العادي لهم بشكل دفعه للبحث عن قيادة جديدة له في الكفاح ضد الاستعمار، وقد وجدها في البرجوزاية الصغيرة الأفريقية الجديدة وهي الطبقة التي راحت ترفع لواء القومية الأفريقية، وهكذا فان التأثير الاستعماري علي المسألة القومية كان أمراً معقداً، فمن جهة أسفر الحكم الاستعماري عن تدمير عدد من الأمم السابقة علي الاستعمار أو تمزيقها إلى العديد من الجماعات الاثنية، ومن جهة ثانية فان الاستعمار قد أوجد الجماعات الاثنية والقومية في إطار مؤسسي إقليمي، مما وسع الفضاء الاجتماعي لهذه الجماعات وولد لديها خبرة الإحساس المشترك بالاضطهاد السياسي والقمع والاحتواء الثقافي سواء كانوا عرباً أم أفارقة وهو الأمر الذي دفع إلى التوحد في النضال المشترك ضد ذلك الاستعمار. (٢٤)

وحتى عندما بدأت مرحلة النضال في مواجهة الاستعمار والعنصرية من جانب الأفريقيين من رواد حركة الجامعة الأفريقية في أمريكا الشمالية والكاريبي (مثل سلفستر وليامز، ووليام ديبوا، وماركوس جارفي) فتلك الحركة كانت بمثابة حركة فكرية تعبر عن الرغبة في تأكيد الذات الأفريقية للمنحدرين من أصل أفريقي خارج القارة سعياً لاستعادة الكرامة وإقامة أمة مستقلة عني ارض القارة الأفريقية، ولذلك فان المسألة القومية في أفريقيا باتت أكثر تعقيداً حيث برزت ثلاث هويات يمكن إقامة الدولة الأفريقية تأسيساً عليها وهي: (٢٥)

(أ) الأمة الإثنية: ذات التاريخ المجيد التي أحاطت بها العملية الاستعمارية، أو تلك التي ولدت في غمار تناقضات الوضع الاستعماري ومن أمثلتها: اجبو وكاساي ولوبا، ومن دعاة ذلك الزعيم النيجيري اوبافيمى اولو عام

١٩٤٧ حيث دعا إلى قيام دولة متعددة القوميات تتكون من فيدرالية تضم أمماً إثنية.

(ب) الأمة الإقليمية التي خلفها الاستعمار دون مراعاة للتعددية الإثنية والثقافية.

(جـ) الأمة الأفريقية الجامعة: ومن دعاة ذلك الرئيس الغاني الراحل " كوامي نكروما " الذي دعا لاقامة الولايات المتحدة الأفريقية.

وفي حين لم يفلح إقامة كل من الدولة علي النمط الأول والثالث فقد نشأت الدولة الأفريقية مرتبطة بهوية إقليمية ناجمة عن التقسيم الاستعماري، وغير مرتبطة بهوية اثنية تشكل بؤرة ارتكاز لتماسكها وباتت القضية المحورية في السياسة الأفريقية تتمثل في مشكلة الاندماج الوطني أو بناء الدولة الأمة. (٢٦)

وإذا كان مجيء الاستعمار الاوروبي قد ترتب علية تغييرات عديدة في الهياكل والديناميات للمجتمعات الأفريقية وفي مقدمتها الإنتاج من أجل السوق، والإدارة لدولة حديثة علي جميع مستويات مؤسساتها وسلطاتها المعقدة بالإضافة إلى الحرص علي أن يتولد داخل المجتمع مفاهيم هامة تتعلق بالحفاظ علي الهياكل الأيديولوجية والإدارية النوعية، الا أن كل ذلك قد اقترن بالجور السياسي والاستغلال للشعوب الأفريقية، وقد أدى ذلك أيضاً إلى مقاومة التأسيس لهياكل الدولة علي هذا النحو وهذه المقاومة أدت إلى تعديل سياسة الحكم الاستعماري من أجل إتاحة الفرصة أمامها لاستيعاب العناصر الوطنية وتعبئتها للعمل كوكلاء نشطين للسلطات الاستعمارية وساعدهم في ذلك أن الأفريقيين لم يكونوا ذلك الشعب المتجانس علي طول التاريخ بل كانت هناك

العديد من الجماعات ذات المصالح والتوجهات المختلفة وخصوصا نحو الدول الاستعمارية، ولذلك كان الصراع من أجل الاستقلال صعباً فالأفريقيين لم يبدءوا هذا الصراع في إطار جبهة متحدة ضد هذا الحكم الاستعماري، وكانت الجهود المبذولة لتنظيم الأحزاب السياسية - مع أنها مطلوبة من أجل تعبئة الشعب وتوعية جماعة الناخبين من أجل الاستقلال - كأداة لإعادة تمثيل المصالح المختلفة داخل المجتمع غالبا ما كان يصعب الاتفاق في إطارها وكثيرا ما انشغلت بقضايا أخرى بخلاف السعي للتخلص من الاستعمار. (٢٧)

المطلب الثالث: الدولة الأفريقية في مرحلة ما بعد الاستقلال

بعد صراع مرير ومفاوضات طويلة غالباً ما اقترنت بالتهديدات والفظاظة من جانب القوي الاستعمارية فقد حصلت الدول الأفريقية علي الاستقلال، ومنها عل سبيل المثال: كينيا في الشرق الأفريقي، أما في الجنوب الأفريقي فان كل من: أنجولا وموزمبيق وزيمبابوي لم تحرز استقلالها إلا بعد حروب عصابات ضد القوي الاستعمارية، أما المستعمرات في غرب أفريقيا فقد حصلت علي استقلالها بعد مناورات فرنسية لتخيير تلك المستعمرات بين استمرار ارتباطها بفرنسا أو الاستقلال، وبدأت غينيا برفض هذا الارتباط وأعلنت استقلالها ثم تتابع استقلال باقي الدول فيما بعد. (٢٨) وكان أخرها استقلال إريتريا عن إثيوبيا وإعلان قيام دولتها في أوائل التسعينيات(١٩٩٣)، وفي إطار تناول الدولة الأفريقية فيما بعد الاستعمار يمكن الإشارة إلى ما يلي:

اولاً : إرهاصات دولة ما بعد الاستقلال :

مع بدايات استقلال العديد من الدول الأفريقية، فان الأمل في إقامة الأمة الأفريقية والدولة الأفريقية الجامعة صار مجرد لغو فارغ المضمون، وهو ما اتضح

علي سبيل المثال في اجتماع مؤتمر الشعوب الأفريقية بأكرا عام ١٩٥٨ ذلك أن معظم الوفود كانت تمثل حركات وطنية تسعى لاستقلال أقاليمها المستعمرة و تدعمت الوطنية الإقليمية بصورة مكثفة وأسفرت عملية الاستقلال عن قيام العديد من الوحدات السياسية المعترف بها في أفريقيا والتي يمكن تصنيفها علي النحو التالي:[(٢٩)]

١ - دول تاريخية: مصر وليبيا والمغرب وتونس ورواندا وبوروندي وإثيوبيا وليسوتو وسوازيلاند ومدغشقر.

٢ - دول ذات هويات ثقافية: الجزائر وبتسوانا والصومال.

٣ - دول ذات تعددية إثنية وثقافية: وتضم باقي الدول الأفريقية وهذه الدول تعانى بدرجة أو بأخرى من أزمة الاندماج الوطني مع هيمنة جماعة علي بقية الجماعات الأخرى سياسياً واقتصادياً وثقافياً ورفضها الالتزام بتحقيق الوحدة في إطار التنوع بما ينطوي عليه ذلك من احترام ثقافات ولغات ومعتقدات الجماعات الأخرى.

كما يلاحظ أن الدولة الأفريقية المستقلة أو الموروثة عن الاستعمار إتسمت بوجود بعض الخصائص الرئيسية ومنها: [(٣٠)]

الأولى. الطابع المركزي للدولة:

حيث أن وجودها بات محسوساً في كل مكان، فهي تحكم وتوجه وهي تشكل مجمل الحياة الاجتماعية وتحدد وتؤطر كافة أشكال التفاعلات، ثم إنها مكافأة العمل السياسي فمن يسيطر عليها يحصل علي كل شئ تأسيساً علي أن اللعبة السياسية هي لعبة صفرية .Zero Game ، بمعنى أن المركزية داخل الدولة

الأفريقية أصبحت واضحة ومتفشية في كل مكان بداخلها فهي التيٍ تسيطر وهي التي توجه وهي التي تسيء تسيير الاقتصاد الوطني وهي التي تستهلك القدر الكبير من المصادر المتاحة لها في المرتبات التي تنفق علي وظائف وأنشطة هادفة وأكثرها غير هادف وعلي استثمارات مفيدة ومعظمها غير مجدي، واقترنت المركزية بالفساد وباتت تشكل الحياة الاجتماعية عن طريق المنح أو المنع وتقييد تفاعلات الجماعات داخل قنوات ومسارات محددة، وأصبحت بمثابة الجائزة لأصحاب النفوذ والسيطرة التي من خلالها يستخدمون من الوسائل ما يعزز جانبهم في صراع المصالح الشخصية في الوقت الذي يظهرون فيه أمام الجماهير علي أنهم رعاة المصالح العليا للدولة.(٣١)

الثانية. الطابع الرخوي للدولة:

تبدو الدولة الأفريقية في غالب الأحيان ضعيفة وهشة وغير فعالة، كما تفتقر إلى عصب مؤسسي قوى والي قواعد واليات تسمح لها بالتصرف والقيام بوظيفتها كدولة، ثم أنها لا تستطيع منع مواطنيها من اللجوء إلى العمل السياسي السري ولا من الممارسات غير القانونية، كما لا تستطيع منعهم من السيطرة علي الاقتصاد السري (التهريب بكافة أشكاله) ولذا فمن السهولة بمكان إسقاطها بحروب أهلية أو بانقلابات عسكرية أو باغتيالات سياسية.

الثالثة. الطابع الوقفي للدولة:

إن كل ما في الدولة الأفريقية موقوف علي شخص الحاكم حيث لا تفرقة بين شخص الحاكم وبين السلطة السياسية، فلا تداول للسلطة ومن يمسك بزمامها يستمر في ذلك مدى الحياة لا يحول بينه وبينها إلا مرض مقعد أو وفاة أو

اغتيال أو انقلاب، وقد أدى ذلك إلى شخصنة السلطة بكل ما يترتب علي ذلك من نتائج تتمثل في عدم التفرقة بين المال العام والمال الخاص من جهة، وبحيث أصبحت مناصب الدولة ممراً إلى المكاسب والمغانم الاقتصادية من جهة ثانية، وصار الفساد والمحسوبية نتاجا للسيطرة علي السلطة من جهة ثالثة.

الرابعة. الطابع النخبوي للدولة:

ترتكن الدولة الأفريقية ـ غالباً ـ علي جماعة إثنية بذاتها بما يعنيه ذلك من ضرورة التمسك بالسلطة من جانب هذه النخب لحماية مصالحها الذاتية من جهة، ولحماية مصالح الجماعة الاثنية التي تمثلها من جهة أخرى في مواجهة النخب التي تمثل الجماعات الأخرى، وقد ترتب علي ذلك نتيجة مفادها أن الحروب الأهلية والانقلابات العسكرية في أفريقيا ليست مجرد أفعال يقوم بها متمردون أو عسكريون لحماية مصالحهم الذاتية بقدر ما هي تعبير عن رغبة جماعة إثنية في إزالة أخرى من السلطة لحماية ولتحقيق مصالحها (إثيوبيا: الأمهرة/التجراي، وروانداوبوروندي: الهوتو/التوتسي، ونيجيريا: الإيبو/الهوسا، و السودان: العرب الشماليون/الأفريقيون الجنوبيون ... الخ) علي اعتبار أن الإمساك بالسلطة يعد مغنما وفقدانها يعد مغرما و خسارة كبرى من كافة الأوجه السياسية و الاقتصادية والثقافية والاجتماعية.. الخ.

الخامسة. الطابع التدخلي للدولة:

بعد أن أصبحت معظم المستعمرات الأفريقية دولاً مستقلة، سرعان ما تحركت بسرعة في اتجاه تحقيق وضعية الدول المتدخلة، وهكذا مضت دولة ما بعد الاستعمار في طريق مألوف للتطور، فهناك دولة شديدة التمركز مستبدة وذات

طابع تقييدي في عملها وفي أدائها لوظائفها وهي تعمل علي تركيز سلطة الدولة في قبضة شخص واحد وربما تكون هناك مجموعة صغيرة من المسئولين حوله، وتسعى هذه الدولة التدخلية في أفريقيا إلى تقليص و تقييد الحياة الاجتماعية للمواطنين وتستخدم في الغالب أكثر الوسائل قسوة وخسة لتحقيق ذلك، ويرمى هذا النمط من الدولة التدخلية في المجال الاقتصادي إلى تحقيق السيطرة الكلية تقريبا علي جميع الأنشطة الاقتصادية، ويأخذ هذا المسعي أشكالا مختلفة كأن تقوم الدولة بتأميم المشروعات الصناعية والزراعية والتجارية.. الخ، وفي أحيان أخري تساعد الدولة رأس المال علي ممارسة وظيفته بصورة أكثر كفاءة، وهناك حالات أيضاً تكون فيها مؤسسات الدولة المختلفة حيث تكون مجرد هيئات لضخ الموارد العامة في أيدي نخبة أو جماعة خاصة، وفي الجانب السياسي تعتبر الدولة كل أصوات - أو حتى إيماءات - المعارضة الشرعية خارجة علي القانون، و هي تنكر بوجه عام الحد الأدنى من المساحة أمام الآراء السياسية للمواطنين، لتمثل بذلك موقفا مناقضاً و بشكل صارخ لكل القيم التي حارب من أجلها المواطنون خلال فترة النضال الوطني.(٣٢)

السادسة. الطابع التبعي للدولة:

كانت الحكومات القمعية والسلطوية والدكتاتورية في أفريقيا، تحصل علي الدعم من الحكومات الأجنبية- وخصوصا خلال حقبة الحرب الباردة - لما تبديه من ود وصداقة تجاه مثل هذه الحكومات ففي حالة الولايات المتحدة الأمريكية فقد أشار البعض ومنهم "هنري كيسنجر" وزير خارجيتها الأسبق: بأنه تم تبرير مثل هذه السياسات بوضوح بتحديد تمايزات بين ما أطلق عليه الاوتوقراطيات التقليدية وتلك الثورية بحيث تعد الاوتوقراطيات التقليدية أنظمة سلطوية يمينية

مثل نظام موبوتو في زائير (الكونغو حالياً) ، أما الاوتوقراطيات الثورية فهي ما دأبت الحكومات الأمريكية علي الإشارة إليها بعبارة " الأنظمة التوتاليتارية " مثل النظام الماركسي في إثيوبيا أثناء حكم "مانجستو هيلا ماريام"، وأن الحكومات السلطوية التقليدية تكون أقل قمعاً من الاوتوقراطيات الثورية وأكثر سرعة في التأثر بعملية اللبرلة ومن ثم فهي أكثر توافقاً مع مصالح الولايات المتحدة وينبغي بالتالي أن تعمل السياسة الخارجية الأمريكية تجاه الاحتفاظ بعلاقة وثيقة بمثل تلك الأنظمة بينما تدخرهم في ذات الوقت لمستقبل ديمقراطي في إطار مجال نفوذ الولايات المتحدة، وبقدر ما يتعلق الأمر بالأنظمة التوتاليتارية - وبصرف النظر عن الجهود الحقيقية التي تبذلها هذه الأنظمة تجاه إجراء بعض التحولات الاجتماعية شعبية النمط - ينبغي أن تحتل قضية تدمير هذه الأنظمة سياسياً موضع الأولوية بأن تتوقف الولايات المتحدة عن إمدادهم بأي دعم اقتصادي وفي كلتا الحالتين لا تعمل سياسة الولايات المتحدة الخارجية تجاه تقديم العون للجماهير الشعبية، و إنما تحرص علي العمل تجاه تحقيق أهداف مصالحها القومية الخاصة علي المستوى العالمي.(٣٣)

ومن الواضح في هذا الشأن أن الدول الفاعلة في المجتمع الدولي مصممة علي الربط بين أهدافها ومصالحها العليا علي المستوي العالمي، وبين ضرورة أن يكون هناك دول تابعة لها، وان سياسات الترغيب والترهيب تكون بمثابة الأساس لمثل تلك العلاقات، ويلاحظ أن العديد من الدول الأفريقية قد استدرجت إلى علاقات التبعية تلك سواء في حقبة الحرب الباردة أو فيما تلاها وذلك في إطار ما يعرف بالنظام العالمي الجديد تارة أو بالعولمة تارة أخري.

السابعة. الطابع العسكري للدولة:

إن أهم ما يميز الدولة في أفريقيا هو غلبة الطابع العسكري عليها بمعنى أن العسكريين منغمسون في السياسة بل وغالباً متورطون فيها، وبغض النظر عن النظام الحاكم داخل الدولة سواء كان مدنياً أم عسكرياً فان هذا التورط من جانب العسكريين دائماً ما يتفاعل مع أي نظام منهما كيفما تكون الأحوال، فإذا كان النظام الحاكم مدنياً يقع الانقلاب العسكري ليتحول النظام إلى نظام عسكري، ثم لا يلبث العسكريون أن يحاولوا إضفاء الطابع المدني علي النظام الحاكم أو أن يحدث انقلاب عسكري مضاد وهكذا تبقى الدولة الأفريقية تدور في مثل تلك الحلقة المفرغة مع ما يقترن بذلك من تأثيرات علي واقع الحياة السياسية وحالة الاستقرار والأمن داخل الدولة وحالة التنمية بمفهومها الشامل. (٣٤)

ثانياً. مظاهر أزمة دولة ما بعد الاستقلال:

تمر الدولة في أفريقيا بأزمة عميقة ومتزايدة الحدة تشمل كافة أبنيتها ومؤسساتها سواء السياسية منها أو المدنية، وتلقى بآثارها السلبية ليس فقط علي حسن أدائها لوظائفها وعلي قاعدة شرعيتها وإنما علي حقيقة وجودها في حد ذاته وبدرجة تدفع للتساؤل عما إذا كانت الدولة في أفريقيا بالفعل مؤسسة اجتماعية سياسية أم وهماً مؤسسياً منقطع الصلة بالواقع الاجتماعي وبالحياة السياسية، ومن هذا المنطلق فإن أزمة الدولة في أفريقيا يمكن توضيح مظاهرها كما يلي: (٣٥)

(أ) تزايد المعارضة التي تبديها الشعوب في العديد من الدول الأفريقية في مواجهة أنظمتها الحاكمة علي أثر اتضاح فشلها في التفاعل الإيجابي

معها، وفي تلبية الحد الأدني من الحاجات الضرورية والأساسية، ومحاولة تهميش تلك الشعوب والحيلولة دون مشاركتها، في الوقت الذي تستأثر فيه تلك الأنظمة بكل من مزايا الثروة والسلطة، وبالتالي فان حركة الاحتجاج الشعبي والتي تأخذ أشكالاً عدة ابتداء من المظاهرات العنيفة وانتهاء بالسلبية والخنوع وتراجع الانتماء والولاء الوطني بل وأحياناً الانسحاب الكامل من نطاق الدولة.

(ب) تزايد فشل الدولة الأفريقية في القيام بالوظائف الأساسية المحددة سواء عند الاستقلال أو بعده، ومنها الفشل في قيادة عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية، والتي يشير واقع الممارسة الفعلية لها إلى تدنى معدلات النمو لأدنى حد لها واستفحال التخلف الاجتماعي، ولم تكن باقي الوظائف أحسن حالا، ومن ثم باتت الدولة الأفريقية قعيدة المشكلات التي تتفاقم والشلل الوظيفي الذي يتعاظم والجماعات الإثنية التي تعانى الانقسام والتناحر وعدم مبالاة النظام الحاكم.(٣٦)

(جـ) تزايد هشاشة الدولة الأفريقية وتضاؤل سيطرتها علي مجريات الأمور في الداخل، وذلك علي الرغم من كثافة مؤسساتها وتنامي تبعيتها للخارج، بحيث تحولت الدولة في كثير من الأحيان إلى وسيط بين الداخل والخارج أكثر من كونها فاعلاً إيجابياً.

(د) اتسام مؤسسات الدولة الأفريقية بالشكلية، حيث لا علاقة بين اختصاصاتها المنصوص عليها في الدساتير والقوانين واللوائح المنظمة لها وبين اختصاصاتها الفعلية، ولا علاقة أيضاً بين الوظائف المنوطة بها

رسمياً والوظائف الحقيقية التي تمارسها، و من ثم فإن هذه الدساتير والقوانين واللوائح ذات الصلة بالدولة لا تساعد كثيراً في فهم العملية السياسية والإدارية بداخلها.

(هـ) اتسام مؤسسات الدولة بالانتقالية وسرعة التغير نظراً لظروف حالة عدم الاستقرار التي تمر بها الدولة في أفريقيا، وهو ما يجعل من الصعوبة استقرار الأداء الوظيفي لها، كما أنها لا تعبر عن الواقع الاجتماعي والسياسي الأفريقي حيث أنها أقيمت علي سبيل المحاكاة للنمط الأجنبي.

ثالثاً. أزمات دولة ما بعد الاستقلال:

إذا كانت جذور ومكونات أزمة الدولة في أفريقيا بعد الاستقلال تكمن أساساً في مواريث التاريخ ، فإنها أيضاً تكمن في أحداث ومجريات الواقع المعاصر مع تداخل وتشابك الفعل ورد الفعل في المجتمع الذي تحيا فيه، ويمكن الإشارة إلى بعض تلك الجوانب كالتالي: (٣٧)

(أ) أن الواقع المعاصر للدولة الأفريقية وان كان قد بدأ بعمل وبإنجاز الحركات الوطنية حيث تمت تصفية الإدارة الحكومية الاستعمارية الأوروبية وإعلان الاستقلال من خلال الأسلوب السياسي التفاوضي - فيما عدا عدد قليل من الحالات التي حصلت علي الاستقلال بالأسلوب الكفاحي المسلح - وما يمكن التأكيد عليه هو ما انتهت إليه أوضاع هذه الدول علي الرغم من التفاوت بينها في أسلوب الاستقلال وعقائده المعلنة فجميع الدول المستقلة بدأت حياتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية بتصور مجتمع ودولة أفريقية طبقاً لنمط أوروبي (شرقي أو غربي) أو أمريكي، لذلك فقد

أنشأت رموز ومؤسسات الاستقلال وأجهزة الحكم والإدارة وبنايات السلطة وصاغت الدساتير.. الخ طبقاً لنماذج أوروبية أو أمريكية وأيضاً في ذات المرحلة التاريخية فشلت أو انهارت محاولات وتجارب الوحدة بين الدول بمختلف أشكالها وظلت الدولة القطرية هي النموذج الساري علي الرغم من الأزمة المعقدة التي تمر بها.(٣٨)

وترتيباً علي هذا تم بناء دولة مستقلة طبقاً لنموذج الدولة /الأمة وعلي أساس احترام وقدسية الحدود الإدارية الاستعمارية _ الموروثة عن الاستعمار _ لكل إقليم والتي تحولت إلى حدود سياسية، وإذا كان نموذج الدولة / الأمة هو نموذج منتشر في العالم المعاصر، ويعد أحد المواريث المتطورة فكرياً ومادياً من خلال التجربة الأوروبية، ويقوم علي فرض نظري بوجود أمم متكونة أو أمم في طور التكوين ويكون لكل منها حق تقرير المصير وإقامة دولتها المستقلة باعتبار أن الدولة / الأمة هي أرقي صور التعبير عن الأمة، فان الحدود الموروثة عن الاستعمار في القارة الأفريقية قد تحولت إلي حدود سياسية تعبر عن سيادة الدولة بكل القيم والرموز والقواعد القانونية التي يحتويها القانون الدولي العام، وجاء ميثاق منظمة الوحدة الأفريقية ليزداد هذا الوضع رسوخاً بإقراره احترام الحدود القائمة عند الاستقلال وعدم القبول بتغييرها، وهذه هي البداية التي أنشأت الأزمة الراهنة في أساس وجود الدولة / الأمة حيث ثبت من الممارسات والواقع القائم أن التركيب الاجتماعي للدول الأفريقية لا يمثل أمماً إلا في حالات استثنائية ونادرة وماعدا ذلك فهي مجموعات علي مستويات متعددة من الشعوب والأقليات والأديان والثقافات والمستويات الحضارية وفيها

تباين واضح داخل كل دولة.[٣٩]

وهذا الوضع الاجتماعي الأفريقي لم تفلح في تطويره أو علاجه النظريات الأوروبية والأمريكية القائلة بإمكانية بناء الأمة وبناء الدولة، ولهذا فقد انتشر البديل وهو العنف والقمع والحروب الأهلية و الصراعات الحدودية وتنوعت وتوالت الانقلابات وإجراءات التغيير في قيادات النظم السياسية وفي عقائد كل نظام وكل انقلاب، الأمر الذي جعل صفة عدم الاستقرار هي الوضع السائد والمستمر في الدول الأفريقية، كما دعت متطلبات مواجهة حالة عدم الاستقرار إلى نمو وتضخم دور الأجهزة العسكرية والأمنية التي تحتكر رسمياً أدوات القمع والردع.

(ب) أن أزمة الدولة في أفريقيا لا ترتبط فقط بنوعية الفئات الحاكمة و صراعات النخبة وتشرذمها و إنما ترتبط أيضاً باستمرار فاعلية دور المتغير الخارجي الأجنبي الذي قبل بوضع الاستقلال السياسي واحتفظ باستمرار الوضع الاقتصادي والاجتماعي الأفريقي في حالة ارتباط وتبعية. ومن هذا المنطلق فان دور المتغير الخارجي يظهر بوضوح في نمو وتعقد هذه الأزمة حيث قامت الدولة الأفريقية في مناخ الحرب الباردة الأولى في الأعوام الستينيات من القرن العشرين ، ثم مرت فترة الوفاق الدولي في أوائل السبعينيات وجاءت فترة الحرب الباردة الثانية منذ أواخر النصف الثاني للسبعينيات وخلال أعوام الثمانينيات.(٤٠) ويلاحظ أن تلك الأزمة لم تقف عند هذا الحد وإنما دخلت من جديد آتون ما يعرف بالعولمة ولتبدأ علي أثر ذلك مرحلة جديدة مصحوبة بالعديد من المتغيرات والمستجدات والمشروطيات التي تزيد من تعقيد الأزمة .

(جـ) أن أزمة الدولة / الأمة بدأت منذ أن وصل قادة الحركات الوطنية الذين تولوا مناصب الحكم والإدارة، وبدأت عمليات بناء هياكل ومؤسسات الحكم المركزي مع التوسع في إنشاء الأجهزة والمؤسسات والإدارات التي كان يفترض نظرياً أن تترجم مسؤوليات ووظائف الدولة المستقلة إلى واقع في حياة المجتمع الأفريقي، ولكن الموارد التي كانت تسيطر عليها الدولة ظلت تتصف بالندرة النسبية عن أن تقابل التطلعات الشعبية والأماني والوعود المرتبطة بمعنى وبجوهر الاستقلال ومن ثم بدأت في الظهور وفي النمو بعد ذلك أزمة التراكم الرأسمالي وتولدت عنها مع مرور الزمن أزمة الشرعية.

لقد فشلت أجهزة ومؤسسات الدولة المستقلة في توليد التراكم الضروري والمناسب لبناء وتشييد الأسس والأبنية اللازمة للتنمية ولمقابلة إشباع التطلعات الشعبية، الأمر الذي جعل خطط التنمية والتحديث تتعثر باستمرار وتتغير مع تغير النظم والقيادات، وبينما كان يحدث هذا بالنسبة للمصالح الشعبية المتنوعة كانت مصالح ومغانم ومراكز الفئات الحاكمة تتزايد وتترسخ، الأمر الذي جعل عملية التراكم الرأسمالي تتحول إلى عملية تراكم للإثراء الشخصي لقطاعات من الفئات الحاكمة، وأمام هذا الوضع بدأ النزاع والشقاق ينتشر في داخل هذه الفئات الاجتماعية المدنية، ولما كانت المشاركة الشعبية الموروثة من أيام الحركة الوطنية قد تناقصت ثم انعدمت مهما كانت أشكال ومستويات التنظيمات السياسية الشعبية والحزبية.(٤١) ولما كانت جميع مؤسسات وأبنية السلطة والنظم محكومة من خلال سلطة الدولة والقيادات الحكومية كان الوضع الطبيعي هو أن

يصبح العنف والقمع والردع أساس بقاء أصحاب السلطة وأن يصبح العنف والانقلاب هو أسلوب تغيير أصحاب السلطة. وهكذا بدأت الدائرة تدور بلا نهاية أو توقف ودخلت المؤسسة العسكرية في الصراع وتم استخدام أسلوب الانقلاب الذي ما يلبث أن يليه انقلاب أو محاولة انقلابية أخرى.

(د) إن الفئات والطبقات الاجتماعية _ مدنية وعسكرية _ قد استخدمت أجهزة ومؤسسات النظام والحكم لفرض سيطرتها وتأكيد استيلائها وتسييرها لموارد المجتمع، وكل هذه الفئات تستمد قوتها الاجتماعية من علاقاتها بالجهاز السياسي والإداري سواء أكانت تشغل مناصب أم كانت تعمل في ميدان الاقتصاد والخدمات والتصدير والاستيراد.. الخ، إنهم جميعا كانوا علي علاقة بدور وبعمل الجهاز الإداري البيروقراطي الحكومي، ومن ناحية أخرى فقد استخدمت الحكومات الأفريقية سياسة التوسع في الوظائف والخدمات مدخلاً وطريقاً إلى استيعاب قطاعات جديدة من النخبة ومن الأجيال المتتالية، ولكن ما حدث هو أن طاقة الاستيعاب الحكومي كانت لها حدود اقتصادية واجتماعية متنوعة، فالاقتصاد محكوم بعلاقاته الخارجية علي الرغم من خطط التنمية والمجتمع منقسم إلى شعوب وديانات وثقافات متنوعة، والحكومات الأفريقية تنظر إلى هذا التنوع نظرة تميزية يترتب عليها منح الغنائم للأقارب ولصلات الدم والنسب والتأييد السياسي، ولذلك فان الانقلابات والتغييرات في نظم الحكم كانت تفلح فقط في تغيير المسؤوليات القيادية العليا والمناصب الاستراتيجية في مؤسسات الحكم والإدارة، ولكن الذي بقي باستمرار وحافظ علي وجوده ودوره هم الموظفون والإداريون والبيروقراطيون والتكنوقراطيون

الذين يديرون جهاز السلطة ومؤسساته لحساب كل قيادة وكل انقلاب وكل ثورة مهما تعددت المسميات والشعارات.

(هـ) أن أدوات الدولة سواء كان المهيمن عليها الحزب المسيطر أو العصبة العسكرية تجسدت ملامحها الرئيسية في أفريقيا بعد الاستقلال في المركزية والطابع الفردي للسلطة وظلت حالة الاستعلاء والتفوق للسلطة التنفيذية المثلة عادة من جانب بيروقراطية الدولة وأحياناً عن طريق التنظيم الحزبي، وبالتالي فان تفوق السلطة التنفيذية علي كل من السلطة التشريعية والقضائية أصبح أمراً ثابتاً ومقرراً، وكيفما تكون الرئاسة مدنية أو عسكرية فإنها تأتي لتعكس الانتقال الرسمي للسلطة من المشرع إلى الرئيس التنفيذي بغض النظر عن حقيقة الممثلين الحقيقيين للوضع والواقع الدستوري حيث أن موازين القوي تظل تعمل لصالح تكريس الحكم الشخصي والمصالح المحدودة للنخبة الحاكمة ودون الاهتمام حتى بالحاجات الضرورية / الأساسية للأغلبية العظمي من المواطنين.

(و) لقد ورث القادة الوطنيون الأفريقيون هياكل العنف من السلطات الاستعمارية البائدة ووظفت هذا لتدعيم سيطرتها وسلطتها، وأصبحت علاقات الدولة _ المواطن تتسم بالصراع وبالضعف علي الرغم من وجود قدر ما من الاستقرار النسبي سياسياً واقتصادياً مقارنة بالحقبة الاستعمارية، وعلي سبيل المثال فان إساءة حقوق الإنسان أثناء الحكم العسكري أو الاوتوقراطي في أجزاء عديدة من القارة يمكن إدراكها علي ضوء انه عندما تولي قادة أفريقيا السلطة في دولة ما لم يكن هناك إجراءات مؤسسية أو وطنيه من أجل ممارسة السلطة السياسية كما لم يكن

هناك قواعد للشرعية يتم من خلالها تعيين وتحديد حدود عمل الدولة ولوضع حقوق الإنسان وخصوصاً حقوق الفرد في النظام السياسي، ومن ثم فان الافتقاد إلى قيم ثابتة ومقبولة في علاقات الدولة / المجتمع تركت فراغاً وغموضاً في العلاقات بين الطرفين وبالفعل فان كثيراً من قادة ما بعد الاستقلال اعتادوا علي الدكتاتورية الاستعمارية وروجوا لها باعتبارها الديموقراطية كما أن التأسيس لمعارضة سياسية إنما جاء بمبادرة وبمباركة من داخل الحكومة وهو أمر ينطوي علي قدر كبير من الغرابة ليس فقط لكونه تعسفاً وقمعاً و إنما أيضاً لأن التسلط المزمن لرؤساء الأحزاب / الواحدة أصبح القاعدة وليس الاستثناء، وفي كثير من الدول الأفريقية فان المواطنين لم يتوافقوا مع الدولة التابعين لها ولذلك تنامت وتعاظمت رغبتهم وارادتهم في تحديها واقترن ذلك أحياناً باستخدام العنف - والذي وصل في بعض الأحيان إلى حد الحرب الأهلية _ وبالتالي فان نظام مثل تلك الدولة الذي لا يعمل من أجل إقرار الأمن والتنمية والرفاهية لمواطنيه ليس بالإمكان توقع شرعيته بل علي العكس يكون مثل هذا النظام أكثر هشاشة وانحطاطاً وأكثر ترهلاً واستنزافاً وكذلك أكثر انتهازية، وبناء علي ذلك فان الدولة الأفريقية فيما بعد الاستعمار ليس بالإمكان التعامل معها علي أساس نظرية العقد الاجتماعي مع مواطنيها وإنما هي بالأحري أكثر تفهماً واستعجالاً في تقويض حقوق مواطنيها وتحت زعم ضرورة الحفاظ علي الأمن والوحدة الوطنية والذي يعد من وجهة نظرهم أن له الأولوية علي الاهتمام بحقوق الشعب.[٤٢]

المبحث الثالث

عمليات تحول الدولة في أفريقيا

لقد تبنت الدول الأفريقية العديد من المؤسسات والسياسات المختلفة في إطار عمليات التحول للدولة في أفريقيا، وكذلك انتهجت أيديولوجيات متنوعة في محاولة لإحداث تغييرات هيكلية أساسية داخل مجتمعاتها وخصوصاً في المجالات التنموية وفي مجالات بناء الدولة وبناء الدولة _ الأمة وذلك كمؤهلات أساسية لإتمام عمليات التحول في عهد الاستقلال وما بعده، وسيتم تناول بعض عناصر تلك العمليات كالتالي:

المطلب الأول: إضفاء الطابع المؤسسي علي الدولة في أفريقيا

دأبت معظم الدول الأفريقية منذ الاستقلال علي الاهتمام بمختلف المؤسسات السياسية الوطنية الجديدة، بمعنى إضفاء الطابع الوطني علي المؤسسات الموروثة عن الاستعمار أو استبدال بعضها أو إضافة ما تراه مناسباً إستجابة للمتطلبات الجديدة لتلك الدول حديثة الاستقلال علي اعتبار أن مثل تلك المؤسسات هي التي يتكون منها أساساً جهاز الدولة الذي يتولى إدارة وتسيير شئون البلاد ومن مظاهر ذلك ما يلي:

اولاً. التغيير الدستوري:

يلاحظ علي دساتير الدول الأفريقية في مرحلة ما بعد الاستقلال أنها كانت وبدرجة كبيرة نماذج مماثلة لدساتير القوى الإمبريالية وبالتالي لم تكن مصممة وفقاً للمتطلبات الخاصة والضرورية للدول الأفريقية وربما كان ذلك انعكاساً للافتراضات التالية: (٤٣)

الأول : أن الوطنيين الأفريقيين وقد استقلت دولهم فإنهم لا يقبلوا بدساتير أقل في تصميمها وصياغتها عن دساتير حكامهم الإمبرياليين السابقين.

الثاني: أن الحكام الإمبرياليين لم يقوموا بالإعداد المناسب لمستعمراتهم وتهيئتها لفترة ما بعد الاستقلال ومن ثم فإنهم لم يشغلوا أنفسهم بوضع دساتير متميزة لمستعمراتهم تختلف عن دساتير الدول المتروبولية وتتناسب مع الواقع الذي يعايشونه والظروف التي يمرون بها.

الثالث: أن المستعمرات كانت تعد أقاليم تابعة للدول المستعمرة فيما وراء البحار ومن ثم فان دساتير تلك الدول مثلت امتداداً طبيعياً لها في تلك المستعمرات، ويبدو أن التأثيرات الاستعمارية الموروثة و التسرع المرحلي في إحداث التحول جعل هناك ضرورة لوضع دساتير خاصة بها، وإذا كانت تلك الدساتير الأفريقية في دول ما بعد الاستقلال قد جاءت غالباً علي النمط الاستعماري السابق، فان التغييرات الدستورية اللاحقة جاءت متناسبة إلى حد ما مع التغييرات الجديدة والعديدة التي طرأت علي نظم الحكم ومجمل الأوضاع السياسية الداخلية وذلك لكي تتواءم مع التغييرات العديدة في أعقاب الاستقلال من ناحية، وفي نظم الحكم والأوضاع السياسية الداخلية التي شهدتها الدول الأفريقية من ناحية أخرى، وذلك لكي تتم الموائمة والتكيف مع المستجدات علي الساحة السياسية في تلك الدول، وكذلك لإقرار مشروعية دستورية الوضع السياسي والنظام الحاكم القائم، وأكثر من هذا أن تتم هذه التغييرات لكي تتواءم مع الشخصيات والقيادات القائمة علي رأس هذه الأنظمة بحكم الأمر الواقع، وبمعنى أنها عملية لإضفاء المشروعية الدستورية علي

الحكومة الفعلية في البلاد، وتبعاً لذلك ففي بعض الأحيان كان يتم تغيير أوضاع الدولة ومؤسساتها سواء من دولة فيدرالية إلى دولة موحدة، ومن نظام برلماني إلى نظام رئاسي أو من دولة ذات طابع رأسمالي إلى دولة ذات طابع اشتراكي، أو من دولة ذات تعددية سياسية إلى دولة ذات حزب واحد أو العكس.(٤٤)

إذن فإلي أي مدي يماثل أو يختلف الدستور في الحياة السياسية الأفريقية عن غيره من النظم الدستورية ؟ إن التحليل الدستوري الواسع للتطورات السياسية الأفريقية يتضمن مدى ما وصلت إليه مراحل النمو والمصادر البشرية والتنمية التكنولوجية والوضع الاقتصادي والاجتماعي والوضع السياسي والثقافي والتاريخي، كما يتضمن مدى المناورات وربما النماذج غير الشرعية التي تعبر عن فشل الممارسة الدستورية في أفريقيا مقارنة بما هو وارد في دساتير دولة ما بعد الاستقلال، وبناء علي ما تقدم فإن من الأمور التي يجب أن تميز بين الدساتير المشروعة (الدستورية) وما عداها في أفريقيا يمكن ان يتمثل في مدي اقترابها أو ابتعادها عن تلك الهياكل الدستورية الموروثة عن الاستعمار أو المماثلة لها في حقبة ما بعد الاستعمار والتي هي إما منبوذة أو خطيرة، فالعمليات المرتبطة بالبناء و بالهياكل الدستورية في أفريقيا لا تعكس المقترحات والافتراضات والممارسات الدستورية الغربية كما هي واردة في دساتير تلك الدول الغربية، ومن ثم فان عمليات البناء والممارسة الدستورية الحقيقية لم تدخل حيز العمل في أفريقيا لأنها تعد أنماطاً مختلفة وغير مألوفة. (٤٥) ولا ترتبط بالتالي بالحياة السياسية والدستورية في الدول الأفريقية كما ينبغي أن تكون.

ثانياً.تعديل أو تغيير نظم الحكم:

لقد تراوحت الدول الأفريقية بعد الاستقلال بين الأخذ إما بالنظام البرلماني القائم علي الفصل المرن والمساواة والتعاون بين السلطتين التشريعية والتنفيذية، أو النظام الرئاسي المعتمد علي الفصل التام أو الجامد بين السلطتين المذكورتين، أو نظام حكومة الجمعية الذي تتداخل أو تختلط فيه السلطتان علي أن تكون الهيمنة للسلطة التشريعية (٤٦) أو خليط بين نظامين أو أكثر مما ذكر حسبما يترا ءى للقائمين علي هذا الأمر.

لقد كان جميع الزعماء الوطنيين يلمسون الحاجة إلى إقامة حكومة قوية لتحقيق أهداف التمدين والتطور ولتحقيق ثورة اجتماعية واقتصادية وسياسية، وتطلب وجود مثل تلك الحكومة إمكانية الوصول إلى الخيار المناسب مبدئياً، ثم أن تعمل تلك الحكومة بهمة من أجل تعويد الشعب علي المرحلة الجديدة والبدء في برنامج إجباري للتنمية، كما نظر إلى ذلك الأمر باعتباره يتطلب ضرورة وجود حكومة قوية للقيام بمهام التوجيه والإشراف علي استخدام رأس المال والمساعدات الأجنبية بما يتمشى مع الأهداف الوطنية. (٤٧)

وكان أداء وحصيلة الأنظمة السياسية في أفريقيا متنوعة فيما بينها وهي تختلف باختلاف توجهاتها وباختلاف الفترات الزمنية، فبينما توجد بعض الأنظمة التي أعقبت الاستقلال مباشرة ذات طابع فردى مثل: نظام نكروما في غانا، وجوليوس نيريرى في تنزانيا، وجومو كينياتا في كينيا، إلا أنها قد اهتمت ببعض المكاسب في مجال تنمية ورفاهية الشعب وتبنت ما يمكن وصفه بالحكم الرشيد أو العادل، فعلي الجانب الآخر تواجدت أنظمة فاسدة مثل نظام موبوتو سيسي سيكو

في زائير (الكونغو الديموقراطية حالياً) وصمويل دو في ليبيريا، وسياد بيري في الصومال، و مانجستو هيلا ماريام في إثيوبيا الذين ابتكروا لأنفسهم إقطاعاً سياسياً في دولهم التي اعتبروها ملكاً شخصياً لهم ونهبوا الثروات الوطنية وأسهموا في انحطاط وانهيار المستويات المعيشية لشعوبهم ودمروا الأبنية الاجتماعية في تلك الدول، ومن ثم فلقد ابتليت أفريقيا بجميع أنظمة الحكم الرئاسية والبرلمانية والمختلطة والملكية والعسكرية، وأنظمة التعددية الحزبية وأنظمة الحزب الواحد والأنظمة اللاحزبية، ولم يترتب علي الرغم من ذلك تقدم ملموس في مجال السياسة والحكم في أفريقيا ويبدو أن هناك عاملين أتاحا الفرصة أمام استشراء وتفشي سوء الحكم والإدارة في أفريقيا وهما: (٤٨)

١ - التأثير (الميراث) الاستعماري: فهناك ارتباط بين غياب الحكم الرشيد في العصر الاستعماري وبين فترة ما بعد الاستعمار حيث تناقضت الأبنية (المؤسسات) السياسية والاقتصادية و التوجهات الاجتماعية التي ترسخت في عهد الاستعمار مع قيم الحكم الرشيد والديمقراطية.

٢ - ديكتاتورية التنمية (فترة ما بعد الاستعمار): حيث دأب الحكام السياسيون في فترة ما بعد الاستعمار علي تأكيد تبنيهم لبرامج تنموية في مجالات الاندماج الوطني والتنمية الاقتصادية ودعم الاستقرار، وهكذا كانت العقيدة المسيطرة شكلاً من أشكال دكتاتورية التنمية بدلاً من أن تكون ديمقراطية التنمية، فضلاً عن انه وبسبب عدم استقلالية الدولة وندرة مصادر وموارد ثروة الطبقة الحاكمة وافتقارها للسيطرة علي إقليم الدولة فقد أصبح نظام الحكم مكرساً للتفسخ والتدهور بشكل خطير، وباتت الدولة علي اثر ذلك ميداناً للتنافس و الصراعات الدامية من أجل مكاسب الثروة

ومغانم السلطة، وكانت النتيجة النهائية شيوع العزل السياسي وانعدام المشاركة وازدياد حدة الفقر والتخلف، ولتكون مثل هذه المثالب بمثابة السمات الأساسية للحكم السياسي في أفريقيا وبالتالي أخذت رشادة الحكم في التراجع.

لقد شهد النصف الأول من تسعينيات القرن العشرين صخب سياسي واسع انتشر عبر أرجاء القارة، والذي يمكن تلخيصه في بعض التوجهات الرئيسية ومنها: التحول عن نظم الحزب الواحد، وعن النظم العسكرية، كنتيجة للاحتجاجات السياسية، والمطالبة بنشر الإصلاحات الليبرالية، و السعي لاقامة انتخابات تنافسية وهو ما ترتب عليه _ غالباً _ إقامة أنماط جديدة للحكم، وعلي حين أن عملية الانتشار تلك لم تكن علي وتيرة واحدة، وبنفس المدى في كل مكان، فهذه الحركات والإجراءات المؤسسية كانت واضحة بدرجة ما في معظم الدول الأفريقية، ومن ثم فقد بلغت التحولات إلى ابعد مدى تصله في الحياة السياسية الأفريقية، بالمقارنة في الفترة الممتدة منذ الاستقلال وحتى هذا التاريخ، والتي تصل إلى نحو ثلاثين عاماً، وقد كان من المعتقد أن تتم عملية التحول لأنظمة الحكم في أفريقيا خلال السنوات الخمس منذ بداية عام ١٩٩٠م وحتى نهاية عام ١٩٩٤م، إلا أن عملية التحول تلك واجهتها العديد من القيود والمعوقات، ومنها: (٤٩)

أ ـ محدودية الدوافع الإصلاحية من جانب النظم الحاكمة:

إن الوقائع السياسية الرئيسية الحادثة والمتلاحقة في مجال التحول لأنظمة الحكم في أفريقيا، وان قامت علي أساس الاحتجاجات السياسية المتتابعة والتي

بلغت أوجها في عام ١٩٩١، وتلي ذلك الأخذ ببعض الإصلاحات الليبرالية منذ عام ١٩٩٢ وظهرت نتيجة ذلك في تعاظم الأنشطة الانتخابية خلال عام ١٩٩٣م، وكذلك تزايد المؤشرات عن الأخذ بالديمقراطية في عام ١٩٩٤م، فإن تتابع الأحداث المرتبطة بتلك التحولات برهنت بشدة علي اتسام هذه العملية بالتسرع والتعجل، بمعنى أن تزايد الاحتجاجات الجماهيرية وان كانت قد أسهمت بشكل مباشر في التأثير علي قرارت النخبة الحاكمة للأخذ بالإصلاح السياسي، إلا أن التوسع في ميادين الإصلاح ربما لم تحز القدر المناسب من التأثير المطلوب وحتى علي مستوي الإصلاح السياسي فقد كانت التحولات الديمقراطية وممارسات النظم الحاكمة بشأنها شكلية أكثر من كونها جوهرية، وكانت بمثابة عملية سياسية طارئة أكثر من كونها عملية سياسية مستمرة وثابتة.

ب ـ تعجل تطبيق التحولات :

لقد حدثت التحولات من جانب النظم الحاكمة الأفريقية بسرعة وبتعجل، ففي اقل من أربعة سنوات منذ بداية حركات الاحتجاجات السياسية في عام ١٩٩٠م، والتسابق محموم في الأخذ بمظاهر التحولات ومنها التحول الديمقراطي وما يرتبط به من تغييرات دستورية وإجراء انتخابات تنافسية وغيرها، بحيث أنه بحلول عام ١٩٩٣م كانت أكثر من ٣٥ دولة أفريقية جنوب الصحراء قد أعلنت عن إجراء العديد من التغييرات الرامية للتحول الديمقراطي وما يتضمنه من تعددية سياسية وحزبية واحترام حقوق الإنسان والحريات بالإضافة إلى زعم تلك الدول بالتحول نحو اقتصاديات السوق في إطار ما يعرف ببرامج التكيف الهيكلي، وبحلول ديسمبر ١٩٩٤م أعلنت تلك الدول عن إتمامها لعملية تغير نظم حكمها، وبحيث بلغ متوسط الفترة الزمنية بين بداية التحول والوصول إلى

مناصب الحكومات الجديدة حوالي ٣٥ شهراً (وبلغت في ساحل العاج ٩ شهور فقط) وبالمقارنة مع التجارب المعاصرة ومنها تجربة بولندا في أوروبا والبرازيل في أمريكا اللاتينية فان إضفاء الطابع الديمقراطي أخذ في التطور التدريجي في مثل تلك الدول وعلي فترات لا تقل عن عقد من الزمان، ومن ثم فان تحولات نظم الحكم الأفريقية بدت محمومة ومتسرعة في الوقت الذي اقترنت عملية إضفاء الطابع الديمقراطي بعملية بإضفاء الطابع المؤسسي وبهدف الإصلاح وإقامة حكومات شعبية منتخبة وهي في مجملها تتم في أوقات وجيزة لا تتناسب مع عظم الإجراءات ومتطلبات عمليات التحول والمؤسسات المراد تأسيسها و ترسيخها في تلك الدول الأفريقية وهو الأمر الذي شوه وفرغ عمليات التحول تلك من جوهرها وبدرجة باتت معها لتكون أقرب إلى التجميل والدعاية من أجل المعونة منها إلى الإصلاح الحقيقي والتنمية.

جـ- التحول المختل (غير المتوازن):

يلاحظ أن توجهات وعمليات التحول لأنظمة الحكم في أفريقيا لم تكن " خطية Liner " كما أن المؤسسات المسئولة عن إحداث التحول كانت تعانى من الاختلال أو عدم التوازن، ربما نتيجة لغلبة الطابع الشكلي والمتسرع لعملية التحول تلك بالإضافة إلى ضعف تلك المؤسسات، وكذلك تدهور الحريات المدنية حتى بعد عام ١٩٩٢م، والذي أدى في مجمله إلى الإعاقة الحقيقية لليبرالية السياسية، وهذا الأمرلا يعكس فقط إعادة الانغلاق لبعض النظم الحاكمة السياسية في أفريقيا خصوصاً بعد أن تعهدت بالانفتاح، ولكن يعكس أيضاً العديد من الانتكاسات لحقوق الإنسان في دول مثل: الصومال ورواندا وبوروندي وغيرها، كما أن موجة التحول تلك التي اجتاحت نظم الحكم في أفريقيا، والتي بلغت ذروتها خلال عام ١٩٩٣م، والتي

ركزت علي المظاهر السياسية الشكلية وفي ظل اختلال واضح في التحولات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لم ينجم عنها سوى الظهور لديمقراطيات هشة Fragile. ، ولعل ما سبق يمكن أن يفسر ولو نسبياً التغييرات المتكررة والمتلاحقة لنظم الحكم في أفريقيا والتي من دلالاتها ما يلي: (٥٠)

١ - أن تغييرات الحكم وحالة عدم الاستقرار السياسي في أفريقيا، إنما هي دلالة علي التدهور السياسي فالحركات الوطنية في ظل الحكم الاستعماري لم تضع تصورات للأسس التي يمكن ان تقوم عليها دول أفريقيا بعد الاستقلال، أو أن أنظمة الحكم في فترة ما بعد الاستقلال أخذت في التجميد أو الإلغاء لعملية التكامل الرأسي بما في ذلك الإجراءات و العمليات الدستورية والسياسية والمؤسسية الجنينية، كما أن الدول الأفريقية لم تتحرك بفاعلية في مجال التعامل الإيجابي مع عمليات بناء الأمة وهو ما ترتب عليه الإخفاق في عملية الاندماج الأفقي وما يعنيه ذلك من تعاظم أزمات الشرعية والهوية والمشاركة والتوزيع ومشكلات الاندماج الوطني بشكل عام.

٢ - أن تغييرات الحكم وحالة عدم الاستقرار السياسي في أفريقيا تعكس ولمدى بعيد التعثر وعدم القدرة علي عملية إنهاء الاستعمار بشكل تام والتي كانت مطلباً أساسياً سابقاً من أجل بناء دولة ما بعد الاستقلال، وقد ظلت عملية الاستبدال لأنظمة الحكم الاستعمارية والتعديل أو التخلص من دساتيرها ومؤسساتها والتعامل مع مشكلة التنمية السياسية يتم باعتبارها مسألة تتطلب عقوداً من الزمن وليس سنوات للسيطرة عليها، ومن ثم فان عدم استقرار أنظمة الحكم والتغييرات المتلاحقة عليها في أفريقيا ما بعد الاستعمار ناتجة عن قيود أوتقويض الهياكل الدستورية والمؤسسية الموروثة عن الاستعمار.

ثالثاً. البناء المؤسسي :

إن التأسيس للنظم السياسية للدول الأفريقية، اقترن بشكل أساسي بإقامة المؤسسات سواء كانت تلك المؤسسات حكومية (رسمية (، أو كانت تلك المؤسسات غير حكومية (غير رسمية)، والتي يتوقف أدائها لوظائفها و لواجباتها علي مدى الدينامية والفعالية التي يمكن أن يتسم بها كل نظام سياسي، ويمكن توضيح ذلك كالتالي:-

أ - بالنسبة للمؤسسات الحكومية (الرسمية):

يلاحظ أن جميع الدول الأفريقية علي اختلاف نظم حكمها وأنظمتها السياسية حرصت علي إقامة مثل تلك المؤسسات الحكومية (الرسمية) والتي تشمل السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية والسلطة القضائية والحكم المحلى وان تفاوتت فيما بينها في مدي الفصل بين تلك السلطات وفي مدى العلاقات و التعاون فيما بينها وإذا كانت هناك دولاً أفريقية كثيرة قد دأبت علي تفضيل وتكريس علوية السلطة التنفيذية علي ما عداها من السلطات ويبدو ذلك من خلال محاولات تعظيم سلطاتها ومكانتها في مقابل تهميش السلطات الأخرى فإن هذا يعد أحد نقاط الضعف الرئيسية للبناء المؤسسي الحكومي الذي ترتب عليه وفي أغلب الأحيان تراجع أو انعدام فعالية وظائفه بصفة عامة.

(ب) بالنسبة للمؤسسات غير الحكومية (غير الرسمية):

ربما يأتى اهتمام الدول الأفريقية وأنظمتها المختلفة بالمؤسسات غير الحكومية (غير الرسمية) في المرتبة الأدنى بعد المؤسسات الحكومية، وهو أمر طبيعي ويتناسب مع درجة تطور تلك الدول وأنظمتها في مرحلة ما بعد

الاستقلال، خصوصاً و أن تلك المؤسسات غير الحكومية، والتي تشمل الأحزاب السياسية، وجماعات المصالح (الضغط)، تعاملت معها تلك الدول والأنظمة بحرص وبتحفظ، تحت دعاوى كثيرة، تتعلق بالحيلولة دون تفتت الدولة، أو تفتت الولاء والانتماء، خصوصاً إذا ما اتخذت مثل هذه المؤسسات جانب التخاصم، أو التعارض، مع المؤسسات الرسمية (الحكومية)، أما إذا قبلت هذه المؤسسات مبدأ الترويض من جانب المؤسسات الرسمية فإنه يصيبها ما يصيبها من رضا الحاكم وأجهزته، فعلي المستوى الحزبي فإن الشكل الذي كان أكثر شيوعاً في الدول الأفريقية بعد الاستقلال هو الحزب الواحد، وخلال بضعة سنوات من الاستقلال لم يكن هناك سوى استثنائين لدولتين أبقتا علي نظام حزبي تنافسي وهما جامبيا وبتسوانا، وفي نهاية السبعينيات واوائل الثمانينيات كانت هناك مؤشرات لانبعاث التعددية الحزبية والتخفيف من السيطرة المركزية لبعض النظم الحزبية الواحدة السائدة، وقد قدمت نيجيريا نموذجاً لإعادة الانبعاث تلك في الانتخابات الأولى التالية لسنوات الحكم العسكري، وفي السنغال فقد كان مسموحاً لأحزاب المعارضة بالمشاركة في انتخابات عام ١٩٨٣ وفازت ببعض المقاعد وكان هناك قدر من المرونة في كل من ملاوي وكينيا وتنزانيا في ظل العديد من المزاعم " بالحرية والنزاهة " free & fair" في الانتخابات ويلاحظ أنه حتى أوائل الثمانينيات فانه لم يحدث في دولة أفريقية أن أذعنت الحكومة المركزية وتخلت عن سلطتها لخسارتها في الإقتراعات باستثناء سيراليون في عام ١٩٦٧ عندما أتت الانتخابات بالمعارضة لتحل محل الحكومة وذلك بتدخل من جانب الجيش.(٥١)

إذن ففي فترة ما بعد الاستقلال فإن الوطنيين الذين اعتلوا سلطة الدولة حرصوا ودأبوا علي تلقين شعوبهم بأن تأسيس و سياسات الحزب الواحد هي المناسبة وهي التي في صالحهم وروجوا لذلك كالتالي: [٥٢]

١ - أن الحزب الواحد يرتقي بالوحدة الوطنية.

٢ - أن جهود الشعب يجب أن تكون موجهه نحو بناء الأمة ولا يجب تشتيتها بالخوض في سياسات عقيمة.

٣ - إن إجماع الآراء الشعبي يعنى أن الحكومة يجب أن تهتم أساساً بربط وظائفها بالتنمية في الوقت الذي يمكن أن تكون السياسات الحزبية غير ضرورية .

٤ - أنه مهما كانت الاختلافات فما يبدو ممكناً هو أن الدولة تكون مستقرة في ظل نظام حكم ذي حزب واحد ومن خلاله يتم تطبيق الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان.

لقد كانت تلك الأحزاب الواحدة تستحوذ علي السلطة خلال فترة ما بعد الاستقلال وليس بالإمكان الزعم بأنها كانت أكثر توحيداً من الأحزاب المتعددة التي كانت موجودة في بعض الدول منذ الاستقلال والعكس هو الصحيح فبتسوانا دولة متعددة حزبياً منذ الاستقلال واستطاعت القيام بخطوات إيجابية تجاه توحيد البلاد وبالمقارنة فالصومال والتي كانت تتمتع بدرجة كبيرة من التجانس إلا أنها انحدرت إلى دوامة الحرب الأهلية بعد عشرين عاماً من إساءة ممارسة الحكم في ظل محمد سياد برى دكتاتور الحزب الواحد وأيضاً في مجال التنمية الاقتصادية فان نير يري في تنزانيا وصل بمستوي التنمية فيها إلى حالة متردية للغاية وربما يرجع

السبب الجوهري إلى نظام الحزب الواحد وما يرتبط بذلك من أيديولوجية تدعيم حكم الدولة الاستبدادي الصارم، وبرز موبوتو في زائير "سابقاً " لفترة طويلة مستخدماً القمع كسياسة متداولة و مصممة للحفاظ علي استمراريته في السلطة، وكان باندا في ملاوي ذو حظ أوفر في إقامة دولة بوليسية في أفريقيا والقائمة تطول وسجلات أنظمة الحزب الواحد ليست أفضل أينما تتوجه داخل أفريقيا.

ومما تقدم فإن من أهم الخصائص التي يتصف بها البناء المؤسسي للدولة الأفريقية فيما بعد الاستقلال ما يلي: (٥٣)

١ - تعاظم واتساع نفوذ السلطة التنفيذية المركزية (ذات الطابع المركزي) والتي تدور في عموميتها حول شخص الزعيم أو الرئيس أو القائد العسكري الذي يحاول السيطرة علي الدولة والإبقاء علي تلك السيطرة وتعظيمها.

٢ - ان مركز الزعيم أو الرئيس أو القائد يكاد يكون مقنناً ومعتمداً علي صفات تحليلية ومعقدة للمواريث الكاريزمية وللمواثيق وللدساتير والقوانين والمعتقدات والتقاليد والأعراف في محاولة لإضفاء الطابع الروتيني والاحتكاري علي السلطة.

٣ - أن الحاكم الفرد يكون مدعوماً في مختلف الأحوال عن طريق ذوي المناصب والموظفين والكوادر الإدارية الذين يتدرجون في مناصبهم ويظلون فيها لفترات طويلة ما دام الولاء السياسي للحاكم قائماً.

٤ - ويترتب علي وجود مثل هؤلاء المؤيدين والمشجعين للحاكم الفرد والمسيطر علي الأدوات والأجهزة الإدارية والمؤسسات التي يتكون منها الهيكل المؤسسي للدولة، ان تتكون طبقة حاكمة سياسية يحرص جميع المنتسبين إليها والمنتفعين منها علي الإبقاء عليها وتكريسها.

وهكذا يلاحظ أنه علي الرغم من محاولة الدولة الأفريقية المستقلة إضفاء هذا الطابع المؤسسي علي جميع أجهزتها ومؤسساتها الحكومية وغير الحكومية ، إلا انه يظل الملمح المؤسسي البارز لتلك الدول هو سيادة ما يوصف " بالحمى الزعامية " أو " بالظاهرة الرئاسية " وتنطوي هذه الظاهرة أساساً علي تركيز سلطة الدولة في قبضة الرئيس وربما أيضاً النخبة القريبة والموالية له ووفقا لهذه الصفة فانه يكون المسئول الممثل للشعب في كل المسائل المتعلقة بالبلاد - حتى وان لم يستمد سلطته من خلال انتخابات شعبية وانما من خلال انتزاع سلطة الدولة - وقد تطورت ظاهرة هيمنة الرئيس علي دول القارة منذ الاستقلال حيث كان زعيم الحركة الوطنية ينصب نفسه رئيساً بعد رفع العلم الوطني الجديد ويمحو أي فوارق - ربما وجدت أثناء فترة الانتقال إلى الاستقلال - بين المصادر السياسية المختلفة للسلطة (مثل تلك التي بين الرئيس ورئيس الوزراء _ وأحياناً يصبح الرئيس في واقع الأمر " ملكاً " لبضعة سنوات وربما لأجل غير محدود أو ان يكون رئيساً مدى الحياة بمبادرة وبمباركة حاشيته، وإذا أخفق الزعيم في التحول إلى رئيس خلال فترة قصيرة من نيل الاستقلال فان هذا التأخير يرجع في العادة إلى مشكلة من نوع خاص مثلما حدث في زيمبابوي حيث وجد حزبان أو زعيمان يتنافسان علي السلطة وفي ظل هذا الوضع تصبح المشكلة الرئيسية في السياسة الوطنية هي تذليل العقبات التي تحول دون ذلك، وفي بعض الحالات قد يكون الرئيس الجديد هو القائد العسكري الذي يحاول إقامة قاعدة أو شرعية سياسية لنظامه الاستبدادي كما في حالة صمويل دو في ليبيريا [٥٤] وفي حالة مانجستو هيلا ماريم في إثيوبيا وغيرها.

ان أنماط الأنظمة التي نشأت في أفريقيا بعد الاستقلال قد زادت بشكل عام من حدة شكل الدولة التدخلية عبر السنين ورغم النمط الموحد من هيمنة الرئاسة فقد اختلفت الأنظمة كثيراً من بلد لأخر وشكلت هذه الاختلافات فوارق رئيسية بين البلدان ـ مثل ما حدث في تنزانيا وكينيا وفي ساحل العاج ونيجيريا - وتشمل طائفة الأشكال التي وجدت نظام التعددية الحزبية البرلمانية (كما في زيمبابوي والسنغال) والبرلمانية المقيدة والنظام الاستبدادي، والنظام العسكري ونظام الحزب الواحد والسلطة المتفسخة وغيرها وإذا كانت هناك دول ذات أبنية قابلة للتحديد فقد كان هناك دول يصعب تحديد أية أبنية قائمة فيها ومنها حالات أوغندا وتشاد وليبيا وكذلك غانا (في أواخر القرن العشرين) وهي حالات يصعب إدخالها في هذا القسم أو ذاك مع غيرها من دول القارة الأخرى أنها أمثله للدول غير المندمجة مؤسسياً علي الأقل. (٥٥)

ان الملاحظ أيضاً في إطار عملية إضفاء الطابع المؤسسي علي الدولة الأفريقية أن قادة القارة قد حرصوا في اختيارهم لتلك الأنماط من النظم أن تؤمن السيطرة الفعالة لهم علي الحياة السياسية وكذلك المجتمع بوجه عام، وفي هذا الصدد فقد كان نظام الحكم العسكري أو الحزب الواحد هما الخياران الأكثر جاذبية بالنسبة لهم ويمكن توضيح ذلك وفقاً لما يلي: (٥٦)

ففي حالة النظام العسكري يتسلح السياسيون بأكثر النظم فعالية في مجال الاستبداد بمعنى فعاليتها كقوة غاشمة في القضاء المبرم علي أي مشاركة أو ممارسة ديموقراطية وقد اثبت النظام العسكري خلال السنين المنصرمة أنه الإجابة الناجعة لأولئك المتحرقون شوقاً لإطلاق العنان لسلطة الدولة الرسمية، وبالتالي فبصرف النظر عن عدم قدرة النظام العسكري علي إثارة حماس الشعب أو كبح

جماح الفساد فان نقطة ضعفه الأساسية تبقي متمثلة في عدم قدرته علي توفير الشرعية السياسية للحكم، ان الأنظمة العسكرية بالأساس أنظمة غير ديمقراطية وتتحاشى المشاركة الطوعية المستقلة وغير المقيدة ومن ثم فإنها تعقد المشكلات بدلاً من حلها.

أما نظام الحزب الواحد فهو يزود القادة بتنظيم ديمقراطي نسبياً قد يستخدم لحث وتشجيع الشعب علي العمل من أجل الأهداف المرغوبة كما يسمح بدرجة محدودة من مشاركة المواطنين العاديين في الشئون العامة وهنا ينشئ التناقض بين رغبة الشعب في المشاركة الديمقراطية وبين القادة الذين يسعون إلى إحكام سيطرتهم علي السلطة، ويعبر الحزب الواحد عن الطبيعة المتناقضة للحياة السياسية، فبينما يشكل إطارا لا يشعر معه بتهديد شديد من داخله خصوصاً وانه يكون في العادة علي الصورة التي يبتغيها القادة، وليس المهم هنا ان يكون الحزب مؤسسة ديمقراطية وانما المهم ان يصمم _ مؤسسياً وفلسفياً - لممارسة الحكم والسماح بالمشاركة الديمقراطية المحدودة، ومن ثم فان الحزب الواحد في الوقت الذي قد يعيد إنتاج الشرعية السياسية للحكم فانه يمارس أيضاً نوعاً من الضبط الصارم علي السياسة ومؤسسات الدولة بالصورة التي يريدها القادة السياسيون وخصوصاً عندما يصبح التنظيم بمثابة المؤسسة الأعلى فوق كل مؤسسات الدولة والمجتمع المدني باعتباره جزء منها وقد أثبت هذا الحزب قدرته علي التكيف مع الظروف الجديدة واستخدمه كثير من الساسة البارعين لتدعيم قبضتهم علي مؤسسات الدولة الأخرى مثل البرلمان وغيره من المؤسسات وكذلك الإدارة المدنية.

المطلب الثاني: إضفاء الطابع الوحدوي علي الدولة في أفريقيا

إن العامل الاثنى في السياسية الأفريقية غالباً ما يتم التغاضي عنه أو يكون الاهتمام به ثانوياً، علي الرغم من ان هذا العنصر ظل يمثل الأساس الذي تعتمد عليه مواجهات حقبة الحرب الباردة، وعلي أساسه استمرت الإنشقاقات و الصراعات داخل الدولة الواحدة طالما ان هناك توظيفاً سافراً لهذا العامل، ولذلك استمرت الاثنية لتكون عاملاً رئيساً في الحياة السياسية والاجتماعية الأفريقية منذ الاستقلال وأخذت مظاهر متعددة كمسألة إنسانية ومن أجل تحقيق تقرير المصير وكقوة مضادة للمركزية السياسية والتي أدت إلى الحكم الاستبدادي، وكمطلب ديمقراطي لها وكمطلب حكم ذاتي في إطار الدولة الواحدة إقرارا لمبادئ المشاركة في السلطة ولعملية التحول الديمقراطي وتحولت هذه المظاهر إلى ممارسات وضغوط إثنية من أجل إحداث تغييرات هيكلية في الدول سواء في صورة ترتيبات فيدرالية أو انفصالية.(٥٧)

لقد زعمت العديد من الدول الأفريقية أنها حريصة علي الحفاظ علي الوحدة والسلامة الإقليمية للدولة ومن ثم تبارت في استحداث السياسات والاستراتيجيات التي اعتقدت أنها كفيلة للقيام بذلك الأمر، وبعد أربعة عقود من الاستقلال فمن الصعوبة وصف أي دولة / أمة في أفريقيا كنموذج أو حالة تطبيقية في هذا الشأن فتجربة بناء الأمة في معظم دول القارة تقوضت وفي معظم الدول الأفريقية كان واضحاً أن من مساوئ الحكم والسيطرة الاستعمارية كانت تلك العقبات والسياسات التي وضعها ومارسها وحالت دون إحداث الاندماج الوطني ومنها سياسة " فرق تسد" Divide & Rule، والتي مضمونها

بث الفرقة بين أبناء الإقليم الواحد من خلال تمييز جماعة اثنيه علي غيرها من الجماعات وهو ما ترتب عليه شيوع وتعاظم الأحقاد والضغائن بين كل منها، حتى انه بعد الاستقلال ظلت مثل هذه الصراعات قائمة وأصبحت أكثر مرارة وتسابقت تلك الجماعات بشكل محموم وشرس في الصراع من أجل الاستيلاء والاحتكار لكل من عنصري الثروة والسلطة (٥٨)

وكانت تلك الجماعات علي أنماط متعددة فمنها ما أراد الإبقاء علي الموروث الاستعماري الذي أتاح لهم السلطة واعتادوا عليها، ومنها الجماعات الوطنية التي قادت النضال من أجل الاستقلال واستشعرت أنها أهل للسلطة دون غيرها، وهناك الجماعات التي وان كانت لم تحظ بأي قدر من الثروة والسلطة في الحقبة الاستعمارية ولم تشارك في النضال ضد الاستعمار ولكنها تتطلع في ظل المستجدات التي أعقبت الاستقلال إلى أن تجد لنفسها مكانة في السلطة(٥٩) ونصيبا في الثروة.

لقد كانت الآمال منعقدة عقب استقلال الدول الأفريقية علي إقامة الدول القومية بها (الدولة / الأمة) ولكن مثل تلك الآمال سرعان ما تراجعت إلى أدنى حد لها وراحت بدلاً من السعي لبناء الأمة تنحصر في السعي لبناء الدولة علي الرغم من ان مشكلة بناء الأمة أو ما يعرف بمشكلة الاندماج الوطني أو ما يطلق علية أحياناً أزمة الهوية من أعقد وأهم المشكلات التي تواجه الدول الأفريقية منذ استقلالها بل إنها باتت تشكل الظاهرة الأصيلة التي تنبثق عنها مشكلات دول القارة الأفريقية كظواهر فرعية لها ، وعليه فإنه بدون التوصل إلى إيجاد حلول لها يكون من الصعوبة بمكان أن يتحقق للكيان السياسي الأفريقي ذلك القدر من التماسك والانضباط والاستقرار الذي يمكنه من مواجهة كافة

المشكلات الأخرى، وتلك المشكلة علي درجة كبيرة من التعقيد فرغم الخفة السكانية النسبية لمعظم الدول الأفريقية (معظم الدول جنوب الصحراء) إلا أن بعضها يضم داخل حدوده ما يزيد علي مائة مجموعة إثنية، بل أن نصف عدد لغات العالم هي لغات أفريقية ولذلك فلا غرابة أن تصل هذه المشكلة إلى مرحلة الأزمة في العديد من تلك الدول.(٦٠)

إن واقع الحال في غالبية الدول الأفريقية منذ الاستقلال وحتى بداية التسعينيات يشير إلى عدم تمثيل زعاماتها لغالبية الشعب فهذه الزعامات لم تكن تخرج عن أحد نمطين : إما زعماء كانوا في الأصل قادة للحركة الوطنية التي قادت البلاد نحو الاستقلال ، و إما حكاماً عسكريين أتوا إلى السلطة بانقلاب عسكري ، بمعنى أن الدول الأفريقية ظلت متماسكة داخلياً نتيجة لوجود الزعامة التي قادت البلاد نحو الاستقلال أو نتيجة لوجود حكم عسكري، ومن هنا فإن الاندماج الذي تحققه الزعامة الأولى هو اندماج طائفي مؤقت طالما أن الشعب يقبل سلطاتها وإن كان يرفض منحها ولاؤه الكامل، في حين أن الاندماج الذي حققه الحكم العسكري هو اندماج وظيفي مؤقت طالما لا يوجد إطار مؤسسي في العاصمة متفق عليه من جانب الجماعات والأقاليم التي تضمها هذه الدول.(٦١)

ويلاحظ أنه بالرغم من المزاعم و التأكيدات المستمرة للقيادات السياسية في غالبية الدول الأفريقية علي قضية الوحدة فان هذا لم يحل دون تنامي النزعات والميول الانفصالية ومعاناة تلك الدول من التراجع في التعامل مع تلك القضية وإذا كانت الحكومات الأفريقية قد دأبت علي مقاومة حالات عدم الاستقرار و الأزمة الوحدوية(الاندماج الوطني) داخل بلدانها عن طريق تجنيد وتعبئة الجماهير والمؤسسات والموارد والقدرات المختلفة وغيرها من أساليب النضال من أجل بناء الأمة

علي اعتبار أنها خير وسيلة للتعامل مع مثل تلك الأزمة فان الواقع يشير إلى تواضع الجهود و المساعي والوسائل والممارسات التي اقترنت بهذه المحاولات.(٦٢)

ان الدول الأفريقية منذ الاستقلال ولدت في ظل أزمة حقيقية هي أزمة بناء الدولة القومية وهي وأن كانت تمثل تعبيراً قانونياً وإطارا سياسياً فإنها ضمت بداخلها العديد من الجماعات المختلفة اثنياً ولغوياً ودينياً وإقليميا وقد ساهم ذلك بالإضافة إلى الممارسات الحكومية إلى أن يكون ولاء الفرد ليس للدولة ذاتها وانما لتلك الجماعات الأولية أو التحتية بداخلها وقد كان من الممارسات التي انتهجتها تلك الدول في سعيها لخلق الوحدة الوطنية / القومية هو محاولتها تركيز السلطة واستحداث المؤسسات المناسبة التي يمكن أن تكون بديلة للتنظيمات التقليدية والتنظيمات والمؤسسات الموروثة عن الاستعمار ومن ذلك التأسيس للحزب الواحد كإطار تنظيمي موحد ليتمشى مع متطلبات تحقيق الوحدة السياسية والمحافظة عليها والسعي لتحقيق قدر من التنمية الاقتصادية والإسراع بها وتحقيق السيطرة علي كافة أجزاء الدولة إلا أن الممارسة العملية لهذا الحزب أثبتت أن مشكلته بمفهومه المطلق في أفريقيا كإطار للوحدة السياسية وبحيث يمثل تداخلاً لمفاهيم الحزب والدولة والأمة ليست في النظام نفسه ولا في الأسس والأهداف التي يقوم عليها ولكنها كانت أصلا في القائمين علي تطبيقه، حيث ظل ينظر إليه علي أنه سبيل ووسيلة لتحقيق أهدافهم بدلاً من أهداف الوحدة السياسية وتعبئة ومشاركة الجماهير في إطار موحد.(٦٣) ومن ناحية أخري فالواضح في هذا التصور والممارسة الفعلية له هو التركيز علي التكامل الرأسي بمعني الاهتمام بعملية بناء الدولة وبالمنظور السلطوي علي حساب التكامل الأفقي بمعني التراجع الفعلي عن عملية بناء الأمة.

المطلب الثالث: إضفاء الطابع الأيديولوجي علي الدولة في أفريقيا

لقد تطور الفكر السياسي والاجتماعي الأفريقي مثله في ذلك مثل القومية الأفريقية خصوصاً في فترة ما بعد الاستقلال ، فقد أسهم بنصيب هام في الرصيد الأيديولوجي للقومية الهادفة إلى الرقي والنهضة وقد اقتبس الطلبة والمفكرون والزعماء السياسيون الأفريقيون - في لندن وفي باريس وفي العواصم الأفريقية - من الفكر الديموقراطي الغربي ومن الماركسية ومن فلسفه غاندي ومن القومية السوداء (بالنسبة لأولئك الذين كانوا يدرسون في أمريكا) و مزجوها بالتراث الثقافي والتاريخي لأفريقيا لخلق أيديولوجية عامة للوحدة الأفريقية، بحيث تكون بمثابة الأيديولوجية التي يتقاسمها معظم الزعماء الأفريقيين الوطنيين مهما كان هناك من احتمالات لوجود اختلافات عند تطبيقها.[٦٤]

وكانت عمليات إحياء الثقافة الأفريقية تحت شعارات الزنجية والشخصية الأفريقية ينطوي علي أهمية سياسية وثقافية وذلك في التعضيد الذي تمنحه من مثل وقيم عليا ومبادئ للوحدة الأفريقية ، غير أنه قد كان هناك بالفعل انقساماً بين الأفريقيين الداعين للوحدة ، ويرجع جزء من هذا الانقسام إلي المفاهيم المختلفة لطريقة الوصول إلى وحدة أفريقية وجزء منه يرجع إلي اختلافات وجهات النظر بخصوص التطورات الداخلية والروابط الخارجية وجزء منه أيضاً إلي تنافس الزعامات وغيرها، وفي مجال الفكر الاقتصادي نالت المحاولات الخاصة بإيجاد طريق وسط بين فردية الكتلة الغربية (الرأسمالية) وجماعية الكتلة الشرقية (الاشتراكية) تعبيراً بليغاً في اشتراكية سنجور الأفريقية، وهناك أيضاً مفهوماً مشابهاً لها في إصرار جوليوس نيريري علي التوفيق بين الفرد

والجماعة في الحياة الاجتماعية الأفريقية ومن ثم فان الاشتراكية وفقاً للمنظور الأفريقي هي اشتراكية إنسانية ومن ثم تعارض المادية الماركسية ، و ظل الزعماء الوطنيين الأفريقيين سواء ناصر أو نكروما أو سنجور يصرون علي عدم وجود تعارض بين اشتراكيتهم والقيم الروحية أو الدينية بل ويؤكدون أن اشتراكيتهم تتفق والمعايير الدينية والإنسانية أكثر من اتفاقها مع مبدأ الحرية الاقتصادية الرأسمالية الذي رفضوه ، وعلي هذا الأساس فان هؤلاء الزعماء الوطنيون كانوا يصرون علي أنهم اخترعوا اتجاهاً جديداً للتنمية الاقتصادية يتجنبون به أخطاء كل من الرأسمالية والاشتراكية وسواء أكان ذلك الاتجاه الجديد هو الاشتراكية الأفريقية لسنجور أم الاتجاه الجماعي لنيريرى أم أوتوقراطية المجموعة لسيكوتورى أم الاشتراكية الديمقراطية التعاونية لناصر إلا أنه كان هناك التزاماً مشتركاً لنوع جديد من التطور الذي يسمح بالتخطيط الاشتراكي المركزي للاقتصاد مع السماح بعناصر المبادرة في القطاع الخاص أيضاً. (٦٥)

وبمعني أنه عندما حصلت الدول الأفريقية علي استقلالها في الستينيات فان الغالبية العظمى منها تبنت تلك الأيديولوجية غير الواضحة والمسماة بالاشتراكية الأفريقية في إطار انسلاخها عن الماضي الاستعماري، وقد نال هذا استحساناً من جانب الشيوعية العالمية، وكانت تلك الاشتراكية الأفريقية تلقي حضوراً وقبولاً داخل تلك الدول الأفريقية لما تتسم به من عدم فرضها كثيراً من القيود علي القادة الأفارقة، بل علي العكس فقد أعطى التكوين لدول الحزب الواحد لمثل هؤلاء القادة وسيلة ملائمة تمكنهم من تكريس وتعظيم سلطاتهم الخاصة ومن إسكات مناوئيهم وضمان السيطرة علي المنظمات الأخرى في المجتمع، وخصوصاً اتحادات العمال، ومن هؤلاء القادة - علي اختلافهم -

كينياتا في كينيا، وجوليوس نيريرى في تنزانيا، و فيليكس هوفوييه بونييه في ساحل العاج، و كوامى نكروما في غانا وغيرهم الذين تبنوا الحزب الواحد للدولة، ومنذ منتصف السبعينيات فان بعض الدول الأفريقية كانت قد بدأت في تبنى نوعاً ما من مفاهيم الاشتراكية العلمية مثل إثيوبيا وموزمبيق وأنجولا وبالتالي كانت أكثر بقاءً في السلطة وأكثر دموية وأكثر اعتماداً علي المساعدة الخارجية وجميع هذه الدول أعلنت تبنيها للنموذج السوفيتي للاشتراكية في محاولة لتبرير صراعاتهم الدموية الطويلة بالإضافة إلى سياساتهم التعسفية مثل التأميم وتدعيم الملكية الجماعية، كما ان دول أخرى مثل بنين والكنغو برازافيل وإن شهدت اضطرابات كتلك التي عانت منها أنجولا وموزمبيق وإثيوبيا إلا أنها نبذت الاشتراكية الأفريقية لصالح التفضيل للاشتراكية العلمية، وعلي حين إنها أممت بعض الصناعات فان تطبيقاتهم للمذهب الاشتراكي كانت أكثر ضلالاً .Heterodox(٦٦)

وخلال فترة الثمانينيات فقد راق لبعض الدول التحرك بعيداً عن المذهب الاقتصادي الماركسي وبدأت في إعادة التقييم لسياساتها الاقتصادية مثل موزمبيق وإثيوبيا والكنغو برازافيل وتنزانيا وزامبيا وغيرها، في إطار ارتباطها بالبنك الدولي وصندوق النقد الدولي، وأعلنت سلسلة من الإصلاحات لتحرير اقتصادها وان تمسكت مثل تلك الدول باستمرار ولاؤها للمبادئ الاشتراكية، وعندما بدأت مظاهر التفكك تبدو علي الاتحاد السوفيتي ومن ثم علي الكتلة الاشتراكية فان مثل تلك الدول الأفريقية بدورها لم تلبث ان بدأت تعانى من ممارسة الضغوط عليها من أجل إجراء التحولات واللامركزية التي بدونها وفي ظل الإبقاء علي أنظمة الحكم ذات الحزب الواحد لن يكون هناك مجالاً مناسباً

لضمان إضفاء اللبرالية علي اقتصادياتها ولن يكون هناك تنظيماً فعالاً لدور القطاع الخاص، وفي الوقت ذاته بدأ البنك الدولي في الحث علي زيادة فعالية نماذج للحكم تتناسب مع التوظيف الاقتصادي المناسب، وانه من الضروري إتمام ذلك علي أساس واقعي لكي يتفهم المانحون الخارجيون ان الإصلاح الاقتصادي ممكناً وبعيداً عن دولة الحزب الواحد شديدة المركزية.(٦٧)

لقد كان واضحاً من أجل ممارسة الدولة الأفريقية للسلطة ومن أجل صنع سياستها أن تكون الأيديولوجية الأساسية للدولة الأفريقية فيما بعد الاستعمار مرتكزة علي الأشكال والأنماط والقواعد الابتكارية التي تعزز سيطرة الفرد علي السلطة وسيطرة الدولة علي الاقتصاد ولم يكن باستطاعة تلك الدولة في إطار محاولاتها التحولية عن طريق النهج الأيديولوجي أن تصل إلى أيديولوجية قابلة للتطبيق ومقبولة للقيام بدور فاعل وعادل من خلال جميع المؤسسات والكيانات الموجودة داخل المجتمع. (٦٨)

ويلاحظ في تلك الدول الأفريقية التي تبنت الأيديولوجية الاشتراكية كإطار لعملية تحولها أنها عانت من أزمة عميقة منذ منتصف الثمانينيات كان من أهم مظاهرها: تلك الضائقة الاقتصادية القاسية، كما كانت الغالبية العظمي من تلك الدول مازالت تصارع بلا أي نجاح من أجل إقامة مؤسسات سياسية كانت تنعقد عليها الآمال من أجل ترسيخ التجربة الاشتراكية في المجتمع الأفريقي، إلا أن الصعوبات الداخلية في الدول الاشتراكية الأفريقية كان يصاحبها العديد من الضغوط المفروضة عليها من جانب الحكومات الغربية (وكذلك جميع المؤسسات النقدية الغربية) للتراجع عن تلك السياسات الاشتراكية واستبدالها بسياسات الأسواق الحرة من أجل التنمية الاقتصادية.(٦٩)

وبالتالي فان إضفاء الطابع الأيديولوجي علي نظام الدولة في أفريقيا لم يفض إلى التطور والتحسين المرتجى وإنما أدى إلى حالة من الجمود والتقوقع والتدهور أدت بدورها إلى تكريس وتعظيم واقع التخلف والمثال علي ذلك حالات دول أنجولا وموزمبيق وإثيوبيا وغيرها في معظم أرجاء القارة الأفريقية. حيث ترتب علي ذلك تعاظم الحكم السلطوي والبيروقراطية وانغماسها في صراعات داخلية في ظل حالات عدم الاستقرار السياسي ومع شيوع حالات الانحطاط والتدهور الاقتصادي والاجتماعي، وفي صراعات خارجية مع القوى المستغلة العالمية ومع الدول والمنظمات المانحة في إطار اللهث وراء مزيد من المعونات أو الهبات أو القروض.

ويلاحظ في هذا الصدد أيضاً أنه إذا كانت الدولة في أفريقيا قد قدر ان يكون لها مساحة من الاختيار والتجريب لأي من الأيديولوجيات وخصوصاً في مرحلة ما بعد الاستقلال، أي في فترة الحرب الباردة فان الواقع الراهن يشير إلى أن الأيديولوجية الوحيدة المقبولة للتداول عالمياً حالياً هي اللبرالية الاقتصادية (الرأسمالية) واللبرالية السياسية)الديمقراطية).[٧٠] ومن ثم يكون الأمر المتاح فقط أمام الدول الأفريقية هو الاختيار بين الاستغراق في تلك الأيديولوجية وتحمل تبعاتها في مقابل الحصول علي المعونات والقروض أو الانعزال والتشرنق داخل أقاليمها ومحاولة تجريب أو استحداث أيديولوجيات جديدة عساها أن تعصمها من هذا الطوفان إن استطاعت، ويبدو أنها آثرت يأساً وبلا تردد الخيار الأول أملاً في البقاء.

المطلب الرابع : إضفاء الطابع التنموي علي الدولة في أفريقيا

مثلت مشكلة التخلف الاقتصادي والاجتماعي إحدى أهم قضايا أفريقيا بعد الاستقلال ومن ثم فقد وضعت الخطط ورسمت السياسات الواجب اتباعها لمواجهة هذا التخلف باعتباره من أصعب القضايا التي واجهت القيادات والكوادر الأفريقية علي المستويات الوطنية والإقليمية والقارية وقد حاولت الدول الأفريقية معالجة هذا التخلف عن طريق التعاون الاقتصادي القاري أو الإقليمي أو عن طريق العون الخارجي متمثلا في المساعدات والمعونات الأجنبية ومن أهم ما يلاحظ في هذا الصدد ما يلي:(٧١)

أولا. أن التعاون الأفريقي القاري لم ينجح في التعامل مع مشكلة التخلف تلك بطريقة عملية فكل الجهود التي بذلت سواء علي المستوى التنظيمي أو التطبيقي لم تسهم إسهاما فعالاً في هذا الخصوص وبالتالي فقد ظلت ومازالت هذه المشكلة من أصعب المشكلات التي تواجه العمل الجماعي القاري الأفريقي وربما يرجع ذلك إلى أزمة الثقة بين الدول الأفريقية وبعضها البعض أو إلى ضعف و هشاشة تلك الاقتصاديات وإذا كان تأليف وحدات اقتصادية من الدول المتخلفة أمراً عسيراً بسبب تخلفها وعدم وجود الأجهزة الهيكلية التي تتحمل أعباء الوحدة الاقتصادية، فهناك سبب أخر يجعل الوحدة بين الدول الأفريقية أمراً عسيراً أيضاً وهو رغبة تلك الدول في الحيلولة دون المساس بسيادتها واستقلالها لذلك فان الدول الأعضاء سواء في منظمة الوحدة الأفريقية أو في أي تنظيم اقتصادي علي مستوى القارة تحتفظ لنفسها بأكبر قدر من السلطة ولا تمنح الأجهزة والمؤسسات التي تشرف علي مثل تلك الوحدة الاقتصادية إلا اقل قسط

من هذه السلطة علي الرغم من أن التجربة الأوروبية أثبتت أن أي إنجاز حققته إنما تم لكونها لم تتردد في التنازل عن جانب كبير من سيادتها في سبيل تحقيق ذلك لما يترتب علي ذلك من امتيازات ومنافع التنمية الاقتصادية.

وإذا كان الهدف المعلن للتعاون والتكامل الاقتصاديين لم يتحقق بعد، وإذا كانت اتفاقية ابوجا الموقعة بشأن إنشاء الجماعة الاقتصادية الأفريقية AEC يمثل إطارا حيوياً للوصول إلى هذا الهدف فان الأمر يبقى أيضاً مرتهن بمدى وضع بنود تلك الاتفاقية موضع التنفيذ الفعلي، وإذا كانت هناك عوامل كثيرة قد تكاتفت في الماضي لإجهاض أي تقدم نحو تحقيق التعاون والتكامل الاقتصاديين علي مستوى القارة فان اتفاقية الجماعة الاقتصادية الأفريقية وغيرها من الاتفاقيات تظل أيضاً مهددة بان تلقى نفس مصير غيرها من الخطط وبرامج العمل والاستراتيجيات السابقة مثل خطة عمل لاجوس إذا لم يتم التنفيذ الفعلي لها وإزالة العوائق أمام إقرارها، و ينبغي التذكير في هذا الصدد بأن من أهم هذه العوامل هيمنة الروابط الاقتصادية لأفريقيا مع الخارج والإحساس القوى بالانتساب إلى المناطق النقدية المختلفة وانعدام الرغبة في التنازل عن السيادة الوطنية في الموضوعات الاقتصادية والاجتماعية وتبنى برامج التكيف الهيكلي التي تفضي إلى جعل التناغم والتنسيق عبر الحدود أكثر صعوبة وأخيراً تشابه الهياكل الاقتصادية لدول القارة .

ثانياً. أن التعاون الأفريقي الإقليمي لم ينجح أيضاً، وكان أقرب إلى أن يكون وسيلة للدعاية السياسية المحلية، فإقامة الوحدة بين مجموعة من الدول الأفريقية كان بمثابة الفرصة السانحة لإقامة المؤتمرات والحفلات والاجتماعات

المقابلات لرؤساء الدول الأفريقية، كي يتخذ منها مادة للاستهلاك الداخلي بغية بث روح التفاؤل بين شعوبهم والأماني في ازدهار المستقبل الاقتصادي لدولهم، ذلك لأن القيادات الأفريقية والأجهزة التي تحت تصرفها لا تستطيع وحدها وبالمستوى المؤسسي التي هي عليه أن تقوم بعبء المشكلات الاقتصادية والسياسية للبلاد، ومن ثم تلجأ إلى إخفاء عجزها عن القضاء علي هذا التخلف عن طريق إقامة تلك المنظمات الإقليمية التي تلهي بها شعوبها، مع أن وظيفتها في الحقيقة لا تعدو إصدار التصريحات والقرارات المتتابعة ووضع الاستراتيجيات وتخطيط المشروعات نظرياً بدون تنفيذ عملي لكل ذلك.

ثالثاً. وعلي المستوى الوطني فقد كان المرتجى بصورة ملحه من البلدان الأفريقية ، هو إعمال التفكير الإستراتيجي ، وتوافر الحس الدينامي ، واتضاح الأهداف من أجل التعجيل بالتنمية البشرية ، والتحول الهيكلي لاقتصادياتها ، وهو ما يقتضي إضفاء الطابع الوطني علي عملية التنمية ، واستنفار كل قوى النمو والتنمية ، وتنويع الهياكل الاقتصادية ، و التخلي عن الاعتماد علي عدد قليل من السلع المصدرة ، وجعل الاقتصاد مرنا إزاء الصدمات الخارجية والداخلية ، وتحقيق درجة أكبر من الاكتفاء الذاتي حي الغذاء والاستثمار في البشر، بما يكفل تنمية قدراتهم ، وإجراء تحسين كبير في نوعية حياتهم ، والاستفادة الفعالة من الموارد البشرية ، واتساع المجال أمام جميع القوى في المجتمع ، لممارسة النشاط الاقتصادي ، و تحفيز إبداعات وحماسات وطاقات الشعب ، من خلال ممارسة فعاله للمشاركة الشعبية في التنمية ، وإضفاء المزيد من الحيوية علي القطاع غير الرسمي الكبير الحجم ، ومساعدته علي الارتقاء إلى مستويات أعلي في الإنتاج والإنتاجية ، ودعم الاستثمار الخاص ، و إدارة

الاقتصاد بصورة أفضل ، وإنهاء الفساد ، وضمان مراعاة المعايير الأخلاقية وشيوع ثقافة التسامح والشفافية ، والمساءلة في مجال الحكم ، والتعامل بجدية أكثر مع المتغير السكاني باعتباره أحد المتغيرات الرئيسية في معادلة التنمية ، ويرتبط بذلك أيضاً ضرورة التعامل مع قضية النمو السكاني المتسارع بأساليب أكثر جوهرية وموضوعية . (٧٢)

إلا ان التطبيق الفعال لما تقدم، يتطلب ضرورة إجراء تغييرات سياسة أساسية، و إعادة توجيه الموارد، بمعنى وضع نهاية للنفور من التخطيط الإستراتيجي طويل الأجل، ومتوسط الأجل، وجعل برامج الإصلاح جزءا لا يتجزأ من سياسات وبرامج واستراتيجيات التنمية بعيدة الأمد، والاستخدام المرن للمتغيرات الاقتصادية، والأدوات النقدية والمالية، والتعبئة الهادفة والأكثر إبداعا لتحقيق مستويات أعلي في الادخار والاستثمار، وتوجيه موارد مالية واستثمارات مناسبة في مجال التنمية الإنتاجية والبشرية، وتقليص النفقات الفاقدة وغير المنتجة _خاصة الإنفاق العسكري _ وضمان السيطرة علي عوامل الإنتاج ومصادر المال.(٧٣)

لقد شهدت فترة الحرب الباردة ازدياد سيطرة الاقتصاد المتقدم في الشمال، من خلال النظام الاقتصادي العالمي، علي اقتصاديات الدولة الأفريقية، وازدياد ارتباط القطاع الحكومي ، والقطاع غير الحكومي في كل من هذا الدول ، بدور المتغير الخارجي ، من خلال النشاط المحموم للشركات العالمية متعددة الجنسيات، ومن خلال الارتباط بأشكال وبأساليب عقائدية وسياسية واقتصادية وعسكرية واتفاقات للتجارة والاستثمار وغيرها ، بحيث أصبحت هذه الفئات والطبقات والنخب الأفريقية تقوم بما يمكن تسميته بالوظيفة الحارسة بالنسبة لعمل المتغير

الخارجي في داخل المجتمع الأفريقي ، في ظل الدولة المستقلة ، فمنذ الاستقلال تم تطبيق خطط متتالية للتنمية والتحديث ، والمحصلة النهائية هي أنه في الدول الأفريقية التي تطبق نماذج رأسمالية للتنمية والتحديث ، لم تنشأ بها طبقة رأسمالية قوية تقود هذه العملية (ومن الأمثلة علي ذلك السنغال ، وساحل العاج ، وكينيا ، والجابون ، وزائير (الكونغو حالياً) وفي الدول الأفريقية التي طبقت نماذج اشتراكية / ماركسية للتنمية والتحديث ، لم تنشأ بها أيضاً طبقة عمالية بروليتارية قوية تقود هذه العملية (ومن الأمثلة علي ذلك غينيا سيكوتوري ، والكنغو برازافيل ، وموزمبيق) وبالطبع لم يكن الحال افضل في تجارب الدول التي طبقت النماذج الانتقائية للتنمية والتحديث مثل تنزانيا.[٧٤]

بناء علي ذلك وعلي النتائج الوخيمة والكارثية التي تمخض عنها تطبيق مثل تلك الخطط، فان الوضع القائم في السياسة والاقتصاد وتسيير المجتمع، هو وضع السيطرة لجماعات متعددة الأصول والقيم والارتباطات، علي أدوات الحكم ومؤسسات النظام والسلطة، وتستثمر هذه الجماعات المواقف في داخل الدولة لصالحها من خلال إدارة النظام، ومن خلال الاعتماد علي مؤسسات وأجهزة العنف والردع والتخويف والترويض، كما ان هذه الجماعات فقدت القواعد الاجتماعية المؤيدة والراضية عن السياسة العامة لكل نظام، وهذا معناه أن هذه الجماعات والفئات والطبقات ـ مهما كانت التسمية ـ لا يمثلون ولا ينتمون إلى طبقات رأسمالية أفريقية، ولا إلى طبقات إقطاعية زراعية، ولا إلى طبقات برجوازية أفريقية كبيرة أو صغيرة، ولا إلى طبقات عمالية أفريقية بروليتارية، انهم شئ جديد، انهم ظاهرة اجتماعية، ونخب حاكمة أو قائدة علي مستويات السياسة والاقتصاد والاجتماع، تنتمي إلى الوجود السياسي الإداري

البيروقراطي لجهاز الدولة، ومؤسسات الحكم و أبنية السلطة والإدارة، بأسلوب مباشر وبأسلوب غير مباشر وهؤلاء آمنوا وصدقوا بان "الرأسمالية للحكام و الاشتراكية للمحكومين " Capitalism for Governor's & Socialist for Peo-ple's " ويشترك في دعم قوتهم وبقائهم دور وتأثير المتغير الخارجي، وحتى إذا تم الانشقاق أو الانقلاب في داخل هذه الجماعات والنخب، فان مصدر قوة الخلف هي ذات مصدر قوة السلف في جهاز الدولة.(٧٥)

لقد قامت خطط التنمية والتحديث في أفريقيا، علي أساس دور راس المال الأجنبي في التمويل والاستثمار، واستيراد التكنولوجيا الأجنبية، من أجل التصنيع، وبناء البنية التحتية، والتوسع في عمليات الإنتاج للتصدير، والحصول علي العملات الصعبة..الخ، وفي إطار الوضع السكاني والاجتماعي الأفريقي، دفع المزارعون وسكان الريف ثمن هذه التنمية وتكاليفها، ونتج عن هذا ان مناطق الحضر وسكانها استفادوا طبقا لمراكزهم الاجتماعية، ولعلاقاتهم بأجهزة السلطة ومؤسسات الحكم، بينما تراجعت وتعقدت قضية الغذاء والطعام وازداد العجز في الإنتاج الداخلي، والذي تمت مواجهته برصد مبالغ متزايدة لاستيراد الطعام والغذاء للسكان.(٧٦)

ومن هذا المنطلق فانه لا يمكن البت في قضايا التنمية، من خلال أطروحات تكنوقراطية فالتنمية بطبيعتها قضية سياسية، ان نوع التنمية الذي سوف تستجيب له مشكلات أفريقيا، ينبغي أن يركز علي المشكلات التي تؤثر في الجماهير الشعبية، والمتعلقة بإشباع الحاجات الأساسية، ومنها الغذاء، والتعليم، والصحة، والتوظيف، والإسكان ... الخ، والقضاء علي المشكلات الاجتماعية مثل البطالة، سوء التغذية، الأمراض الصحية، وعدم الملائمة المعيشية وتدنيها بصفة

عامة، وتتعلق كافة هذه الأمور بقدرة الاقتصاد علي توليد فائض اجتماعي كافي، يمكن تنميته من خلال أنشطة إنتاجية من شأنها توليد الوظائف وغيرها، من الحاجات الأساسية في إطار الاقتصاد المحلى، كما أن الدولة التي ستقوم بالتخطيط لهذه التنمية، التي تتسم بنظرة متجهة نحو الداخل ومتمحورة علي الذات تحقق الاكتفاء الذاتي كان من المفترض ان تكون دولة تجرى إدارتها ومحاسبتها عن طريق القوى الشعبية، حيث أنه من المستحيل أن تكون دولة أخرى غير ذلك، وكان من المتوقع أن تكون تلك الدولة موجهة نحو الشعب، إلا ان الواقع يشير إلى أنه لا يمكن وجود مثل هذه الدولة إلا كنتيجة لثورة ديمقراطية شعبية.[٧٧]

المبحث الرابع

تقييم الدولة في أفريقيا

انطلاقاً من الحاضر وفي محاولة لتقييم الدولة في أفريقيا واستشراف مستقبلها، يلاحظ أنها تواجه العديد من التحديات التي تؤثر بطريقه مباشرة أو غير مباشرة علي واقع ومدى تطورها وتحولها كما ان هناك العديد من المساعي الإصلاحية التي يمكن ان تؤثر علي مدى استمرارية وفاعلية الدولة في أفريقيا إذا ما كان هناك اهتمام فعلي بذلك، ويمكن الإشارة في هذا الصدد إلى ما يلي:

المطلب الأول: تقييم أداء الدولة في أفريقيا

ان الظروف المعاصرة التي تمر بها الدول الأفريقية، تجعل من الأهمية التركيز علي تقييم أدائها، كمحاولة للتعرف علي الواقع الحي والملموس الذي تعايشه، ومدى فاعلية دورها وواجباتها ووظائفها، وكذلك مستوي ومدي عمليتي بناء

الدولة والأمة والي أي مدى وصلت إليه علي جميع تلك الأصعدة في ظل المتغيرات والمستجدات الداخلية والإقليمية والعالمية، وفي إطار تقييم الأداء هذا فسيتم تناول تلك الوظائف التي تقوم أو ينبغي ان تقوم بها الدولة، وتوضيح مدى فاعلية أو عدم فاعلية ما تقوم به، وذلك علي النحو التالي: (٧٨)

أولا. الوظيفة السياسية والقانونية:

علي الرغم من ان الوظيفة السياسية والقانونية تعد من الوظائف الأساسية، التي تقوم بها جميع الدول بغض النظر عن مدى تقدمها أو تخلفها، باعتبارها مقدمة الممارسات الحكومية، ومقدمة لما عداها من الوظائف الأخرى، فان واقع هذه الممارسات يشير إلى العديد من اوجه القصور، والتراجع في أداء تلك الوظيفة، ومن مظاهر ذلك ما يلى:

١ - تزايد عدد الاتفاقيات الدولية الجماعية الملزمة التي تغطى كافة مناشط الحياة علي المستوى الدولي والوطني والتي تلتزم الدول باحترامها والتعامل معها باعتبارها قوانين وطنية داخلية ومن شأن الإخلال بها تعرض الدولة للإدانة أو حتى العقوبات من جانب المجتمع الدولي وهكذا تقلصت سلطة الدولة في صنع القوانين التي تتلاءم مع بيئاتها وتقاليدها وظروفها .

٢ - تراجع الدولة عن دورها في صنع القرار السياسي علي المستوى الوطني لصالح رجال الأعمال في الداخل ولصالح الشركات متعددة الجنسيات.

٣ - تراجع سلطة الدولة في مواجهة منظمات المجتمع المدني التي اتجهت لتقوم ببعض وظائف الدولة وخصوصا في المجالات الاجتماعية والثقافية وذلك بالتعاون مع منظمات مثيلة في الخارج تتولى تمويلها وتنظيم أنشطتها بعيدا عن سيطرة الدولة في كثير من الأحيان.

٤ - انهيار مبدأ السلامة الإقليمية والسيادة المطلقة واحترام الحدود، ذلك ان هذه المبادئ قد تم اختراقها ولا قبل للدول الأفريقية بالدفاع عنها (الإنترنت، البث التليفزيوني الفضائي، فتح الحدود التجارية الدولية دون عائق، التدخل الإنساني لحماية حقوق الإنسان ...الخ).انتهاء احتكار الدولة لسلطة الاستخدام الشرعي للقوة في مواجهة مواطنيها أو غيرهم من الخارجين علي القانون تحت دعاوى احترام حقوق الإنسان ... الخ، بل وتتلقى دورها في محاكمة مواطنيها وفق قوانينها المرعية(حالة لوكيربى) فيما يعد إيذانا بانهيار مبدأ إقليمية القوانين.

مما سبق وغيره أسفر عن إحساس قطاع من المواطنين بفقدان الحماية والأمن من جانب الدولة فسعى لتامين نفسه بعيداً عنها (ظاهرة البوليس الخاص) واجترأ قطاع آخر علي ما تبقى من سلطة الدولة فسعى للانقضاض عليها (ظاهرة الإرهاب) في حين لجأت الجماعات الاثنية أو الإقليمية أو الدينية أو اللغوية.. الخ، إلى السعي للخروج كلية من تحت عباءة الدولة القائمة بالسعي للانفصال في غمار حرب أهلية بحثاً عن تأمين ذاتي جماعي، فانفجرت الحروب الأهلية بكل تداعياتها المأساوية (اللاجئين، إبادة جنس بشري، استنزاف صارخ للموارد.. الخ) لتتأثر بها ما يزيد عن أربعة عشر دولة أفريقية.

ثانياً. الوظيفة الدفاعية:

ان وظيفة تامين المجتمع من الغزو الخارجي والعنف الداخلي كوظيفة دفاعية للدولة الأفريقية أخذة أيضاً في التآكل لأسباب منها:

١ - الاتجاهات المعاصرة الرامية إلى خفض الإنفاق العسكري لاعتبارات الرشادة الاقتصادية وارتكاناً علي آليات التكيف الهيكلي واعتماداً علي ان

المجتمع الدولي كفيل بمعاقبة المعتدى وبطبيعة الحال فان ذلك يتم وفق مصالح القوى المسيطرة علي النظام الدولي.

٢ - محاولة الغرب إقناع الدول الأفريقية بأن النجاح في الحصول علي نصيب أكبر من مغانم السوق العالمي إنما يشكل وسيلة أفضل للبقاء والرفاهية من الإصرار علي السيطرة علي الإقليم الوطني.

واستناداً إلى ما تقدم فان دور المؤسسة الأمنية (الجيش والبوليس) وحيث تضخمت قوات البوليس علي حساب قوات الجيش انصرف إلى الحفاظ علي النظام العام في الداخل، وتوفير المناخ الملائم لحرية التجارة والاستثمار ومن شأن ذلك أن يدفع الشعوب للنظر إلى المؤسسة الأمنية باعتبارها الحارسة للمصالح الرأسمالية من جهة، ومهددة لأمن الغالبية وليس حارسة لها ولا لحدود الدولة من جهة أخرى، بشكل يفقد الدولة هيمنتها واحترامها لدى المواطنين .

ثالثاً. الوظيفة الاستخراجية:

ان تلك الوظيفة تعنى قدرة الدولة علي تعبئة وتوظيف الموارد المتاحة لها من قوي بشرية ومواد خام و سلع وخدمات وكذلك قدرتها علي تحصيل الضرائب والرسوم والجمارك كما تعنى في ذات الوقت القدرة التمويلية للدولة بمعنى الحفاظ علي النقود كوسيلة للتبادل وكوحدة للنقد وكمخزن للقيمة علي اعتبار أن ذلك أمر ضروري لاقتصاديات السوق في مواجهة الاقتصاد المخطط، غير أن هذه الوظيفة أخذت في التآكل أيضاً لما يلي:

١ - بيع مؤسسات القطاع العام في إطار عملية الخصخصة أو ما تفرضه آليات منظمة التجارة العالمية من ضرورة التجارة عن طريق خفض وحتى إلغاء

الرسوم والجمارك علي التجارة الدولية في المستقبل المنظور، وهو ما يعنى تقلص موارد الدولة إلى حد كبير.

٢ - ان المبرر الآخر لسلطة الدولة والمتعلق بتعزيز قيمة العملة يبدو أنه أيضاً في طريقه إلى الاختفاء، ذلك أنه لم يعد بمقدر الدول الأفريقية مقاومة ما تفرضه قوى السوق من تأثيرات علي قيمة المعاملات النقدية ولا علي أسعار الصرف (الأزمة الآسيوية) ثم ان التقدم التكنولوجي علي وشك القضاء علي ما تبقى من سلطة الدولة في هذا المجال ذلك أن الإنفاق من خلال كروت الائتمان يتزايد بسرعة وهي قوة شرائية لا قبل للحكومات بالسيطرة عليها، ثم أن تحويل الأموال والتجارة عبر شبكة الإنترنت لا يخضع لرقابة الحكومات ويمكن أن يكون له اثر تخريبي علي القدرة الاستخراجية للدولة.

رابعاً. الوظيفة التوزيعية:

إزاء ضعف الوظيفة الاستخراجية للدولة نتيجة تقلص مواردها وما يستتبع ذلك من تقليل الإنفاق العام، بدأت الدولة تفقد وظيفتها كمظلة للحماية الاجتماعية، ورغم أن هذه الوظيفة حديثة حيث تقوم الدولة بإعادة توزيع الموارد ومواجهة أي نقص للسلع في الأسواق حماية للضعفاء وغير القادرين إلا أنها تشكل مبررا هاما للقبول الطوعى لسلطة الدولة ورغم أن هذا المبرر ما زال قائما إلا انه بدأ يفقد مصداقيته نتيجة اضطرار الدولة الأفريقية إلى تقليل الإنفاق علي الخدمات الاجتماعية)الصحة، التعليم، الإسكان.. الخ) واضطرارها إلى بيع القطاع العام وإلغاء الحماية التجارية لمنتجاتها بشكل أضر بالمنتجين الوطنيين وبالتالي فان سلطة الدولة في حماية الضعفاء في المجتمع قد ضعفت وبالتبعية بات القبول الطوعى بسلطة الدولة محل شك.

خامساً. الوظيفة الثقافية:

ان الحفاظ علي قيم المجتمع وتقاليده وأعرافه والتعبير عنها بالشكل الذي يؤكد علي وجود هوية حضارية متميزة لتعميق انتماء المواطن لدولته في مواجهة الآخر كوظيفة ثقافية للدولة في أفريقيا آخذه أيضاً في التآكل بفعل آليات الاتصال الدولي واصبح المواطن عرضة لأشكال متنوعة من قيم وأعراف وتقاليد أجنبية عنه (الرموز، الأسماء، المأكل، الملبس، التغذية، الفنون..الخ) وقد أدى ذلك إلى زيادة أزمة الاندماج الوطني في الدولة الأفريقية تعقيدا خاصة وأنه قد افرز نماذج استهلاكية مشوهة وقيما إضافية تتعارض مع ثقافة المجتمع وضرب بالتبعية جهود الدول الأفريقية في تحقيق مشروعها الوطني بتنمية ثقافة وطنية تشكل قاعدة لبناء الأمة.

- ان ما سبق وغيره يشير إلى ان الدول الأفريقية آخذة في الذبول من الناحية الفعلية والقانونية في ظل تداعيات كل من عمليات التحول الديمقراطي والتكيف الهيكلي، و العولمة وهو ما ينذر بإمكانية اتجاه النظام العالمي للعودة للنظام الإمبراطوري بمعنى وجود إمبراطورية أو أكثر تعيش في كنفها وتحت حمايتها ممالك و إمارات إثنية تابعة لها وتقوم علي أنقاض الدول الأفريقية الحالية ولا تتمتع بالمساواة في السيادة بينها، كما أن ما سبق يشير إلى إمكانية دخول القارة الأفريقية إلى مرحلة أفول عهد الدولة الإقليمية وتنامي الاعتراف بالواقع الاثنى بما يعنيه ذلك احتمال قيام الدولة الاثنية كما هو الحال بالنسبة لإثيوبيا التي أقرت الفيدرالية الاثنية، وأوغندا التي عادت إلى الاعتراف بالممالك الأربع فيها، وجنوب أفريقيا التي أقامت هيكلاً للسلطات التقليدية واعترفت بصلاحيات رمزية لملك الزولو.. الخ.

ومن ثم فـان تقـاعس الأداء للدولة في أفـريقـيـا يمكن إرجاعـه إلى بعض المشكلات التي يجب أخذها في الاعـتـبار عند مراجعـة الأداء ومحاولة تقويمه بدرجة أكثر فعالية ومنها: (٧٩)

١ - ضعف الأحزاب السياسية: فالأحزاب السياسية يفترض أن تكون أحد آليات التحول داخل المجتمع ويجب ان تتسم بالاستمرارية والشمول والرغبة في ممارسة السلطة وان تبذل الجهود لحشد الدعم الشعبي الضروري، أما ان تكون مثل هذه الأحزاب معززة للفردية فستظل خاملة ومتقوقعة علي نطاق دورها الضيق.

٢ - خمول العملية الانتخابية: ما زالت العملية الانتخابية في الدولة الأفريقية تعانى العديد من اوجه القصور سواء في الإدراك و الوعي لماهيتها وأهدافها والياتها وأساليب عملها أو في الممارسات الفعلية المرتبطة بها ومازال مبدأ الحرية والنزاهة مفتقداً في مثل هذه العملية وما زالت العديد من الأمراض عالقة بها كالتزوير والرشاوى وممارسة الضغوط علي المنافسين وغيرها من الأساليب وهو الأمر الذي يفرغها من مضمونها ويجعل أي خطوات لاحقه لها باطلة وفاسدة.

٣ - محدودية المجال السياسي: إذا كانت السياسات والممارسات الاستبدادية قد جعلت من الصعوبة علي العديد من القوى داخل المجتمع الواحد المشاركة في الحياة السياسية فان الإبقاء علي هذه الوضع أو التغيير الشكلي له يبقى علي محدودية المجال السياسي و محدودية المشاركة السياسية وهو ما يبقى علي الأوضاع السياسية علي ما هي عليه.

٤ - قيود المجتمع المدني: ان الإبقاء علي تهميش الشعوب الأفريقية داخل الدولة بعيداً عن السياسات والممارسات السياسية والاقتصادية و الاجتماعية يزيد الفجوة بين الحاكم والمحكومين ويبقى علي أزمة الشرعية السياسية ويخلق حالة من النفور والسخط والاستياء أو علي الأقل اللامبالاة وعدم الاكتراث لهؤلاء تجاه كل ما يدور في الدولة، ومن ثم فان جميع المؤسسات الرسمية مدعوة للتفاعل الإيجابي مع منظمات المجتمع المدني وتحفيزها لتقوم بدورها كحلقة اتصال وثيقة مع القواعد الشعبية المتنوعة ولتسيير ولتفعيل قيام الدولة بوظائفها.

٥ - الحد من الحريات: ان ازدهار الحريات في الدولة الأفريقية هو أحد الضروريات التي تتطلبها أي عملية تغيير إيجابية ومنها علي سبيل المثال حرية الصحافة وحرية التعبير عن الرأي وغيرها ويجب أن تستفيد الدولة في أفريقية من التجربة المريرة في مرحلة ما بعد الاستقلال وخصوصاً سنوات الستينيات والسبعينيات حيث لم تتورع الحكومات السلطوية عن القيام بالرقابة علي التحدث وعلي الكتابة وغيرها وإعدام أعداد هائلة من أصحاب الرأي والمناوئين لها وإذا كانت فترة الثمانينيات قد شهدت نوعا ما من التخفيف لهذا الوضع فان تلك المشكلة ما زالت قائمة في العديد من الدول.

٦ - افتقاد المرونة والتسامح: ان غياب المرونة والتسامح يشيع حالة من التصلب و التحدي سواء لإرادة النظام الحاكم أو للجماعات الساخطة عليه ويجعل كل طرف أحرص علي التشبث بآرائه ومواقفه وممارساته تجاه الطرف الآخر حتى ولو اتخذت طابع العنف.

٧ - شيوع العنف السلبي والجيوش المسيسة: في معظم الدول الأفريقية ظلت القوات المسلحة مصدر تهديد لحالة الاستقرار داخل الدولة وخصوصاً إذا اقترنت بالطابع الاثنى وعندما يصل الجيش إلى هذا الوضع فان الجماعات الأخرى لا تجد أمامها سوى استقطاب جماعات الأقلية بداخله للبدء في التخطيط من أجل الصراع ومحاولة الاستحواذ علي السلطة وهكذا تشيع في البلاد حالات العنف السلبي، ولهذا فان محاولة تحييد الجيش داخل الدولة والحد من تسييسه يعد خطوة أساسية في سبيل إصلاح الدولة في أفريقيا..

٨ - الدعم الدولي للدكتاتوريات: في إطار سياسة المصالح التي تنتهجها العديد من الدول الفاعلة في المجتمع الدولي فقد غضت الطرف عن ممارسات العديد من الدكتاتوريات في الدول الأفريقية بل وقدمت لها الدعم والمؤازرة المستمرة ومن الأمثلة علي ذلك الدعم الكبير الذي تلقاه موبوتو في زائير (سابقا) علي الرغم من الممارسات الاستبدادية والسلطوية التي اتسم بها حكمه البائد وغيره من الحكام أمثال محمد سياد برى في الصومال و مانجستوهيلاماريام في إثيوبيا.

المطلب الثاني : التحديات التي تواجه الدولة في أفريقيا

لقد أفرزت الظروف والمتغيرات والمستجدات الداخلية والخارجية العديد من التحديات التي تواجه الدولة الأفريقية وتؤثر عليها حاضراً ومستقبلاً ومنها:

أولا. التحدي الليبرالي (الرأسمالي / الديمقراطي :(منذ أوائل التسعينيات والنظام الدولي يشهد العديد من التغييرات المتتابعة التي ألقت بتأثيراتها

وتبعاتها علي السياسة والاقتصاد الأفريقي ودفعهما للسعي وللبحث عن سياسة خارجية جديدة للتقرب من الديمقراطيات الصناعية الغربية كبديل الاشتراكية / الشيوعية) وتلك الظروف الجديدة اقترنت بالمشروطية السياسية والحكم الجيد والترويج للتحولات الليبرالية/ الديمقراطية من ناحية والليبرالية / الاقتصادية وبرامج التكيف الهيكلي.(٨٠)

من ناحية أخرى وبالإضافة إلى استخدام سلاح المعونات لإجبار تلك الدول علي إقرار وتنفيذ تلك التحولات فقد رفعت في هذا الشان شعار "لا ديمقراطية، لا معونات " No Democracy, No Aid ان تلك الضغوط التي مورست علي الدول الأفريقية في إطار ما اصطلح علي تسميته بالحكم الجيد و المشروطية السياسية وبما يعنيه ذلك من ضرورة التحول الديمقراطي علي النمط الليبرالي (التعددية الحزبية وإجراء الانتخابات الرئاسية والبرلمانية ، وتعزيز قدرات المجتمع المدني ، ورفع رايات حقوق الإنسان .. الخ) وفضلاً عما تقدم فقد أصرت القوة المنتصرة في الحرب الباردة علي ضرورة اتباع دول الجنوب ومنها الدول الأفريقية لبرامج التكيف الهيكلي تحت مظلة الصندوق والبنك الدوليين تحت دعاوى تخفيض الإنفاق الحكومي وترشيده و إطلاق قوى السوق، واعتبار ان ذلك يشكل شرطاً لازماً و ضرورياً لتحقيق التنمية الاقتصادية وقد أسفر هذا وذاك عن إضعاف قدرة الدولة الأفريقية علي الإكراه والإغراء ويمكن توضيح ذلك كالتالي: (٨١)

أ. ضعف قدرة الدولة الأفريقية علي الإكراه (الترهيب) :

لقد ضعفت قدرة الدولة الأفريقية علي الإكراه نتيجة اضطرارها إلى خفض الإنفاق العسكري تحت دعاوى الرشادة الاقتصادية واضطرارها إلى تقليل عدد العاملين لدى المؤسسات العامة مما أفقدها السيطرة المعنوية علي مواطنيها

وبالإضافة إلى ذلك فان تقوية منظمات المجتمع المدني قد جاء خصماً من قدرة الدولة خصوصاً وان الدولة باتت عاجزة عن التعامل المطلق مع مختلف جماعات المجتمع مغبة ان تتهم بخرق حقوق الإنسان مع ما يحمله ذلك في طياته من احتمالات فرض العقوبات الدولية أو التدخل الإنساني تحت مظلة ما بات يعرف بالشرعية الدولية.

ب. ضعف قدرة الدولة الأفريقية علي الإغراء (الترغيب):

ان فرض برامج التكييف الهيكلي علي الدول الأفريقية دون مراعاة لواقعها الاقتصادي و الاجتماعي قد أجبر الدول الأفريقية علي التخلي عن مسئوليتها الاجتماعية في دعم التعليم والصحة والإسكان وجميع الاحتياجات الأساسية الأخرى وتوفير فرص العمل بالإضافة إلى ان خصخصة الشركات العامة قد دفع بألوف العمال إلى خارج سوق العمل وقد أدى ذلك إلى تعميق حالة الفقر لدى الغالبية من أبناء الشعوب الأفريقية في الوقت الذي فقدت فيه الدولة قدرتها علي الاستخراج ومن ثم علي الترغيب و الإغراء ونتيجة لهذا وذاك فقدت الدولة هيمنتها علي المواطنين بشكل شجع علي الخروج عليها إما سلماً أو عنفاً وهو ما أدى بالتالي إلى تصاعد الصراعات والحروب الأهلية ومن ثم اثر علي وضع الدولة ومؤسساتها.

ثانياً. التحدي العولمي: تعد العولمة واحدة من أهم التحديات التي تواجه الدولة في أفريقيا في الوقت الراهن، حتى ان هناك البعض الذي يرى فيها نوع من الاستعمار الجديد، حيث أدت العولمة إلى اتجاه الدول للتخلي عن وظائفها الأساسية نحو المجتمع بشكل افقد الدولة مبررات استمرارها ووجودها، ويمكن توضيح أسباب وتأثيرات ذلك علي النحو التالي:

أـ مضامين التحدي العولمي: تنصرف تلك المضامين إلى ما يلي: (٨٢)

١ - انه منذ انتهاء الحرب الباردة في بداية التسعينيات بات واضحا مدى ضعف الدول الأفريقية بل وانهيار بعضها (الصومال، ليبيريا، سيراليون، غينيابيساو، أنجولا) جراء عجزها عن الوفاء بالتزاماتها تجاه مواطنيها وتقاعسها في ظل برامج التكيف الهيكلي عن القيام بدورها الاجتماعي وهو الأمر الذي أثار حالة من عدم الاستقرار السياسي وصلت إلى حد المقاومة المسلحة للنظم الحاكمة فيما وصف بالإرهاب وفي هذا السياق تعمق عجز الحكومات حينما فشلت في المواجهة ، خاصة مع تآكل وظائفها الاستخراجية و التوزيعية ثم ان عجز تلك الحكومات الأفريقية دولياً قد بات ماثلاً للعيان فلقد اخترقت سيادتها وانتهكت حدودها دون ان تحرك ساكناً بصورة فردية أو جماعية، مرة تحت دعاوى احترام حقوق الإنسان وأخرى تحت دعاوى التدخل الإنساني، وثالثة تحت دعاوى فرض النظام والقانون وهو الأمر الذي اضعف هيبة وقيمة الدولة لدى المواطنين بشكل أصاب قطاع منهم بالإحباط من إمكانية الاحتماء تحت مظلة الدولة ودفع البعض الآخر إلى الخروج علي الدولة طالما لم تعد مؤهلة ككيان يحتكر وحدة الممارسة الشرعية للسلطة وبالإضافة إلى ما تقدم فان التسارع في عقد الاتفاقيات الدولية الجماعية الملزمة (التجارة، الأسلحة النووية والكيماوية، البيئة، المرأة، الطفل ... الخ) لاتضح ان الوظيفة التشريعية للدولة وفقا لما تمليه قواعد و أعراف وتقاليد ومصالح شعوبها قد أخذت في التآكل هي الأخرى.

٢ - ان هناك جدلاً قائماً وخصوصاً في الغرب يركز علي نهاية عصر الدولة لصالح ما يطلق عليه الهوية الجماعية - كوحدة قائمة بذاتها - وهي بالتالي

اقرب إلى ما يسمى بالحضارة وليس الدولة نظراً إلى ان الدولة لم تبرز ككيان إلا في القرون الحديثة وبالتالي فان الدولة تمر بحقبة خسوف لصالح واقع التفاعل بين الحضارات أو ذوبان كيان الدول في شمول الكون الإنساني بحيث يضم رقعة شاسعة تتداخل وتتشابك بداخلها الهويات المتشعبة والمعقدة وليس في تفاعل حضاري أو في نظام عالمي أشبه بأوروبا في القرون الوسطي.

٣ - ان واقع الحال يشير إلى ان العولمة، تكاد ان تكون صيرورة تاريخية، وبهذا المعنى فهي ظاهرة قديمة وحديثة، وبالتبعية فإنها ستستمر في مجراها حتى النهاية، ذلك ان شعوب العالم الثالث في مرحلة ما قبل الاستعمار، كانت تنتقل من مناطق سكناها إلى مناطق تعيش فيها جماعات أخرى بفعل الجفاف والمجاعة، وكان بعضها يستوعب الجماعات الأخرى في إطار من ثقافته، ثم ان بعض هذه الجماعات كان يمارس الغزو لمناطق جماعات أخرى فيستوعبها أو يستوعب فيها، ومع مجيء الاستعمار الاوروبي فانه حد من التفاعلات السلمية و الصراعية بين الجماعات المتجاورة، حين وضع الحدود لمستعمراته، لكنه في ذات الوقت فتح هذه المستعمرات أمام سلعه وثقافاته ولغاته سعيا لاستيعابها في إطار المنظومة الرأسمالية، ويبدو ان قيام الدولة الوطنية الأفريقية المستقلة، والاعتراف بها من قبل المستعمر الاوروبي، كان ضرورة فرضتها متطلبات حماية المصالح الأوروبية في هذه الدول وتعزيزها ويشهد علي ذلك واقع الحال في مختلف الدول الأفريقية عقب الاستقلال، وما ان انتهت الحرب الباردة فانه يبدو ان حاجة الغرب لاستمرار وجود هذه الدول قوية لم تعد ضرورية إزاء شبكة الاتفاقيات الدولية التي ألزمت بها هذه الدول من جهة وإزاء سيطرة الشركات متعددة الجنسيات علي مقدرات شعوبها من ناحية أخرى.

ب : تأثير العولمة علي واقع ومستقبل الدولة في أفريقيا:

رغم انه من الصعوبة قياس تأثيرات عملية العولمة علي واقع ومستقبل الدولة في أفريقيا إلا ان ذلك لا يعنى أنها خرافة أو أسطورة فهي موجودة وتمارس فعلها في تغيير المضامين والسلوكيات داخل تلك الدول علي مستويات عديدة منها: (٨٣)

١ - **علي المستوى الاقتصادي:** يلاحظ من ناحية ان اقتصاديات السوق علي المستويين المحلى والدولي تحتاج إلى سلطة قادرة علي فرض النظام ومنح الثقة للبنوك والأسواق المالية ولكن المشكلة في الظروف الراهنة ان إضعاف الدولة تحت ضغوط عملية العولمة يحول دون تحقيق ذلك ثم انه لا توجد أي من المنظمات الدولية التي يمكن الاعتماد عليها في هذا المضمار ومن ناحية أخرى فقد أحدثت العولمة تغييرات في الحياة الاقتصادية بمعنى التغيير في هياكل الإنتاج التي تحدد نوعية السلع والخدمات التي تنتجها المجتمعات البشرية من أجل بقائها ورفاهيتها فبدل ان كانت السلع والخدمات تنتج من جانب شعب معين يعيش علي إقليم دولة ومن أجله، فقد أصبحت السلع والخدمات تنتج من جانب شعوب من دول مختلفة للوفاء باحتياجات السوق العالمي بدلاً من السوق المحلى.

٢ - **علي المستوى المالي:** فقد أحدثت العولمة تغييرات في الهياكل المالية التي من خلالها ينشا الائتمان لتمويل السلع والخدمات، فعلي حين ان خلق الائتمان واستخدامه كان يتم داخل إقليم الدولة فانه في الوقت الحاضر يعبر الحدود الإقليمية للدول في إطار أسواق عالمية ترتبط إليكترونيا في نظام واحد ولا يغفل ذلك بحال عن وجود بنوك محلية و أسواق تخلق الائتمان للاستخدام المحلى غير

ان هذه البنوك لم تعد مستقلة تماماً، ذلك أنها باتت تشكل جزءً من نظام اكبر تتأثر به صعوداً وهبوطاً أكثر من تأثرها بالأوضاع المحلية.

٣ - **علي المستوى الاجتماعي والثقافي:** تمارس العولمة دورها علي مستوى المدركات والمعتقدات والأفكار ... الخ ، فعلي حين ان التنوع الثقافي ما زال قائماً إلا ان مشاعر واتجاهات وسلوك الكائن الفرد أخذت في التأقلم مع تقنيات عملية العولمة وباتت العملية أكثر سهولة وسرعة مع الثورة المعلوماتية وانخفاض تكاليف الاتصالات الدولية ورغم ان هذا المستوى يصعب قياسه أو تحديده إلا ان تأثيراته ستكون أكثر أهمية علي المدى البعيد من كل التحولات التي تفرزها عملية العولمة.

٤ - **علي المستوى البيئي:** ان دوافع الفاعلين الدوليين ومصالحهم (الشركات متعددة الجنسيات) تدفعهم إلى تدمير البيئة في الوقت الذي باتت فيه الدول عاجزة عن مواجهة ذلك نتيجة تآكل سلطاتها تحت ضغوط المبادئ الجديدة للتنظيم الدولي وفي ظل القيود التي فرضت علي سيادتها.

٥ - **علي المستوى السياسي:** ان النضال الطويل لشعوب الدول الأفريقية من أجل الحرية والمصداقية جعل بعض الدول تتمتع بالمصداقية تجاه شعوبها ولكن العولمة بتحديها للسلطة داخل الدول ولصالح الشركات متعددة الجنسيات التي أسهمت كبيروقراطية دولية في تقويض هذه المصداقية بشكل افقد حكومات هذه الدول مشروعيتها تجاه مواطنيها وهو الأمر الذي ترتب عليه اندلاع حالات عدم الاستقرار السياسي بمختلف أشكالها بشكل أسفر عن التراجع الديمقراطي والمشكلة انه لا توجد سلطات غير حكومية جديدة (شركات ، منظمات ... الخ) يمكن ان تتمتع بمثل هذه المصداقية .

واستناداً إلى ما تقدم فانه يمكن الإشارة إلى ان هيمنة الدولة الوطنية في أفريقيا كسلطة وحيدة وطاغية علي المجتمع والاقتصاد يمكن ان تصبح استثنائية (أو هامشية) ان لم تنته الدولة كلية في الأمد البعيد بسبب فقدانها لوظائفها وذلك انه من المنظور التاريخي فان تعدد مراكز السلطة في المجتمع كان هو القاعدة في حين ان تركيز السلطة في قبضة حكومات الدول منذ أواخر القرن التاسع عشر وطوال القرن العشرين كان بمثابة انحراف عن مسار التطور التاريخي.

ثالثاً. التحدي الاندماجي:

يلاحظ ان الدول الأفريقية تعايش ما يعرف بأزمة الاندماج الوطني/ القومي منذ الاستقلال وهو الأمر الذي جعل من الصعوبة بمكان علي النظم الحاكمة المضي قدماً في عملية بناء الدولة، ولا عملية بناء الأمة بطريقة مؤثرة وفعالة وهو الأمر الذي زاد من تعميق تلك الأزمة واستشرائها علي مستوى القارة الأفريقية وفي هذا الشان يمكن التركيز علي بعض الاعتبارات ذات الصلة بتلك الأزمة كالتالي: (٨٤)

أ. الاعتبارات المتعلقة بأزمة الاندماج الوطني / القومي:

هناك العديد من الاعتبارات المتعلقة بأزمة الاندماج الوطني / القومي ومنها ما يلي :

١ - علي الرغم من شيوع ظاهرة التعددية في معظم مجتمعات دول العالم إلا ان مشكلة التعددية في المجتمعات الأفريقية علي درجة كبيرة من التعقيد ذلك انه رغم الخفة السكانية النسبية لمعظم الدول الأفريقية (ثلثي الدول

الأفريقية لا يزيد عدد سكان كل منها علي عشرة ملايين نسمة) إلا ان بعضها يضم داخل حدوده ما يزيد علي مائة جماعة إثنية (السودان نحو ٥٩٧ جماعة، نيجيريا نحو ٤٥٠ جماعة إثيوبيا نحو ٩٠ جماعة ...... الخ) ثم انه يقدر ان نحو نصف عدد لغات العالم هي لغات أفريقية وقد ألقى ذلك بكاهله علي الدول الأفريقية التي فرض عليها هذا الواقع ضرورة العمل علي إنماء وتعزيز الشعور بالولاء الوطني وتجسيد مفهوم المواطنة بين الأغلبية العظمى من جماعاتها الاثنية والتي تختلف لغاتها وثقافاتها ودياناتها ومؤسساتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وقيمها اختلافا بينا وذلك بغية تحقيق الاستقرار للكيان السياسي.

٢ - ان معظم أنظمة الحكم الأفريقية قد فشلت في التعامل مع هذه المشكلة إما لفساد هذه النظم وتحيزاتها لصالح جماعة إثنية علي حساب غيرها و إما لعدم قدرتها علي الإكراه والإغراء نتيجة اتساع مساحة أقاليم غالبية الدول الأفريقية وسيادة الطابع الصحراوي أو الغابي عليه وهو ما اقعد نظم الحكم فيها عن تحقيق السيطرة علي كامل الإقليم ولو كرهاً وذلك لتخلف طرق ووسائل النقل فيها و إما نتيجة لتداخل الجماعات الاثنية عبر الحدود بشكل يحول دون إمكانية تحقيق السيطرة علي كامل المواطنين و إما نتيجة لتدخلات قوى إقليمية ودولية ترى من مصلحتها تقويض الاستقرار في هذه الدولة أو تلك لاعبة علي أوتار الاختلافات الاثنية وتعرض هذه الجماعة أو تلك الاضطهاد والقمع من جانب الجماعة الحاكمة.

٣ - إزاء هذا وذاك بات من الصعوبة بمكان علي نظم الحكم الأفريقية إدارة هذه الأزمة سلمياً في ظل هذا التعدد الاثنى مع ما يحمله في طياته من تشتت في الولاءات الفرعية التي تعلو - ان لم تكن تجب - الولاء الوطني.

ب- الاعتبارات المتعلقة بإدارة أزمة الاندماج الوطني / القومي :

لقد حاولت بعض نظم الحكم الأفريقية إدارة هذه الأزمة بواحد أو بأكثر من الأساليب الثلاثة الآتية:

١ - أسلوب الاستيعاب أو الفصل: وهو الأسلوب الذي طبقه النظام العنصري في جنوب أفريقيا لفصل الجماعة الأفريقية عن الجماعة البيضاء في إطار البانتوستانات تحت دعوى استحالة التعايش بين الجماعات المختلفة وقد فشل هذا الأسلوب فشلا ذريعا بانهيار النظام العنصري برمته.

٢ - أسلوب الاستيعاب (الاندماج الإكراهي): وهو يقوم علي استيعاب كافة الجماعات الاثنية الأخرى في إطار من ثقافة ولغة وديانة الجماعة الحاكمة وقد طبق هذا الأسلوب في إثيوبيا (هيمنة الأمهرا) كما طبق في السودان في مواجهة الجنوبيين قبل عام ١٩٧٢ وبعد عام ١٩٨٢ ولكن فشل هو الآخر في تحقيق الاستقرار.

٣ - أسلوب الاسترضاء (الاندماج الوظيفي) : وهو مبدأ يقوم علي أساس تقاسم السلطة والثروة بين الجماعات المختلفة في الدولة ويمر بمنح الحكم الذاتي للأقاليم والجماعات المختلفة ، إلى الأخذ بالشكل الفيدرالي للدولة ، وانتهاء بمنح حق تقرير المصير والاستقلال وهذا الأسلوب لم يطبق في أفريقيا إلا نادرا وحتى في الحالات التي طبق فيها تقاسم السلطة دون الثروة (جنوب أفريقيا) والحكم الذاتي (السودان ٧٢ _ ١٩٨٢) والفيدرالية (نيجيريا _ الكمرون - تنزانيا _ جزر القمر) فان هذا الأسلوب قد فشل في تحقيق غاياته مما يفصح عن ان اللجوء إليه كان بمثابة عملية تكتيكية مرحلية للعودة مرة أخرى إلى الاندماج الطائفي الاكراهي وهو ما دفع

بالأقاليم والجماعات المضطهدة إلى رفع رايات تقرير المصير والاستقلال باعتبار أنه هو الحل الأخير أمامها وذلك في ظل المساندة الفكرية الغربية الراهنة والدعم المادي الغربي لهذا التوجه مع ما يحمله في طياته من مخاطر جمة علي استقرار القارة الأفريقية .

ان أزمة الاندماج الوطني علي النحو الذي تم تحديده والتعامل معه بالشكل الذي تم توضيحه قد أسفرت عن العديد من المشكلات كالحروب الأهلية والتي وصلت في بعضها إلى حد الانهيار الكامل لجميع مؤسسات الدولة وعليه فطالما بقيت تلك الأزمة دون حل سلمى ومقبول يسمح بالمشاركة في السلطة وتقاسم الثروة واحترام التنوع الثقافي والاجتماعي فان مثل تلك المشكلات ستستمر في القارة وستستمر معها أيضاً تلك التبعات والنتائج الوخيمة التي تنال من جميع مقومات وموارد الدولة في أفريقيا وتستنزفها في صراعات لا نهاية لها.

رابعاً- التحدي العسكري :

طالما انتقلت خاصية احتكار القوة بمفهومها العام والتقليدي من الدولة إلى العسكريين واصبحوا هم المحتكرين الأساسيين لها واصبحوا هم الجهة القادرة علي فرض الإكراه تكون الدولة قد سلبت منها أحد الأركان الأساسية أو الخصائص المميزة لها والتي تعد جوهر سيادتها ، فتورط العسكريين المستمر في الحياة السياسية داخل الدولة في أفريقيا وانتفاء الطابع الحيادي عنهم يجعل هناك نوع ما من ازدواجية السلطة وهو ما يمثل أحد التحديات الرئيسية التي تواجه الدولة في أفريقيا ، كما أن تكرار الانقلابات العسكرية ربما يكون المؤشر الأفضل لاغتراب النخبة العسكرية وعدم الولاء للنظام الحاكم والدليل علي ذلك انه خلال الفترة من عام ١٩٥٨ وحتى عام ١٩٨١ وقع أكثر من ٤١ انقلاب ناجح ووقعت

في ٢٢ دولة أفريقية بالإضافة إلى محاولات كثيرة لم تنجح ومن عام ١٩٦١ فان التدخل العسكري في السياسات الأفريقية اصبح متوطناً واستطاعت الجيوش الأصغر القيام بمثل تلك المغامرات والانقلابات الناجحة واصبح الجيش أكثر الخصوم الداخليين خشية من جانب الحكام الأفارقة سواء كانوا مدنيين أو عسكريين ومن ثم فقد أصبحت المهنة العسكرية مقدمة أو مرحلة انتقالية للوصول إلى السلطة السياسية، فقد تخلى العسكريون عن مجرد كونهم موظفين حكوميين يدينون بالولاء للحكومة لصالح ان يكونوا هم أنفسهم حكاماً علي بلدانهم ويلاحظ ان عدم الفعالية للحكومات الأفريقية امتدت إلى الجيش أيضاً كما هو الحال بالنسبة للأجهزة والمؤسسات المدنية للدولة، فساد أيضاً فيه سوء الإدارة وسوء التنظيم ففي التطبيق يلاحظ ان معظم الجيوش الأفريقية كانت اقرب إلى كونها تنظيمات سياسية من كونها تنظيمات عسكرية، كما كانت متأثرة بالفساد والتشرذم وأنماط السلطة القائمة ليس فقط علي الرتبة والدور أو الوظيفة ولكن أيضاً علي الولاءات الاثنية والشخصية كما ان مقدرة الجيوش الأفريقية علي التعامل مع الصراعات الداخلية كانت مبهمة فعلي الرغم من التفوق الشامل في الرجال والعتاد فالجيش الفيدرالي النيجيري مثلاً واجه صعوبة بالغة في دحر القوات بإقليم بيافرا في نهاية الستينيات وكذلك الحال في كل من السودان وأنجولا وإثيوبيا وليبيريا والكونغو الديمقراطية (زائير سابقاً) وغيرها في الكثير من الفترات التي مرت بها هذه الدول.(٨٥)

وهكذا فان القوات المسلحة تمثل عائقاً وتحدياً سافراً - في كثير من الحالات - أمام أي تحول إيجابي للدولة في أفريقيا ومن ثم يتركز الأمر هنا في كيفية نزع الصفة العسكرية عن الصراعات السياسية وإخضاع المجتمع للإرادة المدنية

وكيفية بسط المدنيين لسيادتهم علي القوات المسلحة ، والمشكلة أيضاً ان القوات المسلحة تمقت وتقاوم أية محاولات لإصلاح المؤسسات الاجتماعية لا تنبع منها ولا تتولى قيادتها بنفسها مهما كانت هذه المحاولات ضعيفة ومن ثم فان تحقيق الاستقرار في العلاقات بينهما يستلزم ضرورة إعادة الاحتراف للقوات المسلحة وغرس القيم المدنية الخاصة بالطاعة المطلقة للسلطة المدنية من جانب القوات المسلحة وخفض النفقات العسكرية وتوفير ظروف عمل مناسبة للضباط وتوعيتهم سياسياً وإجراء تخفيض مؤثر للقوات المسلحة والاختيار السابق يعنى تسريح الجيش بشكل أساسي وان كان هذا الأمر يبدو صعباً وعسيراً إلا انه علي قدر كبير من الأهمية وذلك لان حجم القوات المسلحة ومهمتها الاجتماعية مشكلة خطيرة في معظم الدول الأفريقية وقد تكون هناك حاجة لاستراتيجية دولة بلا قوات مسلحة بالنسبة لغالبية تلك الدول والاستعاضة عن ذلك بقوة عسكرية إقليمية وقواعد وسياسات تحكمها لتتولى مسالة الأمن الإقليمي للمنطقة.(٨٦)

المطلب الثالث: إصلاح الدولة في أفريقيا

ان الإصلاح الجذري للدولة في أفريقيا هو أمر ضروري من أجل الاستقرار السياسي والتنمية الاقتصادية وهما الهدفان اللذان لم يتحققا بسبب عدم قدرة الأفارقة علي التراضي والتوافق ولعل مثل هذا الإصلاح للدولة الأفريقية يمكن ان يتم من خلال إعادة التفكير أو إعادة الهيكلة أو إعادة صنع تلك الدولة ولا يعنى ذلك إعادة هيكلة المؤسسات فقط وانما ينبغي إعادة التفكير الشاملة لكل مكونات الدولة ولكل ما يتصل بها داخلياً وخارجياً مع مراعاة ان هناك تفاوتاً في حالات و أوضاع الدول الأفريقية ما بين الدولة الهشة وشبه الدولة والدولة المتحللة والدولة المنهارة وهو الأمر الذي ينبغي أخذه في الاعتبار لكي تكون

إعادة التفكير و إعادة الهيكلة والتحول مجدية، ولكي يتم ذلك يجب الاهتمام بكل من العلاقات بين الدولة والشعب بمعنى تجديد أسس المواطنة والعلاقات بين الدولة وأقاليمها والعلاقات بين الدولة والموارد ونظم الملكية والعلاقة بين الدولة ومؤسساتها ووظائفها. (٨٧)

وإذا كانت الفترة منذ عام ١٩٨٥ وحتى عام ١٩٩٠ قد شهدت إجبار أكثر من عشرين نظاماً فردياً علي التحول إلى الليبرالية كما تم إجراء انتخابات بين أحزاب متعددة في ثمان دول أفريقية وانه بحلول عام ١٩٩٧ أصبحت حوالي ثلاثة أرباع الدول الأفريقية تحت حكم ديمقراطي إلا ان مثل هذه الإجراءات والممارسات ومثل هذا المشروع الديمقراطي كوسيلة لإصلاح الدولة في أفريقيا يبقى متردداً ومتعثراً وغير قادر علي النمو بشكل كيفي، ففي دول مثل ساحل العاج وغينيا وتوجو والجابون وكينيا كان ممكناً ملاحظة وجود مجرد مظاهر ديمقراطية كاذبة حيث تتولى السلطات معظم الانتخابات وهي مكرهة وتسعى لتخليد الحكم الاوتوقراطي في ظل مظاهر زائفة للحكم الديمقراطي وفي غانا وغينيا الاستوائية والنيجر وجامبيا اصبح الحكام العسكريون ديمقراطيين فجأة ويعززون سلطاتهم أكثر بواسطة عمليات الانتخابات المزورة أما في نيجيريا والجزائر فالحكام المستبدين المعارضين للانسحاب من السلطة أفسدوا عن قصد العمليات الانتخابية من خلال إلغاء الانتخابات وفي سيراليون قام العسكريون بعملية عسكرية لإقصاء الحكومة المنتخبة و إعادة الحكم العسكري كما ان دولاً مثل ليبيريا ورواندا وبوروندي والصومال والسودان والكونغو الديمقراطية احتلت فيها قضايا السلام وتسوية المنازعات الداخلية و إعادة البناء الأولوية عن الكثير من القضايا مثل قضية التحول الديمقراطي. (٨٨)

وعلي جانب آخر فان الدولة في أفريقيا ـ وفي سبيل تحقيق الإصلاح السياسي لها ـ في حاجة ماسة إلى قاعدة اقتصادية سليمة قبل الإصلاح المتعلق بالتعددية السياسية والتحولات الديمقراطية وليس بالإمكان تخيل فصل الاعتبارات السياسية عن الاعتبارات الاقتصادية أو استثناء الشعب من الاختيار للإجراءات والترتيبات الاقتصادية ويلاحظ انه علي مستوى القارة الأفريقية لم يكن هناك نظام حكم سلطوي قادر علي إقامة نجاح اقتصادي دائم وعلي سبيل المثال فكل من الكاميرون والجابون وساحل العاج وملاوي والمغرب وكينيا وتوجو والتي زعمت كل منها أو بعضها أنها تعد نماذج للنجاح الاقتصادي الأفريقي فمع بداية التسعينيات كانت الطموحات الاقتصادية لها قد انزوت أو تلاشت في ظل استشراء الفساد والنهب وجمود النظام المؤسسي المقاوم للإصلاحات السياسية وفي كل من ليبيريا والصومال فان المكاسب المحققة نتيجة الإصلاح الاقتصادي في ظل نظم حكم سلطوية تم تقويضها خلال الاضطرابات الداخلية الناجمة عن سياسات وممارسات القادة ورفضهم الرضوخ للمطالب الشعبية من أجل الإصلاح السياسي وغيرها من الإصلاحات الداخلية.[٨٩]

ان عملية إعادة تأسيس أو صنع الدولة الأفريقية تشير إلى ان الثورة السياسية في أفريقيا المعاصرة ما زالت محدودة بالمركز وان عملية إعادة التأسيس تتم بنفس الأنماط والإجراءات التي سبق ان فشلت في أفريقيا منذ الستينيات ومن ثم فان استراتيجيات "القمة _ القاع " Top - down لا تستطيع تذليل المشكلات التي تعانى منها الدولة وذلك لأنها غير قادرة علي دمج وتوحيد السكان أو وضع هياكل للعمل الجماعي مقبولة من جميع القوى داخل المجتمع لذلك فإن إعادة تأسيس الدولة الأفريقية تتطلب حل هذه المشكلات

إذا أرادت التعامل مع التنوع الاثنى والديني وعلي اعتبار أنه يمكن للشعوب ان تحكم نفسها أفضل في ظل نظم فيدرالية ومشاركة وتفعيل علي مستوى جميع أجهزتها وكذلك التأسيس لهياكل حقيقية وحيوية أو متطورة للحكم المحلى هذا من ناحية ، كذلك فان أفريقيا تعانى حالياً فترة من التحول نحو الإصلاح و إعادة التنظيم السريعة وقد يكون توجهها هذا للأفضل أو للأسوأ وعلي سبيل المثال فالمشكلات الاقتصادية خلال السبعينيات والثمانينيات قادت العديد من الدول الأفريقية إلى اعتناق سياسات اقتصادية كبيرة Macro وبرامج للتكيف الهيكلي ومن ثم فان النتائج المترتبة علي ذلك لم تقود إلى تغيير أو تحسين جوهري وانما اقتصر الأمر علي مجرد إعادة صياغة مؤسسات واستراتيجيات الستينيات ومشكلة أفريقيا في جوهرها أنها لا زالت واحدة من المناطق المتخلفة فالشعوب فقيرة والمصادر والموارد غير مستغلة جيدا والمؤسسات غير فعالة في إدارة العمل الفردي والجماعي المطلوب لحل هذه المشكلات، كما ان الخدمات مثل الصحة والمياه والتعليم فقيرة وغير موجودة و البنية الأساسية ليس بالإمكان إقامتها وإذا كانت قائمة فانه يصعب المحافظة عليها وصيانتها والمشروعات غير مكتملة والصراع المدني بغير تسوية ومن ثم ذان الحديث عن الإصلاح السياسي والحكم الجيد والفعال والتحول الديمقراطي يكون بمثابة اللغو طالما ان هذا التخلف قائم وذا كان التخلف يلاحظ كحالة رئيسية للمشكلات الأفريقية فان خبرة العقود الماضية تشير إلى انه ما زال هناك عدم إدراك واضح لما يمكن القيام به في هذا الصدد وجميع التجارب ما زالت قاصرة عن الاستجابة المؤثرة في هذا الشان، فالديمقراطية الليبرالية و الليبرالية الاقتصادية والتجريب الأيديولوجي واستخدام القوة والتوجيه المركزي والتكيف الهيكلي جميعا جربت وجميعها فشلت.(٩٠)

ومن ثم فان الحاجة تبدو شديدة لإعادة المراجعة الدقيقة والموضوعية لمثل تلك التجارب والممارسات لحالات الدول الأفريقية وان تنبع الإرادة الحقيقية للتغيير والإصلاح السياسي من داخل تلك الدول ذاتها وبما يتناسب مع قدراتها ومتطلباتها .

إذن فماذا تحتاج الدولة في أفريقيا ؟ ان الدولة في أفريقيا تحتاج إلى ما يلي: [٩١]

أولاً. مزيد من نظم الحكم المسئولة لتعزيز دورها الوظيفي والنافع بدلا من نظم وسياسات وممارسات عصر الحرب الباردة اللامسئولة.

ثانياً. ان الفاعلين الأفريقيين والدوليين مسئولون عن الملاحقة الجنائية لكل من مارس أو شجع علي الممارسات القمعية والفساد داخل الدول الأفريقية سواء كانوا في مؤسسات رسمية أو غير رسمية ويجب وفقاً لذلك ان يخضعوا للعقوبات .

ثالثاً. ان يكون هناك نوع من العمل المنظم والمنسق بين الهيئات والمؤسسات الحكومية وغير الحكومية وذلك للمساهمة فبتسوية كثير من المشكلات مثل إنهاء المتمردات المتنامية في كثير من الدول مثل أنجولا وليبيريا وسيراليون والصومال والكنغو الديمقراطية وغيرها والاعتراف بان جيوبوليتيكية الحرب الباردة وان كانت مسئولة عن الحروب بالوكالة في أفريقيا كسلوك شائن للدكتاتوريات الموجودة في مناطق مختلفة من القارة فان الواقع المعاصر الذي تعايشه الدول الأفريقية لا يجب ان يسمح بمثل ذلك.

رابعاً. ضرورة أن يكون هناك متابعة عادلة من جانب الجهات التمويلية الدولية لإعادة التجديد ولإعادة التأسيس للأوضاع المختلة في الدول الأفريقية وخصوصاً في مجالات التنمية الاقتصادية والاجتماعية باعتبارها المقدمة الحقيقية لأية إصلاحات سياسية حقيقية.

إذن فان عملية الإصلاح للدولة في أفريقيا ينبغي ان تقترن بما يلي: (٩٢)

١ - وجود دستور قائم علي التوازن والمراجعة ويتم التفاوض بشأنه بحريه ويتم تبنيه بطريقة ترغيبية و رضائية وتوفيقية وليس في ظل الإكراه والتهديد والترهيب.

٢ - وجود دولة علمانية وغير أيديولوجية وغير تمييزية وغير إثنية.

٣ - الفصل بين السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية مع ضرورة تفعيل جميع هذه السلطات وتفعيل التعاون الإيجابي فيما بينها من أجل القيام بوظائف حقيقية لصالح الدولة.

٤ - وجود حكم القانون مع إمكانية حق التقاضي أمام المحاكم مع وجود قائمة بالحقوق وضمانات كافية للحريات.

٥ - وجود اتحادات ونقابات مستقلة ومؤثرة وتنظيمات المجتمع المدني بحيث تكون نشيطة وفاعلة.

٦ - وجود جيش محترف ومحايد وعلي إدراك ووعي بأهمية دوره في استقرار و أمن وتنمية البلاد.

٧ - وجود مشاركة شعبية غير مقيدة وغير فوضوية.

ومما تقدم ينبغي توضيح ان الظاهرة المتكررة لعدم الاستقرار السياسي، و الصراعات المدنية و الاثنية، في الدول الأفريقية وان كانت تجعل هناك نوعاً من

الارتباك حول الخيارات المتاحة أمام النظم الحاكمة القائمة ومؤسساتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فإن الاعتقاد الثابت هو أن الدول الأفريقية سوف تصبح حيوية فقط بقدر ما تتمسك بالقواعد والمعايير والتطبيقات المعقولة والمناسبة دولياً للحكم الجيد، والتنمية الاقتصادية.[93]

وهذا الذي تم توضيحه يعد من العناصر الأساسية لأي نظام سياسي رشيد يمكن ان يقوم في الدولة الأفريقية بحيث يكون معززاً ومدعماً لها و ينبغي علي كل دولة في إطار مراجعة دساتيرها وقوانينها وبرامجها وسياساتها وممارساتها ان تراعى ذلك بقدر المستطاع وبما يتفق مع ثقافتها وتاريخها وخبراتها وقدراتها وتطلعاتها وبمنأى عن أي ضغوط خارجية.

خاتمة

ان أزمة الدولة في أفريقيا هي من الأزمات الراهنة المزمنة والمستعصية حتى الوقت الحاضر، وإذا كانت تلك الدولة قد تطورت عبر مراحل التاريخ المختلفة، قبل التكالب الاستعماري عليها، وهو ما يثبته وجود العديد من الحضارات والممالك القوية، في أرجاء مختلفة من القارة الأفريقية، فإنها خلال الحقبة الاستعمارية لم تترك لتتطور وتتحول بالطريقة الطبيعية، وانما ظل العنصر الاستعماري المتدخل في شئونها علامة بارزة وسبباً رئيسياً ومباشراً في تنامي وتعاظم أزمتها تلك، ويلاحظ أن إسهامات النظم الحاكمة الوطنية - في مرحلة ما بعد الاستقلال - في تلك الأزمة كانت ظاهرة ومستمرة منذ سنوات طويلة، وأخذت صوراً متنوعة في ظل الاحتكار لكل من الثروة والسلطة، وما ترتب علي ذلك من مساوئ شتي، انعكست تأثيراتها علي مجمل كيان و أبنية ومؤسسات الدولة ووظائفها وممارساتها، وإذا كانت أزمة الدولة في أفريقيا، قد وصلت إلى أقصى وأقسى مدى يمكن ان تصل إليه في بعض الحالات، وذلك بانهيار العديد من الدول، ووصول البعض الآخر إلى حافة الانهيار، وهكذا تتفاوت درجات الأزمة والمعاناة، فان ما يمكن ان يبعث علي الأمل هو ان يحدث الانفراج بعد كل هذا التأزم عن طريق إحداث تحول داخلي حقيقي.

ومن هذا المنطلق فان أي محاولة للتغيير ولإحداث الانفراج في الوقت الراهن، يجب ان تكون بدافع أفريقي وبإرادة أفريقية، ولا يعنى ذلك مجرد إعادة صياغة السياسات والممارسات القديمة، وانما يجب ان يكون هناك إدراك تام لعملية التغيير، والأسس التي تقوم عليها، ومقوماتها، وأهدافها، وآلياتها، وان يتم تفعيل هذه العملية باستمرار، وان تشمل جميع عناصر وقطاعات الدولة ابتداء من دستور الدولة ومؤسساتها الحكومية وغير الحكومية وعلاقاتها الداخلية

والإقليمية والدولية ووظائفها المستهدفة والمحققة، وقبل كل هذا وذاك فانه بدون البدء بالمواطن علي المستوى الشعبي والقاعدي باعتباره النواة الحقيقية للمجتمع والدولة، والذي ينبغي ان تبدأ من عنده أي محاولة جادة لأي تغيير حقيقي وفعال، وان يلمس هو هذا التغيير في حياته اليومية، فالمواطن ليس في حاجة إلى مزيد من الشعارات أو الخطط أو الاستراتيجيات أو المؤتمرات وغير ذلك الأشياء التي لا تتحقق، والمواطن لكي يلمس التغيير يجب ان تحترم وتتاح له الحاجات الأساسية (البيولوجية) من مأكل ومشرب وملبس ومسكن وزواج وذلك كحد ادني لاحتياجاته، ومن هنا تكون البداية الفعلية للتغيير، كذلك فان وضع الزعامة القيادة السياسية بالحالة التي ظلت وما زالت عليها حتى الآن في الدولة الأفريقية، ليس بالإمكان ان تتناسب أو ان تساعد في عملية التغيير المرجوة، فيجب ان تتغير النظرة التقليدية لتلك القيادة سواء في الأسس التي تقوم عليها أو في خصائصها أو في أدوارها أو في علاقاتها مع المحكومين أو في علاقاتها مع أنفسهم أو في علاقاتها مع مؤسسات الدولة أو في علاقاتها مع دستور وقوانين الدولة ووظائفها وعلاقاتها الداخلية والخارجية أو في علاقاتها مع أقاليم وموارد وقدرات الدولة المختلفة.

ان مجرد التحديد للمشكلة يعد أولى خطوات حل المشكلة، وإذا كانت مشكلة الدولة في أفريقيا تحددت أزمتها المعاصرة والمزمنة في حالات الضعف بل والانهيار والتخلف وعدم الاستقرار وصولاً إلى مرحلة افتقاد مقومات وأركان الدولة في بعض الأحيان، فإن هذا التحديد يمكن أن يمثل بداية إعادة التغيير، وبداية إعادة الإصلاح، والأمل كبير في ان تستثمر أفريقيا شدائدها وأزماتها من أجل إعادة البناء لدول جديدة وناهضة في النهاية.

قائمة الهوامش والمراجع

(١) راجع كل من:

- د. إبراهيم نصر الدين: " إشكالية الدولة في أفريقيا "، بحث مقدم إلى ندوة أفريقيا اليوم: قضايا داخلية وخارجية (القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية بجامعة القاهرة، ٢٠٠٠) ص ص ١٦ , ١٧ .

- Robert H .Jackson & Carl G .Rosberg: "why Africa's weak state persist the empirical and juridical in statehood" in, world politics (Princeton : the trustees of Princeton university , vol .35 no .1 .October 1982) pp. 2, 3.

(٢) عز الدين شكري " أزمة الدولة في أفريقيا " السياسة الدولية (القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بمؤسسة الأهرام، العدد ١١٠، أكتوبر ١٩٩٢) ص ٦٧ .

(٣) راجع كل من :

د. إبراهيم نصر الدين، إشكاليه الدولة ... مرجع سبق ذكره، ص ص ١٧، ١٨ .

Robert H .Jackson & Carl G Rosberg, op.cit., pp 3-11.

(4) Naomi Chazan (others) : Politics and Society in Contemporary Africa (Colorado: Lynne Rienner publishers,1992.) pp. 38 - 42.

(5) Donald Rothchild & letitia Lawson , "the interactions between state and civil society in Africa form deadlock to new routines" in ,John Harbeson, Donald Rothchild & Naomi Chazan : Civil Society and the State in Africa (London : Lynne Rienner publishers,1994) pp.258, 259.

(٦) بيتر انيانج نيونجو:" مقدمة " ترجمة د. شهرت العالم، في بيتر نيانجو (تحرير): من تجارب الحركات الديمقراطية في أفريقيا والوطن العربي (القاهرة: مركز البحوث العربية١٩٩٥) ص ص ٢٣ - ٢٩ .

(7) Goran Hyden " rethinking theories of the state _ an Africanist perspective " in, Africa Insight, (Pretoria, the Africa Institute of South Africa, vol.26,no 1, 1996.).P31.

(٨) هاري جولبورن: " الدولة والتنمية وضرورة المشاركة الديمقراطية في أفريقيا" ترجمة مصطفي مجدي الجمال في بيتر نيانجو (تحرير)، مرجع سبق ذكره، ص٤٩ .

(9) Goran Hyden, op.cit., pp.26 - 35.

(١٠) لمزيد من التفاصيل راجع أيضاً: سمير أمين " الدولة ومسالة التنمية " في، بيتر نيانجو، مرجع سبق ذكره، ص ص ٥ _ ٢٠.

(١١) راجع أيضاً ولمزيد من التفاصيل:

سعيد أوجموبي: " بناء المستقبل: أفريقيا وتحديات الديمقراطية والحكم الرشيد في القرن الواحد والعشرين " في، التنمية والتقدم الاقتصادي)القاهرة: منظمة تضامن الشعوب الأفريقية و الآسيوية، العدد ٧٥، يناير / مارس ١٩٩٩ (ص ص ٢٩-، ٤٠

(١٢) راجع أيضاً ولمزيد من التفاصيل:

Errol A .Henderson : " the impact of culture of African coups d'Etate , 1960 _ 1997" in, World Affairs " Washington D .C ..American peace society ,Vol. 161, no.1, Summer 1998) pp. 10 - 190.

(١٣) راجع في هذا المعنى:

Jeffrey Herbst "responding to state failure in Africa " in, International Security (Harvard: Harvard college vol .21 , no .3 winter , 1996 /1997) p 120.

(١٤) رولاند أوليفر و جون فيج: تاريخ أفريقيا - ترجمة د. عقيلة محمد رمضان (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٩٤) ص ص ٧، ٨ .

(١٥) المرجع السابق، ص ص ٨ - ١٢ .

(١٦) د. حمدي عبد الرحمن حسن: قضايا في النظم السياسية الأفريقية) القاهرة: مركز دراسات المستقبل الأفريقي، ١٩٩٨) ص ص ٤١، ٤٢ .

(١٧) د. إبراهيم نصر الدين إشكالية الدولة ....، مرجع سبق ذكره، ص ١١

(١٨) نفس المرجع السابق.

(19) Abdoulaye Bathily " the west African state in historical perspective " in, Okwuudiba Nnoli (ed.,) Government and Politics in Africa (Harare: AAPS Books, 2000) p. 32.

(٢٠) راجع كل من:

Ibid ., pp. 32 - 35 .

و رولاند أوليفر و جون فيج: مرجع سبق ذكره، ص ص ٥٠ - ٥٢ .

(٢١) درك كارتن: أفريقيا - أفريقيا: قارة تقف علي قدميها _ ترجمة احمد فؤاد بلبع (القاهرة: مؤسسة سجل العرب، ١٩٦٥) ص ص ٢٥، ٢٦ .

(٢٢) د. حمدي عبد الرحمن حسن: مرجع سبق ذكره، ص ٥٣ .

(٢٣) راجع كل من: المرجع السابق، ص ص ٥٥ - ٥٧ .

فريدفون دير مهدن: السياسة في الدول النامية ترجمة مصطفي عباس (القاهرة: الهيئة العامة للكتب والأجهزة العلمية، ١٩٦٨) ص ص ٧ - ٩ .

(٢٤) د. إبراهيم نصر الدين: إشكالية الدولة ... مرجع سبق ذكره، ص ص ١١ - ١٢ .

(٢٥) المرجع السابق، ص ص ١٢- ١٣ .

(٢٦) المرجع السابق، ص ١٣ .

(27) Peter Anyang Nyong`o: "Africa: the failure of one - party rule" in, Journal of Democracy (Baltimore, johns Hopkins university press, vol.13 no.1 January 1992) p.91

(28) George B .N .Ayittey : Africa Betrayed (New York , St.Martins press , 1992) P 91.

(٢٩) د. إبراهيم نصر الدين، إشكالية الدولة ... مرجع سبق ذكره، ص ١٤ .

(٣٠) المرجع السابق، ص ص ١٥، ١٦ .

(31) Ptwin Marenin " the managerial state in Africa: conflict coalition perspective "in, Zaki Ergas: The African State in Transition (London: Macmillan press, 1987) P 65.

(٣٢) هاري جولبورن، مرجع سبق ذكره، ص ص ٤٣ - ٤٥ .

(٣٣) بيتر انيانج نيونجو، مرجع سبق ذكره، ص ٢٤ .

(34) Claude E .Welch jr.,: "the military and the state in Africa : problems of political Transition" in. Zaki Ergas, op .cit , pp 192 , 193.

(٣٥) عز الدين شكري، مرجع سبق ذكره، ص ص ٤٧ .

(36) Jeffrey Herbst, "war and the state in Africa" in, International Security(Vol .14 , no . 4 spring 1990) pp. 125 - 128.

(٣٧) راجع :

د. عبد الملك عودة: " الأزمة الراهنة في أفريقيا ١٩٨٤ - ١٩٨٥ "السياسية الدولية (العدد ٨٢ أكتوبر ١٩٨٥) ص ص ٤٠- ٤٤ .

وانظر أيضاً:

Richard Hodder - Williams : An Introduction to the Politics of Tropical Africa (London :George Allen & Unwin , 1984) PP 113-140

(٣٨) راجع أيضاً ولمزيد من المعلومات حول هذا المعني:

Boniface Yao Gebo : "the African state system - the paradox of political Uni-

versalism "in, Africa Quarterly " (New Delhi , Indian Council for Cultural relations , vol. 36, no.3 ,1996) pp. 15-17.

(٣٩) راجع لمزيد من التفاصيل حول هذا المعني:

Dipo Irele "the nation _ state in Africa : a fresh look" in, Africa Quarterly (vol. 38, No. 2, 1998) pp. 55-58.

(٤٠) راجع لمزيد من التفاصيل حول هذا المعني:

Pauline H.Boker " reflections on the economic correlates of African democracy" in, Dov Ronen : Democracy and Pluralism in Africa (Colorado , Lynne Rienner publishers inc , 1986 .) p.60.

(٤١) راجع حول تناقص الفعالية السياسية للدول الأفريقية:

Boniface Yao Gebo, op.cit.,pp.19,20

(42) Osita Agbu: "human rights implications of African conflicts" In, African Journal of Political Science .(Harare : AAPS, vol .5 no .1 June 2000) pp 95 , 96 .

(٤٣) راجع حول هذا المعنى ولمزيد من التفاصيل كل من:

John W .Harbeson , "constitutions and constitutionalism in Africa : a tentative theoretical exploration " in, Dov Ronen , op.cit., pp 7- 9 .

Richard Hodder –Williams , op.cit., p 113

(٤٤) د. عبد الملك عودة: " الاتجاهات السياسية للدساتير الأفريقية الحديثة " السياسية الدولية، (العدد ١٦ أبريل ١٩٦٩) ص ص ٤٨، ٥٥

(45) Harbeson Constitutions.... .op.cit., p .8

(٤٦) د. كمال المنوفي: أصول النظم السياسية المقارنة (الكويت: شركة الربيعان للنشر والتوزيع ١٩٧٨)ص ٢١٤

(٤٧) بول سيجموند: أيديولوجيات الأمم الآخذة في النمو- ترجمة: تيسير محمود فهمي (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٤) ص ٢٨.

(٤٨) سعيد أوجمويي: مرجع سبق ذكره، ص ص ٣٦، ٣٧ .

(49) Michael Bratton "deciphering Africa's divergent transitions" in, Political Science Quarterly (New York: the Academy of Political Science, vol. 112. 1 Spring 1997) PP 69 - 72 .

(50) John w .Harbeson , Constitutions ì .op.cit., pp 7 - 9 .

(51) Richard Hodder - Williams, op.cit., p 115.

(52) Peter Anyang Nyong'o, : Africa : the failure ì .op .cit., pp.91_93.

(53) Thomas M .Callaghy "the State as lame leviathan : the patrimonial administrative State in Africa "in , Zaki Ergas, : op .cit ., pp 87 - 116.

(٥٤) هاري جولبورن، مرجع سبق ذكره، ص ص ٤٨، ٤٩ .

(٥٥) المرجع السابق، ص ٤٩ .

(٥٦) المرجع السابق، ص ص ٥٠، ٥١ .

(57) Dov Ronen "the state and democracy in Africa" in, Dov Ronen, democracy, op.cit., pp. 197 - 201.

(58) Dipo Irele, op.cit. pp 55 - 56 .

(٥٩) حول التدابير التي اتخذتها الحكومات الوطنية من أجل الوحدة القومية انظر: فريد فون دير مهدن، مرجع سبق ذكره، ص ص، ٦٢ _ ٦٨ .

(٦٠) د. إبراهيم نصر الدين: الاندماج الوطني في أفريقيا: نموذج نيجيريا) القاهرة: مركز دراسات المستقبل الأفريقي ١٩٩٧) ص ٩ .

(٦١) المرجع السابق، ص ص ٧، ٨ .

(٦٢) فريدفون دير مهدن، مرجع سبق ذكره، ص ص ٥، ٦ .

(٦٣) د. حورية توفيق مجاهد: نظام الحزب الواحد في أفريقيا بين النظرية والتطبيق) القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٧) ص ص ١٤٩ - ١٥٥ .

(٦٤) بول سيجموند،مرجع سبق ذكره، ص ١٥٥ .

(٦٥) المرجع السابق، ص ص ١٧، ٢٣، ١٥٦ .

(66) Jeffry Herbst , "the fall of afro - Marxism "in, Journal of Democracy (vol 3 , no.1 January 1992) PP. 62 - 94.

(67) Ibid ., pp. 95 - 100.

(68) Harvey Glickman "reflections on state - centrism as ideology in Africa " in , Zaki Ergas, op .cit., p. 25.

(69) Marina S. Ottowoy, "the crisis of the socialist state in Africa" in, Zaki Ergas, op.cit., p,169 .

(٧٠) راجع في هذا المعنى

Peter Evans : "the Eclipse of the state ? reflection on Stateness in an Era of Global-

ization "in, World Politics (vol. 50 , no. 1 October , 1997) pp. 63 - 70 - 74.

(٧١) د . بطرس بطرس غالي : " الدبلوماسية الأفريقية ومشاكل التنمية " السياسية الدولية (العدد ١٨ أكتوبر ، ١٩٦٩) ص ص ٢٤-٦٥ .

(٧٢) د . صادق رشيد : أفريقيا والتنمية المستعصية _ أي مستقبل ... ؟ ترجمة مصطفي مجدي الجمال (القاهرة ، مركز البحوث العربية ، ١٩٩٥) ص ٣٥ .

(٧٣) المرجع السابق ، ص ٣٦ .

(٧٤) د . عبد الملك عودة . الأزمة الراهنة ... مرجع سبق ذكره ، ص ٤٣ ، ٤٤ .

(٧٥) المرجع السابق ، ص ٤٤.

(٧٦) نفس المرجع السابق .

وانظر أيضاً د . صادق رشيد ، مرجع سبق ذكره ص ص ٤٣ - ٤٦ .

(٧٧) بيتر أنيانج نيونجو ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٣٨ ، ٣٩ .

(٧٨) د . إبراهيم احمد نصر الدين " العولمة وانعكاساتها علي دول العالم الثالث " في ، د . السعيد البدوي (تقديم) العولمة : اثارها علي أفريقيا) القاهرة ، معهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة ، ١٩٩٩) ص ص ١٧٢ _ ١٧٧.

وانظر أيضاً لمزيد من التوضيح : عز الدين شكري ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٥٨ - ٦٢ .

(79) Celestin Monya : "Eight problems with Africa politics "in, Journal of Democracy (vol. 8, No. 3 , July 1997) pp. 158 - 169.

(80) Denis Venter : "Sustainable Democracy in Sub" Saharan Africa : the interface between politics and economic "in, Africa Insight (vol. 28. No 112 , 1998)pp.3,4.

(٨٠) د . إبراهيم احمد نصر الدين :" ظاهرة الحروب الأهلية في أفريقيا بين أزمة الاندماج الوطني والتحول الديمقراطي " ورقة عمل مقدمة إلى ندوة الصراعات والحروب الأهلية في أفريقيا) القاهرة : منظمة تضامن الشعوب الأفريقية والآسيوية ، ٢٠ أبريل ٢٠٠٠) ص ص ٥ ، ٦ .

(٨٢) د . إبراهيم احمد نصر الدين : العولمة ...... مرجع سبق ذكره ، ص ص ١٦٥ - ١٦٨ .

(٨٣) مراجع ولمزيد من التفاصيل :

المرجع السابق ، ص ص ١٧٠ - ١٧٢ .

د . سعد حافظ محمود ، " مفهوم العولمة من منظور تطوري " في ، د . السعيد البدوي (تقديم) : مرجع سبق ذكره ، ص ص ٤٥ - ٤٧ .

Peter Evans , op.cit., PP. 62 - 66, 74 - 78.

(٨٤) د. إبراهيم احمد نصر الدين: ظاهرة الحروب الأهلية ...... مرجع سبق ذكره ، ص ص ٦-٨ .

(85) Robert H. Jackson & Carl G . Rosberg , op .cit., pp. 8 - 10.

(٨٦) سعيد أوجموبي ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٣٨ ، ٣٩ .

(٨٧) راجع ولمزيد من التفاصيل :

ايبوي هتشفول : " الأمن والقانون والنظام " في ، مختارات المجلس الأفريقي لتنمية البحوث الاجتماعية - كوديسيريا) القاهرة : مركز البحوث العربية ، العدد السادس والثلاثون ، أكتوبر ١٩٩٩) ص ٥٨ .

بيتر فرانسوا جوندك : " مساهمة في السجال حول إعادة استعمار أفريقيا " في ، مختارات المجلس الأفريقي لتنمية البحوث الاجتماعية كوديسيريا) العدد الخامس والعشرون ، مارس ١٩٩٦) ص ٢٨ .

Goran Hyden , op.cit., pp ٣٠ ., 31 .

(٨٨) سعيد أوجموبي ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٧ .

(89) George B. N. Ayittey , op.cit., pp. 314 , 315 .

(90) James S. Wunsch, "Refounding the Africa State and local Self "governance : the neglected foundation _ in, The Journal of Modern African Studies (Cambridge , Cambridge university press , vol. 38 no. 3, 2000) pp 487 - 489.

(91) Richard Joseph & Jeffrey Herbst ," Correspondence : responding to State failure in Africa" in, International Security (vol .no , fall , 1997) p 181 .

(92) George B .N .Ayittey ,op.cit., p. 328.

(93) Boniface Yao Gibe , op.cit., p. 11.

هجـرة العمالة في الجنوب الأفريقي

د. ماجدة إبراهيم عامر (*)

تعد الهجرة عنصراً رئيسياً من عناصر الدراسة السكانية ذلك لأنها فيما عدا الزيادة الطبيعية تعد المصدر الوحيد لتغير حجم السكان ومع هذا فإن دراستها ليست ميسرة مثل دراسة المواليد والوفيات وذلك لاختلاف البيانات بينهما اختلافاً جوهرياً ، وإذا كانت الهجرة عاملا مؤثراً فى نمو السكان فإنها تؤثر بالتالى فى خصائصهم الديموغرافية والاقتصادية فالتغير فى التركيب العمرى والنوعى مثلاً نتاج هام من نتائج الهجرة من الأقليم أو إليه ، ولما كان صافى الهجرة يعنى انتقال السكان من مكان لآخر فإن ذلك يعنى إعادة توزيع السكان فى أى منطقة وما يترتب عليه من نتائج ايجابية كتوفر الأيدى العاملة وزيادة فرص الحصول على المدرب منها ، أو نتائج سلبية مثل زيادة عبء الإعالة فى المناطق المهاجر منها وخلق كثير من المشكلات السكانية والإسكانية فى المناطق المهاجر إليها .(١)

وتعتبر ظاهرة الهجرة أحد أشكال انتقال السكان من أرض تدعى " المكان الأصلى " أو مكان المغادرة ، إلى أخرى تدعى " مكان الوصول " أو المكان المقصود ويتبع ذلك الانتقال بطبيعة الحال تبدل فى مكان أو محل الإقامة . (٢)

وكانت هجرات السكان ومازالت ظاهرة رئيسية للمجتمعات الافريقية ، ورغم ذلك لم تلق هذه الظاهرة ما تستحقه من دراسة سواء فى المجال السكانى أو الاقتصادى وقد يرجع هذا إلى قله الإحصاء أو عدم دقته بوجه عام فضلاً عن عدم وجود تسجيلات خاصة بالهجرة الخارجية وبالتالى الداخلية فى هذه الأقاليم ،

(*) مدرس قسم التاريخ - معهد البحوث والدراسات الأفريقية ـ جامعة القاهرة .

غير أن ما يترتب عليها من آثار اجتماعية واقتصادية يجعل من اللازم طرق هذا المجال من الدراسة .[٣]

وتصنف الهجرة إلى الهجرة الاجبارية التى تحدث غالبا نتيجة الحرب والفيضانات ..الخ وغالباً ما تكون جماعية ، والهجرة الاختيارية التى تحدث طواعية ، وتتم فى حالات فردية .[٤]

وتتعدد أنماط الهجرة من هجرة بحثاً عن العشب والماء إلى هجرة بحثاً عن العمل ومن هجرة أسرية إلى هجرة فردية . وقد اقتصر البحث موضوع الدراسة على هجرة العمل بين دول جماعة تنمية الجنوب الأفريقى وتضم كل من (أنجولا ، بتسوانا ، ليسوتو ، ملاوى ، موزمبيق ، ناميبيا ، جنوب أفريقيا ، سوازيلاند ، تنزانيا ، زامبيا وزيمبابوى) . ويعيش فى هذه المنطقة نحو ١٤٧ مليون نسمة أى ما يعادل ١٨,٤ ?من إجمالى عدد سكان القارة الأفريقية على مساحة تبلغ نحو ٦,٨مليون كم٢ بنسبة ٢٣,١ ?من إجمالى مساحة القارة . وسوف تركز الباحثة على بعض عوامل الدفع والجذب التى تزيد من الانتقال من المنشأ إلى المهجر ، ثم تدرس التوزيع الجغرافى لأقاليم الصادر والوارد من العمالة وبعض خصائص المهاجرين وآثار الهجرة . وذلك اعتماداً على الاحصاءات التى توفرت للباحثة .

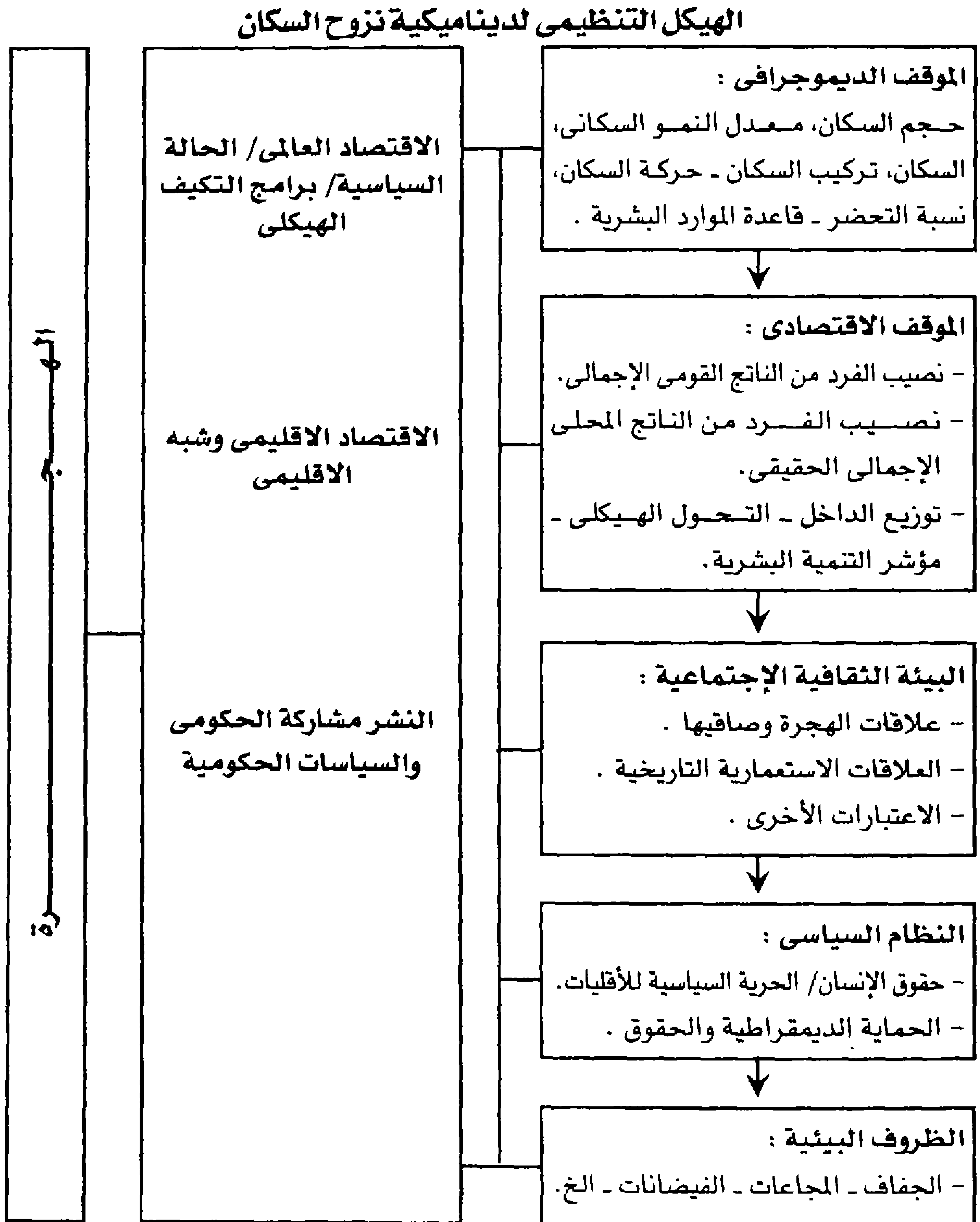
أولا : - دوافع الهجرة :

تتعدد دوافع الهجرة وتتنوع ، ولا تمثل عوامل الدفع فى مجموعها أو بمفردها الأسباب الكلية للهجرات البشرية ولكن لابد من وجود عوامل جذب تشجع السكان على الهجرة ، وكما أوضح Aderanti Adepoju[٥] فى مقالته عن ديناميكية النزوح فى أفريقيا جنوب الصحراء الهيكل التنظيمى لديناميكية نزوح السكان كالتالى:

١- بالنسبة للعوامل الديموجرافية :

فهى تشير إلى المرحلة الديموجرافية التى تمر بها الدولة ويوضح جدول (١) وشكل (١) المحددات الديموجرافية لهجرة السكان فى الجنوب الأفريقى ومنهما يتضح الأتى :

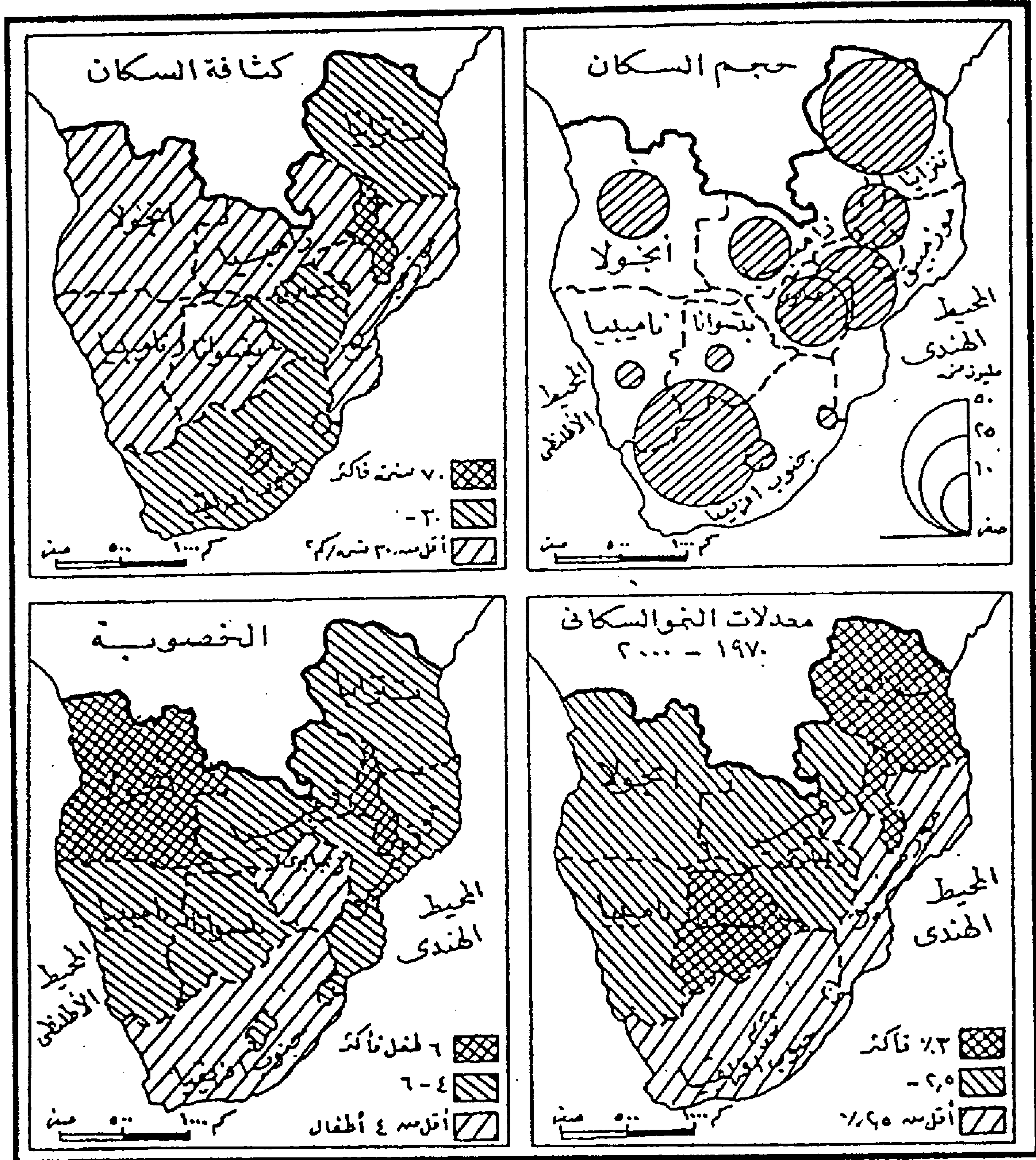
الهيكل التنظيمى لديناميكية نزوح السكان



جـــدول رقـــم (١)

المحددات الديموجرافية لهجرة السكان فى الجنوب الإفريقى (٦)

الدولـــــة	عدد السكان بالملايين		المساحة الف/ كم٢	الكثافة نسمة/كم٢ ٢٠٠٠	القوى العاملة بالالاف		معدل النمو السنوى لقوة العمل	معدلا المواليد الخام ١٩٩٩	معدلات الوفيات الخام ١٩٩٩	معدلا الخصوبة الكلية ١٩٩٩	معدلات النمو السكانى ١٩٧٠ - ٢٠٠٠
	١٩٧٠	٢٠٠٠			١٩٧٠	١٩٩٩					
أنجـــــولا	٥,٥٨٨	١٢,٧	١٢٤٧	١٠	٢٨٩٥	٥٦٧٢	٢,٣	٤٧,٨	١٨,٨	٦,٧	٢,٧
بتـــســـوانا	٦٣٧ر	١,٦	٥٦٧	٣	٢٨٦	٧٠٤	٣,١	٣٢,٦	١٨,٤	٤,١	٣,١
ليـــســـوتو	١ر٦٤	٢,٢	٣٠	٧٣	٤٦٥	٨٦٥	٢,١	٣٣,٨	١٢,٨	٤,٥	٢,٤
مـــــلاوى	٤,٥١٨	–ر١١	٩٤	١١٧	٢٣٥٨	٥١٨٩	٢,٧	٤٥,٩	٢٣,٨	٦,٣	–ر٣
مـــوزمـــبـــيق	٩,٣٩٥	١٧,٦	٧٨٤	٢٢	٥٢٦١	٨٩٧٨	١,٨	٤٠,٤	٢٠,١	٥,٢	٢,١
نامـــبـــيـــا	٧٩٢ر	١,٧	٨٢٣	٢	٣٦٠	٧٠١	٢,٣	٣٤,٦	١٥,٣	٤,٧	٢,٥
جنوب إفـريقـيا	٢٢,٤٥٨	٤٢,٨	١٢٢١	٣٥	٨٢٣٨	١٦٦٧٤	٢,٤	٢٦,٣	١٤,١	٢,٩	٢,١
ســـــوازيلانـد	٤١٩ر	–ر١	١٧	٥٩	١٥٨	٣٧١	٢,٩	٣٦,٢	١٣,٣	٤,٥	٢,٩
تـنـزانـيـــــا	١٣,٦٩٤	٣٣,٧	٨٨٤	٣٨	٧٣٢٦	١٦٩٢٢	٢,٩	٤٠ر–	١٦,٧	٥,٤	–ر٣
زامـــبـــيـــا	٤,١٨٩	١٠,١	٧٤٣	١٤	١٨٩٨	٤١٨٠	٢,٧	٤٠,٨	٢٠,٦	٥,٤	٢,٩
زيمـــبـــابوى	٥,٢٦٠	١٢,٦	٣٨٧	٣٣	٢٣٨٨	٥٥٠٠	٢,٩	٣٠,١	١٦,٤	٣,٦	٢,٩
الجـــــمـــلة	٦٨,٠١٤	١٤٧	٦٧٩٧	٢١,٦	٣١٦٣٣	٦٥٧٥٦	٢,٥	٣٣,٨	١٧,٣	٤,٨	٢,٦



شكل (١) المحددات الديموجرافية لهجرة السكان فى الجنوب الأفريقى

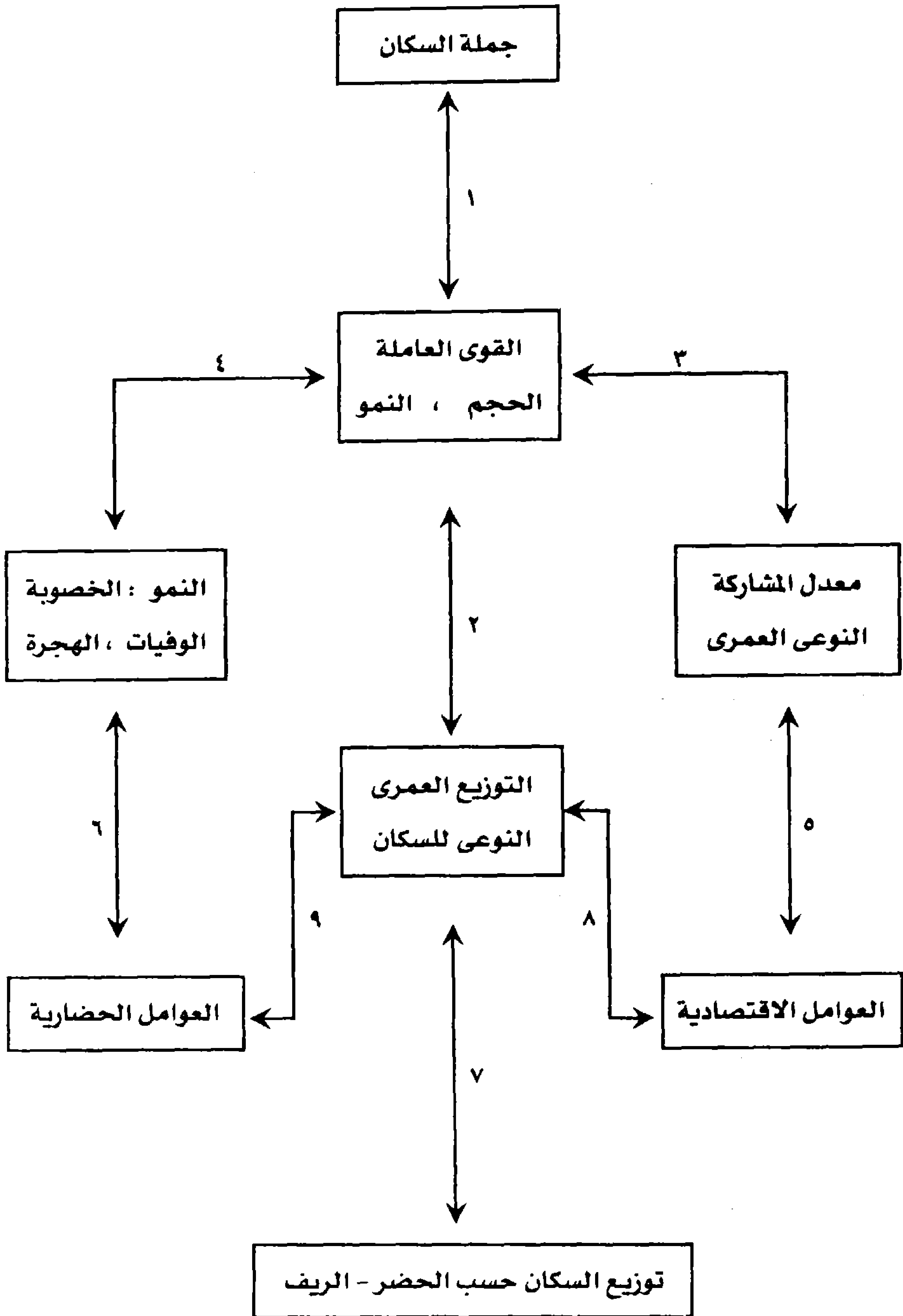
- التطور المطرد لسكان الجنوب الأفريقى حيث بلغوا ١٤٧ مليون نسمة عام ٢٠٠٠ بعد أن كانوا حوالى ٦٨ مليون نسمة عام ١٩٧٠ ، ومعنى هذا تزايد الأقليم بنسبة زيادة كلية مقدارها ٢١٦٪ خلال ثلاثين عاما . إلا أن النسبة المئوية للسكان قد انخفضت من ١٨,٧٪ عام ١٩٧٠ إلى ١٨,٤٪ عام ٢٠٠٠ .
- تتباين احجام السكان بين دول الجنوب الأفريقى تبايناً كبيراً ففى عام ٢٠٠٠ كان هناك دولتان فقط (جمهورية جنوب أفريقيا وتنزانيا) يزيد عدد سكان

كل منها على ٢٠ مليون نسمة ، ويربو عدد سكانها على ٧٦,٥ مليون نسمة بنسبة ٥٢٪ من جملة سكان الجنوب الأفريقى ، وخمس دول أخرى (أنجولا - موزمبيق - ملاوى - زامبيا وزيمبابوى) يتراوح سكان كل منها بين ١٠-٢٠ مليون نسمة ويصل عدد سكانها إلى ٦٤ مليون نسمة أى نحو ٤٣,٥٪ من جملة سكان الجنوب الأفريقى . ومعنى هذا أن هذه الدول السبع تضم نحو ٩٥,٥ ٪ من سكان الجنوب الأفريقى ، والنسبة الباقية تتوزع على أربع وحدات سياسية . وهى (بتسوانا - ليسوتو - ناميبيا وسوازيلاند) .

- ويلاحظ وجود شبه علاقة عكسية بين كثافة السكان وحجمهم فى دول الجنوب الأفريقى ، فأكثر الدول سكاناً هى أقلها كثافة ، وأقل الدول سكاناً هى الأعلى كثافة ، فنجد أن كثافة السكان تزيد عن ٧٠ نسمة / كم٢ فى كل من ملاوى وليسوتو ، وتتراوح بين ٣٠-٧٠ نسمة /كم٢ فى كل من سوازيلاند ، جنوب أفريقيا وتنزانيا وزيمبابوى ، أما أدنى كثافة للسكان والتى تقل عن ٣٠ نسمة / كم٢ فهى توجد فى كل من أنجولا ، بتسوانا ، موزمبيق ، ناميبيا وزامبيا . ونلاحظ أن الكثافة العامة للسكان لا تعطى الصورة الحقيقة للعلاقة بين الإنسان والأرض فى الأقليم إذ يتركز الجانب الأكبر من السكان فى نطاقات رئيسة فى كل دولة .

- ارتفع حجم القوى العاملة فى الجنوب الأفريقى من ٣١,٦ مليون فى عام ١٩٧٠ إلى نحو ٦٥,٨ مليون فى عام ١٩٩٩ بنسبة زيادة كلية مقدارها ٢٠٨٪ ، وبمعدل نمو سنوى مقداره ٢,٥ ٪ سنوياً وهناك مجموعة من العوامل التى تؤثر فى حجم ونمو القوى العاملة وهى تشمل حجم السكان وديناميكية نموهم ، والتى يتبعها العوامل الحضارية والاقتصادية (شكل ٢) لذلك تنظم العلاقات المتبادلة السياسات التى هدفت لتوضيح تأثير نمو قوة العمل أيضاً على المحددات الاقتصادية والحضارية للسكان [٧] .

شكل (٢) محددات عرض القوى العاملة



يلاحظ وجود علاقة فردية بين معدلات نمو السكان ومعدلات نمو قوة العمل النظرية فأكثر الدول فى معدلات نمو السكان هى أعلاها فى معدلات نمو قوة العمل (بتسوانا) كما ان أقلها فى معدلات النمو السكانى هى أيضاً تمثل أقل معدل لنمو قوة العمل (موزمبيق - جمهورية جنوب أفريقيا) .

- يتميز أقليم جماعة تنمية الجنوب الأفريقى بارتفاع معدلات المواليد والتى بلغ متوسطها ٣٣,٨ فى الألف وإن كانت أقل منها على مستوى القارة الأفريقية (٣٧,٢ فى الألف) ولكنها أكثر من المعدل العالمى (٢٢ فى الألف)(٨) وقد سجلت كل من أنجولا وملاوى أعلى معدل للمواليد فى الأقليم (٤٧,٨ ، ٤٥,٩ فى الألف) فى حين سجلت جمهورية جنوب أفريقيا أقل معدل للمواليد فى الأقليم والذى قدر بنحو ٢٦,٣ فى الألف عام ١٩٩٩ .

- ترتفع معدلات الوفيات فى أقليم الجنوب الأفريقى مقارنة بافريقيا ككل وبالعالم (١٧,٣ ، ١٤,٥ ، ٩ فى الألف) على الترتيب ، وتوجد أعلى معدلات للوفيات فى ملاوى وزامبيا وموزمبيق (٢٣,٨ ، ٢٠,٦ ، ٢٠,١ فى الألف) فى حين سجلت ليسوتو ، أقل معدل للوفيات فى الأقليم حيث بلغ مقداره ١٢,٨ فى الألف .

- تقل معدلات الخصوبة فى الأقليم (٤,٨) عنها فى أفريقيا (٤,٩) فى حين أنها ترتفع عن المتوسط العالمى (٢,٧)(٩) ، وتصل الخصوبة أقصاها فى كل من أنجولا وملاوى (٦,٧ ، ٦,٣) فى حين سجلت زيمبابوى أدنى معدل للخصوبة فى الأقليم بلغ ٣,٦ .

- بناء على المحددات الديموجرافية السابقة نجد أن أعلى معدلات صافى الهجرة (الهجرة النازحة) فى ملاوى وليسوتو وسوازيلاند . وذلك بناء على كثافة السكان التى لها أثرها الكبير فى تحديد متوسط مجال المناورة والعيش والعمل فى المتوسط فكلما ارتفعت كثافة السكان كلما تزايد الاتجاه نحو

الانتقال إلى أماكن أخرى ، بالاضافةإلى معدلات المواليد والوفيات ومعدلات النمو السكانى ونمو قوة العمل ويضاف إلى ذلك عوامل الجذب فى المناطق الأخرى فى الجنوب الافريقى ، فضلا عن قلة فرص العمل فى الدول المشار إليها ، وهنا يأتى العامل الاقتصادى .

٢ - أما بالنسبة للعوامل الاقتصادية :

فهى تفسر تقريباً المرحلة الموازية لقياس التقدم عن طريق معدل النمو الاقتصادى ، ونصيب الفرد من الناتج القومى الإجمالى الحقيقى ونصيب الفرد من الناتج المحلى الإجمالى الحقيقى وتوزيع الدخل والموارد الطبيعية والبشرية .. الخ [١٠] .

وتعتبر العوامل الاقتصادية هى الدافع الرئيسى للهجرة وذلك نتيجة لعدم التوازن بين السكان والموارد الاقتصادية المتاحة . ويحكمها عاملان هما عامل الطرد فى الدول المرسلة للمهاجرين ، ويقابله عامل جذب فى الدول المستقبلة لهم، أما عن عوامل الطرد فهى تكمن فى ضعف مواردها الاقتصادية وعدم قدرة الموارد المتاحة على تلبية الحاجات الأساسية للسكان المتزايدة باستمرار ، وهذا يعتبر عامل لطرد السكان من هذه الدول للبحث عن لقمة العيش فى مكان آخر .

ويمكن ايجاز أسبابها فى جملة واحدة وهى عدم الرضى (dissatisfaction) ويقصد به سوء الوضع الاقتصادى للفرد وهو الحافز الرئيسى إلى الهجرة ، حيث أن الفقر الشديد يدفع الإنسان إلى البحث عن ظروف أفضل يحيا فيها. [١١]

ويذكر Russel[١٢] فى دراسته عن الهجرة بين الدول النامية فى أفريقيا جنوب الصحراء وأمريكا اللاتينية ، ان كلا منهما عانت من أزمات اقتصادية شديدة أثناء الثمانينات . ففى أفريقيا جنوب الصحراء ككل ، انخفض متوسط دخل الفرد وإنتاج الغذاء منذ عام ١٩٨٠ ، بالاضافة إلى التعرية البيئية المسرعة

مما أدى إلى فقد جزء أساسى من مشاركته فيأسواق التصدير العالمية . كما أن نمو عبء الديون بصورة أسرع من الأقاليم النامية الأخرى ، مما أدى إلى زيادة البطالة فى كل من الريف والحضر . إلا أن تأثير الازمات كان موزعا بصورة غير منتظمة بين عامى ١٩٧٥ ، ١٩٩٨ . فمعدل النمو السنوى لدخل الفرد من الناتج القومى الإجمالى كان أقل من ٢٪ فى تسع دول (فى البعض كان بالسالب) وأكثر من ٢٪ فى دولتين فقط هما بتسوانا (٢,٥٪) وليسوتو (٣,٥٪) . أما أقل معدل لدخل الفرد كان فى زامبيا -٢,٢٪ (أنظر جدول رقم (٢) وشكل (٣) .

ويرى قسم السكان بالأمم المتحدة [١٣] أن الهجرة الدولية للعمالة تحدث بين الدول غير المتساوية فى التنمية الاقتصادية ، فهناك هجرة للعمالة من الدول الأفقر إلى الوظائف المتوفرة فى الدول المستثمرة لمواردها الطبيعية ، ففى الجنوب الإفريقى نجد الاختلاف بين الدول التى لم يظهر بها بترول والدول الغنية بإنتاج البترول كما هو الحال فى أنجولا . فمعظم دول الجنوب الإفريقى محاطة بدولة أو دول قليلة قوية اقتصادياً تعمل كمغناطيس لجذب العمال من الدول المجاورة .

كما أوضح Milazi[١٤] فى دراسته أن الظروف الاقتصادية كانت هى العامل الرئيسى لهجرة عدد كبير من سكان ليسوتو إلى جمهورية جنوب أفريقيا ففى حين عثر ٤٥ ألف شخص على وظائف فى القطاعات الحديثة فى ليسوتو ، هاجر نحو ١٥٠ ألفا ، معظمهم من الذكور للعمل فى جمهورية جنوب أفريقيا ، وكان السبب الرئيسى لفقد هذا العدد الكبير من القوى البشرية للمراكز الأكثر تقدما هو الأجور الزهيدة ، نقص الدخل الملائم من الزراعة والظروف الاقتصادية السيئة وتعيش الغالبية العظمى من السكان تحت خط الفقر . فقد بلغت نسبة الأراضى الصالحة للزراعة ١٠٪ فقط من إجمالى مساحتها بالإضافة إلى النمو السكانى السريع وظروف الجفاف المستمرة جعل الغالبية العظمى من شعبها فقيرا

ولذلك نجد أن حوالى ٥١ ٪ من الذكور فى مرحلة الشباب يعملون فى مناجم جمهورية جنوب أفريقيا[١٥] كما أدى انخفاض إنتاجية الأرض فى ملاوى إلى هجرة ما يزيد عن ٣٠٠ ألف شخص للعمل فى مناطق أخرى[١٦] .

ومما يؤيد الرأى القائل بأن العامل الاقتصادى هو الدافع الرئيسى للهجرة فى الجنوب الإفريقى ، أن أقطار جذب العمالة هى الأقطار الغنية بثروتها المعدنية سواء من الذهب أو الفحم أو الماس أو اليورانيوم بالإضافة إلى البترول أو الغنية بالمزارع التجارية .كما هو الحال فى جمهورية جنوب أفريقيا . فى حين أن أقطار صادر العمالة هى الأقطار الأقل ثروة والتى لايوجد بها فائض من المحاصيل النقدية أو محاصيل التصدير . فالزراعة المعيشية فشلت فى ارضاء طموح الشباب وأصبح المصدر الوحيد للدخل هو العمل بأجر .

ولقد وضع برنامج الأمم المتحدة للتنمية مؤشرا للتنمية البشرية كمقياس لنوعية الحياة الاقتصادية والاجتماعية وهو مؤلف يتكون من متوسط العمر المتوقع ، المعرفة ومستوى المعيشة .ويقاس مستوى المعيشة بإجمالى الناتج القومى الفعلى للفرد معدلاً على أساس تكلفة المعيشة المحلية (تساوى القوى الشرائية) ومن الجدول رقم (٢) وشكل (٣) يتضح الأتى :

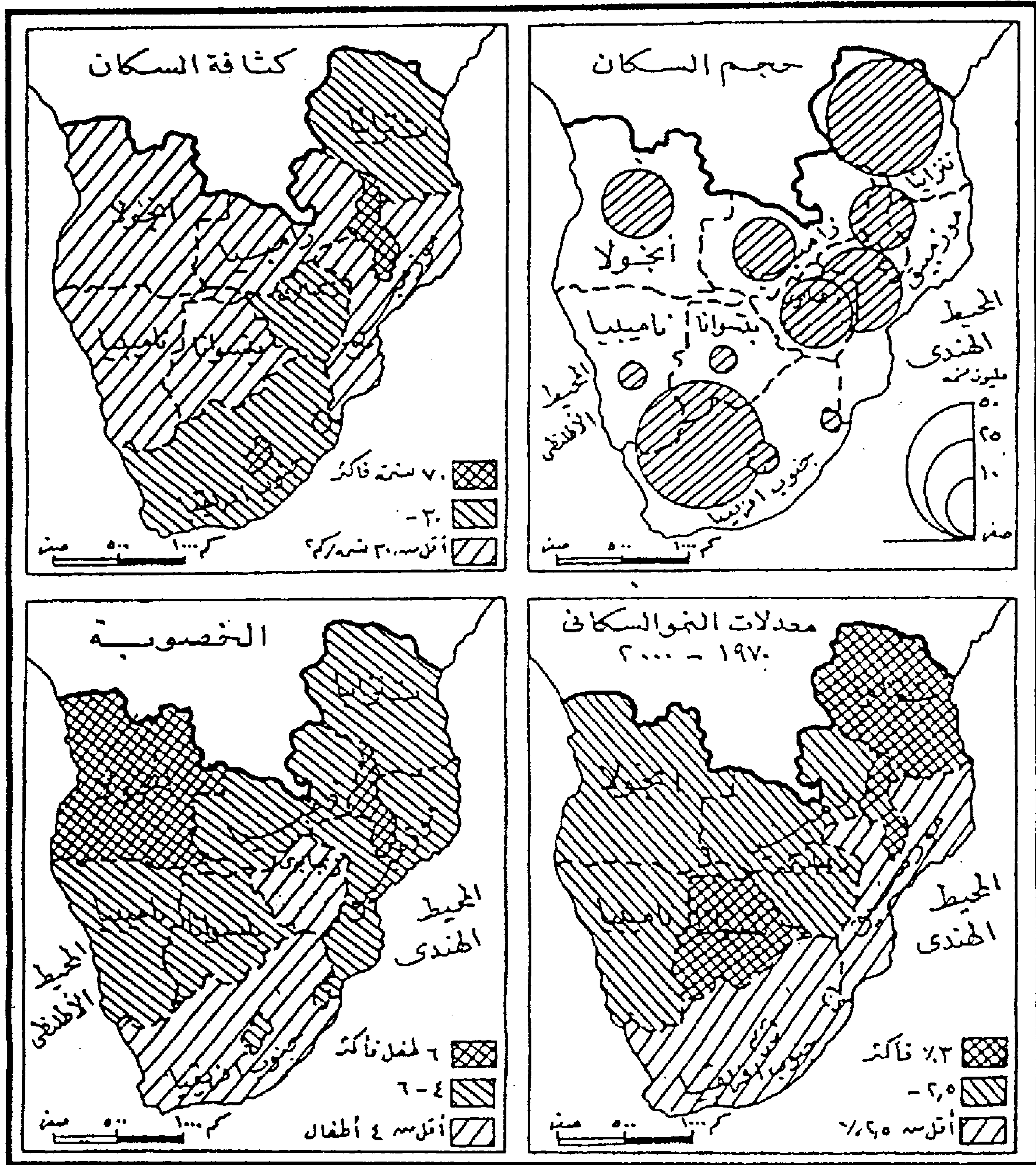
تأتى جمهورية جنوب أفريقيا فى مقدمة دول جماعة تنمية الجنوب الأفريقى من حيث مؤشر التنمية البشرية والذى بلغ ٧٠٢ر تليها ناميبيا ، أما أقل معدل للتنمية البشرية فيوجد فى موزمبيق وملاوى .

نجد أن البيئة فى زامبيا وملاوى وتنزانيا بصفة خاصة صعبة وإذا ما علمنا وفقاً لنسبة السكان دون خط الفقر (وهم أولئك الذين لا يستطيعون الحصول على الحد الأدنى من السعرات الحرارية الغذائية لحياة صحية) ، أن نسبة الذين يعيشون دون خط الفقر فى زامبيا نحو ٨٦٪ من إجمالى عدد السكان تليها ملاوى بنسبة ٥٤٪ وتنزانيا بنسبة ٥١,١٪ من إجمالى عدد السكان .

جدول رقم (٢)

تصنيف دول جماعة تنمية الجنوب الافريقى (SADC) وفق المحددات الاقتصادية [١٧]

الدولة	مؤشرات التنمية البشرية ٢٠٠٠	نسبة السكان الذين يعيشون بأقل من ١ دولار يومياً ١٩٨٣ - ١٩٩٩ ٪	نسبة السكان دون خط الفقر القومى ١٩٨٤ - ١٩٩٩ ٪	نصيب الفرد من الناتج القومى الإجمالى حسب تعادل القوة الشرائية بالدولار ١٩٩٨	نصيب الفرد من الناتج المحلى الإجمالى بالدولار ١٩٩٩	معدل النمو السنوى لدخل الفرد من الناتج القومى الإجمالى ٧٥- ١٩٩٨
أنجولا	٤٢٢ر	–	–	١٣٣٤	٢٢٠	(-) ١,٦
بتسوانا	٥٧٧ر	٣٣,٣	–	٨٥٤٧	٣٢٤٠	٥,٢
ليسوتو	٥٤١ر	٤٣,١	٤٩,٢	١٨٢٧	٥٥٠	٣,٥
ملاوى	٣٩٧ر	–	٥٤ر-	٦٩٥	١٩٠	٢ر
موزمبيق	٣٢٣ر	٣٧,٩	–	٩١٣	٢٣٠	٧ر
ناميبيا	٦٠١ر	٣٤,٩	–	٤٩٣٢	١٨٩٠	(-) ٦ر
جنوب إفريقيا	٧٠٢ر	١١,٥	–	٧١٨٧	٣١٦٠	(-) ٧ر
سوازيلاند	٥٨٣ر	–	–	٣٣١٣	١٣٦٠	١,٢
تنزانيا	٤٣٦ر	١٩,٩	٥١,١	٥١٣	٢٤٠	٢ر
زامبيا	٤٢٧ر	٦٣,٧	٨٦ر-	٩١٠	٣٢٠	(-) ٢,٢
زيمبابوى	٥٥٤ر	٣٦	٢٥,٥	٢٣٢٥	٥٢٠	١ر



شكل (٣) المحددات الاقتصادية لدول جماعة تنمية الجنوب الأفريقى

وقد أدى اختلاف المستوى الاقتصادى بين أقطار الجنوب الأفريقى إلى اختلاف معدلات الدخل القومى ومتوسطات الدخل الفردى فى أقطار الجنوب الإفريقى المستقبلة للمهاجرين ، فطبقاً لتقديرات الأمم المتحدة لعام ١٩٩٩ قدر متوسط الدخل الفردى فى بتسوانا ٣٢٤٠ دولارا وهو أعلى متوسط لدخل الفرد من الناتج المحلى الإجمالي بالدولار فى دول الجنوب الإفريقي مما يدل على أنها ربما تقدم مركز استقبال للمهاجرين بديلا عن جمهورية جنوب إفريقيا فمعدل النمو

الاقتصادي أكبر منه فى جمهورية جنوب إفريقيا بالإضافة إلى الاستخدام الأمثل للموارد المحلية (١٨) كما إنها حققت أعلى معدل للنمو السنوى لدخل الفرد من الناتج المحلى الإجمالي بلغ ٢,٥٪ سنويا خلال الفترة من ١٩٧٥- ,١٩٩٨ .

- تأتى جمهورية جنوب أفريقيا فى المرتبة الثانية بمتوسط ٣١٦٠ دولارا ثم ناميبيا بمتوسط ١٨٩٠ دولارا فى حين سجلت ملاوى أقل معدل لنصيب الفرد من الناتج المحلى الإجمالي ١٩٠ دولارا.

- بلغ معدل النمو السنوى لدخل الفرد اقصاه فى كل من بتسوانا وليسوتو فى حين سجلت كل من زامبيا وأنجولا أقل معدل للنمو السنوى لدخل الفرد بلغ (-) ٢,٢٪، (-)٦,١٪.

ومن التحليل السابق يمكن افتراض الإتجاه نحو الهجرة إلى الخارج يصل الحد الأقصى فى أنجولا وملاوى وموزمبيق وناميبيا وزامبيا وزيمبابوى وستكون دول جماعة تنمية الجنوب الأفريقي التالية : بتسوانا ، جمهورية جنوب أفريقيا من الدول المستقبلة للمهاجرين بصورة خالصة.

ثالثا: العوامل السياسية :

يؤدى عدم الاستقرار السياسى فى بعض أقطار الجنوب الإفريقي إلى حث بعض الأفراد على النزوح ، إلى جانب هذا الفقر ، اضفاء الصفة العسكرية على الدول وتحويل مواردها النادرة من التنمية إلى نفقات الحماية فى حين أن الموقف السياسى غير المستقر أعاق الاستثمارات الأجنبية والمحلية ، كل هذا أدي إلى إعاقة عمليات التنمية وكان له تأثير معاكس على الاستخدام والذى يقوى الاتجاه نحو الهجرة إلى الخارج . وتعتبر الصراعات العرقية الناتجة عن التمييز العرقى كعنصر هام فى تحديد الهجرة فى الإقليم ، بالإضافة إلى زيادة أعداد اللاجئين والمشردين داخليا ونزوح الأشخاص المهرة وغير المهرة (١٩) .

ففى أنجولا نجد أن الحرب الأهلية الأنجولية نشبت فى منتصف السبعينيات من القرن العشرين ،وكان واضحاً أن طرفى الحرب ينتسبان ايديولوجيا إلى القوتين العظمين اللتين هيمنتا على عصر الحرب الباردة ، أي الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى ، وقد كان لتوزيع الثروات المعدنية فى أنجولا دوره فى تعميم الصدام الإقليمي والقبلى ، حيث إنها تتمتع بمقومات اقتصادية جيدة ، فمن ناحية الزراعة فان ٩٠٪ من اقتصاديات البلاد تعتمد على إنتاج البن والذرة والقطن والسكر وزيت النخيل والكسافا ، فضلاً عن الأخشاب التى يجرى تقطيعها من غابات إقليم كابندا ، كما أنها غنية بثروتها المعدنية (٢٠).

وفى موزمبيق يسود صراع مسلح بين الحكومة وقوات حركة رينامو (RENAMO) وقد أدت هذه الحرب الأهلية إلى قتل الآلاف من المدنيين وهروب آلاف إلى خارج موزمبيق كلاجئين ،إضافة إلى تدمير اقتصاد البلاد ،كما أثرت فى تجارة موزمبيق مع الدول المجاورة ، وعلى الرغم من الاتفاق الذى وقعته الحكومة اليسارية مع المتمردين فى أوائل عام ١٩٩١ ، والذى يتضمن وقف إطلاق النار بين الجانبين إلا أنه لم يدخل مرحلة التنفيذ الفعلى حيث استمر الصراع (٢١).

وقد يكون عدم الاستقرار السياسى من عوامل الدفع للهجرة للبحث عن الأمن والاستقرار فى الدول المجاورة.

- وهناك أربعة أسباب رئيسية تدخلت ضمن سلسلة من الافتراضات التى قُدمت لتوضح لماذا وكيف تحدث الموجات الجديدة من الصراعات والتى تكون مرتبطة بالظروف الاقتصادية والاجتماعية التى تشمل زيادة الفقر والحرمان المرتبط بالديون وبرامج التكيف الهيكلى وهذه الأسباب هى (٢٢).

١- أدى انخفاض الموارد الاقتصادية والاجتماعية وقلة فرص العمل بسبب الديون وبرامج التكيف الهيكلى لتقوية الصراعات الداخلية بين

المجموعات العرقية ، وذلك لأن هذه الظروف تزيد من الفجوة بين الأغنياء والفقراء ، بالإضافة الى أن برامج التكيف الهيكلى وحدها تزيد من المخاطر والتقلبات التى تتعرض لها الدولة وتصل بها إلى المستويات الحرجة ، وسيطرة القلة على الموارد العامة للدولة السريعة التناقص والتفاوتات الموجودة قبل برامج التكيف الهيكلى ، كلها تؤدى إلى أثارة الصراعات بين المجموعات.

٢- أن برامج التكيف الهيكلى وحدها تزيد من الفقر بين الفقراء والطبقات الاجتماعية الحساسة ، وتؤدى إلى زيادة الفقر بين من يعملون فى الوظائف المهنية والإدارية أكثر من القوات المسلحة ، كما أن التأثيرات الاجتماعية والاقتصادية لبرامج التكيف الهيكلى تختلف من إقليم سياسى لآخر ومن مجموعة عرقية لأخرى وبين المجتمعات المختلفة وعبر الدول.

٣- حيثما تتركز المجموعات العرقية المفردة فى قطاعات مختلفة داخل اقتصاد الدولة يبقى تأثير برامج التكيف الهيكلى غير متساو ، وهذه التفاوتات الاقتصادية والاجتماعية الناتجة عن الديون وبرامج التكيف الهيكلى تثير الصراعات الإقليمية العرقية.

٤- المجتمعات ، المجموعات العرقية أو الأقاليم السياسية والتى يستطيع أفرادها الوصول للقوة أحسن كثيراً من الناحية الاقتصادية من باقى المجموعات الأخرى، وتتوفر لهم الموارد من المناطق الأخرى والتى تعتبر أساسا لثروة الدولة وبذلك عملت على تدعيم التوترات الإقليمية العرقية المرتبطة بالديون وبرامج التكيف الهيكلى.

من العرض السابق نجد أن الظروف الاقتصادية تلعب الدور الأكبر فى التأثير على الهجرة تليها العوامل الديموجرافية والمتمثلة فى زيادة الضغط السكانى على الأرض وارتفاع كثافة السكان وزيادة معدلات المواليد وارتفاع

نسبة الخصوبة ثم العوامل السياسية والتى لها دورها فى خروج أعداد كبيرة من السكان ، وإلى جانب هذه العوامل الثلاث نجد العوامل الاجتماعية لها دورها فى دفع بعض السكان إلى الهجرة فكثيراً من الشباب يتجهون إلى المناطق الحضرية للتحرر من القيود القبلية حيث يشعر كثير من الشباب برغبة فى التخلص من هذا القيد الثقيل [٢٣] بالإضافة إلى فرص الحصول على عمل مناسب وكذا البحث عن ظروف تعليمية وخدمات صحية أيسر ومركز اجتماعي مرموق وغيرها من وسائل الراحة الأخرى .

وتوضح الدراسه التى اجريت على عينة من المهاجرين إلى جمهورية جنوب افريقيا عن الغرض من الهجرة إلى جمهورية جنوب افريقيا وهى الموضحه فى جدول (٣) وشكل (٤) الأتى :

- ترتفع نسبة من يذهبون إلى جمهورية جنوب افريقيا لغرض العمل أو البحث عنه فى موزمبيق عنها فى باقى الدول ، حيث ان ٦٨٪ من مهاجرى موزمبيق يذهبون لهذا السبب فى حين بلغت النسبة ٢٩٪ من مهاجرى زيمبابوى ، ٢٥٪ لليسوتو ، ١٣٪ فقط بين مهاجرى ناميبيا .
- نجد أن السبب الرئيسى للذهاب إلى جمهورية جنوب افريقيا بين مهاجرى ناميبيا هو زيارة العائلة أو الاصدقاء أو الذهاب لقضاء الاجازات حيث بلغت نسبتهم ٦٣٪ فى حين بلغت النسبة لليسوتو (٣٦٪) ، (١٧٪) لموزمبيق و ١٦٪ لزيمبابوى .
- ترتفع نسبة من يذهبون إلى جمهورية جنوب افريقيا بغرض بيع وشراء البضائع والتجارة والتسوق من زيمبابوى عنها فى الدول الأخرى ، حيث نجد أن (٥٠٪) من المهاجرين يذهبون لهذه الأسباب الثلاثه ، فى مقابل ٢٤٪ من مهاجرى ليسوتو ، ١٠٪ لناميبيا و٨٪ فقط من مهاجرى موزمبيق يذهبون لهذه الاسباب .

- ترتفع نسبه من يذهبون إلى جمهورية جنوب افريقيا بهدف الرعاية الطبية فى ليسوتو (٦٪) عنها فى باقى الدول .

- نجد أن نسبة من يذهبون إلى جمهورية جنوب افريقيا بهدف التعليم سواء التعليم العام أو الفنى أو الجامعى تصل إلى أعلاها فى ناميبيا (٤٪) فى حين سجلت ليسوتو وموزمبيق أدنى نسبه (١٪) لكل منهما .

وضح مما سبق أن أسباب الهجرة تختلف من دولة إلى أخرى فى الجنوب الأفريقي.

ثانيا :- التوزيع الجغرافي لأقاليم الصادر والوارد في العمالة :

يمكن أن نقسم الجنوب الأفريقي إلى ثلاثة أقسام من حيث تصدير واستيراد الأيدي العاملة هذه الأقسام هى :

جدول (٣)

أسباب الهجرة إلى جمهورية جنوب أفريقيا حجم العينة ١١٩٩ (٢٤)

الدولة / الغرض من الزيارة الحديثة (٪)	ناميبيا	ليسوتو	موزمبيق	زيمبابوى
البحث عن عمل	٢	٨	٢٢	١٤
العمل	١١	١٧	٤٦	١٥
بيع وشراء البضائع	٢	٣٣	٢	٢١
الدراسة	١	١	١	١
التعليم الجامعى / الفنى	٣	-	-	١
التسوق	١	١٩	٤	٢١
التجارة	٧	٢	٢	٨
زيارة العائلة او الأصدقاء	٤٤	٣٤	١٢	١٣
أجازه / سياحة	١٩	٢	٥	٣
الرعاية الطبية	٤	٦	٤	٢
أسباب أخرى	٦	٩	٢	٤

١ - أقطار استيراد بحت - وتمثلها جمهورية جنوب أفريقيا.

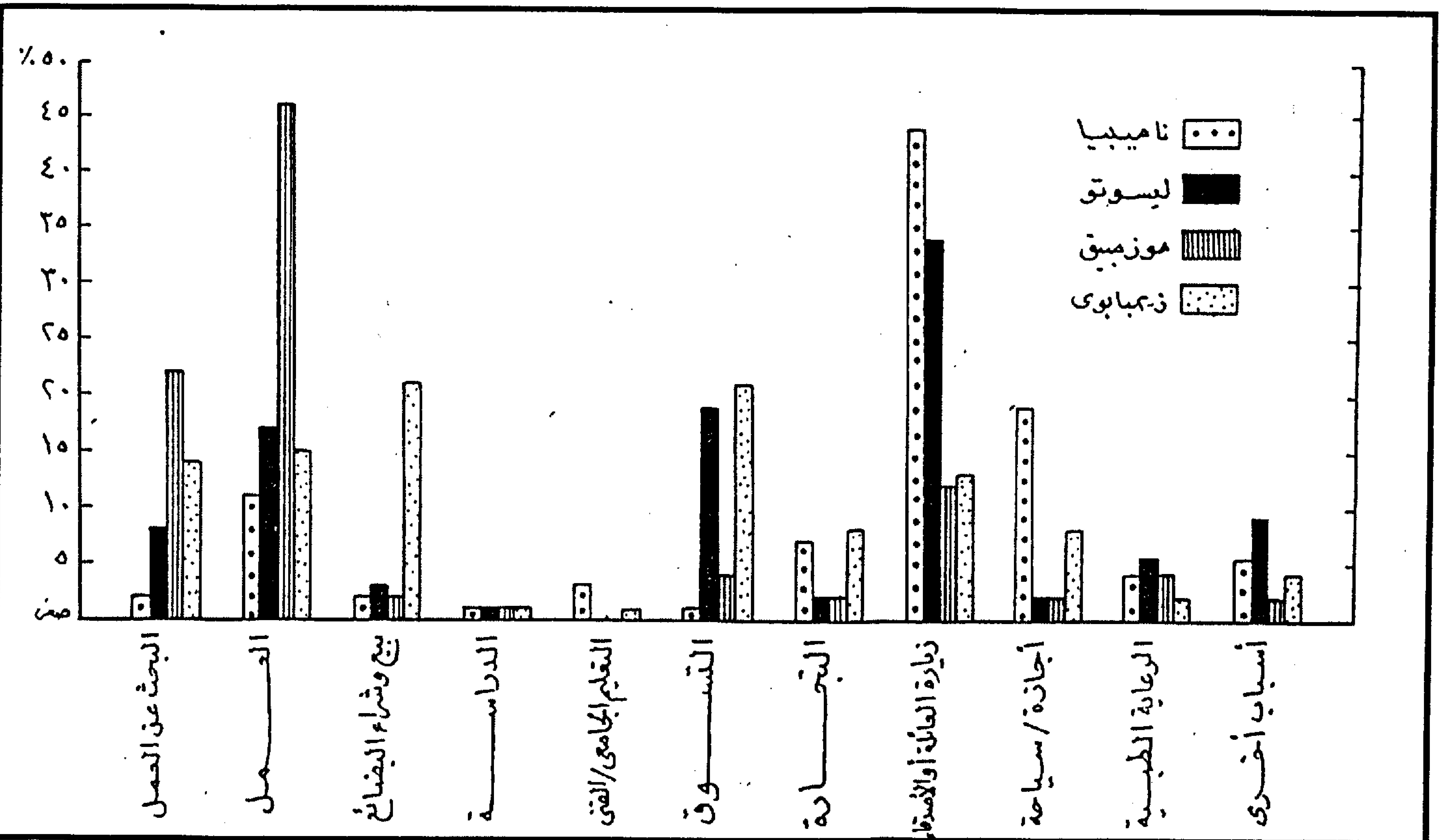
٢ - أقطار صادر بحت - وتمثلها ليسوتو ، ملاوى ، موزمبيق ، ناميبيا وسوازيلاند.

٣ - أقطار صادر ووارد أى أنها تصدر الأيدي العاملة ولكنها تستورد في نفس الوقت، وتمثلها باقى دول الجنوب الأفريقي وهى أنجولا ، بتسوانا ، تنزانيا ، زامبيا ، زيمبابوى.

١- أقطار الاستيراد البحت أو جمهورية جنوب أفريقيا:

تعتبر جمهورية جنوب أفريقيا الدولة الوحيدة فى قارة أفريقيا التى تعتبر اقليم استيراد بحت للعمالة من الدول المجاورة (٢٥) وقد بدأت التنمية الاقتصادية لجمهوريةجنوب أفريقيا باكتشاف الماس عام ١٨٦٧ والذهب عام ١٨٨٦ . إلا أن قيام قاعدة اقتصادية عريضة لم تعرفه جمهورية جنوب أفريقيا إلا منذ نشاط الصناعة خلال الحرب العالمية الأولى ، ووضع تعريفة حامية فى العشرينات وكانت هناك دفعة أخري فى الثلاثينات بعد الكساد العالمى . وكانت الحرب العالمية الثانية بمثابة دفعة كبرى فى التنمية الاقتصادية حيث اكتشفت مناجم جديدة للذهب وتطورت الصناعة ونمت القوى العاملة فى القطاع النقدى نمواً كبيراً. (٢٦) وتنتج جمهورية جنوب أفريقيا بمفردها نحو ثلاثة أرباع الإنتاج العالمى من الذهب (٢٧) .

وقد شجعت حكومة جنوب أفريقيا هجرة العمالة الأفريقية إليها من الدول المجاورة ،حيث توجد بها مناطق رئيسية تجتذب المهاجرين من الأيدي العاملة والتى يمكن وصف حركة الهجرة نحوها بأنها هجرة دولية لقطاعات محدودة من القوى العاملة والتى تتميز بأن معظمها من الذكور فى سن العمل المبكر (١٥-٤٠) سنة وهذه المناطق هى: إقليم الراند وهو من أغنى أقاليم



شكل (٤) أسباب الهجرة إلى جمهورية جنوب أفريقيا ١٩٩٧

القارة بالثروة المعدنية خاصة الذهب والماس والفحم وغيرها من المعادن ، المزارع الأوربية ، مجال الخدمات والصناعة وقد جذبت هذه المجالات آلاف العمال الأفارقة غير المهرة للعمل فى جمهورية جنوب أفريقيا لسنوات عديدة ،بالإضافة إلى ارتفاع نسبة الزيادة السكانية فى الدول المحيطة بجنوب أفريقيا وبنسبة أعلي من المعدل الذى يرتفع به اقتصادها القومى مما جعلها مناطق طرد فى الوقت الذى تتوافر فيه فرص العمل فى جنوب أفريقيا (٢٨) .

وبلغ عدد العمال المهاجرين إلى جمهورية جنوب أفريقيا حوالى ٣٨٠ ألف عامل فى عام ١٩٨٦ أرتفع إلى نحو ٣٨٧ ألف عامل فى عام ١٩٩٠ . بالإضافة إلى أعداد كبيرة أخري غير مسجلة أو معروفة حيث قدر العدد الكلى للعمال الأجانب سواء كانوا بصورة رسمية أو غير رسمية بأكثر من ١,٣ مليون عامل (٢٩) وقد قدر معهد أبحاث العلوم البشرية بأن عدد الأجانب يتراوح بين ٢,٥-١,٤ ، مليونا فى حين نجد أن بعض تقديرات الشرطة تذهب بهذا العدد لأكثر من ١٢ مليون . وكل هذه الأرقام مشكوك فيها ومن المحتمل أنه مبالغ فيها كثيراً . وقد قدرت إحصائيات جنوب أفريقيا عدد الأجانب بأقل من ٥٠٠ ألف ، فى حين نجد أن بعض الدراسات الحديثة قدرت العدد فيما يتراوح بين ٥٠٠ ألف ومليون . والحقيقة أنه ليس هناك أى بيانات متاحة لتحديد العدد الفعلى للأجانب فى جمهورية جنوب أفريقيا وربما لا سبيل لنا لمعرفة هذا العدد(٣٠) .

ويوضح جدول رقم (٤) وشكل (٥) تطور عدد المهاجرين إلى جمهورية جنوب أفريقيا خلال الفترة من ١٩١١- , ١٩٩٥ ومنهما يتضح الأتى :

- ارتفاع أعداد المهاجرين إلى جمهورية جنوب أفريقيا خلال الفترة من ١٩١١ إلى ١٩٥١ ، حيث ارتفع عدد المهاجرين من ٢٢٩,٢ ألف مهاجر عام ١٩١١ إلى نحو ٦٠٦ آلاف عام ١٩٥١ بمعدل زيادة كلية بلغ نحو ٢٦٤٪ للفترة

كلها. وقد بلغت معدلات النمو السنوى اقصاها خلال الفترة من ١٩٣٦ إلى ١٩٥١ (١,٥٪) سنويا.

جدول (٤)

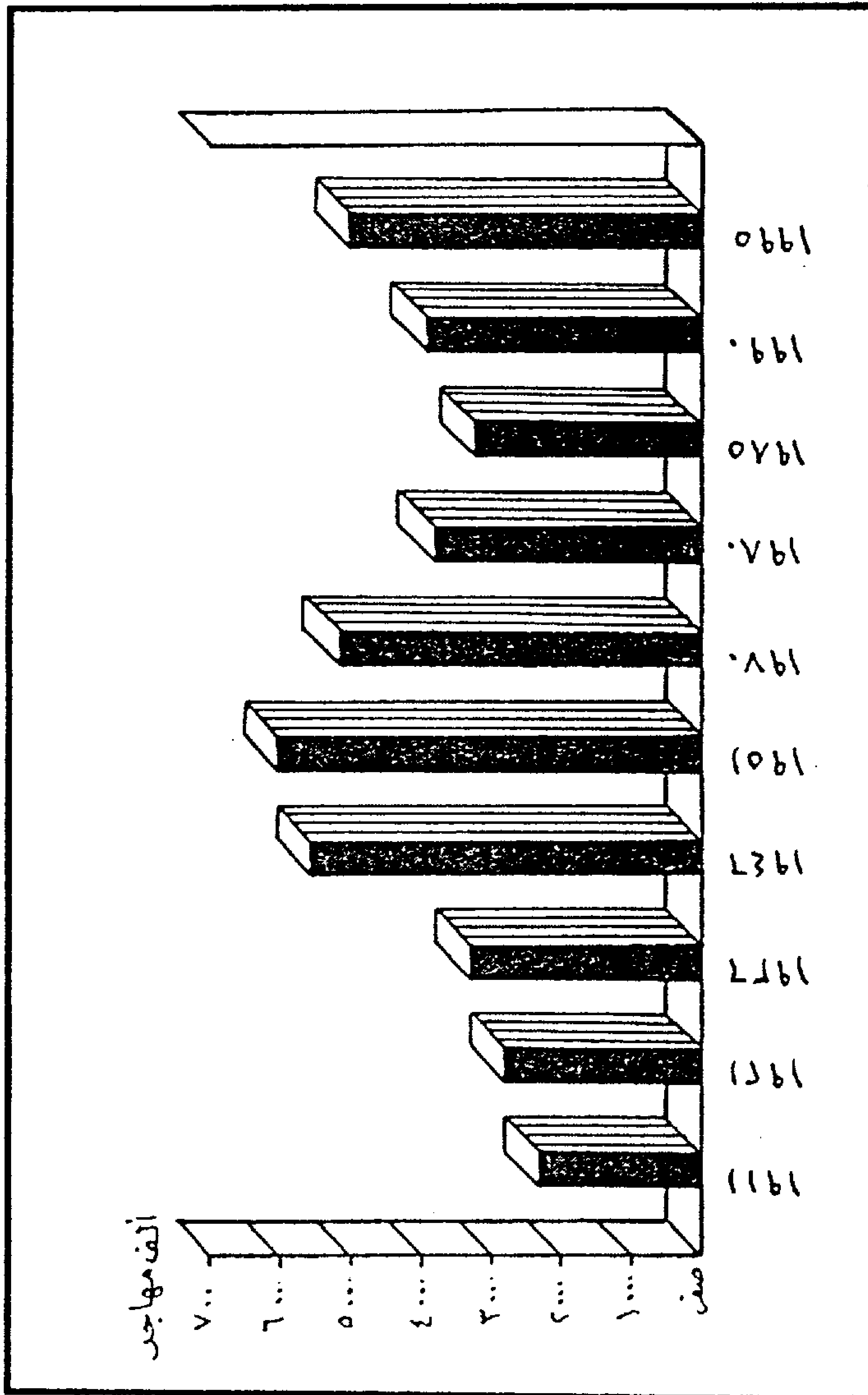
أعداد المهاجرين إلى جمهورية جنوب أفريقيا خلال الفترة من ١٩١١-١٩٩٥[٣١]

السنة	العدد	معدل النمو السنوى
١٩١١	٢٢٩٢٠٧	-
١٩٢١	٢٧٩٨١٩	٢ر-
١٩٣٦	٣٣٣٧٧٧	١ر٢
١٩٤٦	٥٥٦٨٠٧	٥ر١
١٩٥١	٦٠٥٩٩٢	١ر٧
١٩٧٠	٥١٦٠٤٤	(-) ٨ر
١٩٨٠	٣٧٦٤٨٣	(-) ٢ر٣
١٩٨٥	٣١٧٠١٠	(-) ٤ر٣
١٩٩٠	٣٨٦٦٧٥	٤ر-
١٩٩٥	٥٠٠٠٠٠	٤ر٥

ويرجع ذلك إلى التوسع الصناعى الذى اهتمت به جمهورية جنوب أفريقيا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية وما تتطلبه من أيدي عاملة رخيصة.

- بدأت أعداد المهاجرين فى الانخفاض خلال الفترة من ١٩٥١-١٩٨٥ وقد بلغت نسبة الانخفاض أقصاها خلال الفترة من ١٩٨٠- ١٩٨٥ (-٣,٤٪) سنويا. ويرجع ذلك إلى توقف كل من تنزانيا وزامبيا عن إرسال العمالة إلى جمهورية جنوب أفريقيا منذ حصولهما على الاستقلال فى عامى ١٩٦١، ١٩٦٦ على التوالى كما أوقفت ملاوى إرسال عمال لجمهورية جنوب أفريقيا بعد خطة ترحيل المشتغلين بالتعدين من ملاوى[٣٢].

- أخذت أعداد المهاجرين فى الارتفاع منذ عام ١٩٨٥ حيث أرتفعت من حوالى ٣١٧ ألف عام ١٩٨٥ إلى نحو ٣٨٧ ألف عام ١٩٩٠ ثم إلى حوالى ٥٠٠ ألف عامل عام ١٩٩٥ وبمعدل نمو سنوى مقداره -ر٤٪ سنويا ، ٤,٥٪ سنوياً خلال الفترة من ١٩٨٥-١٩٩٠ ، ١٩٩٠-, ١٩٩٥ ويرجع ذلك إلى أن معظم دول الجنوب الأفريقي استمرت فى إرسال العمالة لجنوب أفريقيا أولاً:- بسبب نقص فرص العمل فى دولهم وثانياً:- بسبب نمو الاقتصاديات الاستهلاكية



شكل (٥) أعداد المهاجرين إلى جمهورية جنوب أفريقيا
خلال الفترة من ١٩١١ - ١٩٩٥

والطلب على البضائع المنتجة فى جمهورية جنوب أفريقيا ، وأيضاً بسبب المستوى المعيشى المرتفع والاستقرار السياسي النسبى والتسهيلات الجامعية الممتازة. كل ذلك جذب المهاجرين إلى جمهورية جنوب أفريقيا من الدول الأفريقية ككل. وهذا يساهم الآن فى مشكلة خطيرة وهى كسب جمهورية جنوب أفريقيا للكفاءات من باقى الدول الأفريقية حيث أصبحت منطقة استقبال ممتازة للعمال الأفارقة المهرة بديلاً عن أوربا وأمريكا الشمالية (٣٣).

وتعتبر ليسوتو من أهم أقطار الجنوب الأفريقي المرسلة للعمالة إلى جمهورية جنوب أفريقيا ، فقد ارتفعت نسبة المهاجرين منها إلى جمهورية جنوب أفريقيا من ٤٢٪ عام ١٩٨٥ إلى ٥٤٪ عام ١٩٩٠ حيث ارتفعت أعداد المهاجرين منها من ١٣٥,٦ ألف مهاجر إلى ٢١٢,٦ ألف خلال الفترة السابقة على الترتيب ، ويرجع ذلك إلى أنها تعتمد اعتماداً كبيراً على مواطنيها العاملين فى جمهورية جنوب أفريقيا فهى محاطة بالكامل بجمهورية جنوب أفريقيا بالإضافة إلى أنها قطر فقير وتعانى من نمو سكانى سريع وجفاف مستمر كما سبق القول . يليها موزمبيق بنسبة ٢٠,١٪ عام ١٩٨٥ ، إلا أن هذه النسبة قد انخفضت إلى ١٥,٣٪ عام ١٩٩٠ ، ويرجع ذلك إلى أن حكومة جنوب أفريقيا حرمت استقدام العمال من موزمبيق بعد حادث الحدود فى عام ١٩٨٦ (٣٤). ثم تأتى سوازيلاند فى المركز الثالث بنسبة ٩,٧٪ من إجمالي العمال المهاجرين إلى جمهورية جنوب أفريقيا عام ١٩٨٥ ، وقد انخفضت هذه النسبة عام ١٩٩٠ حيث بلغت ٥,٤٪ ، وذلك يرجع إلى التحسن الواضح فى اقتصاديات سوازيلاند حيث أنها غنية فى مواردها الزراعية. انظر جدول (٥) وشكل (٦) وتسهم هذه الدول الثلاثة بنحو ٧٢,٣٪ من حجم الهجرة الوافدة إلى جمهورية جنوب أفريقيا عام ١٩٨٥ ونحو ثلاثة أرباع الوافدين عام ١٩٩٠ والنسب الأخرى الباقية تساهم بها باقى أقطار الجنوب الأفريقى الأخرى وهى ملاوى ، بتسوانا ، زيمبابوى ، ناميبيا ، زامبيا ، تنزانيا وأنجولا .

ومعظم المهاجرين يعملون فى قطاع المناجم (٨٠٪) فى حين نجد أن ٦,٣٪ يعملون فى الزراعة ، ٣,١٪ فى الخدمات العامة . فى حين بلغت نسبة العاملين فى التصنيع نحو ٢,٤٪ فقط ، وهناك عدد كبير من العمال غير المسجلين معظمهم يعمل فى الزراعة حيث قدر أن هناك ١٠٠ ألف مزارع من موزمبيق فقط[٣٥] .

جدول رقم (٥)

التوزيع العددى والنسبى للعمالة الوافدة إلى جمهورية جنوب أفريقيا حسب أقطار الصادر خلال الفترة (١٩٨٥-١٩٩٠)[٣٦]

أقطار صادر العمالة	١٩٨٥		١٩٩٠	
	الحجم	٪	الحجم	٪
أنجولا	٢٩٢	١ر	٢٠٠	١ر
بتسوانا	٢٦٠١٥	٨,٢	٣٤٢٢٤	٨,٩
ليسوتو	١٣٥٥٦٣	٤٢,٨	٢١٢٦١٣	٥٥ ر -
ملاوى	٢٨٧١٢	-ر٩	٣٤٧١٢	-ر٩
موزمبيق	٦٣٥٦١	٢٠,١	٦١٥٨٤	١٥,٩
ناميبيا	٩٢١٠	٢,٩	-	-
سوازيلاند	٣٠٧٢٢	٩,٧	١٩٦١٨	-ر٥
تنزانيا	٨٨٧	٣ر	-	-
زامبيا	٩٢٦	٣ر	١٢٠٠	٣ر
زيمبابوى	٧٠١٩	٢,٢	٢٠٧٨١	٥,٣
اخرى	١٤٠٠٣	٤,٤	١٧٤٣	٥ر
الجملة	٢١٧٠١٠	١٠٠	٢٨٦٦٧٥	١٠٠

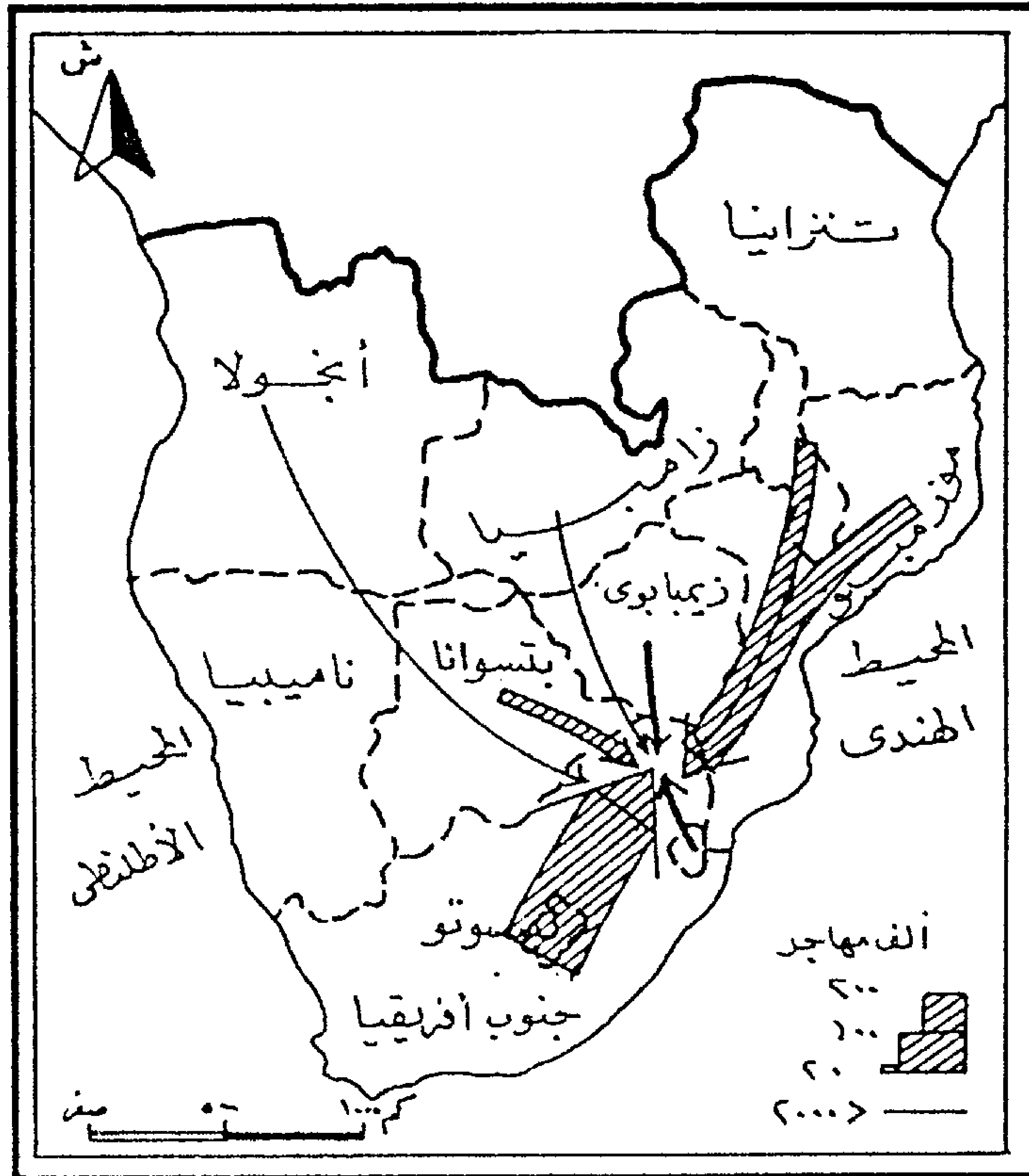
وقد اتخذت اتفاقية الهجرة لمناجم الذهب والماس والفحم ثلاثة اشكال هى[٣٧]:

(١) الشكل البدائى خلال الفترة من ١٨٥٠-١٩٢٠ .

(٢) الشكل التوسعى خلال الفترة من ١٩٢٠-١٩٧٠ .

(٣) الشكل المنتظم من ١٩٧٠ وحتى الآن .

وكانت الهجرة الأولى من موزمبيق ، ملاوى ، ليسوتو ، وزيمبابوى تأتى للعمل فى مزارع القصب فى ناتال ومناجم الماس فى كمبرلى من ١٨٤٠ وحتى الآن ، وحتى قبل أن توجد جمهورية جنوب أفريقيا نفسها ، وكانوا يأتون لكسب



شكل (٢) المحددات الاقتصادية لدول جماعة تنمية الجنوب الأفريقى

جــــدول رقــــم (٦)

إعداد المهاجرين وفقاً لاتفاقية الهجرة الى مناجم الذهب فى جمهورية جنوب أفريقيا

خلال الفترة من ١٩٢٠ - ١٩٩٥ [٢٨]

السنة	أنجولا	بتسوانا	ليسوتو	ملاوى	موزمبيق	سوازيلاند	تنزانيا	زامبيا	زيمبابوى	دول أخرى	الجملة
١٩٢٠	-	٢١١٢	١٠٤٣٩	٣٥٤	٧٧٩٢١	٣٤٤٩	-	١٢	١٧٩	٥٤٨٤	٩٩٩٥٠
١٩٢٥	-	٢٥٤٧	١٤٢٥٦	١٣٦	٧٣٢١٠	٣٩٩٩	-	٤	٦٨	١٤	٩٤٢٣٤
١٩٣٠	-	٣١٥١	٢٢٣٠٦	-	٧٧٨٢٨	٤٣٤٥	١٨٣	-	٤٤	٥	٩٩٣٥٥
١٩٣٥	-	٧٥٠٥	٣٤٧٨٨	٤٩	٦٢٥٧٦	٦٨٦٥	١٠٩	٥٧٠	٢٧	٩	١١٢٤٩٨
١٩٤٠	٦٩٨	١٤٤٢٧	٥٢٠٤٤	٨٠٣٧	٧٤٦٩٣	٧١٥٢	-	٢٧٢٥	٨١١٢	٧٠	١٦٨٠٥٨
١٩٤٥	٨٧١١	١٠١٠٢	٣٦٤١٤	٤٩٧٣	٧٨٥٨٨	٥٦٨٨	١٤٦١	٢٧	٨٣٠١	٤٧٣٢	١٥٨٩٦٧
١٩٥٠	٩٧٦٧	١٢٣٩٠	٣٤٤٦٧	٧٨٣١	٨٦٢٤٦	٦٦١٩	٥٤٩٥	٣١٠٢	٢٠٧٣	٤٨٢٦	١٧٢٨١٦
١٩٥٥	٨٨٠١	١٤١٩٥	٣٦٣٣٢	١٢٤٠٧	٩٩٤٤٩	٦٦٨٢	٨٧٥٨	٣٨٤٩	١٦٢	٢٢٩٩	١٩٢٩٣٤
١٩٦٠	١٢٣٦٤	٢١٤٠٤	٤٨٨٤٢	٢١٩٣٤	١٠١٧٣٣	٦٦٢٣	١٤٠٢٥	٥٢٩٢	٧٤٧	٨٤٤	٢٣٣٨٠٨
١٩٦٥	١١١٦٩	٢٣٦٣٠	٥٤٨١٩	٣٨٥٨٠	٨٩١٩١	٥٥٨٠	٤٠٤	٥٨٩٨	٦٥٣	٢٦٨٦	٢٣٢٦١٠
١٩٧٠	٤١٢٥	٢٠٤٦١	٦٣٩٨٨	٧٨٤٩٢	٩٣٢٠٣	٦٢٦٩	-	-	٣	٩٧٢	٢٦٥١٤٣
١٩٧٥	٣٤٣١	٢٠٢٩١	٧٨١١٤	٢٧٩٠٤	٩٧٢١٦	٨٣٩١	-	-	٢٤٨٥	١٢	٢٢٠٢٩٣
١٩٨٠	٥	١٧٧٦٣	٩٦٣٠٩	١٣٥٦٩	٣٩٥٣٩	٨٠٩٠	-	-	٥٧٧٠	١٤٠٤	١٨٢٤٤٩
١٩٨٥	١	١٨٠٧٩	٩٧٦٣٩	١٦٨٤٩	٥٠١٢٦	١٢٣٦٥	-	-	-	٤	١٩٦٠٦٨
١٩٩٠	-	١٥٧٢٠	١٠٨٧٨٠	٧٢	٥٠١٠٤	١٧٨١٦	-	-	٢	-	١٩٢٠٤٤
١٩٩٥	-	١٢٧٣٦	١٠٠٨٩٢	٢	٧٣٨٧٤	١٦٧٥٣	-	-	-	-	٢٠٤٢٥٧

المـال لشراء البنادق للدفاع عن أنفسهم ضد تعديات المستعمرين ولشراء الأدوات الزراعيـة للتوسع الزراعى فى بلادهم وكـان المهاجرون يجيئون ويذهبون فعلياً كما يحبون حتى وضعت قوانين للعبور وموافقات لتقليص وضبط تحركاتهم .

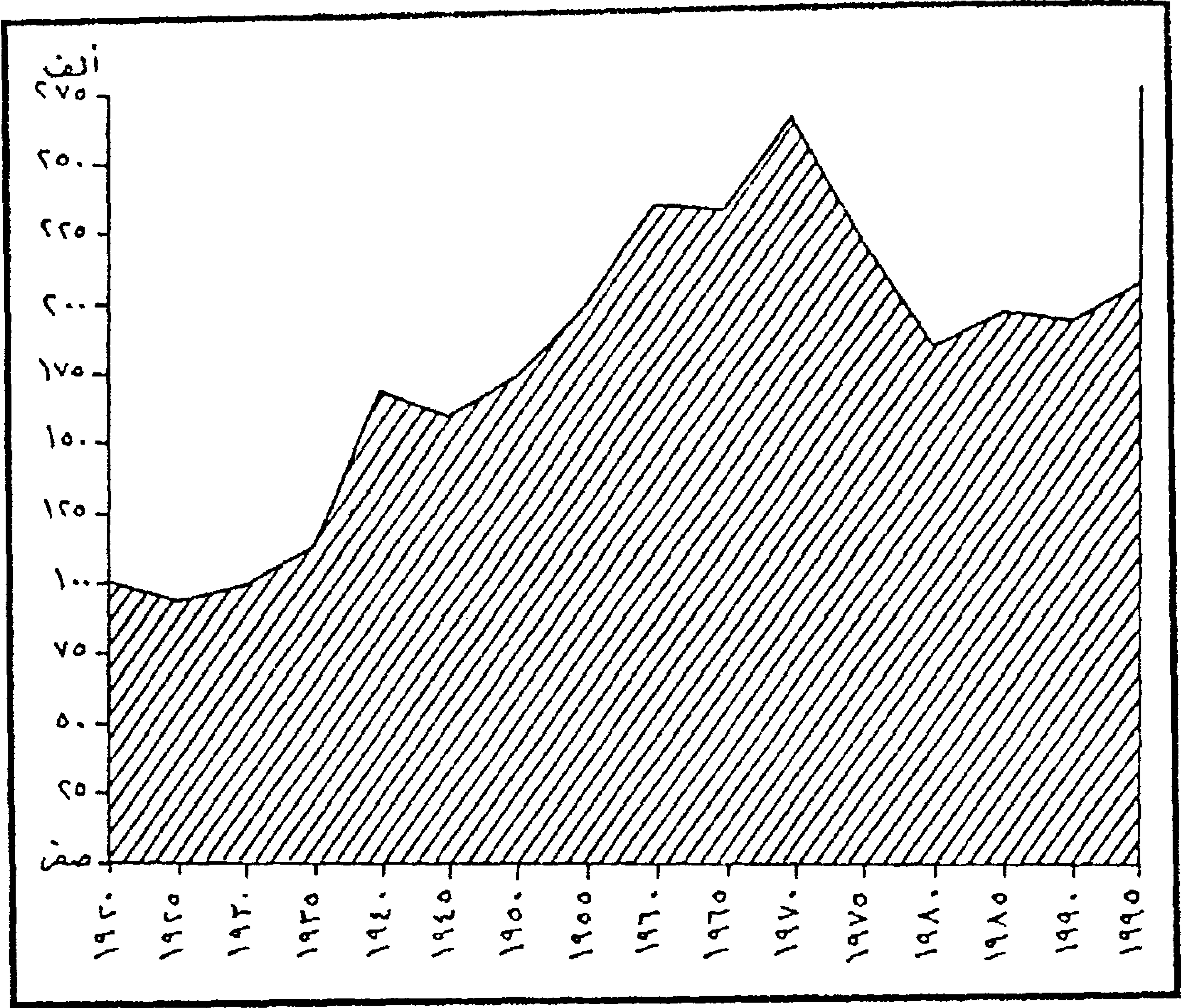
ومع اكتشـاف الذهب فى عـام ١٨٨٠ ، انشئت مدينة Witwatersrandونمت جوهانسبرج خلال ٢٠ سنة لتصبح مدينة كبيرة يسكنها أكثر من ٢٠٠ ألف نسمة. وكانت المناجم بحاجة إلى العمالة الرخيصة من الذكور وبدأت المناطق الريفية من كل انحاء العالم لتلبية طلباتهم .

أثناء الشكل البدائى ، كانت هناك منافسة شديدة بين شركات التعدين على العمالة وبدأت الأجور فى الارتفاع . وبعد عدة محاولات مخفقة أنشئت وكالة مركزية لاستقدام العمال . وفى عام ١٩٢٠ طردت الوكالة كل المنافسين وأصبحت البوابة الوحيدة لجلب المهاجرين لصناعة التعدين . وأنشأت محطات لاستقدام العمالة خلال الأقليم ونظام نقل حديث لنقل المهاجرين إلى المناجم .

وكانت الدول المجاورة لا ترغب فى فقد المهاجرين باستمرار لذلك كان هناك اتفاقيات بين الحكومات لمد المناجم باحتياجاتها باتفاقيات ثابتة ثم عودتهم لمنازلهم فيما بعد . وذلك خوفاً من بقائهم فى جمهورية جنوب أفريقيا إذا كانت عائلاتهم معهم.

فى عـام ١٩٢٠ كـان هناك نحـو ٧٨ ألف عـامل من مـوزمبيق فى مناجم الذهب ونحـو ١٠,٤ ألف عـامل من ليسوتو (أنظر جدول رقم ٦ وشكل ٧) ونحو ٣,٤ ألف عامل من سوازيلاند و ٢,١ ألف عامل من بتسوانا أما باقى الدول كانت مساهماتها ضئيلة . وكانت تنزانيا وأنجولا لا ترسل مهاجرين إلى جمهورية جنوب أفريقيا .

اثناء مرحلة التوسع زاد عدد المهاجرين زيادة كبيرة ودخلت دول جديدة كمناطق إرسال للعمالة إلى جمهورية جنوب أفريقيا ، حيث نجد أنه فيما بين



شكل (٧) أعداد المهاجرين إلى مناجم الذهب فى جمهورية جنوب أفريقي خلال الفترة من (١٢٠ - ١٩٥٥) حسب إتفاقية الهجرة.

عامى ١٩٢٠ و ١٩٧٠ تضاعف عدد العمال فى مناجم جمهورية جنوب أفريقيا من حوالى ١٠٠ ألف فى عام ١٩٢٠ إلى ٢٠٠ ألف فى عام ١٩٥٥ ، وقد ارتفع العدد فى بداية عام ١٩٧٠ ليقترب من ٣٠٠ ألف . ونحو ٨٠٪ من عمال المناجم كانوا من الأجانب .

وقد كان هناك قيود على جلب العمالة من المناطق الواقعة شمال خط عرض ٢٢° جنوباً خلال الفترة من ١٩١٣ - ١٩٣٠ ولكن هذه القيود القديمة رفعت وأصبح عدد كبير من العمال يجلب من الشمال ، وفى أواخر الستينات كل دول الأقليم كانت تمد المناجم بالمهاجرين وكانت أكبر دول مرسلة للعمالة لجنوب أفريقيا هى موزمبيق نحو ١٠٢ ألف عامل بنسبة ٤٣,٥ ٪ من إجمالى عمال المناجم عام ١٩٦٠ تليها ليسوتو (نحو ٤٩ ألف عامل) بنسبة ٢٠,٩ ٪ ثم ملاوى

وبتسوانا وسوازيلاند . حتى زامبيا وأنجولا وتنزانيا أرسلت مهاجرين قبل أن تمنع الحكومة المستقلة ذلك . وكانت الدولة الوحيدة التيأرسلت عددا محدودا من المهاجرين هى زيمبابوى (٧٤٧ عاملا فقط) وذلك نظراً لغناها بالثروة المعدنية وتوفر فرص العمل بها .

منذ السبعينات اتخذت اتفاقية الهجرة لجنوب أفريقيا شكلا جديدا ، حيث شهدت الفترة بين السبعينات والثمانينات إعادة تنظيم فى نمط الهجرة للمناجم حيث بحثت جمهورية جنوب أفريقيا تقليل اعتمادها على العمالة الأجنبية وزيادة الاعتماد على القوى العاملة الماهرة من مصادر محلية . وكانت النتيجة واضحة جداً فى المناجم فقد انخفض معدل العمالة الأجنبية من ٧٨٪ فى عام ١٩٧٤ إلى نحو ٤٠ ٪ فى عامى ١٩٨٤ -١٩٨٦[٣٩] واشتركت كل من زيمبابوى وزامبيا وأنجولا فى سحب مهاجريها من جمهورية جنوب أفريقيا وتم طرد المهاجرين من ملاوى بعد النزاع حول عمل فحوصات على الأيدز [٤٠] وأصبحت المصادر الأساسية للمهاجرين إلى جمهورية جنوب أفريقيا هى موزمبيق ، ليسوتو ، سوازيلاند وبتسوانا . وتجدر الملاحظة أن صافى عدد المهاجرين من جماعة تنمية الجنوب الأفريقى إلى جمهورية جنوب أفريقيا قد انخفض فى السنوات القليلة الماضية من بتسوانا وموزمبيق وناميبيا . كما أن الميل نحو الهجرة قد تضاءل كثيراً فى جميع الدول باستثناء ناميبيا حيث ظل كما كان عليه ويعود ذلك إلى الأغراءات المحلية أو القوة الجاذبة من ناحية سياسة الهجرة التى تتبعها جمهورية جنوب أفريقيا .

وحينما كونت دول خط المواجهة مؤتمر التنسيق لتنمية الجنوب الأفريقى سلف جماعة تنمية الجنوب الأفريقى - عام ١٩٨٠ وضعت أهدافها فى إطار الحد من اعتمادها الاقتصادى على جمهوريةجنوب أفريقيا وخاصة فى مجالات الاتصالات والصناعة والنقل والزراعة والطاقة . وعاد ذلك بفوائده فى خلق فرص العمل والتنمية البديلة للهجرة [٤١].

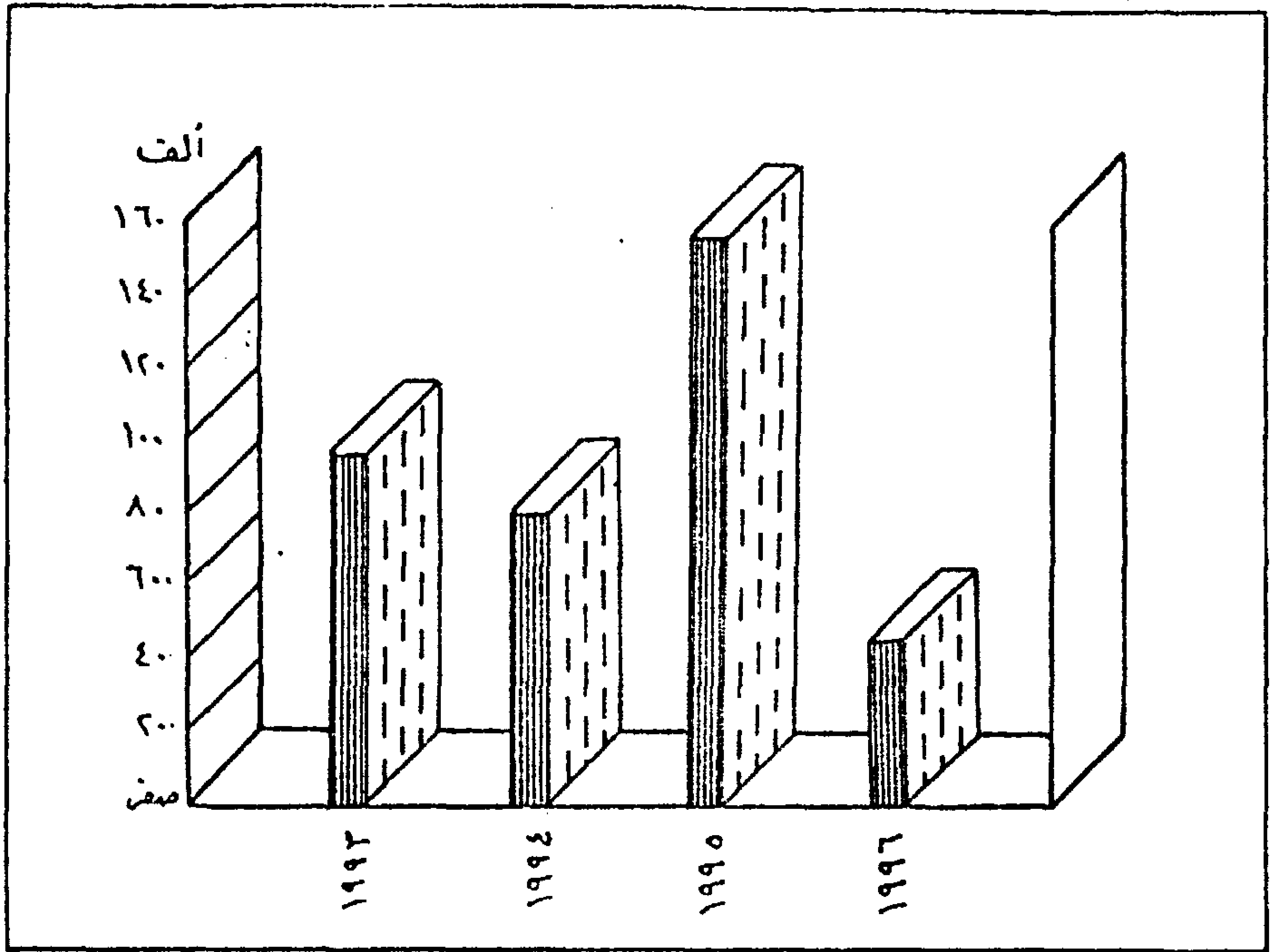
وفى الفترة الممتدة بين عامى ١٩٩٣- ١٩٩٦ تم استبعاد عدد من الأجانب غير الرسميين من جمهورية جنوب أفريقيا وكانت موزمبيق من أكثر الدول التى تأثرت بذلك حيث أنه تم اعادة نحو ٨١ ألف موزمبيقى عام ١٩٩٣ ، ٧١,٢ ألف فى عام ١٩٩٤ و ١٣١,٧ ألف فى عام ١٩٩٥ وأخيراً ٤٣,٨ ألف فى عام ١٩٩٦ (أنظر جدول (٧) وشكل ٨) ، بالاضافة إلى أعداد كبيرة من مواطنى زيمبابوى أعيدو خلال الفترة من ١٩٩٠-١٩٩٥ ، وعديد من مواطنى ليسوتو فى الفترة من ١٩٩٣- ١٩٩٦ بالاضافة إلى أعداد قليلة من الدول الأخرى[٤٢].

بلغ حجم الأجانب المعادين إلى أوطانهم اقصاه فى عام ١٩٩٥ ، حيث تم إعادة ١٥٦,٢ ألف مهاجر غير رسمى إلى أوطانهم ، فى حين أنه تم إعادة ٤٣,٨ ألف مهاجر غير رسمى فى عام ١٩٩٦ ، وقد كان معظم المعادين من موزمبيق بنسبة تزيدعلى ٨٤٪ من حجم المعادين خلال الفترة كلها .

جدول (٧)

الأجانب غير الرسميين الذين أعيدوا إلى أوطانهم من جمهورية جنوب أفريقيا خلال الفترة من ١٩٩٣ - ١٩٩٦[٤٣]

الدولة	١٩٩٣		١٩٩٤		١٩٩٥		١٩٩٦	
	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪
بتسوانا	١٠٥	١ر	٤٧	٥ر	١١	-	٧	٥
ليسوتو	٣٠٩٠	٣ر٢	٤٠٧٣	٥ر١	٤٠٨٧	٢ر٦	٢٢٧	٥ر
ملاوى	٢٥٠	٣ر	٣٩٨	٥ر	١١٥٤	٧ر	٦٧	١ر
موزمبيق	٨٠٩٢٦	٨٤ر٢	٧١٢٧٩	٨٩ر١	١٣١٦٨٩	٨٤ر٣	٤٣٧٨٣	٩٦ر٧
نيجيريا	٢٢	-	٤٥	٥ر	٦١	-	٩	-
سوازيلاند	٧٨٩	٨ر	٩٨١	١ر٢	٨٣٧	٦ر	١٦٥	٤ر
تنزانيا	٥٢	١ر	٢٤١	٣ر	٨٣٦	٦ر	٢٣	١ر
زيمبابوى	١٠٨٦١	١١ر٣	٢٩٣١	٣ر٧	١٧٥٤٩	١١ر٢	٩٨٤	٢ر٢
الجملة	٩٦٠٩٥	١٠٠	٧٩٩٩٥	١٠٠	١٥٦٢٢٤	١٠٠	٤٥٢٦٥	١٠٠



شكل (٨) الأجانب غير الرسميين الذين اعيدو إلى أوطانهم من جمهورية جنوب أفريقيا خلال الفترة من (١٩٩٣ - ١٩٩٦)

مما سبق يتضح أنه مع التغيرات السياسية فى جمهورية جنوب أفريقيا ، وتنصيب مانديلا رئيساً للحكومة الوطنية ، تغيرت أنماط الهجرة وأثرت على المهاجرين من كل الدول الأفريقية وازداد الطلب على العمال ذوى المهارات العالية سواء من داخل أو خارج أفريقيا . وفى نفس الوقت لم تخلق التغيرات فى اقتصاديات جمهورية جنوب أفريقيا وظائف كافية لخفض معدلات البطالة التى ارتفعت من ١٠,٥٪ من إجمالى عدد السكان عام ١٩٩٦ (٤٤) إلى ٢٣,٢٪ خلال الفترة من ١٩٩٨-٢٠٠٠ (٤٥) وقد كان للدولة توقعات عالية لتحسين مستوى معيشة الافارقة والذين يشكلون ٧٥٪ من إجمالى عدد السكان . وقد أستولى الوافدون (سواء كانوا شرعيين أو غير شرعيين) على الوظائف من الحكومة . مما سبب الاستياء بين مواطنى جمهورية جنوب أفريقيا خاصة بين من

عادوا إليها فوجدوا أنفسهم غرباء الآن مع بعض الأوضاع الأحسن [٤٦] على الرغم من اهتمام الحكومة بحالة العاطلين من مواطنى جنوب أفريقيا وفرض قيود على تصاريح العمل الممنوحة للأجانب .

(٢) أقطار صادر الهجرة (نزوح) :

تشترك أقطار صادر العمالة فى عدة ظاهرات طبيعية وبشرية فهى تعتبر من أفقر دول القارة ، كما أنها من الدول التابعة لجمهورية جنوب أفريقيا ،وتعانى بشدة من مشكلات التنمية الاقتصادية وتعتمد على الزراعة كمصدر اقتصادى هام . وفيما يلى دراسة لكل دولة على حدة :

(أ) ليسوتو :

ليسوتودولة صغيرة يسكنها نحو ٢,٢ مليون نسمة عام ٢٠٠٠ ولا توجد بها موارد طبيعية قابلة للنمو ، وهى محاطة بالكامل بجمهورية جنوب أفريقيا . فى عام ١٩٩٦ كان ٤٥٪ من الذكور فى القوى العاملة يعملون فى مناجم جمهورية جنوب أفريقيا . فى حين أن نسبتهم كانت ٥١٪ فى عام ١٩٨٤ . ونجد أن ٧٪ من مواطنى ليسوتو (٧٧٪ منهم ذكورا) يعيشون خارج البلد منذ عام ١٩٩٦ . تقريباً كل النازحين (٩٦,٨٪) كانوا فى جمهورية جنوب أفريقيا.[٤٧]

فقط ١٠٪ من أراضى ليسوتو صالحة للزراعة ، ونمو سكانى سريع وجفاف مستمر جعل الغالبية العظمى من شعبها فقيرا . مع متوسط لدخل الفرد يبلغ ٥٥٠ دولارا فى ١٩٩٩[٤٨] وتعتبر ليسوتو واحدة من أفقر الدول فى الجنوب الأفريقى ، ويعمل حوالى ٨٥٪ من القوى العاملة الوطنية فى الزراعة المعيشية . وهى تعتمد على هجرة العمال وتساهم تحويلات المهاجرين بدور الأسد فى مكاسب الدولة من النقد الأجنبى حيث تساهم بنسبة ٢٤,٤٪ من الناتج القومى فى عام ١٩٩٦ .

ويوضح جدول رقم (٥) وجدول رقم (٦) أن ليسوتو تحتل المركز الأول فى إرسال العمالة إلى جمهورية جنوب أفريقيا خلال الفترة من ١٩٨٥ إلى ١٩٩٠ . كما أن عدد عمال المناجم فى جنوب أفريقيا من ليسوتو ارتفع من ١٠,٤ ألف عامل فى ١٩٢٠ إلى ١٠٠,٩ ألف عامل فى عام ١٩٩٥ أى بنسبة زيادة كلية مقدارها ٩٧٠٪ خلال الفترة كلها . أى أن عدد العمال تضاعف بمقدار عشر مرات خلال ٧٥ عاماً . كما أن المهاجرين من ليسوتو يشكلون نصف القوى العاملة الاجنبية فى المناجم عام ١٩٩٥ .

وفى الدراسة التى قام بها جون جاى[٤٩] John Gay على عينة مكونة من ٦٩٢ من الباسوتو ، لاحظ أن الباسوتو وجدوا أنه من السهل لهم السفر إلى جمهورية جنوب أفريقيا أكثر من مواطنى موزمبيق أو زيمبابوى . حيث أن ٨٧٪ من العينة لديهم جوازات سفر فى حين أن ٢٩٪ فقط من موزمبيق و ٣٠٪ فقط من زيمبابوى لديهم جوازات سفر . كما أن السفر من ليسوتو أسهل كثيراً وأوفر من موزمبيق وزيمبابوى . كما أوضحت الدراسة أن العمل ليس هو السبب الوحيد للهجرة عبر الحدود ، حيث أن من يذهبون للعمل أو البحث عنه بلغت نسبتهم ٢٥٪ فقط من إجمالى العينة فى حين تصل نسبة من يذهبون لزيارة عائلتهم أو أصدقائهم حوالى ٣٤٪ ، ١٩٪ يذهبون بهدف التسوق . فى حين أن نسبة ضئيلة هدفها هو التعليم أو السياحة أوالحصول على رعاية طبية .

وقد أثرت سياسة جمهورية جنوب أفريقيا (التى تهدف إلى تقليل الاعتماد على العمالة الأجنبية واستبدالهم بعمالة وطنية . بالإضافة إلى أن بعض العمال من ليسوتو أعتبروا كمواطنين فى جنوب أفريقيا) على حجم التحويلات المرسلة من جنوب أفريقيا إلى ليسوتو ، وطبقاً لقوانين عمل المهاجرين لا يستطيع العمال المهاجرون احضار أفراد أسرهم معهم ولكن كمواطنين يمكن أن يرتبطوا مع عائلاتهم فى جنوب أفريقيا ، وإعادة توحيد العائلة سوف ينهى بعض من تدفقات التحويلات إلى ليسوتو [٥٠].

(ب) موزمبيق :

ظلت موزمبيق كحالة خاصة ومبهمة داخل مشروع الهجرة فى الجنوب الأفريقى . وقد بلغ عدد سكانها عام ٢٠٠٠ نحو ١٧,٦ مليون نسمة يعيشون على مساحة تبلغ ٧٨٤ ألف كم٢ وبكثافة سكانية ٢٢ نسمة / كم٢ . ويتباين توزيع السكان تبايناً كبيراً على رقعة موزمبيق حيث تتناقص الكثافة فى مناطق كثيرة مثل المناطق الداخلية للهضبة الشمالية ووادى الزمبيزى الداخلى ومعظم السهل الساحلى بين بيرا ومصب اللمبوبو(٥١).

ويعمل نحو ٨١ ٪ من إجمالى القوى العاملة فى الزراعة ، يستخدمون ٩٧٪ من الأراضى المزروعة ولكنهم يسهمون بأقل من ثلث الناتج المحلى الإجمالى . ويتميز سكان موزمبيق بارتفاع معدلات الخصوبة والوفيات وارتفاع معدلات النمو السكانى وقد قدر أن ٦٠ ٪ من السكان يعيشون تحت خط الفقر، وهناك حوالى ٤,٥ مليون من المشردين داخلياً وحوالى ١,٥ مليون لاجىء(٥٢).

وتعتبر موزمبيق المصدر الرئيسى للعمالة إلى مناجم ومزارع جمهورية جنوب أفريقيا لأكثر من قرن كما أن لها تاريخا طويلا فى الهجرة إلى جمهورية جنوب أفريقيا ، وهى تمتاز عن باقى الدول الأخرى المصدرة للعمالة مثل ليسوتو وزيمبابوى ثقافياً ولغوياً كما أنها تشترك مع جمهورية جنوب أفريقيا فى الحدود مما أثر عليها اجتماعياً وسياسياً وايضاً اقتصادياً . وكنتيجة لهذا حددت أتفاقية العمالة المهاجرة وخدمات ميناء مويوتو مع ارتباطات كثيرة مع جمهورية جنوب أفريقيا .

وكانت موزمبيق تساهم بعدد كبير من العمال الأجانب فى جمهورية جنوب أفريقيا بلغ نحو ١٥١ ألف عامل فى عام ١٩٧٥ بنسبة ٣٦,٤٪ من إجمالى العمال السود الأجانب (٥٣) . ثم أخذت أعداد المهاجرين من موزمبيق فى الانخفاض حيث بلغ عدد المهاجرين فى عام ١٩٨٥ نحو ٦٣,٦ ألف مهاجر ثم إلى ٦١,٦ ألف مهاجر فى عام ١٩٩٠ . ويرجع ذلك إلى الظروف السياسية

التى لعبت دوراً كبيراً فى أنماط الهجرة ، حيث حرمت حكومة جنوب أفريقيا استقدام عمالة جديدة من موزمبيق وأجبرت عددا كبيرا من الموزمبيقيين على العودة إلى منازلهم لاقتصاد لا يستطيع أن يتحمل إضافة عمال جددوطبقاً لتقديرات وزارة العمل ، نجد أن ٨٠٪ من القوى العاملة فى الحضر لا تعمل أو تعمل فى القطاع غير الرسمى (٥٤).

ويعمل معظم المهاجرين من موزمبيق فى التعدين ، حيث نجد أن ما يزيد على ثلاثة ارباع (٧٨٪) عمال المناجم فى جنوب أفريقيا كانوا من موزمبيق عام ١٩٢٠ .

(أنظر جدول ٦) ، كما أنها أحتلت المركز الأول بين الدول المصدرة لعمال المناجم فى جمهورية جنوب أفريقيا . كما نجد أن عدد عمال مناجم الذهب الموزمبيقيين بلغ أقصاه فى عام ١٩٦٠ حيث بلغ عددهم ١٠٢ ألف عامل بنسبة ٤٣,٥٪ من إجمالى عمال مناجم الذهب فى جنوب أفريقيا . ويرجع انخفاض النسبة بين عامى ١٩٢٠، ١٩٦٠ إلى أتساع قاعدة الدول المرسلة للعمالة لمواجهة احتياجات جمهورية جنوب أفريقيا اثناء مرحلة التوسع - ثم أخذ العدد فى الانخفاض بعد ذلك للظروف السياسية التى سبق الحديث عنها .

ويلاحظ أن عمال التعدين الموزمبيقيين مجموعة غير موهوبة بين نظرائهم فى جنوب أفريقيا فترتفع بينهم الأمية ، كما أنها تابعة ومستعدة للعمل تحت ظروف فقيرة ، وهناك ملاحظة أخرى أن الموزمبيقيين ينفرون من الارتباط بنقابات وغالباً يعملون كعمال محتقرين . كما أنهم غير محبوبين من نظرائهم بسبب زيادة الطلب عليهم وانخفاض الطلب على العمال من باقى الدول الأخرى المصدرة للمهاجرين (٥٥).

وتعتبر الزراعة الحرفة الثانية التى تجذب المهاجرين من موزمبيق للعمل فى جنوب أفريقيا ، ولفترة طويلة ظلت هناك منافسة بين المناجم والمزارع لاستقطاب

العمالة المهاجرة من موزمبيق ، وعلى العكس فى المناجم فقد سجل عمال موزمبيق فى المزارع كعمال غير رسميين . ولسنوات عديدة ، لخصت فكرة الأجانب (الغرباء) المستعدين لاقتطاع العمل المحلى بالعمل بأجور تعتبر أقل من الأجر المقبول للعيش . بعض الاتحادات كانت أكثر تجانساً وتشعر بأن الموزمبيقيين غالباً مستغلين بواسطة أصحاب الأعمال الذين يستفيدون من حالتهم غير الرسمية . فالعمل الزراعى المتعلق بالموزمبيقيين يعتبر واحداً من أسوأ أشكال الاستخدام والظلم .(٥٦)

وفى الدراسة التى قام بها Vletter,F.D., على عينة مكونة من ٦٦١ من الموزمبيقيين (٦١٪ منهم ذكور ، ٣٩٪ أناث) ومن بين ٢٩٪ ممن استجابو للإجابة على السؤال عن سبب زيارتهم إلى جمهورية جنوب أفريقيا ، نجد أن ٤٥٪ منهم ذهبوا للعمل ، ٢٢٪ للبحث عن عمل ، ٢٪ لبيع وشراء البضائع ، ٢٪ للتجارة . ونحو ١٢٪ ذهبوا لزيارة عائلاتهم أو أصدقائهم ، والبعض الأخر ذهب للرعاية الطبية أو لقضاء الاجازة أو للتعليم .

كما أن هناك نسبة من مهاجرى موزمبيق تتجه إلى زيمبابوى حيث المناطق الصناعية والزراعية . كما أن نطاق النحاس فى زامبيا يستقطب بعض مهاجرى موزمبيق . وهناك عدد قليل من المهاجرين يذهبون إلى تنزانيا .

(جـ) مـلاوى :

تعتبر ملاوى واحدة من أفقر الدول فى العالم بعدد سكان يبلغ نحو ١١ مليون نسمة عام ٢٠٠٠ ، ومتوسط دخل الفرد من الناتج القومى الإجمالى يبلغ ١٩٠ دولارعام١٩٩٩ ، معدل وفيات الاطفال الرضع نحو ١٥٣ فى الألف وأمد الحياة نحو ٣٩ سنة عام ١٩٩٩ ، ومعدل نمو سنوى مقدارة – ر٣ ٪ خلال الفتره (١٩٧٠ – ٢٠٠٠)سنوياً وكثافة سكانية نحو ١١٧ نسمة / كم^2 .

وتنقسم الدولة إلى ثلاثة أقاليم إدارية ، الشمالية و الوسطى والجنوبية ، وقد وجدت التنمية الاقتصادية طريقها إلى الأقليم الأوسط حيث توجد أكبر المجموعات العرقية The Chewa والتى تشكل أكثر من نصف عدد السكان (٥٧).

وتعتمد ملاوى فى حياتها الاجتماعية على هجرة العمال إلى جمهورية جمهوريةجنوب أفريقيا وزيمبابوى ، كما استغلت بريطانيا أقليم نياسالاند واستغلته كمصدر للعمالة الرخيصة فى مناجم جنوب أفريقيا وزيمبابوى أو لزراعة البن.(٥٨) حيث أنها كانت تسهم بنحو ٤٠٪ من ٢٨٠ ألف مهاجر يعملون فى زيمبابوى فى عام ١٩٥٦ ، كما أن نطاق النحاس فى زامبيا يستقطب مهاجرين من ملاوى.(٥٩) وكانت ملاوى تشغل المركز الثانى بين الدول المرسلة للعمالة إلى جمهورية جنوب أفريقيا عام ١٩٧٢ حيث بلغ عدد الملاوين نحو ١٣١,٢ ألف بنسبة ٢٩,٧٪ من إجمالى عدد المهاجرين فى جمهورية جنوب أفريقيا.(٦٠) ، إلا أن هذا العدد انخفض إلى ٢٨,٧ ألف فى عام ١٩٨٥ ، بعد أن أوقفت ملاوى إرسال مهاجرين إلى جمهورية جنوب أفريقيا بعد خطة ترحيل المشتغلين بالتعدين من ملاوى ، ثم بلغ عدد المهاجرين من ملاويإلى جمهورية جنوب أفريقيا نحو ٣٤,٧ ألف مهاجر بنسبة ٩٪ من إجمالى عدد المهاجرين عام ١٩٩٠ .

(د) ناميبيا :

تعد ناميبيا من الوحدات السياسية الهامة بمساحة تصل إلى ٨٢٣ ألف كيلو متر مربعاً وبسكان قارب عددهم المليونين عام ٢٠٠٠ وبكثافة سكانية تبلغ ٢ نسمة لكل كيلو متر مربع ، وتمتد ناميبيا بين دائرتى عرض ١٨° إلى ٢٨° جنوباً ، ويصل متوسط ارتفاع سطحهاإلى أكثر من ٢٠٠٠ متراً فى نطاق الهضاب الوسطى ، ومن هنا يكون التفاوت الكبير فى المناخ . ويتميز أقتصاد ناميبيا بالازدواجية الواضحة ، فهناك قطاع الحرف المتقدمة التى تتركز فى أيدى الأوروبيين مثل الرعى التجارى والتعدين وصيد الأسماك . وتعتمد هذه الانشطة

على الأيدى العاملة الأفريقية الرخيصة وقطاع الحرف المعاشية التى يمارسها السكان الافارقة مثل الرعى الأولى وزراعة بعض المحاصيل الغذائية مثل الذرة العريضة والذرة الرفيعة . كما يلعب تعدين الماس دوراً رئيسياً فى اقتصاديات ناميبيا ، وقد اكتشف سنة ١٩٠٨ قرب مصب نهر الأورنج وفى الأقليم الساحلى الجنوبى ، كما يتم تعدين الرصاص والنحاس والزنك بالقرب من مدينة تسومب [٦١].

وقد بلغ عدد المهاجرين من ناميبيا إلى جمهورية جنوب أفريقيا نحو ٩,٢ ألف عامل بنسبة ٢,٩ ٪ من إجمالى عدد المهاجرين عام ١٩٨٥ ، أما بعد ذلك فلم توجد بيانات توضح عدد المهاجرين من ناميبيا إلى باقى الدول الأفريقية فيما عدا الدراسة التى قدمها[٦٢] Frayne, B., and Pendleton, w., عن هجرة الناميبيين فى الجنوب الأفريقى لعينة مقدارها ٦٠٠ شخص تغطى كل مناطق ناميبيا ويشكل الذكور ٤٩٪ من إجمالى حجم العينة ، كما يمثل الأفريقيون ٧٣٪ ومعظم أفراد العينة من الحضر (٨٤٪) ، وحوالى ٥٠٪ من المهاجرين فى فئة العمر ١٥-٤٤ سنة . والملاحظة الأولى الجديرة بالاهتمام أن ٣٨٪ من أفراد العينة يذهبون إلى جمهورية جنوب أفريقيا ، كما أن هناك بعض المهاجرين من ناميبيا يتجهون إلى أنجولا ، وزامبيا ، زيمبابوى وبتسوانا ، حيث يتركز معظمهم على طول الحدود بين ناميبيا وهذه الدول وذلك لوجود تشابه فى نمط الحياة بين السكان على طول الحدود. ولا نندهش عندما نعلم أن ١٤٪ من أفراد العينة زاروا أنجولا وكان ٨٩٪ منهم أفريقيين ، وحوالى ٦٩٪ عاشوا فى المناطق الشمالية و١٢٪ من العينة زاروا زامبيا وغالبيتهم كانوا من المناطق الشمالية والمدن .

أما بالنسبة لمن زاروا بتسوانا وزيمبابوى فهناك اختلافات قليلة ، ومعظمهم من البيض والملونيين . أما بالنسبة لمن زاروا أنجولا وزامبيا (٣٧٪) و (٤٦٪) على الترتيب كانوا من المناطق الوسطى والجنوبية .

وفى الماضى عندما كانت ناميبيا منطقة إدارية تابعة لجنوب أفريقيا لم يكن هناك تحكم فى عبور الحدود وكانت عمليات تسجيل القادمين والمغادرين غير ضروري . وقد قدر أنه فى عام ١٩٩٦ ان ٢٠٠٥٢٣ ناميبى دخلوا جنوب أفريقيا بصورة رسمية منهم فقط ٥٥٦٩ (٣٪ من العدد الكلى) بقوا أكثر من تصاريحهم وهذا دليل على أن حركة المرور بين الدولتين أكثر مرونة . فى عام ١٩٩٦ تم ترحيل ٨٤ ناميبى من جنوب أفريقيا . وطبقاً لنتائج المسح والاحصاءات الموثقة من جمهورية جنوب أفريقيا . فهناك ما لايقل عن ٢٠ ألف ناميبى يعيشون فى جمهورية جنوب أفريقيا .(٦٣) ويرجع ذلك إلى الأغراءات المحلية أو القوة الجاذبة من ناحية سياسة الهجرة التى تتبعها جنوب أفريقيا .

(هـ) سوازيلاند :

تقع سوازيلاند فى أقصى شرق جمهورية جنوب أفريقيا وتحدها شرقاً موزمبيق وهى أكثر تقدماً من ليسوتو رغم أن مساحتها وعدد سكانها يصلان إلى نصف مساحة وسكان ليسوتو ، كما أن بيئتها الطبيعية أكثر تنوعاً حيث توصف بأنها من أجمل أقاليم افريقيا الجنوبية ، كما أن إمكانيات التنمية بها كبيرة ، وعلى العكس من ليسوتو فلا تلعب هجرة العمال من أبنائها دوراً هاماً فى اقتصادياتها حيث تقل هذه الظاهرة قلة واضحه .

ويبلغ عدد سكانها حوالى المليون نسمة عام ٢٠٠٠ فى مساحة تصل إلى ١٧ ألف كيلو متر مربع وبكثافة تصل إلى ٥٩ نسمة / كم٢ ، ويستغل الجزء الأكبر من أراضى سوازيلاند فى الرعى (٦٣٪ من جملة المساحة) ، وتمثل الماشية حيوانات الرعى الرئيسية كما تقوم الزراعة حيثما سمحت كمية الأمطار بذلك وأهم المحاصيل الذرة والقطن والتبغ ، وتمثل مساحة الأراضى الزراعية نحو ١٠٪ من مساحه البلاد ، وهناك إمكانيات تنمية زراعية على الرى من الأنهار ، ولا تتوافر فى سوازيلاند موارد ثروة معدنية كبيرة ، إلا أن أهمها هو الأسبستوس والحديد الخام.(٦٤)

ويوضح جدول (٥) ، (٦) أن أعداد المهاجرين من سوازيلاند إلى جمهورية جنوب أفريقيا قد انخفض من ٣٠,٧ ألف عام ١٩٨٥ إلى ١٩,٦ ألف عام ١٩٩٠ ومعظمهم يعمل فى المناجم حيث ارتفعت أعدادهم من ٣,٤ ألف عام ١٩٢٠ إلى ١٦,٨ ألف عام ١٩٩٥ وذلك وطبقاً لاتفاقية الهجرة بين جمهورية جنوب أفريقيا وسوازيلاند ، كما أن هناك عددا محدودا من مهاجرى سوازيلاند يتجهون إلى بتسوانا (١١٧ نسمة عام ١٩٩٩).

ثالثا : أقطار صادر ووارد العمالة :

تشترك أقطار صادر ووارد العمالة فى عدة ظاهرات جغرافية واقتصادية فهى تتميز بتنوع الأقاليم الجغرافية والموارد الاقتصادية وهى تشمل بتسوانا ، زامبيا ، زيمبابوى ، تنزانيا . كذلك شهدت تنمية كبيرة فى مواردها المعدنية ، وإن كانت تتفاوت فى مستوى نصيب الفرد من من الدخل القومى ، وفيما يلى دراسة لكل دولة على حدة .

(أ) بتسوانا :

تشغل بتسوانا وسط الجنوب الأفريقى فيما بين ناميبيا وزيمبابوى وجمهورية جنوب أفريقيا ، وهى دولة مغلقة تبلغ مساحتها ٥٦٧ ألف كيلو متر مربع وسكانها ١,٦ مليون نسمة عام ٢٠٠٠ ، ويقع معظمها فى نطاق صحراء كلهارى ، وتتزايد أمطارها بالاتجاه نحو الشمال والشرق . ويكون الأفريقيون من قبائل البانتو الأغلبية العظمى من سكان بتسوانا (٩٧,٥٪) ويتركزون فى الأقاليم الجنوبية الشرقية والشرقية والشمالية ، وهم يمارسون الرعى كحرفة أساسية خاصة رعى الماشية ، كما يزرعون بعض المحاصيل المعاشية حيثما سمحت الأمطار بذلك مثل الذرة بنوعيها . ورغم أن التعدين فى بتسوانا له تاريخ يزيد على مائة عام ، إلا أن منجما واحداً فقط بدأ سنة ١٩٦٦ لإنتاج

المنجنيز قرب لوباتسي ، ثم بدأ إنتاج النحاس والنيكل سنة ١٩٧٣ .[٦٥] كما أنها غنية بالماس وذات اقتصاد نشط ، وربما تقدم بتسوانا مركز استقبال للمهاجرين بديلا عن جنوب أفريقيا في الاقليم الفرعي ، حيث إن معدل النمو الاقتصادى أكبر منه فى جمهورية جنوب أفريقيا كما سبق القول.

ويوضح جدول رقم (٨) وشكل (٩) التوزيع العددى والنسبى للوافدين إلى بتسوانا ومنهما يتضح الأتى :

- ارتفع عدد المهاجرين إلى بتسوانا من ٨٧٣٣ مهاجرا عام ١٩٨١ إلى ١٨٥٣٨ عام ١٩٩١ بنسبة زيادة كلية مقدارها ٢١٢٪ وبمعدل نمو سنوى بلغ ٧,٥٪ سنوياً.

- تأتى جمهورية جنوب أفريقيا فى المركز الأول بنسبة ٤٣,٦ ٪ ، ٣٣,٧٪ من إجمالى حجم الهجرات الوافدة إلى بتسوانا خلال عامى ١٩٨١، ١٩٩١ على الترتيب حيث ارتفع عدد المهاجرين منها من ٣٨٠٧ إلى ٦٢٥٤ خلال التعدادين السابقين على الترتيب .

- ارتفع عدد المهاجرين من زيمبابوي من ٢٣٧٥ مهاجرا عام ١٩٨١ إلى ٥٣٠٨ مهاجرين عام ١٩٩١ وبنسبة ٢٧,٢٪ ، ٢٨,٦٪ للفترات السابقة على الترتيب . وهى بذلك تحتل المركز الثاني فى إرسال المهاجرين إلى بتسوانا .

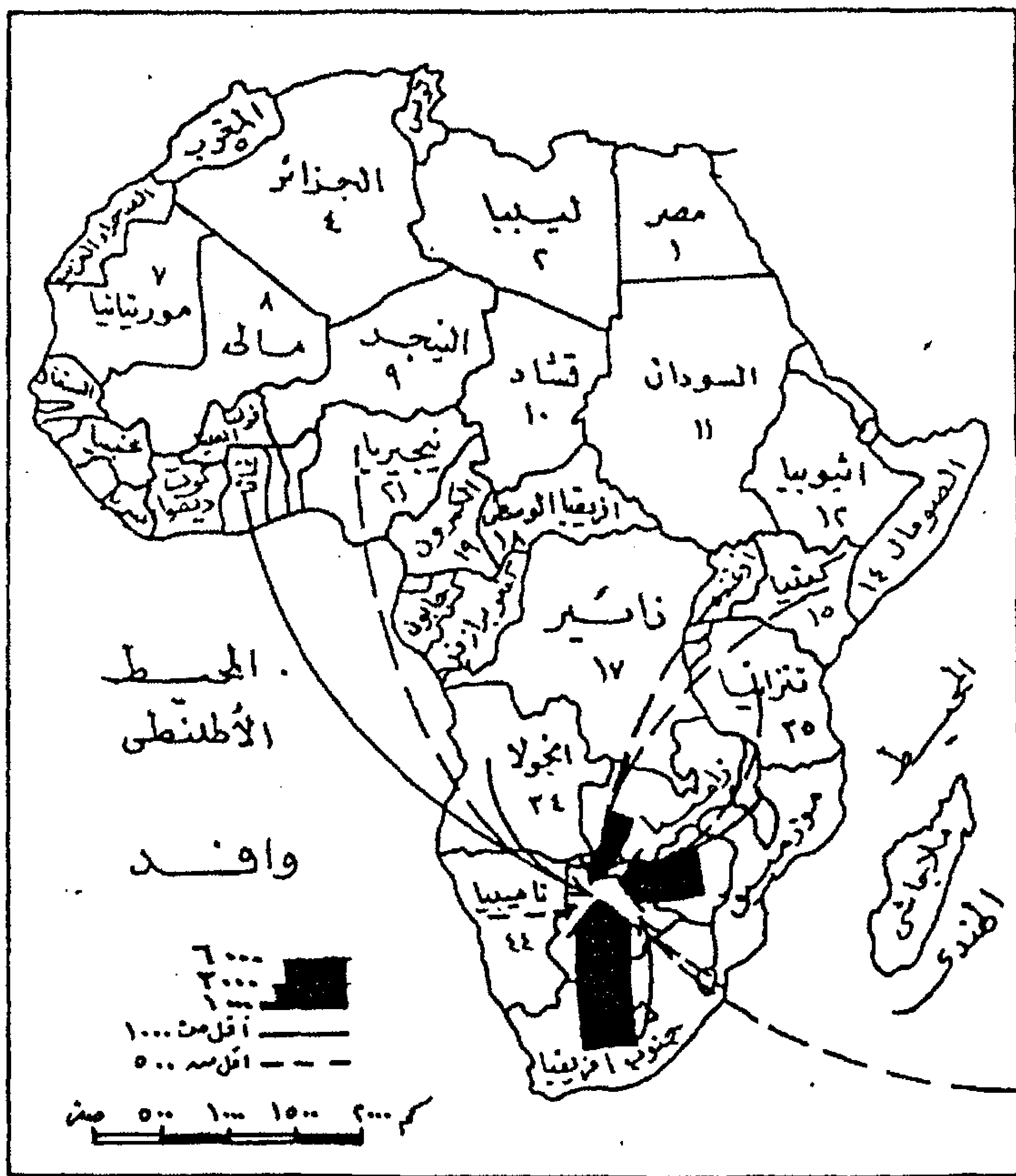
- تشغل زامبيا المركز الثالث فى إرسال مهاجرين إلى بتسوانا بنسبة ١١,٦٪ من إجمالي حجم الهجرات الوافدة عام ١٩٩١ ، فى حين أنها لم تساهم بأى نسبة فى التعداد السابق (١٩٨١).

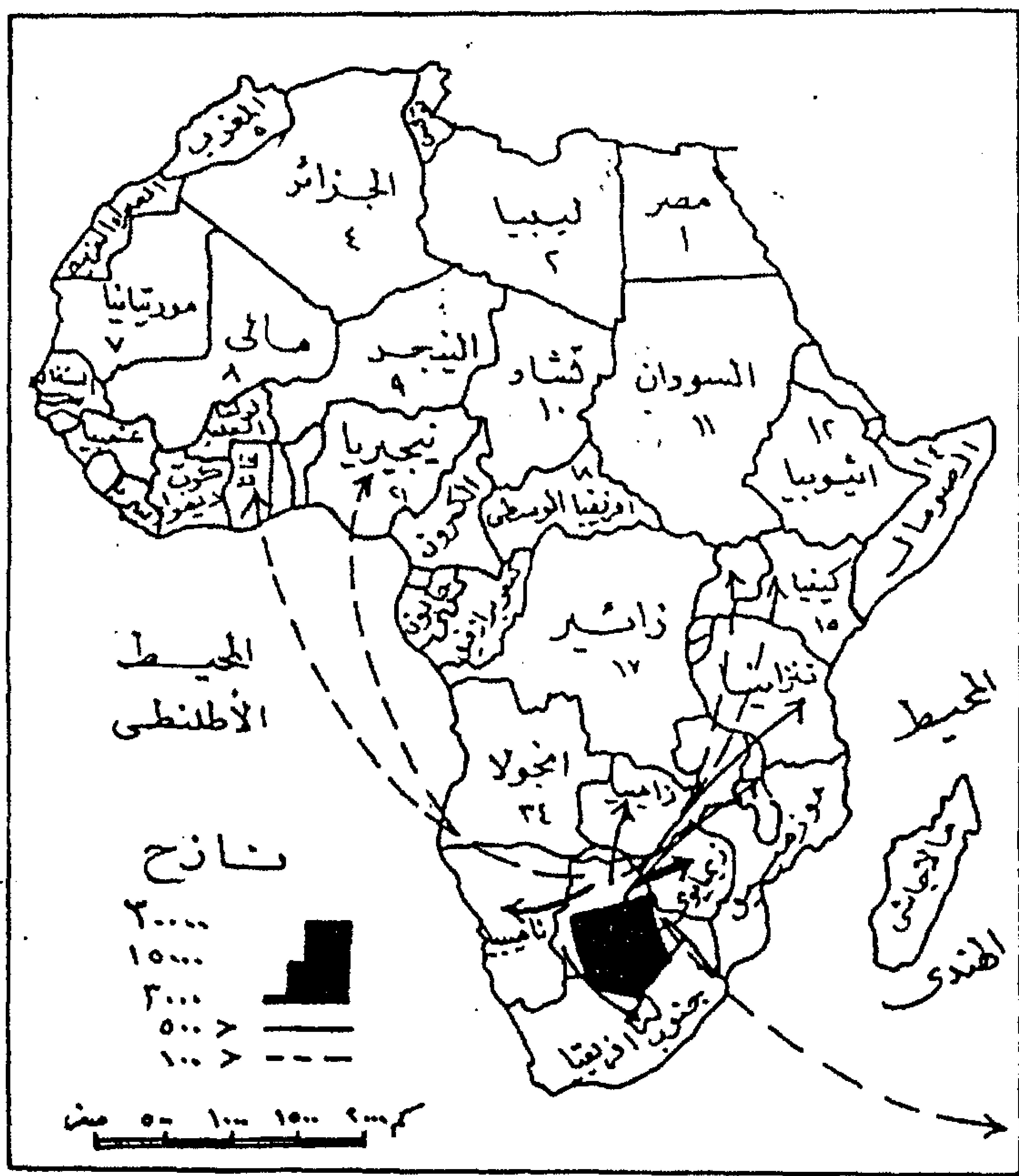
- تحتل ليسوتو المركز الرابع بنسبة ٥,٣٪ ، ٣٪ لتعدادي ١٩٨١ ، ١٩٩١ على الترتيب . حيث زاد عدد المهاجرين فيها من ٤٦٤ مهاجر إلى ٥٤٧ مهاجر للفترات السابقة على الترتيب .

جدول (٨)

التوزيع العددي والنسبي للمهاجرين إلى بتسوانا حسب أقطار النزوح خلال تعدادي ١٩٨١-١٩٩١ (٦٦)

أقطار النزوح	١٩٨١		١٩٩١	
	الحجم	٪	الحجم	٪
جمهورية جنوب أفريقيا	٣٨٠٧	٤٣,٦	٦٢٨٤	٣٣,٨
زيمبابوي	٢٣٥٧	٢٧,٢	٥٣٠٨	٢٨,٦
زامبيا	-	-	٢١٥٤	١١,٦
ملاوي	٢٣٤	٢,٧	٧٧١	٤,٢
أنجولا	٤٠٣	٤,٦	٥٩٦	٣,٢
غانا	٩٣	١,١	٥٦٩	٣,١
ليسوتو	٤٦٤	٥,٣	٥٤٧	- ر٣
تنزانيا	-	-	٤٩٨	٢,٧
أفريقيا	٦١٢	- ر٧	٣٣١	١,٨
أوغندا	-	-	٣١٩	١,٧
موريشيوس	-	-	٣١٦	١,٧
ناميبيا	٥٢١	- ر٦	٣١٠	١,٦
كينيا	-	-	١٣٢	ر ٧
سوازيلاند	١٢٥	١,٤	١١٧	ر ٦
نيجيريا	٩٩	١,١	١١٧	ر ٦
الجملة	٨٧٣٣	١٠٠	١٨٥٣٨	١٠٠





شكل (٩) هجرة العمالة الدولية من بتسوانا وإليها عام ١٩٩١

- ارتفع عدد المهاجرين من أنجولا من ٤٠٣ مهاجرين إلى ٥٩٦ مهاجرا عامي ١٩٨١ ، ١٩٩١ على التوالي وهى بذلك تشغل المركز الخامس بين الدول المرسلة للعمالة إلى بتسوانا .

تساهم هذه الدول الخمس بنسبة تزيد على ٨٠٪ خلال الفترة السابقة . وبذلك يمكن القول أن معظم الهجرات الوافدة إليها هى من دول جماعة تنمية الجنوب الأفريقي ، كما أنها تستقبل مهاجرون من غانا ونيجيريا فى غرب أفريقيا وأوغندا وكينيا من شرق أفريقيا . كما يفد إليها مهاجرين من ملاوى وتنزانيا وموريشيوس وناميبيا وسوازيلاند .

وتستقبل بتسوانا نحو ٥٦٠٦ مهاجرين أوربيين عام ١٩٩١ معظمهم من بريطانيا (٦٣,٥٪) وألمانيا (٦,٤٪) والأراضي المنخفضة (٣,٦٪) والنسبة الباقية تأتى من باقى الدول الأوروبية . كما يفد إليها ٤١٩٣ مهاجرا من أسيا ، ويشكل الهنود نصف عدد المهاجرين من أسيا ثم الصين بنسبة ٢٢,٦٪ ، أما النسبة الباقية فهى من باكستان وسرى لانكا وباقى الدول الأسيوية . كما استقبلت بتسوانا نحو ١٥٥ مهاجرا من استراليا.(٦٧)

كما أن هناك عددا من الوافدين غير الشرعيين تم إعادتهم إلى أوطانهم خلال الفترة بين ١٩٩٢-١٩٩٧ حيث بلغ عددهم ٧٤٥٨٢ معظمهم من دول جماعة تنمية الجنوب الأفريقي (SADC) أساساً من زيمبابوي وجنوب أفريقيا وناميبيا ، فقد تم فى عام ١٩٩٢-١٩٩٣ إعادة نحو ١٧,٩ ألف وافد غير شرعي وفى عام ١٩٩٣-١٩٩٤ ثم إعادة نحو ٨,٨ ألف ، وفى عام ١٩٩٤-١٩٩٥ تم إعادة ١٤,٣ ألف ونحو ١٦,٩ ألف ، ١٦,٦ ألف للأعوام من ١٩٩٦/٩٥ ، ١٩٩٧/٩٦ على الترتيب .(أنظر جدول رقم ٩)

جدول (٩)

الوافدون غير الشرعيين الذين تم استبعادهم من بتسوانا

خلال الفترة (١٩٩٢/١٩٩٣- ١٩٩٥/١٩٩٧) (٦٨)

السنة	الحجم
١٩٩٣/١٩٩٢	١٧٩٤٣
١٩٩٤/١٩٩٣	٨٨١٠
١٩٩٥/١٩٩٤	١٤٣٤٦
١٩٩٦/١٩٩٥	١٦٩٣٠
١٩٩٧/١٩٩٦	١٦٥٥٣
الجملة	٧٤٥٨٢

ويوضح جدول (١٠) وشكل(٩) عدد النازحين من بتسوانا حسب بلد الوفود خلال عام ١٩٩١ ومنهما يتضح الأتي :

- بلغ العدد الكلى للمهاجرين من بتسوانا نحو ٣٨,٦ ألف مهاجرا بنسبة ٢,٩٪ من إجمالي سكان البلد عام ١٩٩١ ، معظمهم من الذكور (٧٢٪) وتشكل الإناث النسبة الباقية .

- انخفض عدد المهاجرين من بتسوانا من ٥٤٧٣٥ مهاجر في عام ١٩٧١ إلى ٤٢٠١٥ فى عام ١٩٨١ (بنسبة انخفاض مقدارها ٨٤ر٪) ثم إلى ٣٨٦٢٤ فى عام ١٩٩١ .

- معظم المهاجرين من بتسوانا يتجهون إلى دول أفريقية (٩٥,٥٪) والنسبة الباقية تتجه إلى أوربا وأسيا وأمريكا واستراليا . فتأتى أوربا فى المركز الثانى لاستقبال المهاجرين من بتسوانا معظمهم فى انجلترا (٨٦٪) وهم يذهبون أما للتعليم أو التدريب . كما أن المهاجرين إلى أمريكا يذهبون للتعليم.

- تستأثر جمهورية جنوب أفريقيا بنسبة ٨٠٪ من المهاجرين من بتسوانا تليها زيمبابوي وناميبيا . فهذه الدول الثلاث يتجه إليها نحو ٩٢,٥٪ من إجمالي النازحين من بتسوانا .

مما سبق يتضح أن عدد الوافدين إلى بتسوانا بلغ نحو ٢٨٤٩٢ وافد وعدد النازحين منها بلغ ٣٨٦٢٤ مهاجر. وهذا يعنى أن بتسوانا خسرت نحو ١٠١٣٢ لصالح الدول الأخرى . ولكن من المحتمل أن تتغير الصورة فى المستقبل بسبب مشاريع التنمية التى تبنتها الدولة منذ عام ١٩٩١ .

(ب) زيمبابوي :

تقع بين نهري الزمبيزى واللمبوبو أو ما بين درجتى عرض ١٥و ٢٢ جنوباً بمساحة تبلغ ٣٩١ ألف كيلو مترا مربعاً وبعدد سكان يبلغ ١١,٧ مليون نسمة عام ٢٠٠٠وبكثافة تبلغ نحو ٣٠ نسمة / كم٢ . ويمثل الأفريقيون فى زيمبابوي أغلبية ساحقة وينتمون فى معظمهم إلى قبيلتين كبيرتين هما الميتابيلى الرعوية التى تتركز في المناطق الجنوبية والغربية القليلة المطر وقبيلة الماشونا التى تنتشر في القسم الشمالي الأوفر مطراً وتحترف الزراعة. (٧٠)

وتتكرر فى زيمبابوي ظاهرة الإنتاج الزراعي المزدوج التى تتميز بها كثير من أقطار أفريقيا الجنوبية ، فتوجد الزراعة الوطنية المعاشية التى يمارسها السكان الأفريقيون ، وكذلك الزراعة الأوروبية التجارية التى يقوم بها المستوطنون البيض ، وقد تأثر عدد من الزراع الأفارقة من مشروعات التدريب الحكومي لتطوير الزراعة الوطنية وأصبحوا يمارسون بدورهم زراعة تجارية ناجحة فى أراضيهم .

وكان الذهب أول المعادن التى قام المستوطنون الأوروبيون الأوائل بتعدينها ، رغم أن زيمبابوي عرفت تعدينه قبل مجيء الأوروبيين بعدة قرون . وقد فقد الذهب مركزه الأول بين الأنشطة التعدينية منذ أوائل الخمسينيات عندما بدأ إنتاج الأسبستوس يفوق من حيث القيمة إنتاج الذهب ، ويعدن الكروم في نفس المناطق

جدول (١٠)

النازحون من بتسوانا عام ١٩٩١ (٦٩)

بلد الاستقبال	جملة		ذكور		إنـاث	
	الحجم	٪	الحجم	٪	الحجم	٪
افـــريقـــيـــا	٣٦٨٨٤	٩٥,٥	٢٦٨٤١	٩٦,٣	١٠٠٤٣	٩٣,٤
لـيـســوتـو	٢٣١	٦ر	١٠٣	٤ر	١٢٨	١,٢
مـــلاوى	٦٧	٢ر	٣١	١ر	٣٦	٣ر
نـامـبـيـا	٢٤٩٩	٦ر٥	١٣٥٧	٤,٩	١١٤٢	١٠,٦
ســوازيـلانـد	١٤٩	٤ر	٦٧	٢ر	٨٢	٨ر
زامـبـيـا	٣٧٥	١ر-	١٧٤	٦ر	٢٠١	١,٩
زيـمـبـابوى	٢٣٢١	٦ر-	٨٢٨	٣ر-	١٤٩٣	١٢,٩
تـنـزانـيـا	٧٠	٢ر	٤٠	١ر	٣٠	٣ر
جمهورية جنوب افريقيا	٣٠٩٩٨	٨٠ر٣	٤٢١٤٦	٨٦,٦	٢٨٥٢	٦٣,٨
غـــانـا	٧	-	٤	-	٣	-
نـيـجـريا	٢	-	-	-	٢	-
أوغـنـدا	٣	-	٢	-	١	-
كـيـنـيـا	٥٦	١ر	٣٦	١ر	٢٠	٢ر
مـوريشـويوش	٦	-	١	-	٥	-
باقى أفـريقـيـا	١٠٠	٣ر	٥٢	٢ر	٤٨	٤ر
أوربـــا	٧٥٢	١ر٩	٤٣٠	١,٥	٣٢٢	٣ر-
إنجـلـتـرا	٥٠١	١,٣	٣٠٥	١,١	١٩٦	٦,٨
بـاقـى أورربـا	٢٥١	٦ر	١٢٥	٤ر	١٢٦	١,٢
أسـيـا	٩٦	٢ر	٧٤	٣ر	٢٢	٢ر
أمـريـكـا	٦٤٧	١ر٧	٣٨٥	١,٤	٢٦٢	٢,٤
الأوقـيـانوسـيـة	٥٦	١ر	٢٧	١ر	٢٩	٣ر
غـيـر مـبـين	١٨٩	٥ر	١٢٠	٤ر	٦٩	٦ر
الجـمـلـة	٣٨٦٢٤	١٠٠	٢٧٨٧٠	١٠٠	١٠٧٤٧	١٠٠

التي يعدن فيها الأسبستوس ، كما أنها تملك أكبر مصادر للفحم في حقول وانكى وهى تلي في ذلك جمهورية جنوب أفريقيا . وقد شهدت زيمبابوي تطويراً كبيراً في الصناعة منذ الحرب العالمية الثانية وقد كان الإنتاج الصناعي في بداية الأمر موجهاً للاستهلاك المحلى بصفة أساسية ولكن بدأت الصناعات المختلفة تجد طريقها للأسواق الخارجية فى أفريقيا المدارية وخارجها.(٧١)

وقد بدأ تاريخ الهجرة مع دخول المستعمر الأوروبى إلى القارة وبدأت حاجته إلى اليد العاملة الأفريقية لاستخدامها فى مشاريعه التعدينية والزراعية والصناعية ومد السكك الحديدية . وقد لجأ الأوروبيون فى البداية إلى استقدام اليد العاملة الأفريقية سواء بالقوة أو طواعية وقد طبق الأوربيون على زيمبابوى ذات السياسة فأجبر الأفريقيون على ترك قراهم للعمل لدى الأوروبيين عن طريق فرض ضريبة الرأس واضطراره للعمل ليحصل على النقد الذى يمكنه من سدادهذه الضريبة . ولقد احتاج البيض فى زيمبابوى مع التطور الصناعى والزراعى والتعدينى إلى اليد العاملة الأفريقية من الدول الأخرى المحيطة بها وذلك منذ بداية القرن الحالى .

وتعتبر ملاوى وزامبيا وموزمبيق المصادر الرئيسية لامداد زيمبابوى باليد العاملة الأفريقية ولقد اختلفت أهمية الوحدات الثلاث فى تصدير اليد العاملة إلى زيمبابوى ففى عام ١٩١١ كان معظم العمال يفدون من زامبيا ، وعلى الرغم من أن ملاوى أصبحت المصدر الرئيسى للعمالة الوافدة منذ عام ١٩٢١ إلا أن زامبيا استمرت فى المساهمة فى قوة العمل بها حتى بعد الحرب العالمية الثانية عندما بدأت تتناقص نسبة العمال الوافدين منها بسبب احتياج نطاق النحاس بها إلى الأيدى العاملة - أما الأن فإن ملاوى تعتبر أولى البلاد الافريقية تصديراً لليد العاملة إلى زيمبابوى .

أما موزمبيق فتأتى فى المرتبة الثالثة من حيث تصدير العمالة الأفريقية إلى زيمبابوى وقد زاد تدفق العمال من موزمبيق بعد الحرب العالمية الثانية نتيجة لأزمة العمالة فى زيمبابوى والتى نتجت عن سحب زامبيا ليدها العاملة للعمل فى حقول النحاس . وعندما نشأ الاتحاد بين زيمبابوى وزامبيا وملاوى قل الطلب على اليد العاملة الأفريقية من خارج دول الاتحاد لوجود أكتفاء ذاتى بها . وقد أدى ذلك بحكومة زيمبابوى أن سنت تشريعات تُحرم هجرة العمال الأفريقيين من خارج حدود الاتحاد إليها ومنعهم من البحث عن أى عمل فى المدن الرئيسية بها . كما فرضت ضريبة خدمة على كل عامل أفريقى أجنبى . وقد قللت هذه التشريعات من تدفق العمال الأفريقيين من موزمبيق وبالرغم من ذلك فقد استمروا يمثلون عنصراً رئيساً فى قوة العمل الزيمبابوية .

وبعد انتهاء الاتحاد وفى سنة ١٩٦٦ وجدت الحكومة فى زيمبابوى انها بحاجة إلى زيادة عدد العمال الزيمبابويين الافريقيين فعادت إلى سن التشريعات التى تحد من تدفق الافريقيين الأجانب إلى زيمبابوى وأعلنت عن غلق معظم المناطق واستثنت من ذلك المناطق الريفية فى الجنوب الشرقى والشرق . وكنتيجة لذلك قل عدد العمال الافريقيين الأجانب بسبب عودتهم إلى بلادهم الأصلية . وفى منتصف عام ١٩٦٧ عدلت حكومة زيمبابوى عما سبق وسمحت للأفريقيين الأجانب بالبحث عن عمل فى أى منطقة ريفية وليس بالمدن وقد حددت أقصى مدة لإقامة هؤلاء بسنتين يعودون بعدها إلى بلادهم.[٧٢]

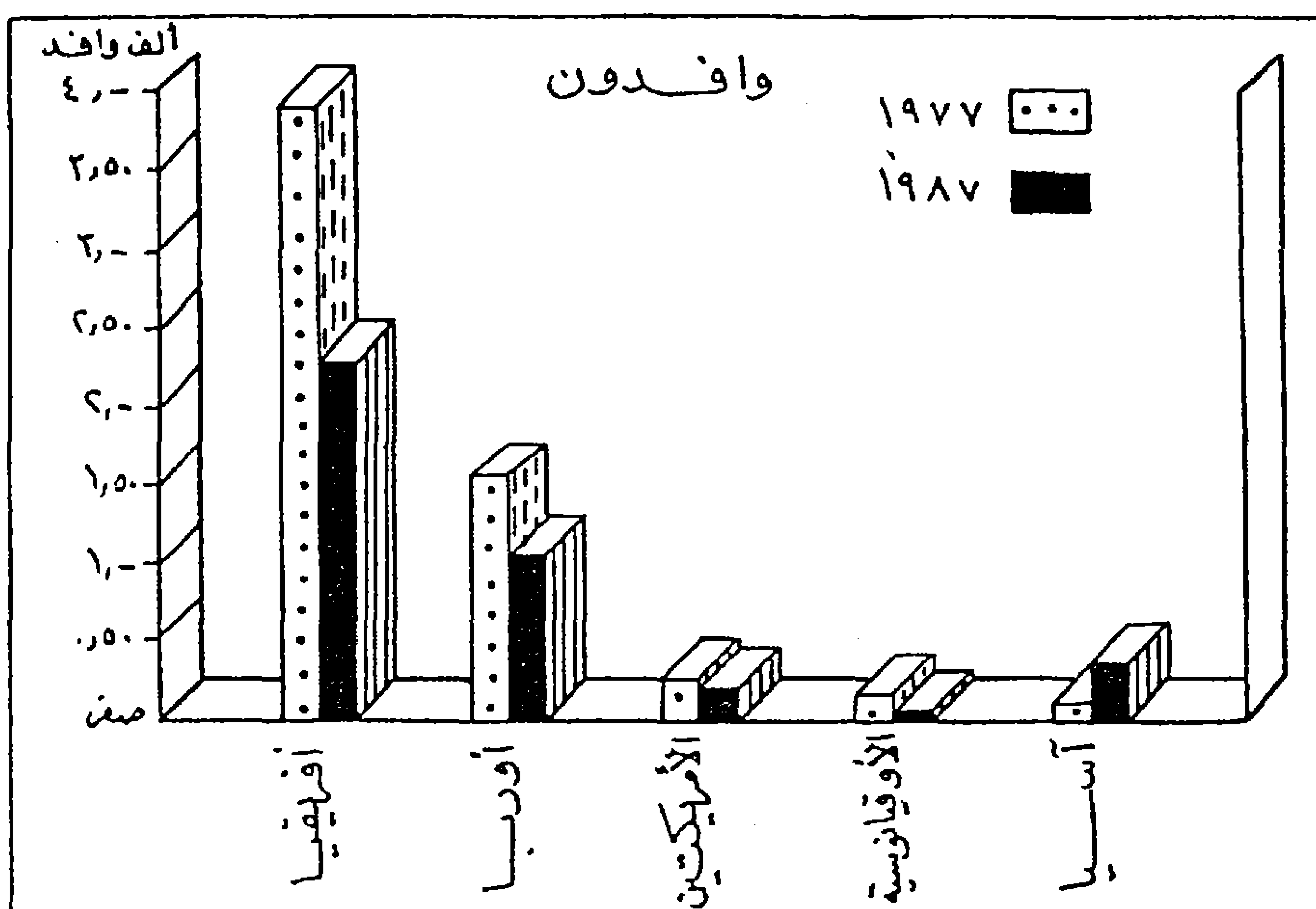
ويوضح جدول رقم (١١) وشكل (١٠) التوزيع العددى والنسبى للوافدين إلى زيمبابوى خلال الفترة من ١٩٧٧ - ١٩٨٧ ومنهما يتضح الأتى :

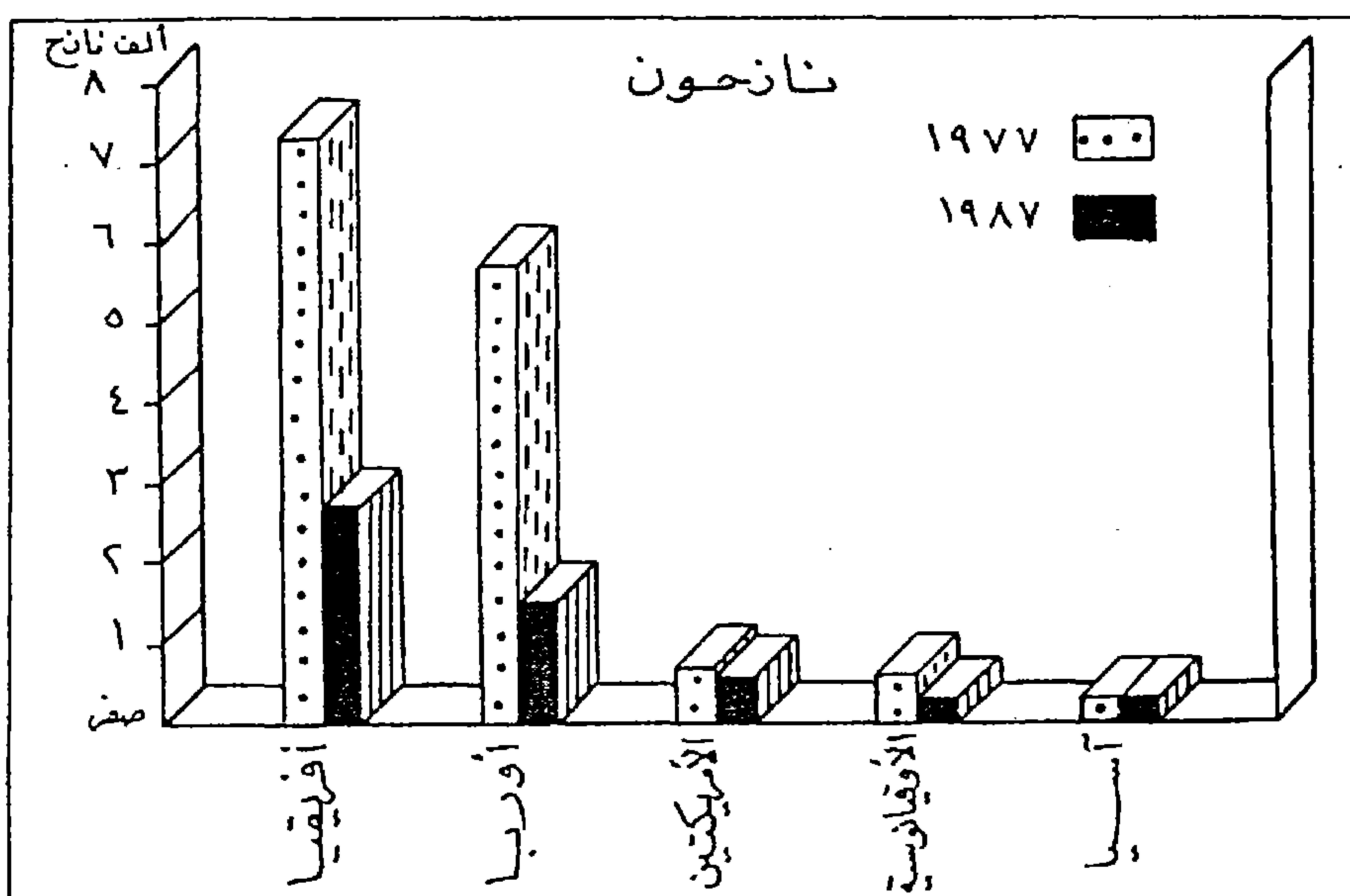
انخفض عدد الوافدين إلى زيمبابوى من ٥٩١٤ وافدا عام ١٩٧٧ إلى ٣٩٢٥ عام ١٩٨٧ بنسبة انخفاض مقدارها ٤,١٪ سنوياً ، ويرجع ذلك إلى أنه قبل الاستقلال كانت جمهورية جنوب أفريقيا تمد زيمبابوى بنحو ٥٤٪ من

جدول (١١)

التوزيع العددى والنسبى للوافدين إلى زيمبابوى حسب آخر منطقة وصول خلال الفترة من ١٩٧٧ - ١٩٨٧ (٧٣)

المنطقة	١٩٧٧		١٩٨٧	
	الحجم	٪	الحجم	٪
جملة أفريقيا	٣٩٠٣	٦٦	٢٢٧٤	٥٧,٩
جمهورية جنوب أفريقيا	٣٢٠٢	٥٤,١	٥٥٧	١٤,٢
زامبيا	٢٨٤	٤,٨	١٢١٠	٣٠,٨
ملاوي	٦٤	١,١	١٩٧	-ر٥
موزمبيق	١٣٣	٢,٣	٢٥	ر٦
أخري	٢٢٠	٣,٧	٢٨٥	٧,٣
جملة الأمريكتين	٢٣٣	٣,٩	٢٠٢	٥,١
الولايات المتحدة الأمريكية	١٣٦	٢,٣	١٢٢	٣,١
كندا	٤٩	ر٨	٦٦	١,٧
أخري	٤٨	ر٨	١٤	ر٣
جملة أسيا	٩١	١,٥	٣٣٢	٨,٥
الهند	٢٥	ر٤	١٦٣	٤,٢
أسرائيل	٢٦	ر٤	-	-
أخري	٤٠	ر٧	١٦٩	٤,٣
جملة أوربا	١٥٣٠	٢٥,٩	١٠٦٤	٢٧,١
إنجلترا	١٢٠٨	٢٠,٥	٥١٧	١٣,٢
البرتغال	٩٠	١,٥	٦	ر٢
المانيا الغربية	٤٣	ر٧	٨٧	٢,٢
أخري	١٨٩	٣,٢	٤٥٤	١١,٥
جملة الاوقيانوسية	١٥٧	٢,٧	٥٣	١,٤
استراليا	١٠٢	١,٧	٤٤	١,٢
أخري	٥٥	-ر١	٩	ر٢
الجملة	٥٩١٤	١٠٠	٣٩٢٥	١٠٠





شكل (١٠) إعداد المهاجرين إلى زيمبابوى ومنها حسب آخر منطقة وصول

خلال الفترة (١٩٧٧ - ١٩٨٧)

المهاجرين ثم بدأت منذ عام ١٩٧٩ تقل مشاركة جمهورية جنوب أفريقيا لتصل إلى ١٤٪ فقط من إجمالى عدد الوافدين إلى زيمبابوى .

- معظم المهاجرين إلى زيمبابوى من أفريقيا وبصفة خاصة من دول جماعة تنمية الجنوب الأفريقى حيث بلغت نسبتهم ٦٦٪ عام ١٩٧٧ ، ٥٧,٩٪ عام ١٩٨٧ . فى حين تشغل أوربا المرتبة الثانية من حيث عدد الوافدين إلى زيمبابوى بنسبة ٢٥,٩٪ ، ٢٧,١٪ للعامين السابقين على الترتيب (الغالبية العظمى من انجلترا)
- أما النسبة الباقية فتساهم بها أسيا والأمريكتان والاقيانوسية .

ويوضح جدول (١٢) وشكل (١٠) التوزيع العددى والنسبى للنازحين من زيمبابوى ومنهما يتضح الأتى :

انخفض عدد النازحين من زيمبابوى من ١٤٥٥٦ نازحا عام ١٩٧٧ إلى ٥٣٣٠ عام ١٩٨٧ بنسبة انخفاض مقدارها ١٠٪ سنوياً . وذلك بسبب تحسن الظروف الاقتصادية للبلد مما قلل من حجم النازحين منها إلا أن عدد المهاجرين منها ارتفع مرة أخرى نتيجة لظروف الجفاف التى مرت بها بالإضافة إلى تمسكها ببرامج إعادة البناء الاقتصادى القاسية والتى أنعكس تأثيرها على موقف الاستخدام(٧٥) حيث نجد أنه فى عام ١٩٩٠ كان نحو ٢١ ألفا يعملون فى جمهورية جنوب أفريقيا وحدها .

وتشير التقديرات إلى أنه بحلول ابريل عام ١٩٩٤ كان ٣٠٠ ألف من الزيمبابويين قد غادروا بلادهم للعمل فى جمهورية جنوب افريقيا . وقد تضمنت هجرة العمالة المذكورة العمال بعقود مؤقتة والعاملين المهنيين المؤقتين والعمال السريين أو غير القانونيين . (٧٥)

ومعظم المهاجرين من زيمبابوى يتجهون إلى دول داخل قارة أفريقيا وبصفة خاصة دول جماعة تنمية الجنوب الأفريقى ، حيث بلغ نصيب قارة افريقيا نحو

جدول (١٢)

التوزيع العددى والنسبى للنازحين من زيمبابوى

خلال الفترة من ١٩٧٧ - ١٩٨٧ (٧٧)

المنطقة	١٩٧٧		١٩٨٧	
	الحجم	٪	الحجم	٪
جملة افريقيا	٧٢٩٧	٥٠,٢	٢٧٠٨	٥٠,٨
جمهورية جنوب أفريقيا	٦٨٨٠	٤٧,٢	٨٢٦	١٥,٥
زامبيا	٢٤	٢ر	٢١٨	٤,١
ملاوى	١٨١	١,٣	١٣٠٦	٢٤,٥
موزمبيق	١	–	٥٠	٩ر
دول أخرى	٢١١	١,٥	٣٠٨	٥,٨
جملة الأمريكتين	٦٤٢	٤,٤	٥٧٨	١٠,٨
الولايات المتحدة الامريكية	٣٥١	٢,٤	٢٨١	٥,٣
كندا	١٩٥	١,٣	١١٣	٢,١
دول أخرى	٩٦	٧ر	١٨٤	٣,٤
جملة أسيا	٢٤٩	١,٧	٢٤٧	٤,٦
الهند	١٠	١ر	١٤٩	٢,٨
اسرائيل	١١٨	٨ر	–	–
دول أخرى	١٢١	٨ر	٩٨	١,٨
جملة أوربا	٥٧٠٩	٣٩,٢	١٥٢٥	٢٨,٦
إنجلترا	٣٦٥١	٢٥,١	١٠٦٠	١٩,٩
البرتغال	١١١٠	٧,٦	١٨	٣ر
المانيا الغربية	٩٥	٧ر	٩٣	١,٨
أخرى	٨٥٠	٥,٨	٣٥٤	٦,٦
جملة الأقيانوسية	٦٠٠	٤,١	٢٦٩	٥,١
استراليا	٤٢٧	٢,٩	٢٢٤	٤,٢
دول أخرى	١٧٣	١,٢	٤٥	٩ر
غير مبين	٥٩	٤ر	٣	١ر
جملة	١٤٥٥٦	١٠٠	٥٣٣٠	١٠٠

٥٠,١٪ من إجمالى عدد النازحين من زيمبابوى ، معظمهم يتجهون إلى جمهورية جنوب أفريقيا (٤٧,٣٪) من جملة النازحين وذلك لتشابه الظروف الاجتماعية والسياسية والتاريخية بين البلدين وذلك عام ١٩٧٧ ، فى حين نجد العكس فى عام ١٩٨٧ حيث كان يتجه معظم المهاجرين من زيمبابوى إلى ملاوى والتى اجتذبت نحو ربع النازحين من زيمبابوى ومعظم هؤلاء النازحين جاءوا أساساً من ملاوى كعمال مهاجرين ولم يستطيعوا العودة قبل غلق الحدود بين زيمبابوى وجيرانها من ناحية الشمال والشرق عام ١٩٨٠[٧٦].

وتعتبر أوربا منطقة الاستقبال الثانية لمهاجري زيمبابوى ، حيث يتجه اليها نحو ربع مهاجرى زيمبابوى عام ١٩٨٧ (٢٨,٦٪) ، ومعظمهم يتجه إلى انجلترا (١٣,٢٪) ، وهذا يوضح العلاقة العكسية مع السكان الذين ذهبوا إلى جنوب أفريقيا أثناء العقد الماضى ، ففى هذه الفترة كسبت زيمبابوى مهاجرين من انجلترا فقط فى أعوام ١٩٨١ ، ١٩٨٢ . وفى نفس الوقت عندما عاد العديد من الزيمبابويين لبلدهم من الغربة ذهب بعضهم إلى استراليا ليرتفع العدد بعد الاستقلال إلى ١٠٠٠ مهاجر تقريباً لكل سنة ، ثم أخذ العدد بعد ذلك فى الانخفاض .[٧٨]

كما أوضح Lovemore Zinyama[٧٩] فى دراستة عن الهجرة من زيمبابوى من خلال الأسئلة الآتية من ، كم ، متى ، ولماذا التحركات عبر الحدود من زيمبابوى عن طريق الهجرة إلى جنوب أفريقيا ، وقد قام الباحث بعمل مسح فى فبراير ومارس عام ١٩٧٧ على ٩٤٧ زيمبابوى وقد تم اختيار ٣٢ منطقة (١٧ منطقة ريفية و١٥ منطقة حضرية) وبلغت نسبة الذكور ٥٦٪ من إجمالى العينة وطبقاً لتقديرات المفوضية العليا لجنوب أفريقيا فى هرارى يعيش نحو ٧٥ ألف زيمبابوى فى جنوب أفريقيا عام ١٩٧٥ ، بالاضافة إلى أعداد أخرى غير معروفة، كما أن تقديرات المفوضية العليا الزيمبابوية تشير إلى أن هناك ما يقرب من ٤٠٠

ألف زيمبابوى مهاجر إلى جمهورية جنوب أفريقيا سواء بصورة رسمية أو غير رسمية يعملون كخدم فى المنازل ، وفى صناعة البناء والتشييد .

وقد أوضحت العينة أن ٤١٪ من الذكور يذهبون لغرض العمل أو البحث عنه فى حين تنخفض هذه النسبة بين الإناث إلى ٣٪ فقط ، وإن ٣٢٪ من الذكور يذهبون لغرض التسوق أو بيع وشراء البضائع ، فى حين ترتفع هذه النسبة بين الإناث إلى ٦٥٪ ، كما بلغت نسبة من يذهبون لزيارة العائلة أو الاصدقاء إلى ١١٪ بين الذكور و١٦٪ بين الاناث .

كما أوضحت الدراسة التى قدمتها Belinda Dodson عن المرأة فى حالة التنقل على عينة مكونه من ٤١٧ امرأة من زيمبابوى أن النساء تهاجرن إما لزيارة أزواجهن أو اصدقائهن أو لبيع وشراء البضائع كما أن نمو الخدمات غير ميسر ومستوى المعيشة منخفض فى دولهن ، أكثر من هذا التهديد الذى تتعرضن له .

مما سبق يتضح أن عدد الوافدين إلى زيمبابوى بلغ ٣٩٢٥ وافدا عام ١٩٨٧ و عدد النازحين منها بلغ ٥٣٣٠ مهاجرا ، وهذا يعنى أن زيمبابوى خسرت نحو ١٤٠٥ عمال لصالح الدول الأخرى .

(جـ) زامبيا :

تشغل زامبيا الجزء الشرقى من هضبة وسط أفريقيا بمساحة ٧٥٣ ألف كيلو مترا مربعا ويسكنها نحو ١٠,١ مليون نسمة عام ٢٠٠٠ وهى بذلك أقل دول حوض الزمبيزى - اللمبوبو فى كثافة السكان (١٤ نسمة / كم^{٢}) ، وترتفع بها معدلات المواليد والوفيات ومعدلات الخصوبة .

وزامبيا ذات اقتصاد متنوع . وقد أدى موقع زامبيا كدولة مغلقة وبعدها عن سواحل جنوب القارة إلى تأخير التنمية الاقتصادية بها واستمرار النمط المعاشى فى الزراعة والرعى مميزاً لاقتصادها حتى أوائل القرن العشرين عندما

اكتشفت بها ثروة معدنية ضخمة ممثلة فى نطاق النحاس فى الشمال وترتب على ذلك مد خط السكك الحديدية من بولاوايو في زيمبابوى حتى لفنجستون سنة ١٩٠٤ ثم إلى نطاق النحاس بعد ذلك بخمس سنوات .(٨١)

ويعتمد اقتصاد زامبيا على إنتاج وتصدير النحاس ، حيث يشكل ٩٥٪ من دخل الصادرات ويساهم بنحو٤٥٪ من دخل الحكومة ، وقد تغير هذا الموقف بسبب الانخفاض السريع فى أسعار النحاس مما جعلها تحت ضغط خطير . وقد وصل إنتاج النحاس إلى قمته فى عام ١٩٧٦ حيث بلغ ٧١٣ ألف طن ثم انخفض إلى ما يتراوح بين ٣٠٠-٤٠٠ ألف طن مترى فى عام ١٩٩٦ ، وقد أدى هذا الانخفاض إلى أرتفاع فى تكلفة الإنتاج .(٨٢)

وقد كانت زامبيا ترسل عددا محدودا من المهاجرين للعمل فى مناجم الذهب فى جمهورية جنوب أفريقيا بلغ ١٢ مهاجرا فى عام ١٩٢٠ ثم توقفت عن إرسال مهاجرين فى عام ١٩٣٠ ومنذ عام ١٩٤٠ أخذت أعداد المهاجرين إلى جمهورية جنوب أفريقيا فى الزيادة وقد بلغت أقصاها فى عام ١٩٦٥ حيث أرسلت ٥٨٩٨ مهاجرا ثم توقفت بعد ذلك نتيجة لاكتشاف النحاس فى زامبيا واستغلاله بكميات وفيرة مما جذب الأيدى العاملة من الدول المجاورة ونتيجة لانخفاض انتاج النحاس نتيجة لهبوط أسعاره عادت زامبيا إلى إرسال مهاجرين مرة أخرى إلى جمهورية جنوب أفريقيا حيث ارتفع عددهم من ٩٢٦ مهاجرا عام ١٩٨٥ إلى ١٢٠٠ مهاجر عام ١٩٩٠ وبنسبة ٣ ر ٪ من إجمالى العمالة الوافدة إلى جمهورية جنوب أفريقيا .

كما أن زامبيا تستقطب عددا من المهاجرين من دول جماعة تنمية الجنوب الافريقى خاصة من زيمبابوى وليسوتو وموزمبيق وملاوى ، حيث قدر عدد الأجانب فى زامبيا عام ١٩٨٠ بنحو ٢١٣,٤ ألف مهاجر بنسبة ٤,١٪ من إجمالى سكان زامبيا ومعظمهم من داخل أفريقيا (٧٩,٩٪).(٨٣)

(د) تنـزانيا :

أكبر أقطار شرق أفريقيا بمساحة تقترب من المليون كيلو متر مربع ، وتطل على المحيط الهندى بجبهة ضعف طول الجبهة التى تطل بها كينيا أى نحو ٨٠٠ كم٢ وفى مواجهتها تقع عدة جزر أكبرها زنجبار .

ونظراً لوقوع تنزانيا فى نصف الكرة الجنوبى بين درجتى ٣ ، ١٢ فإن سواحلها تستفيد بالكامل من الرياح المحيطية الجنوبية . ويعتمد الاقتصاد التنزانى على الزراعة أساساً والتى تمثل ٨٥٪ من قيمة الصادرات . والماس أساس ثروة تنزانيا المعدنية ، اكتشف عام ١٩٤٠ ويستغل من مناجم وليمسن فى الشمال كما يستخرج الذهب أيضاً من ثلاثة مناجم جنوب وجنوب شرق بحيرة فكتوريا . وتمتد خامات القصدير على حدود تنزانيا مع رواندا وأوغندا . وتتركز الصناعة فى ثلاثة أقاليم بصورة أساسية وهى دار السلام وتانجا وأروشا فى الشمال.[٨٤]

وتأتى المناطق الغربية والوسطى والجنوبية كمناطق إرسال رئيسية للعمالة ، ولذلك نجد أهم المهاجرين من قبائل النياموبزى والها Ha وألفيبا فى المديرية الغربية ، والحوجو والنتاتورو فى المديرية الوسطى والنياكوسا والنجونى والنجنيد فى الجنوب ونجد أن البيانات عن حجم وخصائص المهاجرين نادرة جداً عن كينيا وأوغندا وتنزانيا ولكن هناك تحركات سائدة للعمالة سواء كانت عمالة زراعية مؤقتة كما أن هناك تحركات للعمالة المهنية والماهرة.[٨٥]

وتتوقف سياسة الهجرة فى شرق أفريقيا على الظروف السياسية السائدة حيث تفتح الحدود وتغلق حسب تغير الأحوال السياسية . وقد قدر عدد الأجانب فى تنزانيا عام ١٩٧٨ بنحو ٤١٥٦٠٤ مهاجرين بنسبة ٢,٤٪ من إجمالى سكان البلد.[٨٦] وتتمثل مناطق الجذب الرئيسية فى أقليم تنجا وحول الخط الحديدى الأوسط إلى كيلوسا وترتبط هذه المناطق بزراعة السيسل وإقليم موشى

وأروشا حيث المزارع الأوروبية ويضاف إليها أيضاً المرتفعات الجنوبية فضلاً عن النطاق الساحلى فى المديرية الجنوبية.

وتعتبر مزارع السيسل هى أكبر مستورد للأيدى العاملة المهاجرة ، يقدرون أنها تستخدم وحدها ١٣٠ ألف نسمة سنوياً ، ذلك أن السيسل فى حاجة إلى أيد عاملة وفيرة لأن جمع الأوراق عملية يدوية تحتاج إلى عمال أقوياء الجسم ، بل إن قبائل معدودة هى القادرة على هذا العمل ، ويأتيها العمال من جهات قد تكون قريبة وقد تكون بعيدة غاية البعد كرواندا وبورندى كما يأتيهم مهاجرون من ملاوى ، وهؤلاء غالباً من سكان الشمال ويتجهون عبر أقليم روفوما نحو كيلوسا وتأخذ هجرات موزمبيق الطريق الساحلى إلى ليندى ودار السلام ومنها ما يتجه إلى تنجا شمالاً وأهم القبائل التى تخرج من موزمبيق إلى تنزانيا هى الماكوا والماكوندى.(٨٧)

كما ترسل تنزانيا بمهاجريها إلى الدول الأخرى وبصفة خاصة جمهورية جنوب أفريقيا حيث بلغ عددهم نحو ٨٨٧ بنسبة ٣ر ٪ من إجمالى العمالة الوافدة عام ١٩٨٥ ولكنها توقفت بعد ذلك عن إرسال عمالها إلى جمهورية جنوب أفريقيا ومعظم مهاجرى تنزانيا من قبيلة النياكوسا التى تعيش شمال غرب بحيرة نياسا حيث يجد شبابها صعوبة بالغة فى الحصول على أرض لزراعتها . كما أن معظم المهاجرين من تنزانيا يتجهون إلى نطاق النحاس فى زامبيا أو إلى مناطق التعدين وخاصة حقول فحم وانكى فى زيمبابوى ، وقليل منهم يذهب للعمل فى المدن .(٨٨) وتستقبل بتسوانا نحو ٤٩٨ مهاجرا من تنزانيا بنسبة ٢,٧٪ من إجمالى العمالة الوافدة عام ١٩٩١ .

(هـ) انجــولا :

تبلغ مساحة أنجولا نحو ١,٣ مليون كم٢ بسكان قدر عددهم بنحو ١٢,٧ مليون نسمة عام ٢٠٠٠ وبكثافة ١٠ نسمة /كم٢ ، كما أنها تتميز بارتفاع معدلات المواليد والوفيات وبارتفاع معدلات الخصوبة الكلية .

وكان لاتساع مساحة أنجولا أثره الواضح فى تنوع أقاليمها التضاريسية والمناخية والنباتية فسواحلها الجنوبية عبارة عن صحراء معتدلة وتتزايد الأمطار بالاتجاه شمالاً وشرقاً . ويمكن تقسيم أنجولا إلى أقليمين كبيرين هما أقليم السهول الساحلية وأقليم الهضاب ، ويعد صيد الأسماك من الحرف الهامة فى النطاق الساحلى ، وقد أقيم الكثير من مصانع تجفيف الأسماك وتعليبه وإعداده للتصدير وتتركز هذه المصانع فيما بين لوبيتو والساحل الجنوبى ، وتعد الهضاب الداخلية مناطق زراعية وتعتبر الذرة المحصول الغذائى الرئيسى فى أنجولا . ورغم أن الاقتصاد الأنجولى يعتمدعلى انتاج البن ، فإن موارد الثروة المعدنية تسهم هى الأخرى بنسبة لا يستهان بها ، ويأتى الماس فى مقدمة هذه الموارد والذى يستخرج من حوض كاساى فى الشمال الشرقى من حقوله التى تعد أمتداداً لحقول زائير ، ويتم أيضاً تعدين المنجنيز والفيرو منجنيز والحديد الخام والنحاس وقد أدى هذا النشاط التعدينى إلى تنويع الانتاج وتقليل سيادة البن فى التجارة الخارجية كما اكتشف البترول فى أنجولا سنة ١٩٥٥ وكان لذلك أثر كبير فى اقتصادياتها . أما مصادر الطاقة الأخرى فتتمثل فى الطاقة الكهرومائية المولدة من محطات الكهرباء على بعض الأنهار.(٨٩)

وكانت الهجرة العمالية فى كل من أنجولا وموزمبيق من الظواهر الاجتماعية الملفتة وقد قرر هنريك جالفا وجود نحو ٢ مليون عامل أفريقى من الأقليميين يعملون ويعيشون خارجها ، كما قدر مارسيللو كاتيانو الرقم بنحو مليون عامل وينقل لورد هايلى عن أحد المصادر (مصدر ناقد للنظام التعاونى) عام ١٩٥٤ أن هذا الرقم بلغ فى أنجولا وحدها نحو مليون عامل حتى ذلك الوقت . ويمتد نطاق هذه الهجرة بشكل ملحوظ إلى كل من جمهورية جنوب أفريقيا وتنزانيا . وتقدر بعض المصادر أن الهجرة العمالية إلى جمهورية جنوب أفريقيا وزيمبابوى تبلغ نحو عشرة آلاف عامل فى السنة ، بينما يقدر هوبلر الهجرة العمالية من

أنجـولا بنحـو ٣٠ ألف عـامل سنوياً . وهذا يدل على مـدى المعـاناة التى كـان يعـانيها العمال الأفـريقيـون فى المستعمرات البرتغـالية . بل أن اتجاه هذه الهجرة إلى جنوب أفريقيا وزيمبابوى وناميبيا بكل ماهو معروف عنها من تفرقة عنصرية يعطى دلالة قاطعة على سوء الأوضاع فى هذه المستعمرات البرتغالية . وأنهى العمل الإجبارى وأصبح العامل حراً فى العمل لصالحه أو اختيار صاحب العمل كما أنشئت مؤسسة للتنمية الاجتماعية للعمال بهدف وقف العمل الاجبارى ووقف العقوبات البدنية على العمال.(٩٠)

وقد بلغ عدد المهاجرين من أنجولا إلى مناجم الذهب فى جمهورية جنوب أفريقيا نحو ٦٩٨ عاملا فى عام ١٩٤٠ ثم أخذ فى الزيادة حيث بلغ أقصاه فى عام ١٩٦٠ (١٢٣٦٤) ثم بعد ذلك أخذ فى الانخفاض نتيجة لتحسن الأحوال فى أنجولا مما قلل من عدد المهاجرين منها حيث قدر عددهم فى عام ١٩٩٠ بنحو ٢٠٠ عامل فقط فى جمهورية جنوب أفريقيا ، كما ترسل أنجولا بمهاجريها إلى زائير وإلى نيجيريا فى غرب أفريقيا وإلى زامبيا وبتسوانا.

وتستقبل أنجولا نحو ١٥,٢ ألف مهاجر عام ١٩٨٣ بنسبة ٢ر ٪ من إجمالى سكان البلد.(٩١)

ثالثا : الخصائص الديموجرافية للمهاجرين :

تتضمن خصائص السكان المهاجرين عدة ظاهرات ديموجرافية مثل التركيب النوعى والعمرى والمستوى التعليمى والحالة الزواجية وأخيراً الخصائص المهنية وهى ذات أهمية كبيرة لأنها توضح الملامح الرئيسية للسكان المهاجرين.

والمقصود بالخصائص السكانية للمهاجرين هو الوصول إلى أهم القطاعات التى تشغلها كل مجموعة من السكان المهاجرين بالاضافة إلى تحديد الظروف التى يعيشونها ومدى المنافسة غير المتكافئة بينهم وبين السكان الوطنيين ، حيث

أن معظم المهاجرين يمثلون فئة الشباب وهى الفئة الغالبة من الهرم السكانى ، بالاضافة إلى الاختلاف من حيث نسبة مساهمة كل منهما فيالأنشطة الاقتصادية وأخيراً المستوى التعليمى يختلف بين هاتين المجموعتين.(٩٢) وفيما يلى دراسة للخصائص السكانية للمهاجرين.

(١) التركيب النوعى والعمرى للمهاجرين :

يوضح الجدول (١٣) التركيب النوعى والعمرى لعينة من المهاجرين فى بعض دول الجنوب الأفريقى ومنه يتضح الأتى :

- ترتفع نسبة الذكور على الأناث وتصل إلى أقصاها فى موزمبيق (٨٨٪) فى حين سجلت ليسوتو أقل نسبة (٥٦٪) . حيث ان المرشحين للعمل فى المناجم كانوا يخضعون لاختبارات بدنية والذين ينجحون ينقلون جواً أو بواسطة السكك الحديدية أو الباصات إلى المناجم حيث يعيشون فى بيوت ، ومعظمهم من الذكور فى سن الشباب وكانت هناك اتفاقيات تتطلب عودتهم إلى منازلهم بعد عام أو عامين ، فسياسة أستخدام العمالة فى جمهورية جنوب أفريقيا لا تقود إلى الاستقرار كما يتوقع حسب نظرية الهجرة ، لأن هناك منعا لاستقدام العائلة .(٩٣)

- ترتفع نسبة السكان فى الفئة العمرية ١٥-٤٤ سنة وتصل إلى اقصاها فى زيمبابوى (٧٥٪) فى حين سجلت موزمبيق ادنى نسبة (٦٠٪) ، هذا يوضح الدور الذى تسهم به الهجرة الوافدة فى نمو حجم القوى العاملة حيث ان معظمهم من الشباب فى سن العمل والانتاج ، ولأنه من السهل احياناً إيجاد عمل للصغار بأجور منخفضة .

- ومن ناحية أخرى نجد أن هناك أكثر من نصف الهجرات الأولى تتم قبل الزواج ومعظم الباقى بعد ولادة الطفل الأول ، ولكن بعد سن الأربعين يبدأ الرجل فى

جدول (١٣)

الخصائص الديموجرافية لبعض المهاجرين إلي جمهورية جنوب أفريقيا (٩٥)

الخصائص الديموجرافية / الدولة		ناميبيا	ليسوتو	موزمبيق	زيمبابوى
النوع (٪)	ذكور	٥٦	٥٤	٨٨	٦١
	اناث	٤٤	٤٦	١٢	٣٩
الحضر أو الريف (٪)	حضر	٩٧	٦٢	٤٤	٩٢
	ريف	٤	٣٩	٥٦	٨
العمر (٪)	١٥ – ٢٤	١٦	٢٠	١٤	١٧
	٢٥ – ٤٤	٥١	٥٠	٤٦	٥٨
	٤٥ – ٦٤	٢٦	٢٩	٣٤	١٧
	٦٥ +	٧	٢	٦	٩
الحالة الزوجية (٪)	متزوج	٦٨	٦٨	٧٤	٧٣
	مطلق	٣	٥	٣	٣
	أرمل	٧	٩	٤	٢
	غير متزوج	٢٦	١٨	١٩	٢٢
الحالة التعليمية (٪)	غير متعلم	٤	٨	١٨	٩
	بعض التعليم الابتدائى	١٤	٣٨	٣٠	١٤
	أكملو المرحلة الابتدائية	٤	١٧	١٤	١٨
	بعض التعليم العالى	٣٤	٢٥	٢٤	٤١
	أكملو التعليم العالى	٢٣	٩	١٠	١٢
	تعليم جامعى وما فوق	٢١	٢	٤	٦
عدد أفراد العينة = ٢٩٠٠					

الاستقرارنظراً لالتزاماته المتعددة حيال الأسرة ولأنه يصبح أقدر على الحصول على النقد اللازم لاحتياجاته ، كما أن مطالبه تبدأ فى الانكماش من ناحية ، ومن ناحية أخرى لا يصبح قادراً على بذل المجهود الجسمانى والفكرى الذى تتطلبه هذه الهجرات .(٩٤)

معظم مهاجرى ناميبيا وزيمبابوى وليسوتو إلى جمهورية جنوب أفريقيا جاءوا أساساً من مناطق حضرية ، فى حين نجد أن أكثر من نصف مهاجرى موزمبيق من مناطق ريفية .

(٢) الحالة الزواجية للمهاجرين :

من دراسة الحالة الزواجية لعينة من مهاجرى ناميبيا- ليسوتو - موزمبيق و زيمبابوى (جدول ١٣) نجد أن المهاجرين المتزوجين ترتفع نسبتهم إلى أكثر من ثلثى المهاجرين وتصل النسبة اقصاها فى موزمبيق (٧٤٪) فى حين بلغت أدناها فى ناميبيا وليسوتو (٦٨٪ لكل منهما).

- يأتى المهاجرون غير المتزوجين فى المرتبة الثانية حيث تبلغ نسبتهم ٢٦٪ لناميبيا ، ٢٢٪ لزيمبابوى ، ١٩٪ لموزمبيق ، ١٨ ٪ لليسوتو .
- تنخفض نسبة المطلقين والأرامل بين مهاجرى الدول الأربع وتصل إلى أقصاها فى ليسوتو (١٤٪) ، فى حين سجلت زيمبابوى ادنى نسبة (٥٪) .

(٣) الحالة التعليمية للمهاجرين :

من دراسة الحالة التعليمية للمهاجرين يتضح الأتى :

- تنخفض نسبة غير المتعلمين بالنسبة لمهاجرى الدول الأربع حيث بلغت نسبتهم ٤٪ لمهاجرى ناميبيا ، ٨٪ لليسوتو ، ٩٪ لزيمبابوى ، ١٨٪ لموزمبيق .
- ترتفع نسبة حملةالمؤهلات العليا وما فوقها وتصل النسبة أقصاها فى ناميبيا (٧٨٪) فى حين سجلت ليسوتو أدنى نسبة (٣٦٪) .

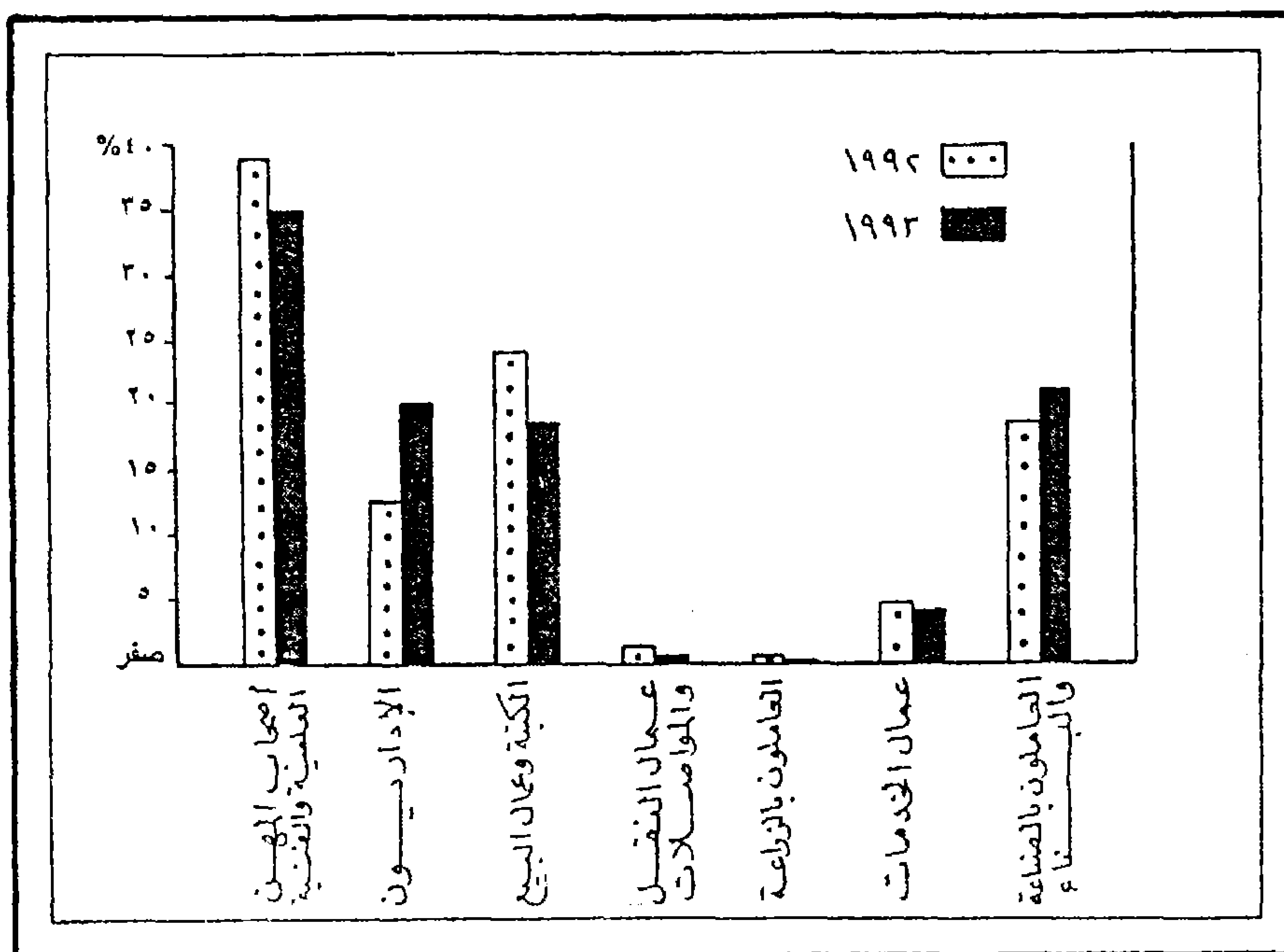
- ترتفع نسبة من لديهم التعليم الابتدائى فى ليسوتو (٣٨٪) عنها فى باقى الدول .

(٤) تصنيف المهاجرين حسب المهنة :

يوضح الجدول رقم (١٤) وشكل (١١) أعداد المهاجرين إلى جمهورية جنوب أفريقيا وفق التصنيف المهنى ومنه يتضح أن أغلبية المهاجرين إلى جمهورية جنوب أفريقيا من المهنيين ولكن هذا هو حال المهاجرين من جنوب افريقيا .إلا أن جمهورية جنوب أفريقيا فى نهاية الأمر هى المستفيد الأكبر من المهاجرين المؤهلين وهجرة العقول كما يلاحظ اهلون وستيدمان : " تضيف هجرة العقول من بقية الأقليم إلى جنوب أفريقيا بعداً أخر لمشكلة الهجرة إذ يتدفق المهاجرون شبه الحرفيين، والمهرة والمهنيون بصورة متزايدة على جنوب أفريقيا التى تدفع عموماً مرتبات أفضل وتوفر فرصاً أحسن للتقدم مما تستطيع أن توفره لهم أوطانهم وفقدان أولئك النفر إلى جنوب أفريقيا قد يكون ضرراً إقتصادياً بالغاً على الاقتصادالوطنى فى الدول المجاورة بل قد يصبح مكمن توتر ونزاعا محتملا بين تلك الدول وجنوب افريقيا " ، وزيمبابوى من أكثر دول الجنوب الأفريقى تأثراً بهجرة العقول فقد خرج نظام التعليم الزيمبابوى مهنيين على أرفع المستويات ولكنهم يهاجرون إلى ناميبيا وبتسوانا وجنوب افريقيا ، ففى عام ١٩٩١ وحده مثلا هاجر ٢٠٠ طبيب من زيمبابوى إلى بتسوانا وجنوب أفريقيا .[٩٦] كما قدر أن ١٥ ألفا من المهنيين تركوا زيمبابوى منذ الاستقلال السياسى فى عام ١٩٨٠[٩٧]. وفى عام ١٩٩٤ غادر نحو ١٤٠٠ طبيب زيمبابوى للعمل فى جنوب أفريقيا مما أدى إلى الشعور بالذعر فى زيمبابوى وأضطر الرئيس مانديلا إلى التصريح بعد مضى شهر من ذلك بأن جنوب افريقيا لا ترغب فى تجريد جارتها من مواطنيها المهنيين الحاصلين على تدريب رفيع المستوى .

جدول (١٤)
التصنيف المهنى للمهاجرين إلى جمهورية جنوب أفريقيا(٣٧)

المهنة	المهاجرون إلى جنوب أفريقيا			
	١٩٩٢		١٩٩٣	
	الحجم	٪	الحجم	٪
أصحاب المهن العلمية والفنية	١٦٠٨	٣٨,٩	١٤٥٤	٣٥,٢
الاداريون	٥٢٠	١٢,٦	٨٤٢	٢٠,٤
الكتبة وعمال البيع	٩٩٧	٢٤,١	٧٧٠	١٨,٦
عمال النقل والمواصلات	٥٣	١,٣	٢٣	٥ر
العاملون بالزراعة	١٧	٤ر	١٣	٣ر
عمال الخدمات	١٨٠	٤,٤	١٦١	٣,٩
العاملون بالصناعة والبناء	٧٥٧	١٨,٣	٨٧١	٢١,١
جملة النشطين اقتصادياً	٤١٣٢	٤٧,٦	٤١٣٤	٤٢,١
جملة غير النشطين اقتصادياً	٤٥٥٤	٥٢,٤	٥٦٩٠	٥٧,٩
الجملة	٨٦٨٦	١٠٠	٩٨٢٤	١٠٠



شكل (١١) التصنيف المهنى للمهاجرين إلى جمهورية جنوب أفريقيا

ويوضح الجدول أيضاً أن أصحاب المهن العلمية والفنيةقد انخفضت نسبتهم من ٣٨,٩٪ من جملة النشطين اقتصادياً عام ١٩٩٢ إلى ٣٥,٢٪ عام ١٩٩٣، وفى مقابل ذلك ارتفعت نسبة الإداريين من ١٢,٦٪ إلى ٢٠,٤ ٪ للعامين السابقين على الترتيب.

كماانخفضت نسبة الكتبة وعمال البيع والنقل والمواصلات وعمال الزراعة فى عام ١٩٩٣ عما كانت عليه فى عام ١٩٩٢ . وفى مقابل ذلك ارتفعت نسبة العاملين فى الصناعة والبناء من ١٨,٣٪ من إجمالى النشطين اقتصادياً إلى ٢١,١٪ عام ١٩٩٣ .

مما سبق يتضح أنه مع التغيرات السياسية فى جمهورية جنوب أفريقيا أن أنماط هجرة العمالة تغيرت وأثرت على المهاجرين من كل الدول الافريقية ، حيث أنه مع انتهاء سياسة التمييز العنصرى ازداد الطلب على المدراء المؤهلين ، والعمال الفنيين.(٩٩)

رابعا : الآثار الايجابية والسلبية للهجرة :

(١) الآثار الاقتصادية للهجرة :

تساهم العمالة بدور كبير فى استثمار الموارد الاقتصادية فى البلاد المستقبلة للعمالة المهاجرة ، إذ هى تكسب أيدى عاملة هى فى حاجة إليها خاصة وأن هؤلاء غالباً ما يكونون فى سن الإنتاج والمقدرة على العمل ، ولا يمكن أن نغفل الدور الذى لعبته هجرة العمالة فى تنمية اقتصاد جمهورية جنوب افريقيا حيث يرجع نمو اقتصادها إلى الدور الذى بذلته وكالات توظيف العمالة المهاجرة فقد استخدمت العمالة الرخيصة فى قطاعات التشييد والبناء والحرف اليدوية وفى العمل فى المناجم وفى الزراعة التجارية .

وإذا كانت هجرات العمالة ذات أهمية بالغة لأقطار الجذب البشرى للنهوض بأعبائها ومواجهة مشكلات التنمية الاقتصادية بها ، إلا أنها تخفف من حدة

مشكلة البطالة التى تعانى منها الأقطار المرسلة للعمالة ، حيث تؤدى إلى إتاحة فرصة عمل للمهاجر ورفع مستواه المعيشى هو وأفراد أسرته ، كما أن هؤلاء المهاجرين برحيلهم يساهمون فى تخفيف عدد المستهلكين غير المنتجين الذين يشكلون عبئاً على اقتصاد دولهم دون المساس بمستوى الإنتاج إلا أنه يترتب على هجرتهم آثار سلبية من الناحية الاقتصادية ، فنحن نسلم بأن معظم المهاجرين من الشباب الأقوياء فى سن ١٥-٤٠ سنة لذلك من المؤكد أن يؤدى هذا إلى هبوط فى انتاجية الغذاء محلياً إذا كان معدل النزوح مرتفعا .كما أن غياب الذكور أدى إلى نقص خطير فى بعض الوظائف مثل عمل الكومات ، أسقف المنازل ، عصر ثمار نخيل الزيت فكل هذه الأنشطة تحتاج إلى جهود الذكور . فقد سجلت بعض العائلات فى أجزاء من بتسوانا عدم القدرة على إنتاج غذاء كاف بسبب غياب الذكور.(١٠٠)

ومن النتائج الإيجابية للهجرة هو انتقال رأس المال من الأقطار المستقبلة إلى الأقطار المرسلة لهم . فهى تعتبر مصدراً هاماً للحصول على النقد الأجنبى والذى يشكل مكسباً لا يستهان به لاقطار الطرد البشرى والتى يمكن أن تحقق أثراً ايجابياً على الوفورات المحلية والاستثمارات وميزان المدفوعات . فهذه التحويلات تستخدم بطرق كثيرة فهى كثيراً ما تستخدم فى شراء سلع استهلاكية وبناء المنازل وقد توجه أيضاً إلى الاستثمار فى الإنتاج . وقد تستخدم فى دفع رسوم التعليم والخدمات الصحية ، فهى تسهم بوجه عام فى رفع مستوى معيشة الأسر المعيشية التى تعتمد عليها.(١٠١)

ومن بين ما يشير إلى الفوائد الاقتصادية التى تعود على دول المنشأ أنه فى عام ١٩٧٦ حول عمال المناجم فى جنوب أفريقيا حوالى ٤,٥ مليون ايما لانجينى إلى سوازيلاند من أصل جملة حصيلتهم البالغ ١٢,٩ مليون . وفى ليسوتو تحصل الأسرة على ٤٠٪ من دخلها من تحويلات العمال المهاجرين الذين يعملون

فى قطاعى التعدين والزراعة فى جنوب أفريقيا.[١٠٢] كما أنها تساهم بنسبة وصلت لأكثر من ١٠٦٪ من الناتج القومى الاجمالى فى ليسوتو عام ١٩٨٣ . وربما أعاق نظام أمداد العمالة المهاجرة لسد احتياجات جنوب أفريقيا تنمية الاقتصاد فى الدول المرسلة لأنها تضعف الحافز لتنمية الانتاج الزراعى ومد البديل للأنشطة الاقتصادية المحلية . أكثر من هذا خلقت اقتصاديات تعتمد على جنوب افريقيا وجعلت الدول المرسلة للعمالة عرضة للتغير فى سياسة هجرة العمالة فى جنوب أفريقيا .

(٢) الآثار الاجتماعية للهجرة :

يعتبر كثير من الكتاب أن الخسائر الاجتماعية لهجرة العمالة أكثر خطراً من الخسائر الاقتصادية ، فهى تساهم فى إضعاف التماسك القبلى واتلاف سلطة الزعماء فى القرى كما أن هجرة العمالة أيضاً أدت إلى حدوث تفكك أسرى وما أدي إليه غياب رب الأسرة من زيادة معدلات الاجرام والتشرد بين الاحداث وانحطاط تام للآداب العامة وأنتشار السرقات وتعاطى المخدرات بين الأحداث .

وقد لوحظ بين قبائل التونجا فى موزمبيق أن ٥٠٪ من ذكور التونجا النشطين اقتصاديا غائبون عن منازلهم ومعظمهم يذهب للعمل فى مناجم جنوب أفريقيا ، وطبقاً لـ Harris مثل هذا الفقد هدد بقدرة السكان على البقاء أو التكاثر بسبب تأثيره على تناقص معدل المواليد فى القرى المصدرة للسكان.[١٠٣]

* * * *

نستطيع من خلال العرض السابق لهجرة العمالة فى الجنوب الأفريقى أن نخلص إلى مايأتى :

- تعد العوامل الاقتصادية ذات أثر حاسم فى الهجرة ، وترتبط هجرات العمالة فى الجنوب الافريقى بعاملين أساسيين هما عاملا الطرد والجذب ، فهى

تحدث نتيجة لعدم التوازن بين الموارد الاقتصادية من جهة والسكان من جهه أخرى . فالمناطق التى يهاجرها سكانها هى المناطق التى لم تنل حظاً وافراً من التقدم الاقتصادى . مما يدفع مواطنيها إلى الهجرة إلى المناطق المجاورة المتطورة تعدينياً أو زراعياً أو صناعياً .

- تتميز أقطار وارد العمالة (جمهورية جنوب أفريقيا) بتنوع الأقاليم الاقتصادية بها فتتوفر بها الثروات المعدنية من الذهب والماس والفحم ، بالاضافة إلى المزارع الاوروبية ، ونمو الخدمات والصناعة .
- تشترك أقطار صادر العمالة فى عدة ظاهرات طبيعية مشتركة ، فهى تعانى من الجفاف ، تعانى بشدة من مشكلات التنمية الاقتصادية ، تعتمد على الزراعة كمصدر اقتصادى هام . كما أنها تتميز بارتفاع معدلات المواليد وارتفاع معدلات الوفيات وارتفاع معدلات الخصوبة ، وينخفض بها نصيب الفرد من الناتج المحلى الاجمالى ، كما ترتفع بها نسبة من يعيشون دون خط الفقر . وقد انعكس هذا على سكانها مما أضطر بعضهم إلى الهجرة إلى دول أخرى بحثاً عن ظروف أفضل .
- تتميز أقطار صادر ووارد العمالة بتنوع الاقاليم الطبيعية وبالتالى تنوع الانشطة الاقتصادية ، ويمكن فى المستقبل أن تنافس جمهورية جنوب أفريقيا كأقطار جاذبة للهجرة (بتسوانا) التى زاد فيها معدل النمو الاقتصادى عنه فى جمهورية جنوب أفريقيا .
- للهجرة آثار واضحة فى تركيب السكان من حيث الجنس أو النوع وبالتالى تتأثر معدلات الخصوبة والزواج ، فقد أثبتت الدراسة أن معظم المهاجرين غالباً ما يكونون من الذكور الذين تتراوح اعمارهم بين ١٥-٤٤ سنة .
- اثبتت دراسة الحالة الزواجية للمهاجرين أن معظمهم من المتزوجين ، كما أن معظم المهاجرين من ذوى المهن العلمية والفنية أو الاداريين.

- ساهمت الهجرة فى تنمية الموارد الاقتصادية فى أقطار الجذب البشرية ، فاستثمار الموارد الطبيعية بها يعتمد أعتماداً كبيراً على هجرة تلك القوى العاملة . كما أنها تعتبر مصدراً هاماً للحصول على النقد الاجنبى والذى يشكل مكسباً هاماً لا يستهان به لأقطار الطرد البشرى . إلا أنها خلقت دولا ذات اقتصاديات تابعة لجمهورية جنوب افريقيا.

وأخيراً فالهجرة الدولية سمة من السمات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للجنوب الافريقى ، ولكن هناك نقصا شديدا فى البيانات المتعلقة بحصر تحركاتها ومعرفة مشاكل المهاجرين . ولذلك لابد من حل مشكلة نقص البيانات وعلاج مشكلات المهاجرين على المستويين القومى والدولى وذلك عن طريق التعاون والتشاور بين دول جماعة تنمية الجنوب الافريقى .

الهـوامـش

(١) فتحي محمد أبو عيانة ، جغرافية السكان، دار النهضة العربية ، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٦، ص ٢٨١.

(٢) محمد عبدالرحمن الشرنوبي، جغرافية السكان، الأنجلو، ١٩٧٨، ص ١٣١.

(٣) محمد عبدالغني سعودي، هجرة العمالة في شرقي أفريقية، مجلة الجمعية الجغرافية، العدد الخامس، السنة الخامسة، ١٩٧٢، ص ٣٧.

(٤) فتحي محمد مصيلحي، الجغرافيا البشرية المعاصرة، دار الأصلاح بالدمام ١٩٨٤، ص ٢٧٧.

(٥) Adepoju. A., The Dynamics Of Emigration: Sub-Saharan Africa, Causes of International Migration. Proceeding of aworkshop. Luxembourg, 14-16 December 1994.p.188.

(٦) الجدول من حساب الباحثة عن

The World Bank , African Development Indicators 2002, Washington, U.S.A. 2002. p.5.269.

U.N. Economic Commission For Africa. African socioeconomic Indicators, 1994, Ethiopia 1999. p.l.

(٧) Adepoju.A., Linking population policies to International migration in Sub-Saharan Africa. in: Emigration Dynamics in Developing Countries vol.1: Subsahran Africa. Edited by : Reginald Appleyard. Ashgate, England. 1998, pp.302-306.

(٨) The World Bank. World Development Indicators 2001, The International Bank For reconstruction and Development. The World Bank. Washington. 2001,p.46

(٩) UNDP. Human Development Report 2000. New York, oxford university press 2000,p.226.

(١٠) Adepoju. A., The Dynamics of Emigration : op-cit. p.188.

(١١) المتولي السعيد أحمد ، هجرة العمالة بين بعض دول غرب أفرقيا وأثرها على التنمية الاقتصادية (دارسة في الجغرافيا الاقتصادية) ، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد البحوث والدرسات الأفرقية ، قسم الجغرافيا، جامعة القاهرة، ١٩٩١، ص ٢٤.

(١٢) Russell. S.S., Migration Between Developing Countries in Sub-Saharan Africa and latin America. in population Distribution and Migration. Department of Economic and social Affairs. population Division. U.N., NEW York. 1998. p.236.

(١٣) U.N., Department of Economic and social Affairs. population Division. International Migration policies. ST/ESA/SER.A 161. New York. 1998.p-145.

(١٤) Milazi. D., Migration with in the Context of Poverty and land lessness in southern Africa. in Emigration Dynamics in Developing countries. vol.1: sub-saharan Africa. Edited by: Reginald Appleyard. Ashgate. England. 1998. p-149

(١٥) Adepoju. A.. The Dynamics of Emigration. op-cit. p. 194.

(١٦) Udo. R.K.. The Human Geography of Tropical Africa. Nairobi. 1985. p. 87.

(١٧) المصدر:

UNDP, Human Development report 2001, New York, oxford, 2001, pp.141-144, pp. 149-151.

UNDP, Human Development report 2001, New York, oxford, 2000, pp-184-185.

African Development Bank, African Development Report 2001, oxford, New York, 2001, p.235.

The World Bank, African Development Indicators, opcit, p-310.

(١٨) Adepoju.A., The Dynamics of Emigration, op-cit,p-194.

(١٩) Ibid, p- 189.

(٢٠) السيد على أحمد فليفل ، الجذور التاريخية للحرب الأهلية الأنجولية، ندوة الجذور التاريخية للمشكلات الأفريقية، معهد البحوث والدرسات الأفرقية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، تاريخ المصريين رقم ٩٥، ١٩٩٦ ، ص ١٤٥ ، ١٧١، ١٧٢.

(٢١) محمد محمود ربيع ، إسماعيل صبرى مقلد واخرون ، موسوعة العلوم السياسية ، جامعة الكويت ، ١٩٩٤ ، ص ١٤٣٧.

(٢٢) Adekanyej.b., "Conflicts, loss Of state capacities and migration in contemporary Africa" In:Emigration Dynamics in Developing countries, vol.1. sub-saharan Africa, Edited by: Reginald Appleyard, Ashgate, England, 1998,pp.175-176.

(٢٣) محمد عبد الغنى سعودى ، أفرقيا ، دارسة فى شهصية القارة وشهصية الأقاليم ، الأنجلو المصرية ،١٩٨٣ ، ص ١١٦.

(٢٤) Frayan, B.& Pendleton,W.,"Namibians on South Africa: Attitudes towards cross-border migration and Immigration policy, in:on Borders, perspectives on International migration in southern Africa, Edited by: David A. Mcdonald, southern African migration project, st.Martins press, North America,2000, p. 94.

(٢٥) Hance,W.A., Population , migration and urbanization in Africa, Columbia university press, New York, 1970, p.160.

(٢٦) محمد عبدالغنى سعودى ، أفرقيا ، مرجع سابق ، ص ٣٩٤.

(٢٧) فتحى محمد أبو عيانة ، جغرافية أفريقية ، دراسة أقليمية مع التطبيق على دول جنوب الصحراء ، دار النهضة العربية ، بيروت، ١٩٨٣، ص ٣٨٦.

(٢٨) فاطمة مصطفى أحمد مهران، جمهورية جنوب أفريقيا، دراسة فى الجغرافيا السياسية، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، قسم الجغرافيا، جامعة القاهرة، ١٩٩٤، ص ٩٢.

(٢٩) Vletter, F.d., Prospects for foreign migrant workers in a democratic South Africa, MIG.WP-48, International Labour office, Geneva, 1990,pp.1-2.

(٣٠) McDonald, D.A(et-al). The lives and times of African migrants and Immigrants in post-apartheid south Africa, in on Borders: Perspectives on International migration in southern Africa, Edited by: David A. Mcdonald, southern African migration project st. Martin's press, 2000,p.168.

(٣١) الجدول من حساب الباحثة عن:

(-) Ibid. p. 168

(-) Crush, J..Migrations past: An historical overview of cross-border movement in southern Africa, in on Borders, Perspectives on International Migration in southern Africa, Edited by: David A. Mcdonnald, southern African migration Project st. Martin's press, 2000, p.18.

(-) فاطمة مصطفى أحمد مهران، مرجع سابق،٣٩.

(٣٢) U.N., Department of conomic and social Affairs, Population Division, International Migration Policies, Op.Cit, P.151.

(٣٣) Ibid, pp. 151-154.

(٣٤) Ibid, p.151.

(٣٥) Stalker, P., The work of strangers, Asurvey of International labour migration, International Labour officé, Geneva, 1994, p.236.

(٣٦) نفس مصدر الجدول السابق

(٣٧) Crush, J., op. cit, p.14.

(٣٨) Ibid, p.15.

(٣٩) Russell, s.s., op. cit, p.231.

(٤٠) Crush, J., op.cit, p.16

(٤١) منظمة العمل العربية، منظمة الوحدة الأفريقية، تقرير الأمين العام حول هجرة العمالة الدولية فى الجنوب الأفريقى، الندوة الأفريقية عن الهجرة (جنوب/ جنوب) فى أفريقيا،(القاهرة ٥-٩) ١٩٩٥، ص٧.

(٤٢) Oucho, J.o., Regional Integration and labour mobility in Eastern and southern Africa, in: Emigration Dynamics in Developing Countries, vol. 1: sub-saharan Africa, Edited by:Reginald Appleyard, Ashgate, England 1998,p.292.

(٤٣) Ibid, p.292.

(٤٤) ILO, Year book of labour statistics, 1998, pp. 463-473.

(٤٥) The world Bank, World Development Indicators 2002, washington, 2002, p.62.

(٤٦) UN, Department of Economic and social Affairs, Population Division, International Migration Policies, op-cit, p.155.

(٤٧) U.N, IOM, OIM, world Migration Report 2000.
International organization For migration and the united Nations, 2000, p. 147.

(٤٨) African Development Bank, op. cit, 235.

(٤٩) GAY.J., Lesotho and south Africa: Time for anew Immigration compact, in:on Borders, perspectives on International Migration in southern Africa, Edited by: David A.Mcdonald, Southern African Migration Project, St. Martin's Press, 2000, pp.25-45.

(٥٠) UN, Department of Economic and social Affairs, population Division, International migration policies, op. Cit, p.151.

(٥١) فتحي محمد أبو عيانة، جغرافية أفريقيا، مرجع سابق ، ص ٤٤٣.

(٥٢) Vletter. Fd., Labour Migration to south Africa: The Life blood for southern mozambique, in;on Borders. Pers- pectives on International Migration in southern Africa. Edited by : David A.Mcdonald. southern African Migration projects. st. Maratin's press 2000, p.49.

(٥٣) Vletter. U., Recent Trends and prospects of Black migration to south Africa. The Journal of Modern African studies, No. 23, vol.4, 1985, p. 672.

(٥٤) UN. Department of Economic and social Affairs. Population Division, International Migation policies. op.cit. p.151.

(٥٥) Vletter. F.D., U., labour migration to south Africa. op.cit. p 51.

(٥٦) Ibid. same page.

(٥٧) ABIRI,E., Migration and security from a North-south perspective.sweden and Malawi. in: Migration. Globalisation and Human security: Edited by: David T. Graham and Nana IL Poku. New york, 2000, p.77.

(٥٨) محمد محمود ربيع، إسماعيل صبرى مقلد وآخرون ، مرجع سابق ، ص١٤٢٣.

(٥٩) UDO,R.K., op. cit, p. 86.

(٦٠) VILETTER. F.D., Recent Trends and Prospects of Black Migration to south Africa. op. cit, P.672.

(٦١) فتحي محمد أبو عيانة، جغرافية افريقية، مرجع سابق، ص ص٣٩٩ - ٤٠٥ .

(٦٢) Frayne, B.. and Pendleton, w., Namibians on south Africa: Attitudes towards cross-border Migration and Immigration Policy. in:on Borders, Perspectives on International Migration in southern Africa, Edited by: David A. Mcdonald. southern African migration Project, st. Martin's press, 2000, pp. 89-94.

(٦٣) Ibidq pp. 95-96.

(٦٤) فتحي محمد أبو عيانه، جغرافية أفريقية، مرجع سابق، ص ص٤٠٩ - ٤١٠ .

(٦٥) المرجع السابق، ص ص ٤٠٥ - ٤٠٦ .

(٦٦) المصدر:

Oucho. J., & Campbell,E., & Mukamaambo,E., Botswana: Migration Perspectives and prospects. series Editor: Jonathan crush. Southern African Migration Project 2000, Migration Policy series NO. 19, p. 13.

(٦٧) Ibid. P.14.

(٦٨) المصد:

Ibid. p. 15.

(٦٩) نفس مصدر الجدول السابق

(٧٠) محمد عبدالغني سعودى، أفريقيا، مرجع سابق، ص ص ٤٢٨ , ٤٢٩.

(٧١) فتحي محمد أبو عيانة، جغرافية أفريقية، مرجع سابق، ص ص ٤٢٠ , ٤٢٦.

(٧٢) أحمد سامي سيد أحمد خليل، روديسيا: دارسة في الجغرافية السياسية، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم الجغرافيا، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، ١٩٧٦، ص ص٥٨ . ٦٠.

(٧٣) Zinyama,L.M., International Migrations to and from zimbabwe and the influence of political changes on Population movements, 1965-1987, in: International migration Review, vol-24, winter 1990,p.761.

(٧٤) Adepoju, A., The Dynamics of Emigration : sub-saharan Africa, op.cit. p.194.

(٧٥) Zinyama, L.m., op. cit, p. 765.

(٧٦) منظمة العمل العربية، منظمة الوحدة الأفريقية، تقرير الأمين العام عن هجرة العمالة الدولية في شرق أفريقيا، الندوة الأفريقية عن الهجرة (جنوب/جنوب) في أفريقيا، القاهرة (٥-٩ ديسمبر) ١٩٩٥، ص ٣١.

(٧٧) Zinyama, L.M., op. cit, p. 762.

(٧٨) Ibid, p.765.

(٧٩) Zinyamal. m., who, what,,%vhen and why: cross border Movement from zimbabwe to south Africa, in: on Borders, Perspectives on International migration in southern Africa Edited by:David A.Mcdonald, southern African migration Project, st.Martin's press, 2ooo, pp.71-85.

(٨٠) Dodson, B., women on the move:Gender and cross-border migration to south Africa from Lesoto, Mozambique and zimbabNve, in: on Borders, Perspectives on International Migration in Southern Africa Edited by: David A.Mcdonald, Southern African Migration Project. St. Martin's press, 2000, pp.119-151.

(٨١) فتحي محمد أبو عيانة، جغرافية أفريقيا، مرجع سابق، ص ص ٤٢٦ - ٤٢٩

(٨٢) Central statistical 'office, Ministry of Health, zambia Demographic and Health survey 1996, Lusaka, zambia, 1997, pp.1-2.

(٨٣) Russell, s.s., op. cit, p. 230.

(٨٤) محمد عبد الغني سعودي، أفريقيا ، مرجع سابق، ص ص ٣٤٩ - ٣٥٢.

(٨٥) UN, IOM, OIM, op-cit, p.151

(٨٦) Russell, s.s., op- cit, p.230.

(٨٧) محمد عبد الغني سعودي، هجرة العمالة في شرقي أفريقية، مرجع سابق، ص ص ٦٤-٦٦.

(٨٨) المرجع السابق، نفس الصفحات.

(٨٩) فتحي محمد أبو عيانة، جغرافية أفريقيا، مرجع سابق، ص ص ٣٤٠ - ٣٤٧ .

(٩٠) محمد محسن محمد عوض، أنجولا دارسة في الجغرافية السياسية، رسالة ماجستير غير المنشورة، معهد البحوث والراسات الأفريقية ، قسم الجغرافيا ، جامعة القاهرة، ١٩٧٤، ص ص ١٥٨ - ١٦٠.

(٩١) Russell, s s., op- cit 9 p. 230.

(٩٢) فتحي محمد أبو عيانة، دار الجامعات المصرية، الإسكندرية، ١٩٧٧ ص ص ٣٧١ - ٣٧٣ .

(٩٣) Castles, S., &Miller, M.J., The Age of migration, International population movements in the modern -world, london, 1993,p.144.

(٩٤) محمد عبد الغنى سعودى ، هجرة العمالة فى شرقى أفريقيا ، مرجع سابق ، ص ٣٩ .

(٩٥) Frayne, B., and Pendleton, w., op. cit. pp. 91-92.

(٩٦) منظمة العمل العربية ، منظمة الوحدة الأفريقية ، هجرة العمالة الدولية فى الجنوب الأفريقى، مرجع سابق ، ص ١١ .

(٩٧) Matlapeng, A., Brain Drain and Gain in science and Technology in southern Africa, in: migrants,", citizens and the state in southern Africa. Edited by : Jim whitman, macmillan press LTD, Great Britain, 2000, p. 204.

(٩٨) منظمة العمل العربية ، منظمة الوحدة الأفريقية ، هجرة العمالة الدولية فى الجنوب الأفريقى، مرجع سابق ، ص ١٠ .

(٩٩) UN, Department of Economic and Social Affairs, population Division, International migration policies, op- cit. p.154. UDO, R.K., op. cit. p.89.

(١٠٠) صندوق الأمم المتحدة للسكان ، القضايا السكانية ، ١٩٩٦ ، ص ١١٦ .

(١٠١) منظمة العمل العربية ، منظمة الوحدة الأفريقية ، هجرة العمالة الدولية فى الجنوب الأفريقى،

(١٠٢) مرجع سابق ، ص ١٢ .

(١٠٣) UDO, R.K.9 op. citq P-90.

سفارات الدولة البيزنطية إلى الحبشة وجنوب غرب الجزيرة العربية في النصف الأول من القرن السادس دراسة من خلال المصادر الكلاسيكية

منيرة الهمشري (*)

من المعروف أن اللجوء إلى الطرق الدبلوماسية فى التعامل بين الدول يعتبر فى أحيان غير قليلة مرحلة تسبق أى عمل عسكرى ، وتعتبر السفارات التى أرسلت من قبل الدولة البيزنطية إلى الحبشة وجنوب الجزيرة العربية فى النصف الأول من القرن السادس إحدى حلقات الصراع السياسى والاقتصادى من قبل الدولة البيزنطية والذى اتخذ شكل الديبلوماسية فى كثير من مراحله ، وذلك فى مواجهة القوة الكبرى الأخرى وهى فارس التى كانت تمثل طرفاً آخر فى التحكم فى مصير العالم القديم منذ أوائل العصر الرومانى .

والدراسة التى نحن بصددها تعالج الوضع الحساس للبحر الأحمر والتجارة الشرقية فى تلك الفترة التى أخذت فيها أكسوم وضعاً فريداً خصوصاً بعد سيطرتها على جنوب غرب الجزيرة العربية . ثم نناقش ما حدا بالأباطرة البيزنطيين فى تلك الفترة بالذات أن يبدأو تلك الخطوة الجريئة التى تتمثل فى إرسال السفارات وهل كانت تلك البعثات الديبلوماسية محاولة فعلاً لاستقطاب التجار الأحباش وإغرائهم لحثهم على الاستئثار بتجارة الحرير ، وبذلك يتغير مسار تلك التجارة التى كان يسيطر عليها الفرس أم كان الهدف منها شيئاً آخر فرضته الظروف العالمية والصراع الدائر بين بيزنطة والفرس فى تلك الفترة .

(*) الأستاذ المساعد ـ كلية الآداب ـ جامعة المنوفية .

ولإلقاء نظرة سريعة على تجارة البحر الأحمر ومدى أهميتها منذ العصر الهللينستى ، وحتى الفترة المتأخرة من تاريخ الإمبراطورية الرومانية وبخاصة فى ذلك الوقت الذى أرسلت فيه تلك السفارات التى نحن بصدد الحديث عنها ، نقول أنه من المعروف أن البحر الأحمر كان من المحاور الرئيسية للتجارة العالمية منذ العصور القديمة ومع بداية العصر الهللينستى زادت قيمته فى مجال التجارة العالمية كخط تجارى إلى جانب خطوط التجارة البرية ، والتى كانت مراكزها بين أيدى عرب جنوب الجزيرة العربية والعرب الأنباط [١] ، إتخذت الخط التجارى البحرى فى البحر الأحمر .

وقد حرص حكام مصر البطالمة على تأمين تلك التجارة حيث ازدادت أهمية هذا الطريق بعد معرفة الاستفادة من الرياح الموسمية حتى غدا البحر الأحمر من أهم طرق التجارة فى العالم القديم خلال عصر الإمبراطورية الرومانية بعد ذلك [٢] .

وكما نعلم أنه فى العصر الرومانى ازداد اهتمام الرومان بالبحر الأحمر منذ دخولهم مصر حيث كان الهدف من حملة جالوس على جنوب الجزيرة العربية عام ٢٤ ق.م ليس فقط الاستيلاء على ثروة الإقليم ، ولكن مراقبة المدخل الجنوبى للبحر الأحمر ، وأيضاً مراقبة الطريق البرى الذى يسير إلى الجرهاء فى شرق الجزيرة العربية خلال وسطها ، لذلك أسسوا لهم نفوذاً على طول الشاطىء الشرقى له وقاموا بتأكيد سيادتهم بين القبائل هناك ، ومن ناحية أخرى تم مراقبة الطرق البرية من ليوكى كومى (الحوراء) وأيلة إلى البتراء وغزة مثل طريق وسط الجزيرة العربية إلى الجرهاء تماما .

كما أخبرنا استرابون أنه فى أيامه (عاش بين ٦٣/٦٤ ق.م. و٢١ م. على الاقل) كانت التجارة الآتية خلال البحر الأحمر إلى مصر من الهند والجزيرة العربية وإثيوبيا تحمل إلى النيل حيث كان هناك طريق ممتد من البحر الأحمر إلى النيل مزوداً بالمياه (٣) . ويبدو أن هذا الطريق كان ذا نشاط كبير منذ عصر البطالمة وقد ذكره بلينى عند ذكره الطريق إلى الهند (٤) ، وظهر هذا الزخم الذى أتى للتجارة الرومانية واضحاً فى كثير من الكتابات القديمة (٥) .

وتلخص الكتابات الحديثة تلك الطرق بأن التجار كانوا يسلكون طريقين فى البحر الأحمر ، أحدهما يمتد من الإسكندرية فى النيل ، ثم يعبر الصحراء إلى أحد الموانىء فيه على الشاطىء الغربى ومنه يسلك البحر الأحمر حتى أدوليس ثم إلى أكسوم عاصمة الحبشة فى الداخل إذا دعت الضرورة . وكان الطريق الآخر يبدأ من أيلة ، ويمتد على طول الشاطىء العربى وكانت السفن ترسو فى الليل عند أحد المراسى الطبيعية على ذلك الشاطىء خوفاً من مضاحله ، وقد يكون المقصد أحد موانىء حمير ، وكان هناك تجار يونان فى سوقطرة (سقطرى) ولكن لا ريب أن أدوليس كانت عندئذ أهم مراكز للتبادل التجارى بين الإمبراطورية الرومانية وبلاد المحيط الهندى (٦) .

وإذا ألقينا نظرة على العالم الشرقى فى بداية عصر الإمبراطورية الرومانية الشرقية نجد أن القسطنطينية قد أصبحت عاصمة للإمبراطورية بدلاً من روما فى عام ٣٣٠ م ، وفى فارس حلّت الأسرة الساسانية محل البارثيين حوالى عام ٢٢٥ م وشجعت الملاحة الفارسية وأسس أول ملوكها أردشير الأول (٢٢٥- ٢٤١) عدة موانىء بحرية ونهرية وعقد نرسى (٢٩٢ - ٣٠٣)صلات مع ملك شعب

الزنج فى شرق الصومال ، وازداد الصراع بين الإمبراطوريتين العظيمتين علاوة على ما كان بينهما من صراع دينى ، وفى جنوب البحر الأحمر كان الحميريون الذين جمعوا سبأ وغيرها فى دولة واحدة ، وعلى الجانب الآخر كانت مملكة أكسوم الحبشية تزداد قوة وكان نشاط أكسوم التجارى يشمل البحر الأحمر والمحيط الهندى عن طريق أدوليس حيث كانت سفنها تنقل العاج إلى الهند وفارس وحمير وبيزنطة وتقل المصادر خلال الفترة من القرن الثالث إلى الخامس حول تجارة البحر الأحمر (٧) ولكن رغم عدم وجود معلومات عن الجزء الشمالى من البحر الأحمر وخليج العقبة خلال تلك الفترة (٨) ، نجد أن المصادر تذكر عن تجار سبئيين فى سيلان عام ٤١٤ م .

بدأت اسواق البخور فى الانهيار منذ بداية القرن الرابع وكان انتشار المسيحية من أكثر أسباب هذا الانهيار حيث منع استخدام البخور فى الطقوس الدينية فى الكنائس ، حتى إذا كانت نهاية القرن الرابع منع الإمبراطور ثيودوسيوس (٣٧٩ - ٣٩٥) إقامة الطقوس الوثنية بما فيها استخدام البخور .

كانت هناك أيضا أزمة داخلية وتضخم شديد قد بدأ يشل الاقتصاد البيزنطى وأدى النزاع الداخلى فى الإمبراطورية إلى عدم الأمان ليس فقط على طول طريق البخور ، ولكن أيضا فى جنوب الجزيرة العربية نفسها ، ومن المشكوك فيه استمرار التجارة البرية فى العطور خلال القرن الرابع ، بينما استمرت التجارة البحرية لكن بدرجة أقل وكانت سيلان تمثل مركز التجارة بين الصين والشرق الأدنى فى تلك الأوقات ، وإذا كانت السفن الصينية تسير غرباً حتى سيلان فإن التجارة فيما بين سيلان والمناطق الواقعة غربها كان يتولى أمرها الفرس والأحباش (٩) .

وظلت تجارة الشرق تعتمد على البحر الأحمر كأحد الطرق الرئيسية التى تتجنب بها الإمبراطورية البيزنطية الخطر الفارسى ، وكان هو والطريق الشمالى الأقصى الذى يمتد حتى البحر المتوسط ، ويعتمد على الاستقرار النسبى بين أمم تلك المناطق ، كانا هما الطريقين اللذين يتجنبان المرور بأرض فارس - حيث كانت تفرض فى ذلك الطريق رسوماً جمركية عالية على التجارة - وحتى هذا الطريق كان منطقة تهديد مستمر لتجارة الامبراطورية الرومانية الشرقية ، حيث كان يتم قطعه نهائياً عند الحروب .

كانت جميع سلع الإمبراطورية تنقل بواسطة هذين الطريقين فيما عدا تجارة الحرير التى ظلت تسير براً خلال فارس إلى محطتى التجارة للإمبراطورية وهما نصيبين ودورا ، ومن هناك ينقل بدوره إلى المصانع فى صور وبيروت على أن بعضه كان يحمل مع غيره من سلع الهند بالطريق البحرى . ثم يأتى القرن السادس الميلادى الذى يعتبر أكثر عهود تجارة الشرق ازدهاراً ، حيث بدأ الانتعاش منذ عهد أناستاسيوس (٤٩١ - ٥١٨) والسنوات الأولى من حكم أسرة جستنيان [(١٠)]

وقد توفر لدينا كثير من المعلومات حول تجارة البحر الأحمر فى النصف الأول من هذا القرن وهى الفترة التى نظمت فيها المكوس من قبل الإمبراطورية البيزنطية ، حيث نجد كتابات كل من الجغرافى كوزماس (Cosmas In-dicopleustes) الذى كتب حوالى عام ٥٤٧ عن البحر الأحمر مستعيناً بمعلوماته الشخصية إذ كان قد زار أدوليس تاجراً فى شبابه وأنطونيوس (Antonius Mar-tyr) ، وجون مالالاس John Malalas (٤٩١-٥٧٨) الذى امتدت كتاباته إلى أوائل عصر جستنيان (٥٢٥ - ٥٦٥) وثيوفانس (Theophanes) الذى

يرجع تاريخه للفترة من (٥٦٦ - ٥٨١) وبروكوبيوس مؤرخ عصر جستنيان * أيضا فيلوستورجيوس Philostorgius (٣٧٨ - ٤٢٥) ونونوسوسNonnosus سفير جستنيان إلى الحبشة وجنوب الجزيرة العربية . وقد نقل عن الإثنين الأخيرين فوتيوس Photius الذى تولى منصب بطريرك القسطنطينية فى الفترة من (٨٥٨ - ٨٦٧) ومن (٨٧٨- ٨٨٦) .

ومن خلال كتابات كل هؤلاء نستطيع أن نخرج بصورة واضحة عما كان عليه النشاط التجارى فى البحر الأحمر وكذلك عن القوى السياسية التى أحاطت به ومدى علاقة الإمبراطورية البيزنطية بكل هؤلاء من خلال دراستنا للنصوص التى كتبت عن السفارات موضع الدراسة . حيث يبدو أن الإنتعاش فى تجارة البحر الأحمر ووجود قوى متحكمة فيه وهى الموجودة على كل من شاطئيه الشرقى والغربى ثم احتياج بيزنطة للقوى الموجودة فى داخل الجزيرة العربية لدرء أى خطر فارسى هو الذى حدا بالدولة البيزنطية لإرسال تلك السفارات ، سواء إلى أكسوم أو جنوب غرب الجزيرة العربية أو إلى قواد القبائل العربية فى وسط الجزيرة .

وتبدو صورة هذا الإنتعاش الإقتصادى فى المصادر القديمة حيث يذكر كوزماس (١١) الذى كتب عام ٥٤٧ أنه " على شاطىء إثيوبيا ، على بعد ميلين من الشاطىء هناك مدينة تدعى أدوليس Adoules ، حيث توجد ميناء للأكسوميين ويؤمها عدد من التجار الآتين من الإسكندرية ومن خليج إيلات " ، ويشير كوزماس وبروكوبيوس (١٢) إلى وجود ملاحين من أدوليس فى موانى سيلان ولعل سفن الحبشة هى التى كانت تنقل العاج الذى يذكر كوزماس أنها كانت تصدره إلى الهند وفارس وحمير والإمبراطورية الرومانية .

ولقد كانت سيلان مركز التجارة البحرية بين الصين والشرق الأدنى وكانت سفن الصينيين كذلك سفن شعوب الشرق الأقصى تسير غرباً حتى سيلان حيث كانت التجارة بينها وبين المناطق الواقعة غربها فى أيدى التجار الفرس والأكسوميين ، وكانت السفن التجارية اليونانية تسير حتى أدوليس أو تتجاوزها حتى باب المندب (١٣).

كذلك كتب بروكوبيوس (١٤) عن البحر الأحمر واصفاً إياه بعد خروجه من خليج العقبة بالبحر المفتوح الذى يضطر فيه البحارة إلى الرسو على الجانب الأيسر عندما يحل عليهم الليل حيث الموانىء الطبيعية . ويذكر أنطونيوس مارتير (١٥) حوالى عام ٥٧٠ م أن أيله والقلزم كانتا نهاية المطاف للسفن القادمة من الهند . أما نونوسوس Nonnosus ومالالاس John Malallas ويذكر بروكوبيوس Procopius أيضا أن أدوليس كانت أهم مراكز للتبادل التجارى فى الإمبراطورية البيزنطية (١٦).

كان الإتصال المباشر بين الدولة البيزنطية والهند عن طريق البحر الأحمر سبباً مهماً لأن تؤمن الدولة البيزنطية طرقها البحرية وتجارتها فى هذا الشريان الحيوى، ويبدو أن هذه السفارات التى سوف نتحدث عنها كانت جزءاً من سياستها لتأمين نقل التجارة فى البحر الأحمر فنجد أن جستنيان (٥٢٧-٥٦٥) أقام حامية عسكرية فى أيلة حيث يجرى نقل التجارة براً إلى البحر المتوسط عن طريق فلسطين وسوريا . كذلك أمن الميناء الآخر (القلزم) الذى يقع فى أقصى الشمال الغربى من شاطىء البحر الأحمر ، والذى يجرى فيه الإتصال أيضا بالبحر المتوسط ، وأقام جستنيان نقطة للمكوس فى جزيرة تقع فى مدخل خليج العقبة

وهي جزيرة Iotabe (تيران) حيث تجرى جباية المكوس على السفن التى تجتازها والمتجهة إلى كل من أيله والقلزم ، وترتب على ذلك أن تحتم على جستنيان أن يقيم علاقات وثيقة مع الأحباش المسيحيين (١٧).

كان هناك صراع دائر فى تلك الفترة بين القوتين الكبيرتين وكانت الجزيرة العربية إحدى محطاته بما تمثله من أهمية إقتصادية وكذلك أهمية سياسية تتجسد فى كونها تضم أهم طرق التجارة الرئيسية بين الشرق والغرب طوال العصور القديمة والعصور الوسطى (١٨) ، ولم يكن غريباً أن توجه بيزنطة سفاراتها إلى الحبشة .

لم تكن سفارات القرن السادس إلى الحبشة واليمن بالشيىء الجديد على الديبلوماسية البيزنطية فى تلك المنطقة فنحن نعلم أنه منذ القرن الرابع تمتعت الحبشة بأقصى ما يكون من القوة والمنعة ووصل الشعب إلى أقصى ما يدرك من الإنتعاش ، حيث كانت أكسوم هى المركز الرئيسى للتجارة فى هذا الجزء من العالم وقصدها التجار من جميع الأجناس ليرتادوا أسواقها العامرة بالتجارة إلى حد التخمة وكانت أدوليس بالنسبة للحبشة مثل ما كانت عليه الإسكندرية بالنسبة لمصر ، حيث وجدت نقوش عثر عليها مكتوبة بالحبشية والاغريقية والسبئية تدل على تنوع الأجناس فيها (١٩) ، وهو أمر يشير بشكل واضح إلى نشاط التبادل التجارى بها .

تحدثنا المصادر عن بعثة إرسلها الإمبراطور قنسطنطيوس (٣٣٧-٣٦١) فى عام ٣٥٦ م حيث يذكر Photius (٨٥٧ - ٨٨٦) نقلا عن Philostorgius(٢٠) (٣٦٨ - ٤٢٥) أرسل قنسطنطيوس سفراء إلى هؤلاء

الذين كانوا يسمون سبئـيين ولكـن يعرفون الآن باسم الحـميريين والتى تسمى أراضيهم باليونانية (العربية السعيدة) وهى التى تمتد على مساحة كبيرة منها على المحيط وعاصمتهم سبأ وهى المدينة التى ذهبت منها ملكة سبأ إلى سليمان وهم يقدمون القرابين لآلهتهم المحلية ، الشمس والقمر ، أرسل لهم قنسطنطيوس بعثه ليقنعهم فى الدخول فى العقيدة المسيحية " .

ولكن نجد فى السفارة تلميحاً للمحافظة على التجارة البيزنطية علاوة على التبشير بالمسيحية حيث يذكر Philostorgius :

" ان ثيوفيلوس (الراهب) طلب منهم السماح ببناء كنيسة لأجل البيزنطيين الذين يأتون إلى هناك عن طريق البحر وللمقيمين فى البلد الذين يعتنقون المسيحية ، وقد نجح ثيوفيلوس فى أن يقنع حاكمهم باعتناق المسيحية وإقامة ثلاث كنائس واحدة فى ظفار والثانية فى السوق حيث يتجمع الرومان (البيزنطيون) مقابل البحر فى عدن حيث إقامة الرومان ، وقد أقيمت ثالثة فى (السوق الخاصة بالفرس) " .

واضح من النصوص أن بناء الكنائس كان فى أماكن تجمع التجار حيث يذكر الكاتب أن الكنائس الثلاثة كانت فى الأسواق لخدمة التجار والمقيمين الرومان وذلك لتشجيعهم كمسيحيين على استمرار نشاطهم التجارى فى جنوب الجزيرة العربية ، ورغم أن التبشير بالمسيحية هو الظاهر من تلك البعثة إلا أننا نستشف من المصادر أن هناك غرضاً آخر هو تأمين تجارة الإمبراطورية *. وهو أمر يصبح وارداً بل محتملاً مع اعتناق حاكم أكسوم لنفس عقيدة الإمبراطورية البيزنطية واستجابته لإقامة ثلاث كنائس فى ثلاثة أماكن من بينها السوق الخاصة بالفرس.

ولا يستبعد أحد المؤرخين المحدثين[٢١] . أن يكون ثيوفيلوس قد حمل إلى جانب مهمته التبشيرية مهمة أخرى تتعلق بالتفاوض مع ملكى أكسوم وحمير لضمان حسن معاملتهم للتجار الرومان الذين يعبرون بتجارتهم عن طريق اليمن والعمل معاً لمجابهة السيادة التجارية البحرية للفرس فيما وراء هذه المنطقة باتجاه الشرق * .

ومن هنا نرجح أن البعثات التبشيرية لم يكن الهدف منها فقط نشر الدين ولكن حماية التجار والتجارة البيزنطية التى تمر فى جنوب الجزيرة العربية حيث تشير تلك المصادر إلى تعرض جماعات من التجار العابرين للقتل ضمن حملة اضطهاد المسيحيين فى ظفار ونجران فى عهد ذى نواس الحميرى [٢٢] ، ومن الممكن أن يكون ذلك هو ما حدا ببيزنطة إلى إرسال السفارة الأولى .

ومن المحتمل أنه كانت هناك عدة سفارات قد أرسلت من قبل الدولة البيزنطية فى تلك الفترة (النصف الأول من القرن السادس) ، ولكن الذى بين أيدينا سفارتان ، يبدو أن الأولى قد أرسلت فيما بين عامى ٥٢٥ - ٥٢٧ وكتب عنها Theophanes و Cosmas وJohn Malalas أما الأخرى فكانت لاحقة عليها وذكرت عند Photius ، وهناك من المصادر ما خلط بين السفارتين كما سنرى فى دراستنا لنصوص بروكوبيوس .

يذكر Theophanes [٢٣] (٥٦٦-٥٨١) " أنه فى عام ٥٢٧ نقض الرومان والفرس معاهدة السلام وتجددت الحروب الفارسية .... أرسل الرومان السفير (جوليان) * من الإسكندرية راكباً النيل ، ثم خلال البحر الأحمر مع خطاب سرى مبحراً إلى Arethas " الملك Kaleb " ** ملك أثيوبيا ، استقبله

الملك بحفاوة شديدة ، حيث كانت هناك صداقة تربط Arethas بالإمبراطور الرومانى منذ فترة طويلة ...... * عندما قرأ (الملك) الرسالة وجد أنها كانت طلباً بتسليح نفسه ضد الملك الفارسي لتخريب الإقليم الفارسى القريب منه، الأكثر من ذلك فان الخطاب اتخذ الترتيبات بأن ترتبط أرض الحميريين بالعمل (بالتجارة) مع الإسكندرية المصرية عن طريق النيل وذلك بتسيير التجارة إلى البحر الاحمر وذلك لتهديد الساسانيين. وبالنظر فى السفارة بدأ الملك Arethas مباشرة فى الحشد وبدأ الحرب بالتحرك ضد الفرس ، وأرسل للعرب الذين عملوا تحت قيادته ، وأيضا ذهب بنفسه ضد الإقليم الفارسي وهزم كل الذين كانوا فى تلك المناطق. وبعد أن هزمهم أعطى الملك Arethas جوليان قبلة النصر على رأسه (وبشر الملك Arethas جوليان بالنصر) وأرسله مع حاشية كبيرة وحمّله بالهدايا " .

نلاحظ أن السفارة لم يكتب فيها اسم الإمبراطور الذى أرسلت فى عهده ولكنه ذكر (ρομαίοι) كذلك نلاحظ أن السفارة أرسلت بعد تجدد الحروب بين فارس وبيزنطة لذلك من الممكن أن تكون السفارة لأجل احتواء بيزنطة لحلفائها من ناحية ولفت أنظار الفرس من ناحية أخرى .

السفارة الأخرى هى التى أرسلها الإمبراطور جستنيان وهى التى أرسل فيها سفيره الذى كتب بنفسه عن السفارة [٢٤] والتى فقدت ولكنها حفظت فى كتابات Photius الذى تولى منصب البطريركية فى القسطنطينية ما بين (٨٥٨ -٨٦٧) وما بين (٨٧٨-٨٨٦)[٢٥] .

يذكر Photius :

« هذا الملخص من السيرة المفقوده لننوسوس ، أحد الأفراد من أسرة خدمت الإمبراطورية الرومانية (البيزنطية) كسفراء لشعوب البحر الأحمر خلال ثلاثة أجيال حيث قدموا نظرة صائبة فى السياسة المعقدة وكانت فكرتهم واضحة وذلك لامتداد المعرفة الرومانية لأكسوم * خلال عصر جستنيان ».

يذكر فوتيوس أيضا « نقرأ فى تاريخ ننوسوس الذى يحتوى على سفارته عام ٥٣٠م إلى الأثيوبيين والحميريين وعرب الخيام ، كان (قيس) قائد العرب هذا حفيداً (Arethas) وهو القائد الذى أرسل له ننوسوس الجد كسفير خلال حكم أناستاسيوس (٤٩١-٥١٨) لعقد معاهدة سلام ، ثم أرسل Abrames ابن ننوسوس فى سفارة لنفس المهمة (عقد سلام) مع المنذر قائد اللخميين " أحد القبائل فى شمال غرب العربية بالحيرة " وهو قائد عرب الخيام خلال حكم جستين (٥١٨ - ٥٢٧) وقد نجح فى تدبير إطلاق سراح (Timostratus) و (John) القائدين الرومانيين اللذين أسرا فى الحرب ، قيس هذا الذى أرسل له ننوسوس (الحفيد) كان قائدا لاثنتين من القبائل العربية المشهورة (الكنديين) و (المعديين) وقبل أن يختار ننوسوس سفيراً كان جستنيان قد أرسل أباه (Abrames) إلى نفس قيس هذا وعقد (معه) معاهدة سلام شريطة أن يؤخذ Mavias (معاوية) بن قيس كرهينة فى بيزنطة بعد ذلك عهد ننوسوس ثلاث مهمات (مهمة ثلاثية) .

- إلى قيس ليحثه على زيارة القسطنطينية .
- إلى Elesbaas (Kaleb) ملك الأكسوميين .
- إلى حمير ....."

ويشرح Photius بعد ذلك واصفاً أكسوم والمخاطر التى مرت بننوسوس، ولكنه استطاع إكمال مهمته بنجاح وعاد سالماً إلى وطنه .

يـذكر فوتيوس " أن ننوسوس ذكر أن قيس ، بعد أن أرسل اليه Abrames (والد ننوسوس) للمرة الثانية ، شرع فى الذهاب إلى بيزنطة ، وقبل ذلك قسم رئاسة قبيلته بين (أخويه) Ambrus (عمرو) و Yazid ، لقد أخذ عدداً كبيراً من حاشيته معه، وقد عينه الإمبراطور حاكماً إدارياً (فيلارخوس؟) على فلسطين ".

واضح من نص فوتيوس المنقول عن ننوسوس أن به الطابع العام للسفارات وهى الإبهام التام فى المعلومات خصوصاً ذكره " إلى حمير " وعدم ذكر اسم الحاكم .

وعبارة للمرة الثانية عند الحديث عن إرسال Abrames (أبوننوسوس) إلى قيس تعنى أنه قد أرسلت عدة سفارات للقائد العربى هذا قبل سفارة ننوسوس لذلك كان يحثه على الذهاب إلى بيزنطة .

وواضح من حديث فوتيوس أنه تعددت الأغراض من زيارة ننوسوس إلى الحبشة وحمير ووسط الجزيرة (نجد).

كاتب آخر ذكر عن أحد تلك السفارات هو كوزماس (Cosmas Indicopleustes)[٢٦] الذى كتب حوالى عام ٥٤٧ .

يذكر " عندما كنت فى هذا الجزء من القطر " يبدو أدوليس " منذ خمسة وعشرين عاماً مضت أكثر أو أقل ، فى بداية حكم الامبراطور جستين (٥١٨-٥٢٧) فإن Elesbaan الذى كان ملكاً للأكسوميين أعد الحملة ضد الحميريين على الجانب الآخر من الخليج ".

حديث كوزماس لا يدع مجالاً للشك في أن الحملة كانت في عهد الإمبراطور جستين أيضا أنها ضد الحميريين في اليمن وليس مكاناً آخر .

ومن المرجح أن اضطهاد ذي نواس للمسيحيين لم يكن يخلو من بعد اقتصادي حيث مارس ذلك الاضطهاد كذلك على التجار الأحباش والرومان . ومما لا ريب فيه أن يكون ازدياد نفوذ التجار العابرين والمقيمين قد أثار حفيظته إذ رأى ما يجنيه هؤلاء من ثروات طائلة من جراء ممارستهم أو سيطرتهم على طريق التجارة الرئيسي عبر جنوب الجزيرة العربية والبحر الأحمر إلى شمالها وحتى البحر المتوسط ، إنتهاءً ببلاد الشام أو مصر في طريقهم إلى الإمبراطورية البيزنطية ، وربما أنه رأى المسيحيين في ظفار ونجران أعواناً لهؤلاء الرومان والأحباش ، لذلك راح يمارس سياسته والأمل يحدوه في أن يتحول هذا الثراء لليهود ، إذا ما حلت تجارتهم محل أولئك الأجانب (المسيحيين) ولعبوا دورهم في حركة التجارة النشطة بين مناطق المواد الخام والتوابل والبخور والحرير في شرق آسيا وجنوبها الشرقي ، وشرق أفريقيا وأسواق الإستهلاك في الإمبراطورية البيزنطية ، ومن ثم فإن سياسة الملك الحميري تجاه المسيحيين إذا كانت لا تخلو من نغمة التعصب الديني إلا أنها في الوقت نفسه تنطوي على أهداف إقتصادية بعيدة ويبدو أن الناجين من الإضطهاد قد استنجدوا بملك الحبشة أو استنجدوا بالإمبراطور (جستين) في القسطنطينية[٢٧] .

أما بروكوبيوس فيذكر [٢٨] في ذلك الوقت ، عندما كان (Hellestheaeus) يحكم الأثيوبيين ، وكان Esimiphaeus يحكم الحميريين، أرسل الإمبراطور جستنيان سفيره Julianus بطلب من الشعبين من أجل حسابات دينية وهي نفس حسابات الرومان من أجل شن الحرب على الفرس .

لقد افترض انه بشراء الأثيوبيين الحرير من الهند وبيعه للبيزنطيين سوف يصيبون مكاسب كبيرة ، حيث يحصل عليه الرومان عن طريق واحد وذلك يفرض عليهم بالقوة دفع الكثير لأعدائهم ، هذا هو الحرير (Μέταξα) الذى اعتادوا على صناعة الملابس منه والذى سماه اليونان (Μηδικής) وهو الذى يسمى حاليا (σηρικης)* ، وكما حدث مع الحميريين كان البيزنطيون راغبين فى وضع (قيس) اللاجىء كقائد على المعديين ويمكن مهاجمة أرض الفرس بجيش كبير من رجالهم مع العرب المعديين .

كان (قيس) قائداً بطبيعته (من سلالة قواد) وبصفه خاصة كان مقاتلاً ولكنه كان قد قتل أحد أقارب (Esimiphaeus) ، وهرب فى أرض بعيدة معزولة ، وعداه الملكان بأن يضعا رغبته موضع التنفيذ ، وبعد انصراف السفير ، لم يستطع أحد منهم تحقيق ما طلب منه، لم يكن من الممكن للأثيوبيين شراء الحرير من الهنود ، حيث اعتاد التجار الفرس الذين كانوا لقرب بلادهم يقيمون فى الموانىء (موانىء سيلان) التى تأتى إليها سفن الهنود أول ما تأتى ، وحيث اعتادت (تلك السفن) على شراء الشحنات بأسرها (من ناحية أخرى) كان من الواضح أنه من الصعب على الحميريين عبور إقليم صحراوى ، ممتد لمسافة بعيدة جداً ، وكانت الرحلة تحتاج وقتا طويلا (للقيام) بالرحلة عبره ، والذهاب إلى (هناك) ضد أناس لهم خبرة بالحرب أكثر منهم (متمرسين على الحرب) أكثر منهم " .

إذا قارنا النصوص السابقة ببعضها وما تطابق فيها من أقوال وما اختلف بالنسبة للسفارات ، نجد أن حديث ثيوفانس ذكر فيه أن الملك الأثيوبى عندما قرأ رسالة الإمبراطور وجد أن فيها طلباً بتسليح نفسه ضد الملك الفارسي وتخريب

الإقليم الفارسى القريب منه ، ومن الممكن أن يفسر قوله الإقليم الفارسى القريب منه على أنه اليمن وليس أرض الفرس نفسها أو إقليم العرب الفرس (الحيرة) وذكره الملك الفارسى من الممكن أن يكون الملك الحميرى التابع للفرس .

ذكر ثيوفانس أن الخطاب اتخذ الترتيبات بربط أرض الحميريين بالتجارة مع الإسكندرية عن طريق البحر الأحمر وذلك لتهديد الساسانيين ولم يذكر نوع هذه التجارة ، لذلك لا نستطيع أن نؤكد أن هدف السفارة كان الحرير فقط .

تذكر السفارة أن الملك الأثيوبى بدأ الحشد وأرسل العرب وذهب بنفسه ضد الإقليم الفارسى (الإقليم التابع للفرس) ، ونهبه وبشر السفير جوليان شخصياً بأن أعطاه قبله النصر على رأسه ، معنى ذلك أنه ذهب إلى أرض الحميريين لأنه لا يفهم أن الملك الأثيوبى تحرك ضد الفرس فى شمال الجزيرة العربية ، أما قوله (أرسل العرب) من المحتمل أنهم القبائل العربية فى نجد لمساعدة الملك الأثيوبى فى الهجوم على حمير * .

إذن نستطيع - من خلال هذه السفارة - أن نقول أن تلك السفارة كانت السفارة التى أرسلت فى عهد جستين (٥١٨ - ٥٢٧) إلى الملك الأثيوبى فقط حيث أنه واضح من السفارة أنها كانت لحث ومساعدة أثيوبيا على التحرك لمهاجمة الملك الحميرى ذى نواس حاكم جنوب الجزيرة العربية الذى كان يهودياً وبدأ فى اضطهاد المسيحيين . حيث يذكر كوزماس [٢٩] أنه كانت هناك استعدادات للحملة عندما كان فى أدوليس عام ٥٢٢ * .

ومن الممكن أن سفارة جوليان كان بها الأخبار الأكيدة عن تحرك سفن حربية بيزنطية لمساعدة الأحباش فى الهجوم على اليمن ** ، حيث تذكر المصادر

أنه كان هناك فى ذلك الوقت تجمع سفن من أيلة والقلزم وجزيرة جوتاب (تيران) فى أدوليس (٣٠) ، ويبدو أن الملك الأثيوبى كان ينتظر هذا المدد لأن بلاده لم تكن تمتلك إلا اسطولاً تجارياً(٣١) .

وواضح من استعدادات الحملة أنها كانت حملة عسكرية كبيرة ، تلك التى استدعت اشتراك أسطول بحري بيزنطي كبير لهذه الدرجة .

لقد كانت سيادة اليهود فى اليمن تثير مخاوف السياسة البيزنطيين إلى حد كبير ، ليس فقط بدافع العداء بين اليهود وبيزنطة ، وما نتج عنه من إعتداءات على التجار البيزنطيين فى اليمن ، ولكن لما تمثله السيادة اليهودية على اليمن من امتداد للنفوذ الفارسى فى هذه المنطقة الحيوية الهامة بالنسبة للتجارة البيزنطية . وتأكدت هذه المخاوف بعد المراسلات التى دارت بين ذى نواس الحميرى وملك الحيرة اللخمى ، الذى كان يدور فى فلك السياسة الفارسية(٣٢) هذا بالإضافة إلى أن عدداً من يهود الفرس قد انخرطوا فى الخدمة العسكرية فى الجيش الفارسى وحظوا بالإحترام (٣٣) وكانت جماعات منهم قد عملت بالتجارة وجنى الساسانيون من ورائها ثروات طائلة وذلك بإرسالهم سفن تجارية تعمل لحسابهم إلى منطقة القرن الأفريقى (٣٤) لذلك رحبت ولعبت الامبراطورية البيزنطية دوراً اساسياً فى أن تمد مملكة أكسوم نفوذها إلى الشاطىء الآسيوى للبحر الأحمر بدلاً من أن يقفز إليها - عبر اليهود - النفوذ الفارسى ، وقد أقام الأحباش بعد ذلك سلطاناً فى حمير حيث كانوا يستطيعون تبرير ذلك برسالة المسيحية التى كانوا يحملون لواءها (٣٥) .

السفارة الأخرى كان السفير فيها هو نونوسوس وكما يذكر (فوتيوس) أن (نونوسوس) كان من أسرة ديبلوماسية خدمت الإمبراطورية طوال ثلاثة أجيال

خصوصاً في منطقة الجزيرة العربية والبحر الأحمر وكان جده سفيراً إلى الحيرة ، ووالده سفيراً أكثر من مرة لنفس (قيس) هذا - القائد العربي لقبائل المعديين حيث يذكر (فوتيوس) أن Abrames والد ننوسوس قد أرسل إلى قيس للمرة الثانية ، واختيار ننوسوس كسفير في السفارة الثانية له مغزاه حيث كان الملك الأثيوبي قد استولى على أرض حمير ، بعد سفارة جوليان ، وعين فيها ملكاً حميرياً تحت وصاية الأثيوبيين ويبدو أنه كان على شيء من الضعف ** وكان قيس العربي قائد المعديين قد هرب بعد أن قتل أحد أقارب هذا الملك (٣٦) ، وبذلك يكون الملجأ الوحيد له هو الدولة البيزنطية الذى كانت له علاقة سابقة بها عن طريق (Abrames) والد (ننوسوس) .

كانت سفارة (ننوسوس) كما يوضح (فوتيوس) لها ثلاث مهمات إلى قيس في معد ، إلى ملك أكسوم ، إلى حمير . ويبدو أن هدف السفارة هذه كان جمع القوى الثلاث من أثيوبيا وحمير والجزيرة العربية للهجوم على الأرض التابعة للفرس في الشمال الشرقي (الحيرة) أو على الأقل محاولة درء خطر الفرس عن الأملاك البيزنطية في شمال وشمال غرب الجزيرة العربية وساحل البحر الأحمر وفتح جبهة على الدولة الفارسية بحيث تضعفها في صراعها الدائم مع بيزنطة ، لأن قيس (كما يذكر فوتيوس) ذهب إلى القسطنطينية بعد أن قسم أملاكه بين أخويه Ambrus (عمرو) و Yazid ويذكر (فوتيوس) أن الإمبراطور عينه حاكماً ادارياً (فيلارخوس) على فلسطين الثالثة وهى تلك التى تشمل شمال الجزيرة العربية (٣٧) ، حيث عين الحارث بن جبلة على شمال غرب الجزيرة ، واستخلص جزيرة جوتاب (تيران) من اليهود الذين كانوا سكنوها(٣٨) عند رحيلهم من اليمن بعد الغزو الأثيوبي لحمير .

بالنظر إلى حديث بروكوبيوس ، نجد أنه خلط فى الأحداث بين السفارتين فأخذ من الأولى إسم السفير وهو جوليان وأنه ذهب إلى الحبشة وأخذ من الثانية أن هذا السفير قد ذهب إلى أثيوبيا وحمير ومعد وأن (εσιμιφαίος) كان يحكم اليمن فى حين أن هذا الملك الحميرى قد حكم اليمن بعد سفارة جوليان وانتصار الحبشة على اليمن ومن ثم تنصيبه ملكاً على اليمن بعدها .

ثم أن السفير الذى ذهب إلى أكسوم وحمير ومعد هو ننوسوس حسب حديث (فوتيوس) وليس جوليان كما يذكر بروكوبيوس .

ولتوضيح ذلك :

- بالنسبة لنص بروكوبيوس عن السفارة فقد اتفق مع ثيوفانس فى حديثه عن السفارة الأولى بالنسبة لإسم السفير وهو جوليان والغرض من السفارة وهو تسهيل تسيير التجارة بين الحميريين والإسكندرية البيزنطية ولو أن ثيوفانس لم يذكر تحديداً تجارة الحرير التى ذكرها بروكوبيوس * .

اتفق بروكوبيوس أيضا مع ثيوفانس أن السفارة كان بها تحريض على مهاجمة الفرس وكما ذكرنا من قبل فإنه من الواضح من حديث ثيوفانس عن سفارة جوليان أنه يقصد مهاجمة اليمن التى بها عملاء الفرس لأنه ذكر الإقليم القريب ، ويبدو أن هذا هو الهجوم الذى قام به الملك الأثيوبى على (ذى نواس) الحميرى ، ومن ثم لم يكن هناك بعد حاكم أثيوبى أو عربى وهو الذى اطلق عليه بروكوبيوس (εσιμιφαίος) (٣٩) وذكر فى المصادر بعد ذلك أنه حكم اليمن بالفعل وتذكره المصادر العربية بإسم السميفع . ولكن بروكوبيوس ربما قصد بذكره غزو ارض الفرس (ἐαβσλωσιν ές τήν Περσῶν γῆν) هو مهاجمة الفرس فى شمال الجزيرة العربية (ربما الحيرد) .

لم يذكر ثيوفانس أن جوليان ذهب إلى اليمن لكن بروكوبيوس يذكر أن جوليان طلب الشعبين (الأثيوبى والحميرى) .

(πρεσβευτήν Ἰουλιανόν επεμψεν ἀξιῶν ἀμφω)

وهذا ما يتفق فيه بروكوبيوس مع السفارة الثانية التى كان السفير فيها هو (ننوسوس) من حيث أن السفارة أرسلت إلى كل من أكسوم وحمير وإلى قيس قائد المعديين الذى كان هارباً بعد قتله أحد اقارب حاكم حمير العربى (εσιμιφαίοσ) وهذا يؤكد أن السفارة التى يتحدث عنها بروكوبيوس تتفق مع سفارة ننوسوس الثانية بعد إضافة ما سمعه عن سفارة جوليان فاختلطت مصادره وكتب عن السفارة بهذا الشكل * خصوصاً أنه يذكر فى حديثه ما يتطابق مع سفارة جوليان التى ذكرها ثيوفانس فى أن بيزنطة ترغب فى شن الحرب على الفرس لأجل التجارة .

نص بروكوبيوس يوضح نتيجة السفارة - إذا اعتبرنا أن حديثه يتطابق مع حديث فوتيوس عن السفارة الثانية - وهو أنه رغم أن الملكان (ملك أكسوم وملك حمير) وعدا السفير أن يضعا رغبته موضع التنفيذ ، إلا أن أحداً منهما - حسب تعبير بروكوبيوس - لم يستطع تحقيق ما طلب منه ، من حيث شراء الحرير من الهنود وأن يحلوا محل الفرس فى توريد الحرير للإمبراطورية البيزنطية ، كان من المستحيل على الأثيوبيين أن يشتروا الحرير من الهنود لأن التجار الفرس الذين كانوا لقرب بلادهم يقيمون فى موانىء سيلان التى تأتى إليها سفن الهنود أول ما تأتى اعتادوا شراء الشحنات بأسرها ولم يكن جوار الفرس فقط هو السبب ولكن لم يشأ أهل سيلان أن يخسروا عملاءهم القدامى بالتعامل مع منافسيهم ، أيضا لم يستطيعوا مهاجمة الفرس حيث أنه - حسب تعبير بروكوبيوس - كان من الصعب على الحميريين أن يعبروا إقليماً صحراوياً لمحاربة أناس على درجة كبيرة من المهارة (الدراية) بالحروب .

أما مقولة بروكوبيوس أن جستنيان قد أرسل جوليان لأجل الحسابات الدينية التى هى نفس الأسباب عند البيزنطيين فهذا ينطبق بصورة أكبر على السفارة الاولى المذكورة عند ثيوفانس والتى كان بها حض من البيزنطيين لأثيوبيا لشن الحرب على حمير حيث كان السبب الظاهرى بها هو إنقاذ المسيحيين من يد حاكم حمير اليهودى ويبدو أن ذلك كان ستاراً اتخذته بيزنطة لتحقيق كثير من أهدافها فى تلك الفترة خصوصا مع الدولة الفارسية .

ينطبق حديث كوزماس [٤٠] مع حديث ثيوفانس عن السفارة الأولى فى أن الحملة التى أعدها ملك أكسوم على الحميريين كانت فى بداية حكم الإمبراطور جستين (٥١٨ - ٥٢٧) وهو يعطينا تأكيدا باستعداد أكسوم قبل مجىء السفير جوليان ، لأن زيارة كوزماس لأدوليس كانت فى بداية حكم جستين ، كما يذكر أن الحملة ضد الحميريين على الجانب الآخر من الخليج .

بالرجوع الى جون مالالاس ، نجد أنه ذكر عن بعثة أرسلها الإمبراطور جستين إلى ملك الأكسوميين الذى ذكره باسم Elesbaas ، ولحسن الحظ فإن وصفه محفوظاً فى كتاباته [٤١] ، ويعتبر حديثه مطابقاً لما ذكره كوزماس ، حيث أشار مالالاس إلى أن الفرصة كانت مواتية لحملة Elesbass ، وذلك بقتل الحميريين للقديس الحارثه St. Arethas ومطابق لسفارة جوليان فى أن السفير طلب من الأحباش أن يأتوا بالسلع عبر أراضى حمير . لقد حدد تاريخ موت الحارثه بعام ٥٢٢ حيث كان العام الخامس من تولى الامبراطور جستين الحكم (٥١٨-٥٢٧)، وكانت زيارة كوزماس لأدوليس - طبقاً لحديثه - فى عام ٥٢٥ وكانت بعثة جوليان بعد ذلك .

والخلاصة أننا نستطيع القول أنه يتبين من النصوص أنه كانت هناك عدة سفارات وصلت إلي منطقة المدخل الجنوبى للبحر الأحمر ، وظهرت لدينا فى المصادر الكلاسيكية هاتان السفارتان اللتان - فيما يبدو - كانتا متلاحقتين ، ويبدو على ضوء حديث كوزماس ومالالاس أنه بعد مقتل القديس الحارث عام ٥٢٢ م بدأ الأكسوميون - متحينين فرصة تلك الحادثة - فى الاستعداد لغزو إليمن ، ويبدو أن جوليان كان قد وصل بسفارته التى ذكرها (ثيوفانس) وكانت الإستعدادات قد تمت ، ولم تكن الحبشة لديها أسطول عسكرى بالقدر الذى كان عليه أسطول التجارى ، لذلك نجد أنه تزامن وجود سفن من القلزم وجوتاب (تيران) وأيله فى أدوليس وبالطبع لم يكن ذلك صدفة بالنسبة للسفير الذى تحرك من مصر وله صلاحيات واسعة بالنسبة لموقعه كأحد رجال الخدمة السرية للإمبراطورية . ومن الممكن أن نعتبر أن الحملة كانت فى عام ٥٢٧ حيث يشير ثيوفانس إلى تجدد الحروب بين الفرس والبيزنطيين بعد نقضهم المعاهدة عام ٥٢٧ .

والواقع أن الروايات العربية لا تبتعد عن الحقيقة [٤٢] والمصادر تشير إلى تجمع سفن بيزنطية فى ميناء أدوليس التابع للأحباش لنقل القوات الحبشية، حيث لم تكن أكسوم تمتلك إلا سفناً تجارية ، وهى سفن من القلزم وعيتاب (تيران).

لقد كانت القسطنطينية تدرك صعوبة الغزو العسكرى المباشر لشبه الجزيرة العربية وذلك لطبيعة المنطقة وبعدها لذلك ازداد الإهتمام بتقوية أسطولها فى البحر الأحمر وتحسين علاقاتها السياسية مع زعماء القبائل العربية وتعزيز تحالفها مع مملكه أكسوم للحفاظ على مصالحها الإقتصادية وتحقيق أهدافها

السياسية ،وكانت ترى في تدعيم سيادة حلفائها الأحباش على بلاد (العربية السعيدة) تدعيماً لسيادتها هي في البحر الأحمر وعلى جانبيه كجزء أساسي من صراعها المستمر مع الإمبراطورية الفارسية ، إقتصادياً وسياسياً وعقائدياً ، ولذلك لم تتوان عن تقديم أسطولها ليحمل الأحباش إلى اليمن (٤٣) .

ويخبرنا مخطوط استشهاد الحارثه* أن وفداً من أهل نجران قد استنجدوا بالإمبراطور البيزنطي ، وأن رجلاً من نجران تمكن من الوصول إلى ملك الحبشة ليستنجد به (٤٤) - ويذكر كاتب المخطوط أنه عندما وصلت رسل الإمبراطور إلى ملك الحبشة وجدته قد استعد بالفعل لأمر الغزوة ، وهذا ما نجده في كتابات (ثيوفانس) أنه بمجرد وصول البعثة (السفارة) بدأ الملك الأثيوبي في الحشد وبدأ التحرك .

وخرجت الحملة وانتصر الأحباش على ذي نواس ، وهذا ما يفسر ما ذكره ثيوفانس أن الملك الأثيوبي وضع قبلة النصر على جبين جوليان ، وحمله بالهدايا عند عودته ومن الممكن أن يكون قد بشره بتحقيق الهدف من السفارة بأن التجارة سوف تسير بين جنوب الجزيرة العربية والاسكندرية إذن فإن البيزنطيين قد سمحوا وساعدوا هذه الحمله لغرض ديني نعم ولكن لابد أن تؤتي السفارة ثمارها بتأمين تجارة الامبراطورية في أرض اليمن .

أما سفارة ننوسوس التي يذكر فيها أنه زار كلا من أكسوم ، حمير ، معد فإنه يفسر لنا ليس لاستجلاب الحرير أو محاولة تغيير طريق تجارته لأن جستنيان يدرك تماما بخبرته الديبلوماسية أنه ليس بإرساله سفارة يغير مسار تجارة سلعة مهمة كهذه استطاع الفرس الاستئثار بها منذ بداية الإتجار فيها وحيث كان

البيزنطيون يحصلون عليها عن طريق واحد كما يذكر بروكوبيوس [٤٥] . ولكن للاطمئنان على استتباب الأوضاع فى أكسوم وحمير ، ثم داخل الجزيرة العربية فـى أرض معـد التـى تربط البيزنطيون بهم تحالفات قديمة لأن ننوسوس ذكر أن (قيس) قسم إمارته بين أخوته ويبدو أن ذلك استعدادا لتوليه فيلارخية فلسطين (الثالثة) ويدخل فيها غرب الجزيرة العربية التى بها خليج العقبة ، ذلك الشريان البحرى الهام للبيزنطيين الذى يوجد بمدخله جزيرة جوتاب (تيران) وهى التى بها نقطة من أهم مراكز المكوس البيزنطية فى البحر الأحمر ، كذلك مواجهة اللخميين وهم العرب التابعين لفارس فى شمال شرق الجزيرة العربية ومنعهم من الوصول إلى الأملاك الرومانية . ومن المحتمل ان تكون السفارة الثانية كانت طلباً لرد الجميل على إرسال بيزنطه الإمدادت إلى أكسوم لغزو إليمن خصوصاً الأسطول البيزنطى وكان هذا الرد من وجههة النظر البيزنطية هو إحداث مناوشات وبلبلة وذلك بدعوى جلب الحرير عن طريق أكسوم والأهم من ذلك هو الزحف على شمال شرق الجزيرة العربية لتأمين الجبهة البيزنطية من ناحية فارس .

نلاحظ كثرة تعقيد العلاقات السياسية فى تلك الفترة وبالطبع لا تنسى بيزنطة عبور الملك الفارسى سابور الثانى (٣١٠-٣٦٩) الخليج العربى ، بعد وفاة قسطنطين ، وذبحه الكثير من أهل البحرين وإقامة جالية فارسية وزحفه إلى نجد بمساعدة بعض القبائل العربية حتى وصل لأطراف الحجاز [٤٦] . وبيزنطة بنشاطها هذا فى الجزيرة العربية من إرسال ننوسوس إلى معد فى وسط الجزيرة وما تبعه من تقسيم (قيس) مناطقه بين أبنائه وذهابه إلى القسطنطينية وتوليه فيلارخية فلسطين ، إنما هو منع للخطر الفارسى عن غرب الجزيرة لأنه كما ذكرنا كان للفرس وجود فى ميناء أدوليس وليس من المستبعد أن يكون تجارهم قد زاروا

حمير منذ زمن بعيد ولهم تواجد هناك [٤٧] ، كما كانوا يرسلون قوافلهم التجارية إلى إليمن ويوكلون حراستها لجماعات من العرب يختارونهم من زعماء القبائل المعروفين الذين يتمتعون بالمهابة فى قومهم [٤٨] وهذا كان يثير الريبة فى نفوس البيزنطيين ، لأنه لو تم التقارب بين الساسانيين وملوك حمير لوقعت الطرق التجارية الرئيسية المؤدية الى بيزنطة فى قبضة الفرس ، ومن الممكن أن جستنيان لم يرض للإمبراطورية البيزنطية أن تعتمد فى إقتصادها على فارس فعقد عزمه على أن يتلمس طريقاً تجارياً إلى الصين لا يخضع للنفوذ الفارسى [٤٩] .

من ناحية أخرى ربما كان الهدف من بعثة (ننوسوس) هو أن يجد جستنيان تجاوباً لدى الأحباش بهدف لفت أنظار الفرس إلى تلك المناطق عن طريق جرهم فى مناوشات عند منطقة الخليج ليخفف الضغط عن الجبهة الشمالية الشرقية ، وقد سعى جاهداً ليحقق تقارباً بين قوات الأحباش فى إليمن والقبائل العربية فى نجد مثل قبيلة (المعديين) وذلك للتعاون من أجل الوصول بقواتهم معاً إلى شرق الجزيرة العربية تهديداً للأراضى الفارسية والنفوذ الفارسى [٥٠] ورغم تحقق السلام بين الفرس وبيزنطة عام ٥٣٢ فى السنة الثانية من حكم كسرى انوشروان كانت إثارة الحرب متوقعة دائماً [٥١] ، إلا أنه من الصعب التصورأن جستنيان أراد من الأحباش بعد استيلائهم على إليمن - بناءً على إرسال السفارة الأولى - أن يتعاونوا مع القبائل العربية فى نجد بحيث يدخلون فى حرب مع الفرس فى شرق الجزيرة العربية لأن هذه القبائل لم تكن أقل تبصراً من الأحباش بنتائج تلك المغامرة غير المأمونة كما يذكر بروكوبيوس [٥٢] ، وكما يذكر المؤرخون المحدثون أنها (صفقة المغبون) [٥٣] ولكنه أرسل البعثة الثانية للإطمئنان على

استتباب الأمور بعد الغزو وكذلك لتجديد الدعوة لقائد عرب وسط الجزيرة للحضور للقسطنطينية وقد رأينا من حديث نونوسوس أنه (قيس) قسم أملاكه بين أخوته ليتفرغ هو لمواجهة العرب الفرس (اللخميين) فى شمال شرق الجزيرة العربية لأنه يبدو أن غاية ما كان يسعى إليه جستنيان فى تلك المرحلة هو وجود حد أمن بين الاملاك البيزنطية وتهديد اللخميين عملاء الفرس وواضح أن اختيار بيزنطة كان فى محله حيث يذكر نونوسوس ان هذا العربى كان مقاتلا بطبيعته ومن سلالة قواد كما يذكر بروكوبيوس(٥٤) .

ولكن هل أدت السفارات من بيزنطة إلى الحبشة وجنوب الجزيرة العربية ووسطها الغرض منها ..؟؟؟... وذلك على ضوء الأحوال السياسية فى العالم الشرقى فى تلك الفترة .

من الواضح أننا امام ، ليس فقط سفارات من بيزنطة تحث الأكسوميين والحميريين على شراء الحرير من شرق آسيا وتوريده للإمبراطورية ، وبذلك تخرج بيزنطة من دائرة الإحتكار الفارسى لهذه السلعة أو حتى التحالف مع أكسوم وحمير وعرب وسط الجزيرة لغزو فارس ، ولكننا أمام سياسة متكاملة بدأتها بيزنطة بديبلوماسية غاية فى التعقيد فى تلك الفترة ، كذلك بدأتها بتوقيت مهم جداً لمحاولة تشتيت جهود الفرس ، حيث كان من اللازم للإمبراطورية البيزنطية تأمين جبهاتها الشمالية والشمالية الشرقية ، وكما وجدنا فى نص ثيوفانس (٥٥) أن السفارة الأولى جاءت للحبشة بعد " تجدد الحروب بين الفرس والرومان ، بعد نقضهم معاهدة السلام التى كانت بينهما " .

لقد فتحت الدولة البيزنطية - خصوصاً جستنيان - جبهات متعددة للحرب سواء منها الهجومية ضد الممالك الجرمانية فى غرب أوربا ، الدفاعية عن

أطراف الإمبراطورية ضد فارس فى الشرق أو الصقالبة فى الشمال (٥٦) فى الوقت الذى عاصر فيه جستنيان أحد أقوى ملوك فارس هو كسرى أنوشروان (٥٣١-٥٧٩) ، الذى كان عصره فتحا لأزهى فترة من فترات الدولة الساسانية حيث استقرت الحالة الدينية ، كذلك ساد الأمن فى بلاده وأصلح النظام الإجتماعى والضرائب والجيش (٥٧) ، فكان لزاماً على جستنيان أن يكون أكثر قوة واكثر حذراً فى مواجهة إمبراطورية بهذا القدر من الإستقرار والإزدهار .

خلاصة

لقد كانت شبه الجزيرة العربية إحدى محطات الصراع الدولى الدائر فى ذلك الوقت بين القوتين الكبيرتين بما تمثله من قوة إقتصادية وبالتالى سياسية تتمثل فى كونها أهم طرق التجارة الرئيسية بين الشرق والغرب فى العصور القديمة والوسطى ، ولا تقل أهمية لدى الدولة البيزنطية عن مناطق الشمال والشرق من الإمبراطورية . وبغض النظر عن أهميتها فى حد ذاتها لبيزنطة إلا أنها فى الوقت نفسه مفتاح البحر الأحمر من ناحية الجنوب وصولا إلى مصر ، أهم ولاياتها فى ذلك الوقت من الناحيتين السياسية والعسكرية فضلا عن الناحية الإقتصادية .

لقد كان يؤلم القسطنطينية أن يسيطر الفرس على الطريق الرئيسى للحرير القادم من الصين عبر وسط آسيا ، وأيضا تحكم التجار الفرس فى كميات الحرير المتجهة إلى بيزنطة عبر البحر الأحمر ، وكانت سيادة فارس على تجارة الحرير براً وبحراً تسبب مشكلة كبيرة لبيزنطة ، وكانت أكسوم تتحكم بموانئها خصوصاً أدوليس فى المدخل الجنوبى للبحر الأحمر الذى كانت الإمبراطورية البيزنطية تمتلك القسم الشمالى منه ، وكان البحر وما يحاذيه على ساحله الشرقى يمثل واحداً من

أهم الطرق التجارية الرئيسية آنذاك وان لم يكن أهمها على الإطلاق (٥٨) ، فكان لزاماً على بيزنطة أن تعمل على تحسين علاقاتها بالأمم الموجودة على طرفى مدخل البحر الأحمر من الجنوب .

كانت العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية وأكسوم لا تحكمها فقط المصالح الدينية ، بل لأن كلاً منهما كانت له مصالحه الخاصة فى تلك المنطقة (جنوب الجزيرة العربية) والتى تتفق مع بعضها فى أغلب الأحيان ، وكانت أحداث جنوب الجزيرة العربية من اضطهاد للمسيحيين ، سبباً مباشراً للعمل سوياً من أجل تحقيق هذه المصالح التى كانت الجهود العسكرية الحبشية - البيزنطية ، إحدى الوسائل خلال الربع الثانى من القرن السادس ، ويبدو مع إدراك جستنيان أن الأسباب المعلنة للسفارات من محاولة تغيير مسار تجارة الحرير أو غزو فارس نفسها أو أراضى العرب اللخميين لم يكن أكثر من فتح أبواب للصراع الإقتصادى بينه وبين الفرس حتى لا يضيع منه خط تجارة باب المندب ويذهب للساسانيين وكانت السفارات حلقة من سلسلة الصراع الإقتصادى بين بيزنطة وفارس الذى اتخذ فى فترة سبيل الديبلوماسية وفى فترة ستار الدين وفى ثالثة الصراع المسلح .

لقد كان من اللازم لبيزنطة تأمين المدخل الجنوبى للبحر الأحمر بعد اتساع التجارة وتدفقها فى هذا الشريان الحيوى الذى حدا بجستنيان إلى إنشاء نقاط للمكوس فى شماله فى كل من القلزم وأيله وجزيرة Iotabe (تيران) فى مدخل خليج العقبة ، وكما كان على جستنيان تأمين المدخل الوحيد للبحر الأحمر كان لزاماً عليه تأمين ساحله الشرقى حتى لا تصل إلى شرق الجزيرة يد الفرس كما حدث من قبل (حملة سابور الثانى بعد وفاة قسطنطين مباشرة) * ، ولم تكن

دعوة (قيس) قائد العرب المعدين إلى بيزنطة ، وتعيينه فيلارخوس على إقليم فلسطين الثالثة بعد تقسيم مناطق نفوذ وسط الجزيرة بين أخويه الإثنين كما ذكر فوتيوس في حديثه عن بعثة ننوسوس بالشيىء الجديد فى السياسة البيزنطية ، ولكنها إجراء من مجموعة إجراءات لتأمين الأملاك الرومانية فى غرب الجزيرة وساحل البحر الأحمر فقد سبق وعين ليو الأول (٤٥٧ - ٤٧٤) أحد العرب الآبقين من سلطة الفرس قبل ذلك بعد مناورات عدة أخذت سنوات معه ، عينه فيلارخوس على تلك المنطقة وحاكماً على تلك الجزيرة الهامة (lotab) وجابياً لمكوسها [٥٩] .

وليس هناك دليل على أن فكرة مهاجمة فارس أو أرض العرب الفرس اللخميين فكرة غير صائبة أكثر من أنه عندما سير حاكم إليمن الحبشى الذى دعته المصادر بإسم Abramos والذى يذكر بروكوبيوس [٦٠] أنه بنى قوته فى سرية تامة واعداً جستنيان بمهاجمة أرض فارس ولكن بمجرد سير الحملة عادت من وسط الجزيرة بعد فشلها قبل وصولها إلى أرض فارس فى الشمال .

وبناء على حديث بروكوبيوس يمكن أن تكون تلك الحملة جزءاً من تخطيط بيزنطة لغزو فارس .

ومن المحتمل أن سير الحملة لم يكن وفاءاً لوعد Abramos هذا لجستنيان : حيث رأى هذا الحاكم - معتمداً على قوته - أن بيزنطة تسيطر على البحر الأحمر بأسطولها الموجود فى القلزم وأيلة وتيران ، وفارس بسفنها فى الخليج العربى

والمحيط الهندى حتى سيلان وبموقعها على الطريق البرى عبر وسط آسيا ، فأقدم على البحث عن طريق يخصصه له فكانت حملته تلك ليكسب طريقاً وسط

الجزيرة العربية وهو الطريق القديم الذى كان يبدأ من صنعاء ويتجه شمالاً ليمر بالمدن الرئيسية كالطائف ومكة ويثرب إلى دمشق (٦١) .

لم تخف الجهود الديبلوماسية تلك بين بيزنطة وأكسوم وشيوخ القبائل العربية فى شبه الجزيرة العربية عن السياسة الفارسية ، خصوصاً مع تقديرهم خطورة الإمتداد البيزنطى إلى قرب حدودهم الجنوبية الغربية ، لذلك لم يقنعوا باحتكارهم السلعة الرئيسية وطريق التجارة وسط آسيا وحصولهم على الجزية السنوية (٦٢)

لكن نجدأن هناك وفوداً فارسية حضرت لليمن عام ٥٤٢ - ٥٤٣ (٦٣) .

على أى الأحوال فإن الفرس ظلوا يحتكرون تجارة الحرير حتى منتصف القرن السادس الميلادى حتى تمكن الإمبراطور جستنيان من الحصول على بيض دودة القز وبذور شجر التوت عن طريق راهبين مسيحيين توغلا إلى وسط آسيا حتى مملكة خوتان Khotan ووصلا إلى القسطنطينية يحملان سر دودة القز وبيضها فى عكازيها الأجوفين (٦٤) فأقام بذلك أساساً لصناعة بيزنطية للحرير .

وعقدت معاهدة سلام بين بيزنطة وفارس عام ٥٦٢ لمدة خمسين عاماً اتفق فيها أن يترك للطرفين مالهما من أراضى قديمة ، وأيضاً حرية التجارة بين فارس وبيزنطة ، وحرية الديانة ، وعدم التبشير بين الطرفين فى أى من الدولتين ، ثم تحديد نقاط المكوس على التجارة فى الدولتين (٦٥) .

الحواشي

١ - عن السلع وطرق التجارة من جنوب الجزيرة العربية إلى بلاد الأنباط :

انظر : مصطفى كمال عبد العليم : تجارة الجزيرة العربية مع مصر فى المواد العطرية فى العصرين اليونانى والرومانى .

مجلد تاريخ الجزيرة العربية ، الرياض ، ١٩٨٤ ، ص ٢٠٢ .

٢ - عن حالة الأنباط آنذاك عند إنتعاش التجارة بعد معرفة الإستفادة من الرياح الموسمية.

أنظر : Pliny : N.H. V1,100;104 .

Prepl. : 57.

وأصبحت السفن المحملة بالعطور والتوابل تصل مباشرة إلى موانىء مصر فى الأوقات المناسبة ، ومن هناك يمكن نقلها إلى البحر المتوسط .

أنظر :

Bowersock, G.W. : Roman Arabia, London, 1983, P. 21 .

٣ - Strabo : XVII .1.45 .

٤ - Groom, N. : Frankincense and Myrrh, London . 1981 , P. 210 .

عن الرحلة من مصر إلى الهند

انظر :

Strabo : XVII.13 .

Pliny : N.H. VI.26.102 -3 .

ويبدو أن تراجان فكر أيضا فى ربط الأنباط بمصر وذلك عبر صحراء سيناء

Warmington, E.H. : The Commerce between The Roman Empire and India , Cambridge. 1928,P97 .

وأن ذلك قد تم بحفر قناة تراجان بين البحر الأحمر من نقطة على خليج القلزم إلى النيل.

٥ - عن حجم التجارة بين مصر والهند انظر : Strabo : XVII.I.13.

عما تنفقه الإمبراطورية فى سلع الرفاهية من الصين والهند والجزيرة العربية .

أنظر : Pliny : XII.14.84.

عما تدفعه الإمبراطورية فى تجارتها مع الهند أنظر Pliny : VI.26.101

٦ - جورج حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى ، ترجمة يعقوب بكر ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ١٠٠-١٠١

Bury, J.B. : History of the Later Roman Empire, New York , 1958, II, PP. 216-21.

٧ - عن نشاط أكسوم فى البحر الأحمر والمحيط الهندى أنظر :

Procopius : Persian War : I.XIX.

John Malalas : Chronographia, XVIII.456-9 .

Amm. Marc: Res Gestae, XXIII .6.10-11; 45-6.

ذكر أن الخليج الفارسى كان يعج بالملاحة

وذكر Groom, N. : Frankincense ...... P. 173.

ان السلع المستوردة من خارج الجزيرة العربية كانت تمثل نسبة كبيرة من حجم التجارة فى شرق الجزيرة ، وخصوصاً عمان ، ويذكر أنها كانت تفرغ حمولتها فى موانىء الخليج العربى فى شرق الجزيرة وعمان ويتم نقلها وتخزينها فى مخازن عليها حراسة وتضاف إليها السلع المحلية لحين تصديرها .

٨ - Musil, A. : The Northern Higaz , A topographical Itinerary . New York, 1926, P. 306.

* من الممكن أن يكون جنوب الجزيرة العربية له دور فى التجارة فى ذلك الوقت رغم عدم وجود النشاط العربى الواضح فى شمال البحر الأحمر ، حيث لاحظ الحاج الصينى فا - هن وجود التجار السبئيين Sa-Bo فى سيلان .

انظر الطبرى : جـ٢ ، ص ٨٢٠

انظر حورانى : المرجع السابق ص ٩٢ -٩٣ ، حاشية (٤٠).

كانت التجارة القادمة من جنوب شرق آسيا وشرق أفريقيا تتجمع فى عدن التى كانت تعرف بإسم (المخزن الرومانى) ومنها تنقلها السفن الحبشية والبيزنطية إلى القلزم ومنها إلى النيل عبر القناة التى تربط خليج القلزم بالنيل ثم إلى البحر المتوسط أو إلى أيلة على رأس خليج العقبة ومنها إلى دمشق ماراً بالبتراء وبصرى إلى الساحل .

انظر : رأفت عبد الحميد : بيزنطة بين الفكر والدين والسياسة ، القاهرة ، ١٩٩٧، ص ١٥٧ .

ويذكر.John Malalas : Chro . P. 433 انه كان هناك ليس القليل من التجار البيزنطيين يذهبون إلى أكسوم عن طريق أيلة وخليج العقبة أو من الإسكندرية ، بل أن بعضهم كان يركب سفناً حبشية إلى الهند .

Bury, J.B. : History of the Later Roman ... PP.316-333.

انظر أيضا : رأفت عبد الحميد ، المرجع السابق ، ص ١٥٥ حورانى : ص ٩٦ .

* عن فارس وتهديد التجارة والطريق الشمال الأقصى الذى يعتمد على الهدوء النسبى بين تلك الأمم وطريق البحر الأحمر الذى تتحكم فيه أكسوم .كذلك عن الطريق الشمالى (طريق الحرير) .

أنظر : Warmington, E.H. : The Commerce Between The Roman Empire and India, Cambridge, 1928, P.22-28 .

Runciman ,S. : Byzantine Civilization , London , 1961 , P. 163 .

Heyd, W. Histoire du Commerce du levant au Moyen - age .

Leipzig , 1885,I, pp. 1-24.

* الذى ضمن كتابه عن الحروب الفارسية قسماً قصيراً عن الأحداث والأماكن حول البحر الأحمر حيث يلقى عليها ضوءاً قوياً .... انظر حورانى : ص ٩٥ .

Cosmas : II. 140 .

Cosmas : XI . 337-8 .

Procop . : Persian War , I, XX, 9-13 .

Bury, J.B. : History of the Later ......,II,PP.316-321.

انظر أيضا Runciman, S. : Byzantine Civilization ... P. 165

Procop . : Persian War : I, XIX.5-7.

Antonius Martyr : Die Locis Sanactis , Itinera, Hierosolynitana , Tobler, Molinier, I.P.113;116 .

Procop . : Persian War, I,XIX.1-16 .

١٧ - السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ٨٨ .

١٨ - رأفت عبد الحميد : المرجع السابق ص ١٥١ .

١٩ - الحيمى الحسن بن أحمد : سيرة الحبشة ، تحقيق مراد كامل ، القاهرة ، ١٩٧٢ ص ٤٨ .

٢٠ - Philostorgius: The Ecclesiastiecal History, B.III,Ch.4. as Epitomised by Photius, Parriarch of Constantinople .

* تسجل لنا المصادر سفارة من أوائل القرن الثانى ، ولا نستبعد أن تكون من أجل الحرير حيث ذكر ان تراجان (٩٨-١١٧) بعد عودته إلى روما حوالى عام ١٠٦ م قابل عدة سفراء من البرابرة كذلك تذكر سفارة من الهند ، وكان طريق الحرير خلال بارثيا قد أغلق وتحصل روما عليه فى ذلك الوقت عن طريق المحيط الهندى انظر:

Warmington, E.H. The Commerce... P.95 .

عن طريق الحرير فى عصر تراجان انظر : Warmington: P.137

عن طريق الحرير البرى من الصين للإمبراطورية انظر :

Warmington: iloid P.155 .

وقبل ذلك كان الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥) قد توصل فى أواخر القرن الثالث الميلادى إلى إتفاق مع الملك الفارسى نارسيس (٢٩٢-٣٠٣ (بحيث تصبح مدينة نصبين الفارسية هى السوق الرئيسى للحرير المستورد من الصين ومنها يصدر إلى مدن الإمبراطورية .

انظر : Divornik F.: Origin of the Intelligance Services, New Jersey, 1974; P.168.

٢٠ - Divornik, F. : Origin of the Intelligance Services , New Jersey, 1974, P. 164 .

* يبدو أن السفارات من الإمبراطورية الرومانية لم تكن غريبة على الحبشة وجنوب الجزيرة العربية لأن البعثات التبشيرية لم تنقطع طوال القرن الرابع حيث وصل خلال هذا القرن تسعة من رجال الدين قادمين من الدولة الرومانية الشرقية لتنظيم عبادات الدين الجديد وترجمة الكتب اللازمة .

انظر : الحيمى الحسن بن أحمد : سيرة الحبشة ... ، ص ٥٠ .

٢٢ - رأفت عبد الحميد : المرجع السابق ، ص ١٥٠-١٥١ .

٢٣ - Theophanes : Chronographia, AM 6064.

* عمل جوليان كـ agens in rebus وهى وظيفة يمكن أن يطلق عليها الآن وظيفة إستخبارية .

** اختلفت المصادر فى إسم ملك أكسوم .

أطلق عليه ثيوفانس إسم Arethas أو Kaleb

هذان إسمان عربيان " الحارثة " و" كلب " ، وكان العرب يطلقون لقب ملك فى كثير من الأحيان على شيوخ مجموعات القبائل ، حيث نجد ذلك كثيراً فى النصوص الأشورية التى تشير إلى هؤلاء الشيوخ ، وكلب وكليب من أسماء الأفراد ، وكلاب إسم قبيلة كانت رفيعة الشأن كما يظهر فى شعر العرب فى الجاهلية .

من المحتمل أن يكون هناك تجاوز عن طريق الإشارة إلى ملك عربى معدى تابع للحبشة على أنه الملك الذى يمثل أثيوبيا فى المنطقة خصوصاً أنه ذكر فى نفس النص "الملك الفارسى " للدلالة على الملك الحميرى التابع للفرس ، كذلك ذكر فى نفس النص أن (Arethas) بدأ مباشرة فى الحشد وبدأ الحرب بالتحرك ضد الفرس وأرسل للعرب الذين عملوا تحت قيادته .

ومن المحتمل أن (Arethas) هذا هو الذى ظهر فى نص سفارة ننوسوس - الذى سيأتى ذكره بعد ذلك - إنه جد قيس الذى كان قائداً لإثنين من القبائل العربية المشهورة (الكنديين) و (المعديين) .

أو يكون الحارثة أو (كلب) شخصية ذات مركز رفيع فى البلاط الحبشى ، ليس ملك أثيوبيا ولكنه ممثلاً لملك أثيوبيا أو نائبا لملك أثيوبيا وموكل إليه مقابلة السفير جوليان الذى كان هو الآخر سفيراً (فوق العادة) .

- أطلق عليه ننوسوس Elesbaas .
- أطلق عليه بروكوبيوس Hellestheaeus .
- أطلق عليه كوزماس Elesbaan .

*** ذكر ثيوفانس بعد ذلك نقلاً عن جوليان مظاهر الإستقبال فى البلاط الأثيوبى ومراسم استلام الخطاب .

*** يفترض بيورى .

Bury, J.B. : The History of the Later Roman Empire, , New York, 1952 , II, P. 324 N.1.

إن تلك البعثة كانت فى عام ٥٢٤ - ٥٢٥ فى عهد جستين (٥١٨-٥٢٥) استناداً إلى نقش حميرى وجد فى حصن الغراب يبدو أنه يسجل هذه الحوادث حيث يحى ذكرى غزو أكسومى وهزيمة وموت الملك الحميرى .

٢٤ - Nonnosus : Hist. Gr. Min. I. 474-475 .

٢٥ - Nonnosus : Bibliotheca of Photius,3 .

* يذكر فوتيوس أن ننوسوس ربط الرياح الموسمية فى الأراضى العالية لأثيوبيا مع فيضان النيل وكانت حساباته فى ذلك أكثر دقة من أى من الكتاب الكلاسيكيين .

** كان غريباً على بيزنطة هذه التصرفات فقد كانت لا تسمح للعرب بزيارتها إلا فى حدود .

Malchus : Ex Historia Malchi Rhetoris Philadelphensis , Excerpta

De Legationibus Gentium AD Romanos, 1-2 .

٢٦ - Cosmas : II , 140 - 141 .

* يذكر ناشر حديث كوزماس :

Crindle, J.W. : The Christian Topography of Cosmas, An Egyptian Mank, London , 1894 , P.55-56,n.3 .

إن Elesbaan ملك أكسوم هذا ، قد هزم مملكه الحميريين فى تلك الحملة التى ذكرها كوزماس ، هزم (ذو نواس) ملك اليهود الذى أصاب المسيحيين بعذاب رهيب وقد عرف Elesbaan هذا بإسم آخر هو (Caleb) ومجده العرب والإغريق والأثيوبيين وقد ذكر عنه (ننوسوس) وآخرون كذلك ذكر أن إسم الملك فى نسخة الفاتيكان (Ἐλλαιξοβάα) .

٢٧ - انظر : ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ١ ، ص ٢٥٣ .

ابن هشام : التيجان فى ملوك حمير ، ص ٣١٢ .

السيرة ، جـ ١ ، ص ٣١ .

ابن قتيبه : المعارف ، ص ٦٣٧.

اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، جـ ١ ، ص ١٩٩.

الأزرقى : أخبار مكة ، جـ١ ، ص ١٣٥.

ويلاحظ أن المصادر العربية تؤكد حدوث وتاريخ السفارة الأولى التى كان السفير فيها هو جوليان.

انظر : رأفت عبد الحميد : المرجع السابق ص ١٥٢ .

٢٨ - Procop . Persian War : I, XX,4-13 .

* سنرى بعد ذلك أن هناك عداء قد بدأ بين نجد وحمير بعد تنصيب ملك حميرى من قبل أكسوم .

٢٩ - Cosmas : II, 140-141 .

* كتب كوزماس فى عام ٥٤٧ وذكر أنه كان فى أدوليس منذ خمسة وعشرين عاماً وكانت هناك استعدادت للحملة.

** كان جوليان سفيراً فوق العادة إذا صح هذا التعبير حيث أنه كان من مجموعة الإستخبارات كما نطلق عليها حديثاً ، كان أحد الـ agens in rebus لذلك أرسل ومعه الأخبار الأكيدة بتحرك السفن البيزنطية من الموانىء المذكورة وعلى ذلك بدأ الملك الأثيوبى بالتحرك .

٣٠ - يذكر مخطوط استشهاد الحارث (Acta Sanactae Arethae) .

أن الملك الأكسومى لأجل استعداده للحملة استعد بالسفن التجارية واستعان (أمام جزيرة فرسان) بخمس عشرة سفينة من أيله وعشرين من القلزم وسبع من برنيكى واثنتين من جوتاب وسبع من فرسان نفسها وتسع من الهند

انظر Johnson, A.Ch. : Byzantine Egypt : Economic Studies, London, 1944, P.138

٣١ - يذكر آرثركريستنسن : إيران فى عهد الساسانين ، ترجمة يحي الخشاب ، بيروت ، ص ١١٦ ، أنه فى عام ٥٢٣ ، حين أراد ملك الحبشة محاربة سكان بلاد الحجاز ، أعد بجانب سبعمائة سفينة شيدها لهذا الغرض ستمائة سفينة رومانية وفارسية .

٣٢ - رأفت عبد الحميد : المرجع السابق ، ص ١٧٥ .

٣٣ - Euseb. Hist. Eccl, V, 16

٣٤ - عن اشتغال إليهود بالتجارة فى تلك الفترة انظر :

Heyd ,W. : Histoire ,.... I, pp.125-8.

٣٥ - Procop. : Persian War, XX,1-2 .

John Malalas : XVIII,433-434 .

Cosmas : II, 140-141.

* وهو الذى أطلق عليه فى المصادر الكلاسيكية إسم .('Eσιμιφαίος)

انظر على سبيل المثال : Procop. : I,XX,1

وأطلق عليه فى كثير من المصادر العربية إسم السميفع.

** لأنه بعد فترة استولى حاكم أثيوبى من قبل أكسوم على إليمن وهو الذى تسميه المصادر القديمة Abramus .

انظر على سبيل المثال : Procop. Pers. War : I,XX,13 وأطلقت عليه المصادر العربية إسم (أبرهة)

انظر على سبيل المثال الطبرى : جـ ٢ ، ص ٢ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٣٩ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٥٤ .

٣٦ - Procop. : Pers. War , I, XX,10.

٣٧ - عن تقسيم وتسمية تلك المناطق فى شمال الجزيرة العربية انظر :

Musil, A. : The Northern Hegaz, A Topographical Itinerary, New Yourk, 1926, App.III;IV,PP .

انظر أيضا :

Al-Wahaibi, A. : The Northern Higaz in the Writings of the Arab Geographers, 800-1150,Riyadh, 1973,P.

Procop . : Persian War, I,X1X,5-7.

* نلاحظ أنه لم يذكر عند أى كاتب تحديداً تجارة الحرير سوى عند بروكوبيوس فى هذا النص

٣٩ - Procop. : Pers. War : I.XX.

* من الممكن أن يكون حديث بروكوبيوس عن السفارة واختلاط الأمر عليه نتيجة أنه (سمع) ذلك من أحد ، لأنه قبل ذلك فى حديثه عن شمال البحر الاحمر ووصفه لخليج العقبة وجزيرة lotabe (تيران) يذكر (ὥσπερ μοι εἴρηται) عند ذكره أن العبرانيون قد سكنوا الجزيرة منذ أمد بعيد ، ويبدو أنهم كانوا قد سكنوها منذ خروجهم من إليمن وتفرقهم بعد الهجوم الحبشى على ذى نواس الحميرى

** حورانى ص ١٠٢-١٠٣ .

٤٠ - Cosmas : II , 140-141.

٤١ - John Malalas : XVIII.456-59.

لكن يضيف مالالاس أنه (السفير) طلب إلى الأحباش أن ياتوا بالسلع عبر أراضى حمير التى يحكمونها

٤٢ - Shahid. I . : Byzantium in South Arabia, P.25.

٤٣ - رأفت عبد الحميد : بيزنطة ...، ص ١٥٩ .

* Martyrdom of st. Arethas (انظر حورانى ص ٩٦) .

٤٤ - تعددت الروايات فى المصادر العربية :

ويذكر كلاً من : ابن هشام ، التيجان فى ملوك حمير، ص ٣١٢ .

ابن قتيبة : المعارف ، ص ٦٣٧ .

إليعقوبى : تاريخ إليعقوبى ، جـ ١ ، ص ١٩٩ إن اسمه دوس بن ثعلبان واستنجد بملك الحبشة والبعض الآخر يذكر أنه ذهب إلى الإمبراطور البيزنطى انظر :

ابن هشام : السيرة جـ١ ، ص ٣١ .

ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ١ ، ص ٢٥٣ .

أما الطبرى : جـ ٢ ، ص ١٠٦ فيورد الروايتين .

الأزرقى فى أخبار مكة جـ ١ ، ص ١٣٥ . يذكر أن ثعلبان لما ذهب إلى القسطنطينية أرسلها الإمبراطور إلى الإسكندرية وهى الرواية التى تتفق مع مخطوطة استشهاد الحارث .

٤٥ - Procop : Persian War , I,XX,9.

ومن المحتمل أن التنظيم المحكم لنفوذ التجار الفرس فى أسواق سيلان جعلت مساعى جستنيان وأصدقاؤه الأثيوبيون لإنهاء احتكار الفرس للحرير تبوء بالفشل .

انظر : Bury, J.B. : L.R. E. , II , P. 330

٤٦ - Ammianus Marcellinus : Res Gestae : XX,6,7.

وكان عرب البحرين قد عبروا الخليج قبل ذلك عام ٣١٠ واعتدوا على غرب الدولة الفارسية ، وكان عبور سابور وحملته عليهم لتأديبهم حتى أنه دعى بعد هذه الحملة بسابور ذو الأكتاف لأنه - كما يقال - نقب أكتاف الأسرى لربطهم ببعضهم عند أسرهم فى تلك الحملة .

٤٧ - فى سفارة ثيوفيلوس خلال القرن الرابع إلى حمير ، يذكر فوتيوس نقلاً عن فيلوستورجيوس

Philostorgius : The Ecclesiastical History, III,4,as Epitomised by photius, Patriarch of Constantinopolite .

إن ثيوفيلولس نجح فى بناء كنيسة ثالثة فى (السوق الخاص بالفرس) .

٤٨ - جواد على ، جـ ٢ ، ص ٦٣٢ .

وعن تواجد الساسان فى حمير .

انظر Cosmas : X1,337-9

Vasiliev A.A. : History of the Byzantine Empire , (324-1453), London, 1984 P. 163

انظر أيضا : السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ٨٨ .

ويذكر Runciman, S.: Byz. Civil. PP - 164- 5

أن الحروب بين جستينان والفرس أوقفت ورود الحرير الذى كان التجار الفرس يحملونه فى الخليج العربى أو خلال أرض فارس إلى محطتى تجارة الإمبراطوريتين عند (نصيبين) فى فارس (ودورا) فى الإمبراطورية البيزنطية ، ومن ثم ينقل ليصنع فى المصانع الموجودة فى صور وبيروت ولم تؤدى محاولته لإبقاء سعره منخفضاً إلا إلى نتيجة واحدة وهى ركود صناعة الحرير فاشترت الدولة المصانع وتحولت تلك الصناعة - بطريقة عرضية - إلى احتكار إمبراطورى .

ويذكر بروكوبيوس Procop.H.A.,XXV ,13

أن الديبلوماسية البيزنطية حاولت إختراق الحصار الفارسى لتجارة الحرير وذلك بمحاولة

الإلتفاف حول مناطق السيادة الفارسية شمالاً للوصول إلى الحرير الصينى وذلك بأن تتصل بالأتراك فى إقليم ما وراء النهر بعد ما استطاعوا توحيد آسيا الوسطى تحت سلطانهم ولكن هذا العمل كان فوق طاقة الدبلوماسية الإمبراطورية .

انظر :

Divarnik, F. : Origins of Intelligance Services, New Jersey, 1974, P.168

٤٩ - Bury, J.B. : History of the Later Roman Empire, II, New York, 1952, P. 330-32.

٥٠ - Procop. : Persian War, I,XX,9 .

رأفت عبد الحميد : بيزنطة ..... ، ص ١٧٨ - ١٧٩ .

٥١ - آرثر كريستنسن : آيران فى عهد الساسانيين ، ص ٣٥٧ .

٥٢ - Procop. : Pers. War, I,XX,11-12 .

٥٣ - Kowar : Byzantium and Kinda p.61

انظر : رأفت عبد الحميد : بيزنطة ... ، ص ١٧٩ .

جواد على : جـ ٣ ، ص ٤٧٢ - ٤٧٣ .

Bury, J.B. : LRE . II p 325.

٥٤ - Procop. : Pers. War, I, XX,10 .

٥٥ - Theophanes : Chronog. AM 6064 .

٥٦ - عن حروب جستنيان انظر :

السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ٦٧-٧٨ .

٥٧ - آرثر كريستنسن : إيران ..... ، ص ٣٤٨ - ٣٥٧ .

٥٨ - رأفت عبد الحميد : بيزنطة .... ، ص ٩٢ ، ١٥٤ ، ١٥٥ -١٥٨، ١٧٢-١٧٣ .

* انظر حاشية (٤٦) .

٥٩ - انظر Malchus : Ex Historia Malchi....., 1-2

٦٠ - Procop. : Pers. War. I,XX,13 .

٦١ - رأفت عبد الحميد : بيزنطة ... ، ص ١٨٤ - ١٨٥ .

٦٢ - كانت العملة الفارسية تسك من الفضة ، لذلك حرص الفرس على العملة البيزنطية الذهبية .

انظر :

Chirsman, R. : Iran From the Earlist time to the Islamic Coquest , Benguin Books , Paris, 1954, P 341.

أيضا : رأفت عبد الحميد : ص ١٧٠ .

٦٣ - رأفت عبد الحميد : ص ١٨٠ .

٦٤ - Procop. : Gothic War , IV.17 .

Procop. : Pers. War , I , 20 , 13 .

John Malalas : XVIII,456-454 .

حوراني ، ص ١٠٢-١٠٣ .

٦٥ - Theophanes : Chronographia. AM 6055 .

الظاهرة الإثنية : المفهوم واستعمالاته

د. محمد جويلى(*)

مدخل :

تراجع العلوم الاجتماعية مفاهيمها ومواضيعها باستمرار وتبحث عن صيغ لبناء الواقع الاجتماعى ذى المداخل المتعددة والقراءات المختلقة والتحوّلات المتسارعة. وقد تكون بعض المفاهيم - فى ظلّ هذه التحولات - غير قادرة على فهم الواقع الاجتماعى وتحليل معطياته وتفاعلاته بل وحتى إعطاء تعريف له . من هنا هذا السعى الذى قاد العلوم الاجتماعية إلى إعادة التفكير فى أوداتها وموضوعاتها ومناهجها .

فى علم الاجتماع يتمّ الحديث اليوم ، "علم الاجتماع تحت الضغط " وهو عنوانِ مقال اختتمت به المجلة الفرنسية " الكراسات العالمية لعلم الاجتماع " انطولوجيتها بمناسبة مرور خمسين سمة على بدايتها سنة ١٩٤٦ ، ويثير هذا المقال فكرة الضغوطات الجديدة التى يواجهها علم الاجتماع وهى ظواهر العولمة الاقتصادية والتشظى الثقافى الاجتماعى وأخيراً صعود الفردانية المتنامى[١] .
وكان السؤال المركزى هو : كيف سيعيد علم الاجتماع قراءة هذه الضغوطات وتأويلها ؟ وهل له القدرة على معاينة معطيات بدا وكأنه يلهث وراءها بحثا عن شرعية تعطيه مبرر وجوده وتواصله فى سياق بدأت فيه اختصاصات أخرى تشاركه مواضيعه "التقليدية" ؟

(*) باحث فى علم الإجتماع ، بالجامعة التونسية.

(1) Michel WIEVIORKA. La sociologie sous tension. in cahiers Internationaux de sociologie. volume 101, 1996.

هذا اللهاث وراء معطيات معقدة ،ومتسارعة دفع بمجلة كندية هى "علم الاجتماع والمجتمعات" Sociologie Sociétés فى أخذ أعدادها إلى أن تقترح على علم الاجتماع أن يمتلك "نفساثانيا" un second souffle ليواصل تصديه لتعقيدات الواقع الاجتماعى المتسارعة[٢] . ولا يعنى هذا النفس الثانى تجديد علم الاجتماع لمواضيعه فقط بل يعنى أيضاً عملية تفكير نظرى وإبستمولوجى فى مفاهيم البنية والفاعل والثقافة وغيرها.

فى الأنروبولوجيا وقعت مراجعة لعديد المسائل منها ما يهم الموضوع الأنتروبولوجى ذاته الذى لم يعد وفيا لمرحلة التأسيس وانتقل من المجتمعات المسماة "عجائبية " "وتقليدية" إلى المجتمعات الغربية نفسها فلا نستغرب اهتمام الباحث الأنتربرلوجى بمترو باريس[٣] أو بجمهور كرة القدم فى مرسيليا وميلان[٤] أو بطقوس عروض الأزياء فى روما. ولم تعد الآخرية كمفهوم تبنى عليه الأنتربولوجيا تقتصر على الآخرية البعيدة المحببة لأجيال من الباحثين والتى أعطتهم فضاءات خاصة بهم داخل الاختصاص، إذ ظهرت الآخرية القريبة كتحول نوعى فى بناء الموضوع الأنتربولوجى حين يهتم الباحث بمواضيع له معها تداخلات عديدة وقرابة يومية.

إنّ أحد المفاهيم التى تم تجديدها فى الأنتربولوجيا وإخضاعها لعمليات تفكيك وإعادة بناء هو مفهوم "الاثنية" L'ethnicité الذى تقف وراء اختيارنا له مبررات لعل أهمها :

---

(2) Sociologie et sociétés, volume xxx, n°1, printemps, 1998.

(3) Marc AUGE, un ethnologue dans le metro, Paris, Editions Hachette, 1991.

(4) Christian BROMBERGER, Le match de footbal, ethnologic d'une passion partisane a Marseille, Naples et Turin, Paris, Maison des sciences de l'homme, 1995.

- الغموض الكبير الذى يحيط بالمفهوم من حيث تغطيته لوقائع متباينة ومن حيث احتراز الأنتربولوجين من استعماله.

- اقتراب المفهوم وتداخله مع مفاهيم مجاورة له مثل مفهوم القبيلة والأمة والعرق.

- لم يغب مفهوم الجماعة الاثنية عن الاهتمامات السوسيولوجية وماكس فيبر أول من كتب عنه.

- اقتران المفهوم بما يسميه "سميث" بـ "الصّحوة الإثنية" ما يستدعى مفهوما آخر هو مفهوم "الهوية" خصوصاً حين ينطر للعلاقات بين الأفراد والمجموعات استنادا إلى مرجعيات عرقية تتحصّن وراء قلاع ثقافية ثابتة وإقصائية نتيجتها الدرامية ذاك العنف غير المتوقع لهذه العلاقات. فتصبح "الإثنية" محددة فى بناء الفعل الاجتماعى.

- ظهور ما يدعى بـ "الإثنيات الجديدة" Les nouvelles ethnies داخل المجتمعات الغربية نفسها مستندة إلى مرجعيات جديدة لا علاقة لها ضرورة بالقرابة والأصل واللغة والدين ، إنها تشكيلات انبتت على انتماءات مختلفة قد تكون جماعات المهاجرين أو جماعات المافيا أو جماعات الجنسية المثلية أو طوائف عبدة الشمس وغيرها.

يسعى هذا المقال إلى محاولة تتبع مفهوم "الإثنية" من حيث محتوياته واستعمالاته منطلقا مما يتداول عند الإنتربولوجيين على أنه تفكيك للموضوع الإثنى La déconstruction de l'objet ethnque أمّا إعادة صياغة المفهوم فهى تعنى أنّ :

١) الإثنية بناء اجتماعى

٢) الإثنية تفاعل رمزى

٣) الإثنية تنظيم اجتماعى

١ - "الإثنية" : محاولة للتعريف

١-١ المعنى الايتمولوجي

يعود لفظ " الجماعة الإثنية" Une ethnie أو مفهوم " الظاهرة الإثنية" L'ethnicité إلى جذور يونانية نجدها في كلمة "إنتوس" . "وإتنوس" عند اليونانيين هي تسمية لوصف الشعوب التي لم تكن منظمة في شكل مدينة دولة والتي لم ترق إلى المستوى الإنساني فبقيت شبيهة بالمجموعات الحيوانية في تجمعاتها وحركتها ، وتسند كلمة "إتنوس" بعد ذلك في التقليد الكنسي لمن نعتوا بالإحيائيين أي الذين لا دين لهم خلافا للمسيحيين(٥).

بدأ أصل الكلمة مشحونا بصفات سلبية وإقتصادية ليعاد استعماله مع بداية القرن التاسع عشر بمحتوى عرقي هذه المرة(٦) ، و يعني هذا الاستعمال بالأساس اختلاط الأعراق وتداخلها مع ما يخلفه من انحطاط للنوع البشري.

يختلف استعمال "الجماعة الإثنية" عند الفرنسيين مقارنة بالتقليد الجرماني والأنقلوساكسوني. فعند الفرنسيين تمثل "الجماعة الإثنية" جماعة لغوية بالأساس تنفرد بخصائص لغوية تفرقها عن الجوار. أما في التقليد الجرماني فهناك تركيز في تعريف المصطلح على فكرة المشاعر أو الإعتقاد في الانتماء لمجموعة وهو ما سنجده لاحقا عند ماكس فيبر ، وخلافا لهذين الاستعمالين يميل الاستعمال الأنقلوساكسوني إلى اعتبار"الجماعة الإثنية" أقلية ثقافية(٧).

---

(5) Jean Loup-AMSELLE, Article << ethnic >>, in Encyclopedie Universialis, corpus 7.

(6) Ibid.

(7) Taylor A.C. Article << ethnic >>, in Dictionnaire de l'Anthropologie et l'ethnologie, Publié sous la direction de P. BONTE et M. IZARD. Editions. PUF 1991.

لقد بقى مضمون "الجماعة الإثنية" وفيا لأبعاد متصلة بالمجتمعات "الوحشية" مجتمعات اللاتاريخ واللادوية فى تمايز عن شكل آخر من المجتمعات المسماة متحضرة. وساد هذا التمشى فى الأنتربولوجيا الكلاسيكية طويلا ووجد تطبيقاته فى مجتمعات غير مألوفة تبحث عن مكتشفها.

وعلى خلفية هذه النظرة مثلت الإتنولوجيا ذاك العلم الذى يلتفت للمجتمعات "العجائبية" معرفا بخصائصها ومصنفا لمكوناتها ومحللا لظواهرها الاجتماعية والثقافية(٨).

٢- المعنى السوسيولوجى والأنتربولوجى

٢-١ ماكس فيبر والانتماء الإثنى

يخصص «ماكس فيبر» في مؤلفة "Economie et société" جزاء للعلاقات الإثنية ويكشفه نصه حرصا على عدم استعمال لفظ "Ethnie" إلا فى دلاتها الوصفية والنعتية . وقد يكون دافعه الرغبة فى الابتعاد عن الشحنة السلبية والإقصائية للكلمة . وقد تكون أيضا غياب اقتناعه بوجودها فعليا إلا كمشاعر أو كتصورات واعتقادات . ولا تعترضنا فى نصه إلا الاستعمالات التالية : "المجموعة الإثنية: " والشرف الإثنى " والإتفاقيات أو التعارضات الإثنية".

يعطى "ماكس فيبر" التعريف التالى للمجموعات الإثنية نسمى مجموعات إثنية عندما لا تمثل مجموعات قرابة. والمجموعات الإثنية هى هذه المجموعات الإنسانية التى تغذى اعتقادا ذاتيا فى جماعة أصل مرتكزة على تشابهات فى التقاليد الخارجية وفى الآداب أو الاثنين معا أو ارتكاز على ذكريات متصلة

(8) Guy NICOLAS. Fait "Ethnique" et usages du concept d'Ethnie". In Cahiers Internationaux de sociologie. Volume LIV 1973 p. 96

بتجربة استعمارية أو بهجرة بطريقة يصبح فيها هذا الاعتقاد ضروريا وهاما لنشر تجمع بلدى Communalisation وذلك بقطع النظر عن الوجود الموضوعى لشراكة الدم ... والعيش المشترك "الإثنى" يختلف عن جماعة القرابة. والعيش المشترك "الإثنى" ليس جماعة ولكنه عنصر لتشكيل تجمع بلدى(٩).

لا يمكن فهم الاعتقاد الذاتي الذي يعده «فيبر» محوريا في تعريف الجماعة الإثنية دون الالتفات إلى ما يسميه "الشرف الإثنى" وهو شرف جماهيرى مميز لأنه مفتوح لكل الذين ينتمون إلى جماعة أصل يعتقدون فيها ذاتيا(١٠) ولكن هذا الشرف الإثنى لا يبنى إلا من خلال الإيمان بامتياز قيم هذا الشرف وعاداته وبدونية القيم والعادات الأجنبية .

يقر فيبر بصعوبة التحكم فى مفهوم الجماعة الإثنية لأن مضمون نشاط جماعة على قاعدة إثنية ممكن ولكنه غير محدد(١١) . ورغم ذلك أمكن تحديد المقاربة "الفيبرية" لمفهوم "الجماعة الإثنية" فى ثلاثة عناصر هى :

١ - الاعتقاد الذاتى فى أصل مشترك الذى انطلق منه "فيبر" فى تعريف الجماعة الإثنية لا يعنى إمكانية البحث عن جذور الظاهرة الإثنية فى ملامح مشتركة بين الأفراد مهما كان نوعها(١٢) .

(9) Max WEBER, Economie et societe. Editions Plon. 1971 et Editions Pocket. 1995, Tome 2,p 130.

(10) Ibid. p. 133.

(11) Philippe POUTIGNAT et Jocelyne STREIFF-FENART. Theories de L'ethnicite. Editions PUF. Paris 1995. p. 41.

(12) Ibid. p41.

٢ - يتم البحث عن جذور الظاهرة الإثنية فى الأنشطة المتصلة بانتاج الاختلافات ورعايتها وتعميقها. وهذه الاختلافات ذات الحضور الموضوعى لا يمكن تقييمها باستقلالية عن الدلالة التى يسندها الأفراد لها فى مسار علاقاتهم الاجتماعية . وحينها ينظر للظاهرة الإثنية كبناء اجتماعى فى وضعية إشكالية دائمة (١٣).

٣ - تبنى الهوية الإثنية عبر الإختلاف ، وينظر لهذا الاختلاف كمسار تواصلى بين من يعتقد فى انتماء يميزه عن الآخرين وبين هؤلاء الآخرين الذين يعدون كأجانب .

ولأن هذا الاختلاف هو مسار تواصلى فأن الإنكفاء حول الذات لا يخلق هذا الشعور أو الاعتقاد فى الانتماء الإثنى. ويبرز هنا مفهوم الحدود الإثنية التى يضعها الأفراد كل مرة ليعرفوا أنفسهم ويعرفوا من هو فى عدا الآخرين(١٤).

تصور "فيبر" للظاهرة الإثنية مشروط بحضور التحليل التاريخى والسوسيولوجى للوعى وللاعتقاد الذى تحمله المجموعة البشرية حول نفسها وحول محيطها فى زمن معين ومكان محدد . وهذا التصور مرتبط بالظاهرة الأثنية كبناء اجتماعى مستمر يستدعى تأويل عناصر الانتماء ومضامين الاعتقاد فيها ومن ثمة إعادة تأويلها كلما اقتضت الضرورة .

٢-٢ الظاهرة الإثنية موضوع انتروبولوجى

تبدو القرابة اللغوية بين "إثنية" واتنولوجيا مؤثرة فى تعريف الموضوع الأساسى لما يسمى فى التقليد بـ الاتنولوجيا Ethnologie ويتجه موريس

(13) Ibid, p 41 .

(14) Ibid, p 42 .

لينهارت إلى تعريف الإتنولوجيا بأنها علم الإثنيات [١٥] . ،وأوجدت "الإتنولوجيا لنفسها مجالات بحث وبنت موضوعها فى اتصال مع مجتمعات إثنية خارج المجال الجغرافى الأوروبى وبدت المجتمعات الأفريقية والأسيوية وغيرها المعرف البارز لهذا الاختصاص العلمى . أما الاتنوغرافيا وهى المرحلة الأولى من الاتنولوجيا فقد اعتنت بتجميع المعطيات وتصنيفها ميدانيا ارتكازا على مفهوم الجماعة الإثنية الذى تم تبنيه ، ولكن الفاعلين الذين صنعوا هذه المعرفة العلمية كانوا من مشارب عدة منهم الإدارى المتصل بالدوائر الاستعمارية ومنهم العسكرى والحالة ومنهم العلماء ، وهؤلاء جميعاً وبصيغ مختلفة لم يراكموا معرفة حول المجتمعات والثقافات التى تولوا رصدها فحسب بل استعملوا مفاهيم لا تتلاءم مع الواقع الذى تمت دراسته ميدانيا [١٦].

وبرز مفهوم الجماعة الإثنية كأحد هذه المفاهيم ليغطى وقائع يتم التعبير عنها بتسميات أخرى كالعراق والقبيلة والعشيرة كما يستدعى مفهوم الجماعة الإثنية ليكشف عن خلط فى تقسيم الوحدات الاجتماعية والثقافية والسياسية لهذه المجتمعات مع ما ينتجه هذا الخلط من قراءة متكلسة للواقع فى حين أنه واقع متحرك تتغير داخله لأشياء وفق رهانات الفاعلين الاجتماعيين واستراتجياتهم .

---

15 Jean POIRIER, Ethnologie regionale, In Encyclopédia de la pleiade. Editions Gallimard, 1972, p. 3

(16) Jean Loup AMSELLE, L'ethnicité comae volonté et comme representation, A propos des Peul du Wasolon. In Annales. Economie, Societescivilisation, 42eme Année n ٢ !Mars-Avril 1987, p. 466

سعت الإتنولوجيا "الاستعمارية" الفرنسية منها والبريطانية إلى بناء معرفة حول المجتمعات الأفريقية قائمة على تجارب اتنوغرافية أعطت من الخرائط الإدارية والأطالس والتحديدات الإثنية الشيء الذى سهل على الاستعمار احكام سيطرته على شعوب هذه المجتمعات (١٧) . وتنطلق هذه المعرفة المتنوعة من فرضيات ومفاهيم تنسجم مع التطلعات الاستعمارية ومع تصور هذه الاتنولوجيا لتطور المجتمعات ، وهو ما يفسر إعادة الاعتبار لمفهوم " الجماعة الإثنية" خلال المرحلة الاستعمارية لقراءة المجتمعات غير الأوروبية . وتزامن ذلك مع مرحلة مهمة فى بناء الأنتروبولوجيا لمقاربتها ومناهجها ومواضيعها سميت بالتيار التطورى Le courant évolutionniste فى القرن التاسع عشر ، وهو تيار فى الأنتروبولوجيا يؤكد على أن المجتمعات مرت بمراحل بدأت بالوحشية ثم البربرية وأخيراً وصلت إلى الحضارة ، وعبر كل مرحلة تنشأ المعتقدات والقيم والتقنيات الخاصة بها وتتدعم سيطرة الإنسان عليها إلى أن وصلنا المجتمعات إلى أن وصلنا إلى المجتمعات الصناعية وكان " Lewis H. Morgan أهم رموز هذا التيار الأنتروبولوجى (١٨) . لقد اقترن ظهور التيار التطورى باكتشاف مناطق عديدة مثل إفريقيا ومريكا الشمالية والجنوبية وجزر المحيط الهادى واستراليا وارتبط أيضا ببروز منهجية انتروبولوجية تعتمد الملاحظة والمقارنة النسقية لأنماط الحياة فى هذه المجتمعات المدروسة . فوقع نقل مفاهيم المرحلة ليجد

---

(17) Jean -Loup AMSELLE, Logiques metisses, Anthropologie de l'identité en Afrique et ailleurs, Editions PAYOT, 1990, p.29.

(18) Jean-Fran.cois DORTIER, Les sciences humains, Panorama des connaissances, Editions sciences humains. Janvier 1998, p. 26-27.

الأنتروبولوجى المتأثر بالمقارنة التطورية نفسه أمام مجتمعات أمام مجتمعات وثقافات تأتى فى أغلبها ضمن الحالة الأولى من التطور البشرى ، ولكن الخطأ القاتل الذى وقعت فيه الانتروبولوجيا الاستعمارية أنها بنت معرفتها حول المجتمعات الافريقية باستعمالها ألفاظاً وتسميات وكلمات لمؤسسات هندو - أوروبية واستنجادها بالفكر السياسى اليونانى القديم (١٩) . واستنجد الأنتربولوجيون بالمقولة التى تلخص تصورهم للمجتمعات التى يسمونها بدائية وهى أن البدائيين هم أجدادنا المعاصرون . وعلى هذه الخلفية يحضر مفهوم « الجماعة الإثنية » Ethnie بمضامينه القديمة قصد قراءة واقع مختلف عن واقع مختلف عن واقع المجتمعات الأوروبية ، ويظل الأهم من ذلك أن تحديد نطاق « الجماعة الإثنية » أى ضبط حدودها الجغرافية واللغوية والدينية والسياسية وكل ما يشكل تفاصيلها الأخرى قد أضحى مهمة هذه الأنتروبولوجي التى تولت إخراج شبكة تضم عديد الإثنيات فى إفريقيا وغيرها : فأصبحت " الجماعة الأثنية» ابتكار أو إنجازا استعماريا بما يتطلبه من مسار كامل لنشأة جماعة أثنية لم تكن موجودة سابقاً (٢٠) وإنما أوجدتها مصالح استعمارية شتى هاجسها السيطرة على مجموعات وإدماجها فى وحدة اجتماعية تسهل قيادتها فيتغير السؤال أذن من سؤال عن وجود" جماعة أثنية" من عدمه إلى سؤال عن

---

(19) Jean-Loup AMSELLE. Logiques metisses, op. cit, p 30.

(20) Jean-Pierre DOZON. Les Bete: une creation coloniale, In au cœur de l'ethnie. Sous la direction de Jean Loup AMSELLE et elikia M'BOKOLO, Editions la découverte, Paris 1985, pp 49-85.

ينفي «جون بيار دوزون» J.P. DOZON وجود وحدة إثنية اسمها «البتي» "Les bété" قبل المرحلة الاستعمارية ويؤكد أن «البيتي» كجماعة إثنية إنتاج وإبتكار استعماري .

الشروط الكامنة وراء ظهورها ونشأتها [٢١] . ويقصد بالشروط كل ما يتعلق بالسياق الذى ظهرت فيه هذه "الجماعة الأثنية" وبالتسميات التى استعملتها لتؤسس كيانها الخاص وبآليات التى تم تشغيلها لتحديد المنتمى وغير المنتمى أو كيف تصبح من أعضاء هذه " الجماعة الإثنية " وكيف تخرج عنها ، وإن وراء هذه الشروط رهانات واستراتيجيات تجعل من " الجماعة الأثنية" مجالاً خصبا للصراع بأشكاله المادية والرمزية بين فاعلين اجتماعيين فتكف عن كونها وحدة اجتماعية مستقرة وثابتة لتبرز لنا كوحدة فى حالة ديناميكية وتفاعلية لها تصورات لهويتها وتسعى دوما للحفاظ على حدودها والإبقاء عليها فى علاقاتها مع الوحدات الاجتماعية المجاورة .

هذه النقلة فى زاوية النظر للجماعة الإثنية كمفهوم وكممارسة أعطت للدراسات السوسيولوجية والأنتروبولوجية انطلاقة غير معهودة ، فتقدمت إى الواجهة تعريفات جديدة لمفهوم " الجماعة الإثنية " تنطلق من فكرة محورية وهى أن التعريف المتداول لهذا المفهوم كما صاغته الأنتروبولوجية الاستعمارية لا يتلاءم مع واقع تمت دراسته من هؤلاء الذين أحدثوا هذه النقلة النوعية للجماعة الإثنية [٢٢] . ويبرز من بينهم "نادال" NADEL ومرسيه MERCIER وبارث F.BARTH المتصلة أبحاثهم بالفضاءات الإفريقية جنوب الصحراء ، فلم تعد " الجماعة الأثنية " ذلك المعطي المحّدد مسبقا وكأنّه كيان جاهز لا يتحرك. ولم تصمد التقسمات والتحديدات الاثنية الاستعمارية مرجعاً لتعريف الجماعة لتعريف الجماعة الاثنية، فنحن إذا أمام عملية إعادة تعريف للموضوع الإثنى

(21) Jean BAZIN, A chacun son Bambara, In au coeur de l'éthnie. Op. cit, p 112.

(22) Jean-Loup AMSELLE, L'éthnicité comme volonte, op. cit, p 466.

تأخذ بالاعتبار البُعد الديناميكى لتشكيل الجماعة الإثنية والبعد التفاعلى الذى يحرّك مساراتها والعد الاستراتيجى الذى يعتمده الفاعلون الاجتماعيون عند تعريفهم لذواتهم ولعلاقاتهم بالآخر.

٢-٢-١ فريديرك بارث F.BARTH والحدود الاثنية

يستعمل " فريديرك بارث " مفهوم " المجموعج الإثنية Le groupe ethnique ويرى أنه يقدم خدمة للأدبيات الأنتروبولوجية لأنه يضع لها التعريف التالى:

المجموعة الإثنية هى مجموعة بشرية (٢٣):

١ - تتواصل بيولوجيا على نطاق واسع.

٢ - تحمل قيماً ثقافية أساسية أنجزتها هذه المجموعة ضمن أشكال ثقافية لها وحدة ظاهرة.

٣ - تمثل مجالا للتواصل والتفاعل.

٤ - تتشكل من أعضاء لهم هويّة ويساهم الآخر فى إسنادهم هويّة ويمثلون وحدة يمكن تمييزها عن الوحدات الأخرى من نفس النظام.

يعتلق "بارث" على هذا التعريق ويعتبره نموذجاً مثاليا ويُعدّه تعريفا غير بعيد عن الاقتراحات التقليدية التى تجمع بين العرق والثقافة واللغة والتى يصبح بموجبها المجتمع وحدة ترفض الآخرين أو تمارس ضدّهم إجراءات تمييزية(٢٤). ويضيف "بارث" أن الخطر جرّاء هذا التعريف هو الاكتفاء فقط بالخصائص

(23) Fredrick BARTH, Les groupes ethniques et leurs frontieres, In theories de l'ethnicite, op. cit, p 206.

(24) Ibid, p 206.

المكونة للمجموعة الإثنيةدون الإعتناء بالحدود الإثنية كإشكال يفتح آفاقا لفهم الظاهرة، فالحدود الإثنية بالنسبة إلى "بارث" مؤسّسة للمجموعة الإثنية وعليها يتركز بناؤها. وهى ليست نتاجا طبيعيا للإنزواء الذى تفرضه الخصائص المعتمدة فى تعريف المجموعة الإثنية الأخرى(٢٥). ويدافع "بارث" على فكرة الاشتراك فى ثقافة واحدة - وهى أهمّ خصائص المجموعة الإثنية - ليست مهمّة فى ذاتها. فهذا المعطى - أى الاشتراك فى ثقافة واحدة - هو نتيجة أو خلاصة وليس خاصيّة أولى معرّفة ومحدّدة لتنظيم المجموعة الإثنية (٢٦) . هى إفرازٌ لتفعيل الحدود الإثنية.

ويَستدعى "بارث" تعريفا للمجموعة الإثنية كشكل من أشكال التنظيم الاجتماعى. فيُسند فى هذه الحالة أهمية بالغة إلى الركن الرابع فى التعريف المقترح وهى التصنيفات التى يعطيها أعضاء المجموعة الإثنية لأنفسهم واستقبالهم للتصنيفات التى يلحقها الآخرون بهم ويستعمل الفاعلون الاجتماعيون لذلك هويات إثنية لغايات تفاعلية، إنهم يشكلون عبر تبادل هذه التصنيفات مجموعات إثنية بالمعنى التنظيمى(٢٧).

لا تعمى الخصائص الميّزة للمجموعة الإثنية عند "بارث" تلك السّمات الموضوعية التى فى تجميعها تشكل الاختلافات البارزة بين مجموعة إثنية وأخرى وما يهّم "بارث" هو ما يعتبره الفاعلون اختلافات ذات دلالة (٢٨)، ولكن هذه

---

(25) Ibid, p 207.

(26) Ibid, p 207.

(27) Ibid, p 211.

(28) Ibid, p 24.

الدلالة غير ثابتة ولا أهمية لها إلا ضمن سياق ومصالح ورهانات واستراتيجيات يحملها الفاعلون معهم فى علاقاتهم التفاعلية المختلفة. إن بعض الخصائص الثقافية المعتبرة هامة فى وجود المجموعة الإثنية تفرغ من مضمونها ودلالتها عندما يكتشف الفاعلون عدم جاهزيتها وصلوحيتهاوجدواها فى ظروف أو يساق محدّد. تُبنى الاختلافات الإثنية عند "بارث" لذلك هو منشغل أساساً بالحدود الإثنية كمنتج للهويات وبالتالى لهذه الاختلافات. فليس الاختلاف عن الأخر معطى متكلّس إنه على العكس ممارسة اجتماعية ومسار ينجزه أعضاء المجموعة الإثنية لحماية حدودهم الإثنية والأبقاء عليها. إن أطروحه "بارث" عن الآخر فى النهاية هى أن الحدودالإثنية كشكل تفاعلى هى التى تعطى تعريفا للمجموعة الإثنية وليست عناصرها وأدواتها الثقافية منظورا إليها ما قبليًا. والحدود الإثنية لدى "بارث" لاتعنى بالضرورة حدودا جغرافية،رنها أيضا حدود اجتماعية ورمزية دائمة التشكل والحركة يستنجد بها الفاعلون لمعاينة هويّاتهم ومتابعتها فضلا عن بنائها وإعادة بنائها والمفاوضه من أجلها (٢٩).

يدخل بنا "بارث" ومن قبله "ماكس فيبر" مسارا يمنح البعد الذاتى فى بناء الظاهرة أو المفهوم حضوراً لائقا لأنه ثمة رغبة فى عدم إعطاء قيمة لما يسمى بالمعطيات الموضوعية التى تميز الظاهرة الإثنية، وهذه مقاربة اشتغلت لوقت طويل خلال المرحلة الاستعمارية مؤكدة على أن المجموعة الإثنية أو غيرها من الوحدات الاجتماعية هى نماذج ممكن التعرّف عليها بسهولة عبر تحديد سلسلة من ألخصائى

(29) Lucette VALENSI, La tour de Babel, groupes et relations ethniques au Moyen-orient et en Afrique du Nord, In Annales E.S.C, juillet -aout, 1986 n٤ . ! p 829.

المتميزة لها والمتناقلة عبر الأجيال وهى ذات قدرة على تثبيت شكلها. إن المقاربة الذاتية على النقيض من ذلك تتجة أكثر نحو المسارات وشكلها ونحو الشبكات أكثر من المجموعات ونحو الاستراتيجيات بديلا عن الموروثان [٣٠].

٣- الجماعة الإثنية ومفاهيم مجاورة : العرق والأمة والقبيلة: علاقات التداخل

تتداخل مفاهيم الجماعة الإثنية والقبيلة والأمة تداخلا يصعب إجاد حدود فاصلة بينها فلا نعرف أين تنتهى حدود الجماعة الإثنية وأين تبدأ حدود القبيلة. ويعاد نفس الشئ بين الجماعة الإثنية والعرق وغالبا ما يقع استعمالهما مترادفين فى حين أنهما يعبّران عن واقع متباين الخصائص.

لا تخلو الكتابات عن الظاهرةالإثنية من تعريج على مفاهيم تبدو متقاربة الإستعمالL'ppartenance raciale ليميّزه عن الانتماء الإثنى، فالأول يحضر عند القرابة البيولوجية الفعلية فى حين يتجسد الثانى كجملة من المشاعر والمعتقدات والتصورات ويشترك مفهوم الأمة La nation مع مفهوم الجماعة الإثنية فى حملة نفس الخصائص[٣١]. ولكن السائد خلال القرن التاسع عشر أن العرق La race عُدّ أحد العوامل المفسّرة لما هو اجتماعى وخضعت تصنيفات البشر لمقارنات فيزيائية مثل حجم الدماغ ولون البشرة. وبالرّغم من السوسيولوجيا الأنقلوسكسونية لا تهتم الآن بالعرق فى ذاته وتتجه أكثر نحو العلاقات العرقية واستتباعاتها الثقافية والاجتماعية فان التداخل بين المفهومين

(30) Lucette VALENSI, Presentation du numéro: les sociétiés plurielles, In Annales E.S.C, op. cit, p 748.

(31) Max WEBER, Economie et société, Tome 2, op. cit, pp 124-125.

لايزال قائماً لأن مجرّد إدخال البعد العرقى فى العلاقات البشرية يثير تأويلات فى الاستعمال ولأن مفهوم العرق بخصوصياته الوراثية هو كذلك بناء اجتماعى(٣٢) . ولا يمكننا الحديث عن حياة فمجرّد النظر فى الاختلافات الفيزيائية الوراثية بين البشر وتصنيفهم فى ضوئها هو إمكانية مفتوحة لإلحاق هذه الاختلافات بمستوى آخر هو العلاقات الاجتماعية. وهنا تبرز الظاهرة العنصرية كخلاصة للجمع بين مبدأين أساسيين هما اللاتكافؤ والاختلاف، الأوّل له حجج بيولوجية والثانى ذو حجج ثقافية (٣٣) . ويشير "آلان توران" معرّفا الظاهرة العنصرية إلى تلك التصوّرات التى تحُمل عن شعب بعتباره أقل قيمة لاعتبارات طبيعية مستقلة عن فعله وإرادته ويعيش العُنصرين Le raciste ذُونية هذا الشعب كتهديد له فيتماهى مع قيم كونية ومع ثقافة يعتبرها إيجابية فيسعى بالتالى إلى حماية مجتمعه من هذا التهديد عبر إجراءات إقصائيّة للطرف الآخر" (٣٤) .

إنّ اللاّتكافؤ البيولوجى بين الشعوب ليس حاسما بمفرده عند بناء الظاهرة العنصرية لأن تكامله مع الاختلاف الثقافى هو الذى يعطى معنى للظاهرة العنصرية التى تتأكد إلا عند الشهور بالتهديد والخوف فتترجم إلى أفعال مواقف.

إن العرق موجود من قبل لأنه معطى بيولوجي ولكن العنصرية ظاهرة جديد تأكدت عند الإلتقاء بين الشعوب فى إطار المرحلة الإستعمارية خصوصا ويصفها "آلان توران" بكونها المرض الاجتماعى للحداثة .

---

(32) Philippe POUTIGNAT, Les theories de l'éthnicité, op. cit, pp 43-44

(33) Alain TOURAINE, Le racisme aujourd'hui. In Racisme et modernité, so us la direction de MichelWIEVIORKA. Editions la découverte. 1993. p 24.

(34) Ibid. p 23.

Une maladie sociale de la modernite [٣٥] هذه الحداثة التى يصعب عليها قبول الإختلاف فتولّه إلى لاتكافؤ [٣٦] .

لقد تأثرت تعريفات المجموعة الإثنية بمفهوم العرق إلى حد لا يمكن تجاهله وثمة من اعتبره أحد عناصر الظاهرة الإثنية. إذ يقدم "بولمر " Bulmer التعريف التالى : المجموعة الإثنية هى مجموعة أفراد أعضاء فى تجمع أوسع يشتركون فى أصول فعلية أو افتراضية وفى ذاكرة تاريخية وهوية ثقافية ترتكز على عنصر رمزى أو أكثر وقرابة ودين ولغة ومجال مشترك وقومية أو ملامح فيزيائية "[٣٧] يبدو لنا هذا التعريف مدمجا لبعدين هامين هما الثقافة والبيولوجيا فى تحديد المجموعة الإثنية أى الانطلاق نحو اعتبار العرق عنصرا مكونا للمجموعة الإثنية وفى هذه الحالة يمنح هذا التعريف اتجاها نحو تداخل المفهومين وتصبح العنصرية مبنية على تغذية الجانب البيولوجي بعناصر ثقافية وتبرز الفوارق بين الأعراق استنادا على الثقافة .

ويتجلى مسار التداخل بين مفهومى العرق والإنتماء الإثنى فى ما يحمل عن السود من تصورات فى ذات الوقت بيولوجية - تعهمد على اعتبار العرق الأبيض أفضل جينيا من العرق الأسود - وثقافية لأنه يقع تحويل هذه الأفضلية البيولوجية إلى أفضلية ثقافية تنعت الأسود بأنه كسول وغير ذكى ومنحرف وعلي استعدادائم لممارسة العنف [٣٨] . تكشف هذه الستيريوتيبات العرقية

---

(36) Alain TOURAINE, Le racisme aujourd'hui, op. cit p 27.

(37) Blumer, cite par T.K Oommen, In les relations entre race, ethnicite et classe, Revue Internationale des sciences sociales, n ١٣٩ . !Fevrier 1994, p l l2.

(38) T. KOOMMEN, Les relations entre races, ethnicite et classe, In Revue Internationale des 39 sciences socilaes, n ١٣٩ . !Fevrier l994, p105.

المنشرة داخل المجتمعات المتعددة الأعراق عن تداخل مفهومى العرق والجماعة الإثنية بالرغم من أن العرق الواحد يمكن له أن يحتضن مجموعات إثنية متعددة مثلما يحمل أعضاء من عرق ما اختلافا فى الديانة واللغة ونمط العيش (٣٩). إن عدم التفريق بين المفهومين لا يؤدى فقط إلى خلط فى فهم الوقائع المتباينة بل إنه يحاصر مفهوم المجموعة الإثنية أو الظاهرة الإثنية ويجعله تورية لمفهوم العرق غير المرغوب فى استعماله الآن على الأقل فى العلوم الاجتماعية الفرنسية (٤٠).

ولهذا يشحن الخطاب العنصرى الجديد فى أوروبا مفهوم الإثنية بدلالات عرقية عنصرية تقوم على الخوف من الإثنيات الأخرى.

٢-٢ المجموعة الإثنية والأمة

لا ينتهى الغموض فى تعريف المجموعة الأثنية بمجرد محاولة تفريقه عن العرق ويبقى التساؤل حول التجربة الإنسانية التى لا تضمن لنا دوما عدم التداخل بين ما هو بيولوجى وما هو ثقافى فى تعريف الذات والآخر . وقد تزداد الوضعية غموضا عند اقتران مفهوم المجموعة الإثنية بمفهوم الأمة La nation فكلاهما يحيل على ما هو ثقافى.

يعرف OOMMEN الأمة بأنها أرض شعب يمتلك ثقافة والمجال أى عندما تحمل مجموعة من الأفراد أوشعب ثقافة فى أرض ليست لهم. ويحصل هذا فى حالات الخجرة والاستعمار مثلا (٤١) . ويمكن للمجموعة الرثنية أن تتحول إلى

(39) Ibid, p 27.

(40) Jon ROWLEY, Ethnicite, Nation et contrat social, In theories du Nationalisme, Gil DELANNAI et P.A. TAGUIEFF (Dir), Editions KIME, 1991, p 180.

(41) OOMMEN T.K. les relations entre race, ethnicité et classe, op. cit. p 107.

أمة كلما استطاعت أن تعلن سيطرتها وتصرفها وامتلاكها لمجال ودون أن يؤدى ذلك بالضرورة إلى إنشاء دولة (٤٢).

يميز OOMMEN بين نوعين من الإثنية . ثمة الإثنية الرمزية والإثنية الأداتيه . تسعى الأولى إلى الدفاع عن هويتها وثقافتها وتحاول أن تضمن الحد الأدنى من رموزها رغم أنها لا تمتلك امتيازات اقتصادية وسياسية وهذه حال أغلب المجموعات الإثنية . أما الإثنية الأداتية فهى تلك الرغبة فى مقاومة اللامساواة المادية والبحث عن ظروف عيش أفضل والمناداة بالحقوق الإقتصادية والسياسية والثقافية لأفرادها ، ولكن عندما تكون هذه المجموعة الإثنية أغلبية فى مجال معين فإن بإمكانها أن تؤلف بين الإثنية الرمزية والإثنية الأداتية مثلما هو وضع المجموعة الفرنكفونية فى الكيباك (كندا) فتتحول بالتالى إلى أمة بالرغم من أنها لم تتجسد كدولة (٤٣) .

يتحرك مفهوم الأمة داخل صياغتين لكل واحدة منهما علاقة ما بمفهوم المجموعة الإثنية . تتمثل الصياغة الأولى فى الخليفة اليعقوبية Jacobine والسياسية التى بفضل العقد الاجتماعى تأسست وحدة سياسية قادت الفرد إلى أن يضع هويته كمواطن فوق كل الهويات الأخرى وأن يلتزم بشروط هذه الهوية (٤٤) . وخلافا لذلك كشفت الصياغة الثانية عن خليفة ثقافية بموجبها لم تكن الأمة نتاجا لشكل من العقد الاجتماعى أو انتماء لوحدة سياسية ولكنها التعبير عن انتماء لمجموعة ثقافية ترتكز على نفس اللغة والديانة والهوية

(42) Ibid, p 107.

(43) Ibid, p 108.

(44) Bertrand BADIE, Culture, identité, relations internationales, In Etudes Maghrebines, n°7, 1998, p11.

والانتماء الإثنى والعرقى [٤٥] . وإذا ما تنبت دولة ما هذا المفهوم الثقافى وتأسست عليه وشكلت وفقه انتماءها القومى فإنها كدولة أمة ستمارس التفرقة الإثنية وفى حالات قصوى التطهير الإثنى وسيؤدى الاختلاف الثقافى إلى اعتبار صنف من المواطنين صنفا من درجة ثانية أوأقلية مرفوضة [٤٦] . لا تعنى الصياغة الأولى للدولة الأمة أنها بمنآى عن رفض الآخر "الإثنى" برغم حالة التعاقد بين مواطنيها على أساس التساوى واحترام الاختلاف . وتكشف الحروب والصراعات التى خاضتها هذه الدول عن حضور البعد الإثنى بدرجات مختلفة اضافة إلى طريقتها فى التعامل مع الوافدين إليها من المهاجرين أساسا. ومع هذا تميزت الصياغة الأولى بأن آخريتها لم تكن مصدرا لإقصاء مطلق لمن لا يشاركها الثقافة والدين واللغة والعرق.

تعرف المجموعة الإثنية بضعف حضور السياسى بل هى فى الأغلب على هامشه وبالمقابل يقع التأكيد على أنها تشكيلة اجتماعية ثقافية [٤٧] ، ولكنها حين تحاول افتكاك المجال السياسى فان الأمة تشعر بالتهديد الذى قد يطال وجودها . يحدث هذا فى السياق الفرنسى فالأمة الفرنسية غير قلقة من ظهور مؤسسات تهتم بشعوب "الباسك" والبروتون" كالمؤسسات التربوية التى تستعمل لغة غير الفرنسية. إلا أنها بالتأكيد ترفض وتقاوم الحركة السياسية "الباسكية" لأنها تجاوزت البعد الإثنى لتدخل المجال الوطنى وتراجع لديها الثقافى لفائدة السياسى [٤٨] . إن الانتماء لمجموعة إثنية هو التزام بحدود ثقافية ورمزية .

---

(45) Ibid, p 12.

(46) Ibid, p 12.

(47) Guy Nicolas, Fait ethnique, op.cit, pll3.

(48) Ibid, p 116.

ولا يعنى هذا فك الارتباط عن الأمة وفى نموذج الأقليات الإثنية الأمريكية ما يؤدى أن هذه المجموعات مرتبطة بأممها الأصلية لكنه ارتباط رمزى شعورى لا ينفى بالضرورة الإرتباط السياسى بالأمة الأمريكية . فالإيطاليون والإرلنديون والبولونيون وهم يشكلون أقليات إثنية فى المجتمع الأمريكى يدافعون عن إرثهم الأوروبى لغة وتقاليد وشعورا بالانتماء لأممها وقد يقاومون بشكل صريح إدراجهم الكلى فى ما يسمى بـ melting pot الأمريكى لكنهم فى النهاية غيرقادرين على التنصل السياسى من الأمة الأمريكية (٤٩) .

٣-٣ المجموعة الإثنية والقبيلة

إذا كانت الفوارق بين المجموعة الإثنية والعرق هى فوارق بين الثقافى والبيولوجى - ولا يقصى هذا تداخلها - وإذا كان التمييز بين المجموعة الإثنية والأمة تمييزا بين الثقافى والسياسى فماذا عساها تكون خطوط الفصل بين المجموعة الإثنية والقبيلة ؟؟

فى التعريفات السوسيولوجية والأنتروبولوجية المتداولة ثمة قرابة كبيرة بين المفهومين إلى حد أن الإستعمال الفرنسى لا يفرق بينها (٥٠) ، بل أن الأدبيات الانتروبولوجية والتاريخية ، ولزمن طويل ، تناولت الظاهرة الإثنية فى الفضاء المغاربى باستعمال تسميات ذات مرجعية قبلية(٥١) . ويأتى التمايز الأول من الأنتروبولوجيين الأنقلوساكسونيين الذين تعاملوا مع القبيلة كشكل من التنظيم

(49) Ibid, p 102-103.

(50) Jean Loup AMSELLE, Au cceur de ltethnie, op. cit, p 15.

(51) Mondher KILANI. Lignages et identité ethnique dabs ['oasis de Gafsa, In IBLA, n° 160. tome 50, 1987, p301.

الاجتماعى له خصوصياته ويعنون بذلك المجتمعات الانقسامية (٥٢) حتى أن "غيلنر" رفض تطبيق مفهوم القبيلة أو المجموعة الإثنية على المناطق الريفية لشمال افريقيا معتبرا أنها لا تحتضن إلا تنظيمات ذات نمط انقسامى (٥٣) . ويرى غيلنر أن وجود قبائل عربية وأخرى بربرية يمنع من اعتبار مجموع عرب شمال افريقيا قبيلة أو مجموع بربر المنطقة يمثلون قبيلة والسبب هو وجود تواصل ثقافى واجتماعى وتداخل قرابى بينهما فرضته الأحداث وحتمه التعايش على مدى التاريخ الوسيط والحديث (٥٤) . بين القبيلة والمجموعة الإثنية هناك اختلاف فى البناء فالمجموعة فى البناء فالمجموعة الإثنية أكثر اتساعا من المجموعة القبلية (٥٥) . ويحدث أن تضم المجموعة الإثنية قبائل متعددة . ويقدم التشكيل القبلى نفسة على قاعدة سياسية بالأساس فى حين يحافظ تعريف المجموعة الإثنية على الملامح الثقافية (٥٦).

يتم التأكيد عند دراسة القبيلة كشكل من أشكال التنظيم الاجتماعى على عناصر أساسيه هى الإقليم والإنحدار من جد مشترك واقعى أو خيالى واللغة والدين والمعتقدات يضاف إليها الشكل البنائى أى تلك التقسيمات الفرعية المشكلة من عائلات وأفخاذ وعروش . وينظر إلى القبيلة من خلال الاعتقاد الداخلى الذى لدى أعضائها كونهم يؤلفون استقلالية سياسية . لقد أعطت

---

(52) Jean LoupAMSELLE, Aucceurdel'ethnie, op.cit, p15.

(53) Ibid, p 16.

(٥٤) محمد نجيب بو طالب ، سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي ، نشر مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت لبنان ، ٢٠٠٢ ، ص ٦١ - ٦٢ .

(٥٥) المرجع نفسه ، ص ٥٩ .

(56) Guy NICOLAS, Fait ethnique, op.cit, pll3.

الناحية السياسية مبررا لعلماء الاجتماع والأنتروبولوجيا كي يعمقوا هذا البعد وخصوصاً لدى الانقساميين حين اهتموا بالدور السياسي للصلحاء في إعادة التوازن بين القبائل وبعلاقة هذه الأخيرة بالدولة المركزية مما كثف الأسئلة حول الفاعلين القبليين وبالخصوص الصلحاء منهم . فهل هم خارج اللعبة السياسية القبلية ودورهم تحكيمي بالأساس يمتصون به مخزون اللامساواة الكامن لدى فئات العوام ؟ (٥٧) أم أن هؤلاء الصلحاء ليسوا خارج السياق الاجتماعي ورهاناته لأنهم جزء من تراتبية اجتماعية وسياسية يفعلون فيها ويستثمرونها ؟؟

أعطت مثل هذه الأسئلة وغيرها إمكانية لا يستهان بها لإعادة التفكير في تعريف مفهوم القبيلة . لقد فتح "جاك بيرك" هذا التوجه منذ كتب مقالته "في مدلولة القبيلة"بشمال افريقيا .

وهي مقالة نشرت في بداية الخمسينات من القرن الماضي وبدت تتويجا لمعرفة حول الظاهرة القبيلة التي مارسها "بيرك" في المغرب والجزائر بأشكال متعددة.

من المفيد الإشارة إلى أن "بيرك" قد استعمل تعبيرات إثنية في هذا المقال والأقرب أنه استعملها مرادفة لمعنى القبيلة . وما يهمنا أكثر أن "بيرك" قد بدأ في التساؤل عن مدلول كلمة قبيلة بدعوته إلى تتبع تاريخها والبحث في صنوف

---

(٥٧) عبد الله الحمودي ، الانقسامية والتراتب الاجتماعي والسلطة السياسية والقداسة ، ملاحظات حول أطروحات كلينر ، الأنتروبولوجيا والتاريخ (مؤلف جماعي) ، دار توبقال للنشر . الدار البيضاء ، المغرب ١٩٨٨ ، ص ٧٠ .

* Jacques BERQUE, « Qu'est-ce qu'une tribu nord-africaine ? », L'éventail de l'histoire vivante. Mélanges Lucien Fevre, 1954.

استعمالها [٥٨]. ويرمى تساؤله هذا إلى إخراج مفهوم القبيلة من مستوى المعطى الجوهرى الأساسى القائم على ركائز ثابتة إلى مستوى آخر يضع القبيلة كتشكيلة اجتماعية من حركة التاريخ وبالتالي ضمن ديناميكية المجتمعات الباحثة عن أشكال مختلفة لهويتها تنتجها وتدافع عنهاوترممها وتفاوض من أجلها.

يدخل "بيرك" متغير اللغة لفهم نشأة القبيلة وينفد إلى العلامات التى تحوم حول ظهور هذه الوحدة الاجتماعية . ويرى فى اسم القبيلة وفى كيفية بروزه خيطا رفيعا يكشف الوقائع ويبررها "إن ما يهم بطبيعة الحال ، هو الأسم لأن له قيمة اجتماعية كبرى [٥٩] ويضيف فى موقع آخر فاذا ركزنا على الظواهر اللغوية ، قد نتقدم فى فهم عبقرية ذلك الرجل الذى كثيراً ما ساهمت ميوله الخطابية وقدرته على إعادة التأويل فى تغطية الوقائع أو حتى تشويهها [٦٠].

فالأسم محرك مثير للتصنيفات وبالتالى للصراعات فهو العلامة الأولى لهوية أية مجموعة بشرية والاسم رهان أيضا لأنه يطرح الأسئلة التالية : من يتولى مسؤولية التسمية ؟؟

داخل أى سياق تظهر ؟ من هو المعنى بها ؟؟ ما هى مضامينها ؟؟ وماذا تفيد استعمالاتها ؟؟

تخرجنا هذه الأسئلة من سياق لتضعنا فى آخر مخالف له فهى تحملنا من التفكير فى طبيعة الأشياء إلى التفكير فى استعمالاتها أى فى تلك الحركة

---

(٥٨) جاك بيرك ، «في مدلول القبيلة» بشمال إفريقيا ، كتاب الأنتروبولوجيا والتاريخ ، مرجع مذكور سابقاً ، ص ١١٣ .

(٥٩) نفس المرجع ، ص ١١٧ .

(٦٠) نفس المرجع ، ص ١١٨ .

المانحة معنى لكل مجهود يبذل من أجل تعريف الذات وإعلان الاختلاف عن الآخر . إن البحث في تاريخ التسمية هو إطلالة في العمق على الذاكرة الشفوية التي توزع الأسماء والأحداث والوقائع ولكنها ذاكرة انتقائية تثمن كل ما يتصل باستراتيجيتها وتنسى أو تقصي كل ما يعيقها . إن ذاكرة الأسماء التي دعا "بيرك" إلى تفكيكها تخفي تقاطعات جغرافية وسياسية ورمزية إذ تتكرر نفس أسماء المجموعات هنا وهناك عبر مجال المغرب الكبير (٦١) ويستثمر الاسم في تأكيد الذات وتقويتها كما تنخرط داخله مجموعات أخرى باحثة عن هوية مرتقبة وتمنح حركات الهجرة في هذا المجال المتسع إمكانيات عديدة لإقامة التحالفات وصون الامتيازات هذا الحراك الكبير الذي عاشته منطقة المغرب الكبير كشفته الرموز والعلاقات وبدت الكلمات ذات فاعلية في ترتيب الأشياء وإعادة ترتيبها من جديد.

وبهذا فتح "بيرك" نافذة لا تزال فاعلة إلى الآن لتناول الظاهرة القبلية وهي نافذة الظاهرة اللغوية وما يتبعها من علامات ورموز عند بناء الأفراد والمجموعات لهوياتهم وعند الرغبة في التمايز عن الآخرين .

فهل القبيلة أو المجموعة الإثنية من هذا المنطلق بناء لغوي ورمزي ؟؟ وهل الحدود بين المجموعات هي أيضاً حدودلغوية ورمزية وإذا تقدمنا بالسؤال إلى الأمام هل يمكن القول بأن القبيلة أو المجموعة الإثنية غير موجودة إلا في أذهان من يبتكرها بما أن لكل قبيلته ولكل مجموعته الإثنية ؟؟ وماذا عن التضارب الكبير عند تصنيف القبائل بين إدارة إستعمارية لها خلفياتها وأهالي يقدمون معلومات في أغلبها فخاخ؟

---

(٦١) جاك بيرك ، «في مدلول القبيلة» بشمال إفريقيا ، كتاب الأنتروبولوجيا والتاريخ ، مرجع مذكور سابقاً ، ص ١١٧ .

مقاربات الظاهرة الإثنية :

يستدعى التعرض لنظريات الظاهرة الإثنية التفريق بين الجماعة الإثنية والظاهرة الإثنية L'éthnicité فاذا كانت الجماعة الإثنية تلك التشكيلية الاجتماعية ذات العناصر المحددة والتى نقيس بها مجموعة بشرية لنميزها عن مجموعات أخرى فصادف أن استعمالها الانتروبولوجيون وصنفوا بها البشر ، فان الظاهرة الإثنية هى ذاك المسار الاجتماعى الذى تنسجه الجماعة الإثنية لتأكيد وجودها والدفاع عنه والاستمرار فى التعبير عنه . إن الظاهرة الإثنية هى الهوية الإثنية فى حالة حركة وفعل (٦٢).

يرجع ظهور مفهوم الإثنية فى العلوم الاجتماعية الأمريكية إلى أربعنيات القرن الماضى وكانت كلمة ethnicity تعنى فى البداية انتماء لا يدخل ضمنه الأنقلوا - أمريكيين وهى المجموعة البيضاء الوحيدة التى ليس لها أصل قومى خلافا للايطاليين والإيرلنديين وغيرهم (٦٣) . واستعمل المفهوم كمتغير مستقل مثل الجنس والعرق والديانة لدراسة تأثيرات الإثنية على سلوك الأفراد والمجموعات (٦٤) واعتمدت الاستبيانات التى تقوم بها مراكز الأبحاث والجامعات الأمريكية على هذا المتغير أى الانتماء الإثنى من خلال إدراج السؤال التالى من أى بلد ينحدر أغلب أجدادك(٦٥) ؟

---

(62) Philippe BATAILLE, La sociologic des mouvements sociaux et l'ethnicite, Une comparaison internationale, In Sociologies et sociétés, volume XXIX n°2, automne, 1997, pp 172-173.

(63) Philippe POUTIGNAT et Jocelyne STREIFF-FERNART, theories de ltethnicite, op. cit, p22

(64) Ibid, p 22.

(65) Ibid, p 23.

إلا أن الاستعمال المكثف لمفهوم الإثنية فى العلوم الاجتماعية الأمريكية يعود إلى سبعنيات القرن العشرين مع إصدار مجلة مختصة هى Ethnicity سنة ١٩٧٤. (٦٦) واقترن هذا الاستعمال بنشأة الصراعات التى سميت آنذاك بالصراعات الإثنية سواء فى المجتمعات الصناعية أو فى مجتمعات العالم الثالث وفى المجتمعات المتعددة الإثنيات كما فى المجتمعات التى تبدو متجانسة ثقافياً مثل كندا وبلجيكا.

ما يهمّ فى هذا الشأن أن تصبح الإنتماءات والختلافات الإثنية شكلا من أشكال التراتب الاجتماعى. وهذا ما ذهبت إليه العلوم الاجتماعية الأمريكية وحاولت تأكيده. ولكننا أمام اعتبار الإنتماء الإثنى أحد عناصر قراءة الواقع الأجتماعى وربما يكون الأهم فى نظر السوسيولوجيا الأمريكية فانه من المفيد أن تقدم الملاحظتين التاليتين.

- الملاحظة الأولى هى: انتقال مفهوم الظاهرة الإثنية إلى سياق آحر هو سياق المجتمعات الصناعية بعد أن عرف بداياته الأولى فى مجتمعات "تقليدية" واستثمرية الأنتروبولوجيا لتصنيف المجموعات البشرية ودراستها. إن عودة المفهوم إلى فضاءات المجتمعات الصناعية هى إمكانية أكبر للسوسيولوجيا كى تدخله ضمن مفاهيمها لقراءة المجتمعات المركبة وخصوصا تلك التى تعرف تعددية إثنية. ما يعنى إعادة النظر فى المضامين والفوراق بين المجتمعات "التقليدية" والمجتمعات المسماة "متحضرة".

- الملاحظة الثانية: إن سباقية بروز مفهوم الإثنية فى العلوم الاجتماعية الأمريكية وتصدّره المفاهيم المستعملة لقراءة الواقع الاجتماعى لا يرجع فقط إلى

(66) Ibid, p 24.

أن المجتمع الأمريكى هو مجتمع تعدّدى الإثنيات بل لأن هذا المفهوم قد أفعى إلى حدّ كبير علماء الاجتماع الأمريكيين من قراءة مجتمعهم قراءة طبقية أى باستعمال مفهوم الطبقة الاجتماعية للدلالة على التراتبية الاجتاعية مثلما فعلت السوسيولوجيا الأوروبية.

لا تضع السوسيولوجيا الأمريكية الصراع الطبقى والمشكلات الطبيقة ضمن محاور اهتماماتها (٦٧). فهى سوسيولوجيا تبحث عن الاندماج وأشكال تجسيده وسؤالها البارز هو كيف الوصول إلى مجتمع يحقق فيه الفرد اندماجه فى المجموعة؟ وكيف العمل لإدماج الأقليات الإثنية ضمن النسيج المجتمعى القومى ؟ (٦٨) يقول "بول براس" Paul BRASS إن المجموعة الإثنية هى شكل بديل عن التنظيم الاجتماعى الطبقى والظاهرة الإثنية هى شكل هويّاتى بديل عن الوعى الطبقى" (٦٩).

إن اعتماد مفهوم الظاهرة الإثنية داخل نسيج العلوم الاجتماعية يكشف هن تحولّ عميق فى قراءة الواقع الاجتماعى وبالذات واقع المجتمعات الصناعية وما بعد الصناعية . لقد دافعت نظريات التحديث دوما على ثنائيات التقليد والحداثة، الجماعة والمجتمع، الفرد والمجموعة، التضامن والتفكك واستعملتها بصيغ تنافرية لتميزّ بين المجتمعات والثاقافات فأوجدت من جهة المجتمعات

(67) Raymond ARON, La société americaine et sa sociologic, In cahiers Internationaux de sociologic, volume XXVI, 1959, reaparu dans les cahiers, volume 101, 1996, p 132.

(68) Ibid, pp 130-131.

(69) Paul BRASS, Cite par POUTIGNAT et STREIFF-FERNART, In theories de l'éthinicité, op. cat, p 26.

التقليدية المتجانسة والتضامنية وعديمة الحركة وأظهرت من جهة ثانية المجتمعات المتطورة والفردانية والمتحركة. يبرز هنا مفهوم الظاهرة الإثنية ليبيّنأن ما اعتُبر حكراً على المجتمعات التقليدية يمكن أن يتواصل داخل المجتمعات الصناعية وأن التضمانات التى هى علامة من علامات المجتمعات التقليدية هى على العكش جزء من النسيج المجتمعى الصناعى. وأن الروابط الإثنية بعيدة عن أن تكون ضحية من ضحايا مسارات التحديث التى تعرفها المجتمعات. وعلى الطرف الآخر لم تكن المجتمعات "التقليدية" ساكنة وثابتة ومتجانسة وهى ليست مجتمعات متكونة من مجموعات بشرية متلاصقة ومتجاورة سمّيت قبائل أو مجموعات إثنية إنها على العكس مجتمعات متحركة تؤثر فى محيطها وتتأثر به المجموعات الإثنية بروابطها المختلفة لا تكف عن الظهور والاختفاء، عن التكون والانحلال. وهى فى علاقات مع حركات الهجرة والتجارة والحروب وظهور الدول واختفائها لذلك لم تكن لهذه المجموعات الإثنية فى إفريقيا مثلا هوية ثابتة لا تخضع للتغيّر. ويتحدّث "جون لوب أمسال"J.L AMSELLE عن المجتمعات الإفريقية حتى قبل دخول القوىالاستعمارية على أنها تشكل سلسلة مجتمعات Chaines de docietes [٧٠] تجمع بينها علاقات تجارية وسياسية واجتماعية ودينية. لقد أنتجت هذه الروابط مجموعة فضاءات ما قبل استعمارية هى بالأساس فضاءات إنتاج وتبادل واستهلاك مثلما أفرزت فضاءات سياسية وحربية غلطّت مناطق ممتدة من إفريقيا.

ليس هناك إذا ما يبرّز استعمال المجموعة الإثنية أو الظاهرة الإثنية لتفسير مع يقع فى المجتمعات الإفريقية. لأن هذه المجتمعات ليست مخصتة دون غيرها

(70) Jean Loup AMSELLE, Au cccur de l'ethnie, op. cit, p 23.

فى إنتاج الظاهرة الإثنية، لأنها ظاهرة كونية. ثم أن استعمال الصراعات هى الصراعات السياسية والإقتصادية والإجتاعية تستنجد بها القوى الإستعمارية سابقا وحتى الدول الوطنية الان. [٧١] قد يكون البعد الإثنى إجابة ثقافية عن مشكل [٧٢] ولكنه من غير الممكن أن يختزل لوحده كل أبعاد الصراع... إن انعدام مبرر استعمال ما هو إثنى لوصف المجتمعات الإفريقية على سبيل المثال يعود إلى المراجعات التى خضع لها مفهوم الظاهرة الإثنية وإلى إعادة التعريف التى خضع لها مفهوم الظاهرة الإثنية وإلى إعادة التعريف التى مكنته منها مقاربات جديدة وإلى الفضاءات غير المتعود عليها والتى أصبح من اليسير استعمال مفهوم الظاهرة الإثنية لقراءتها . ويعود أيضاً إلى أن التعارض الكلاسيكى بين التقليدى والحديث قد فقد أهليته لتفسير الإختلافات بين المجتمعات وفهمها .

١ - الظاهرة الإثنية كمعطى جوهرى

تستعيد هذه المقاربة على الرغم من تراجعها الكبير الانتماءات الأولية للأفراد وتقرها أساسية لتكون الظاهرة الإثنية أو الهوية الإثنية . والانتماءات الأولية هي تلك الإنتماءات المرتكزة على روابط الدم واللغة والأصل والدين والقيم المشتركة والمغذية شعورا طبيعيا بالانتساب لمجموعة دون أخرى . ويقوى الشعور بالتضامن بين أفراد المجموعة الإثنية ذلك الإعتقاد بأن قرابة دموية واقعية أو خيالية تجمعهم . [٧٣] فيبرز بينهم هذا الإستعداد للتعبير وبأشكال

(71) Ibid, p 40.

(72) Philippe POUTIGNAT, theories de l'éthnicité, op. cit. p 92.

(73) Ibid, p 98.

متعددة عن انتماء لروابط أولية مجموعة حاجات مثل الحاجة إلى الانتساب والحاجة إلى أن يكون الفرد مقبولاً من الآخرين والحاجة إلى امتلاك صورة جيدة حول ذاته . ومن بين الانتماءات العديدة المتاحة يرى الفرد فى الانتماء لمجموعة إثنية ذاك الملاذ الوحيد الذى لا يشعر داخلة الفرد بالعزلة والاقصاء .(٧٤)

إن ما هو جوهرى فى المجموعة الاثنية هو الإيمان بخصوصية الروابط الأولية خلافاً لأية روابط أخرى ممكنة . والجوهرى هو النظر لها كمعطى أولى وأساسى وبالتالى عزل كل ما ينجر عنها من تفاعلات .فالنظرة الماقبلية للأنتماء الإثنى تعنى الوقوف عند المحددات المسماة موضوعية والخارجة عن نطاق الأفراد والمستقلة عن وجودهم دون التفكير فى الكيفية التى تنشأ بها هذه المحددات ودون التنبه إلى أنها محددات متحركة .

تعرضت هذه المقاربة إلى انتقادات عديدة . وأهمها التى اتجهت نحو اعتبار الإكتفاء بالمعطيات الجوهرية والأولية لتفسير الإنتماء الإثنى من شأنه أن يغيب السؤال المحورى وهو نشأة الروابط الإثنية وتكونها والآليات الثقافية التى ولدت مشاعر الانتماء وقامت برعايتها .(٧٥)

فمشاعر الانتماء الإثنى غير القابلة للوصف والمنفلتة عم قدرات الافراد وتحكمهم فيها ليست مشاعر معرفة موضوعيا وليست بمنأى عن التفاعل الاجتماعى والتعامل معها لا يقصى القدرة لدى الفاعلين للتساؤل دوماً حول شروط انتمائهم الإثنى . ويتغير السؤال عم ماهية الوجود الإثنى إلى سؤال عن

---

(74) Ibid, p 99.

(75) Ibid, p 100.

متى ولماذا يكون البناء الاجتماعى للواقع منجزاً باستعمال مفردات إثنية ؟؟[٧٦] أي ما هى شروط ظهور الهوية الإثنية ؟؟

يقدم "غيرتز" GEERTZ قراءة ديناميكية لما يمكن تسميته بالإنتماء الإثنى، وفى ظل هذه القراءة يتراجع التعريف الإثنى للذات كتعريف موضوعى ونهائى وثابت . ويأخذ "غيرتز" مفهوماً متداولاً وقريباً من التجربة اليومية هو مفهوم "النسبة" فى منطقة "صفرو" المغربية"و النسبة" هى ذاك النسق الثقافى والاجتماعى الذى تتفاعل داخله وتتحرك مختلف الهويات وتعبر عن وجودها وهى تلك الأداة الرمزية التى تميز الناس عن بعضهم وتعطى صورة عن المعانى التى يكون بها الإنسان إنسانا .[٧٧] ويطرح "غيرتز" فكرة مفادها أن "النسبة" هى استراتيجية تموقع Une stratégie de positionnement يختارها الفرد أو يستعملها كلما تطلب السياق ذلك .وهذه "النسبة" هى فسيفساء من الانتماءات تتيح للفرد حركة أفضل ليعبر عن ئاته ويعرفها وتكسبه ثقة يستطيع بها أن يكون براغماتيا ومتمكنا وقادرا على التبدل مع كل الأحداث . ولأنها استراتيجية تموقع فإنها تنشط وفق شبكة العلاقات المتنوعة التى يمتلكها الفرد . فيترك جانبا المضمون الجوهرى لهويته مثل الأصل واللغة والدين وغيرها ليلتفت إلى السياقات الآخرى المفتوحة أمامه والتى يتفاعل داخلها مع فاعلين آخرين مثل سياقات العمل والمبادلات التجارية والفعل السياسى ، هنا سيطوع الفرد هويته وينتقى منها ما يراه مناسباً على قاعدة الربح والخسارة فى أبعادها المادية

(76) Ibid, p 92.

(77) Clifford GEERTZ, savoir local, savoir global, Editions PUF, 1986, Traduit de l'anglais par denise PAULME, p 83.

والرمزية . كل شيئ رهين فى جزء كبير منه بالوضعية [٧٨] التى يتخذها الفرد كلما أراد أن يعرف نفسه ويعرف الآخرين من حوله .

٢ - الظاهرة الإثنية كنسق ثقافى

تمنح المقاربة حضوراً مكثفاً للبعد الثقافى وترى فيه المحرك الأساسى للانتماء الإثنى أو لتشكيل الهوية الاثنية . وتقف هذه النقاربة على النقيض من إعتبار الانتماء الاثنى إنتماء جوهرياومتأصلا ، كما ترفض وجهة النظر الأداتية التى ترى فى المقموعة الإثنية مجرد تعبير عن مصالح اقتصادية وسياسية وإجتماعية ولا تعترف بالنشاط الرمزى الذى تخوضه المجموعة الإثنية .[٧٩]

تعرف المقاربة الثقافية الظاهرة الإثنية بأنها ذلك النسق الثقافى الذى يتمكن به الافراد من تحديد مكتنهم داخل نظام إجتماعى أوسع .[٨٠] ولكن النسق الثقافى الذى تعطيه هذه المقاربة مكانة متميزة يقدم بدوره تعريفا للثقافة يتجاوز التعريف التقليدى الذى يعدها معطى كلى متجانس ومندمج أو أنها مجموعة العناصر أو الملامح القابلة للوصف .[٨١] وتسعى هذه المقاربة إلى رؤية الثقافة كمسار يقع بناؤه وكتفاعل يحصل بين مختلف الفاعلين فيعطونه الدلالة المناسبة . إن الثقافة هى هذا النسق من المعانى الذى يفسح المجال أمام الأفراد ليتباداوا القيم والرموز وهى أيضاً تلك المعانى التى يسندها الفاعلون الاجتماعيون لأفعالهم بشكل مستمر ومتواصل وهى بالتالى معانى متحركة وغير ثابتة ولهذا

(78) Ibid, p 87.

(79) Philippe POUTIGNAT et.., op. cit, p 120.

(80) Ibid, p 120.

(81) Ibid, p 121.

يصعب فى نظر هذه المقاربة أن نحصر الثقافة ماقبليا فى مجموعة من القيم والعادات ونقيم عليها سياجاً ونضبط لها حدوداً دائمة تفصلها عن الثقافات الأخرى . الثقافة هى ما تجعل اللعبة الاجتماعية قابلة لأن تمارس .[٨٢] انطلاقاً من الخلفية الديناميكية للثقافة يعرض "دريمون" DRUMMOND نموذجا لرؤية الظاهوة الإثنية من حيث أنها " نسق رمزى أي مجموعة من الافكار المجبرة على التمييز بين الأنا والآخرين والتى تشكل قاعدة للفعل ومرتكزاً لتأويل أفعال الآخرين . [٨٣] ويؤدى هذا النموذج إلى النتيجة التالية وهى أنه لا توجد مجموعات إثنية معرفة ومحددة مسبقاً ولكن ثمة مجموعة متغيرة من المقولات Catégories التى لا تحمل دلالات إلا حين تسعف بتعريفات وباستعمالات من بشر لهم فهمهم وانتظاراتهم المشتركة حول موضوع الإختلافات الأساسية التى تفصل بين الأشخاص فى مجتمعهم .[٨٤]

ما يشغل هذه المقاربة إذن هو توضيح المضمون الثقافى والعلاقات الداخلية بين المقولات الإثنية والتى بداخلها يتحقق التواصل الدلالى للإختلاف بين الافراد. وتبدو الظاهرة الاثنية فى هذه الحالة مرتبطة بالرؤية الخاصة التى لهذه المقاربة حول مفهوم الثقافة كسياقات من المعنى سنتجها الفاعلون ويعيدون إنتاجها . فتجد هذه المقاربة نفسها لا أمام مجموعات إثنية بل أمام سياقات ما بين - إثنية يضمنها الفاعلون وهم فى وضع تفاعلى ما يسميه "فتغنشتاين" ألعاباً لغوية

(82) Clifford GEERTZ, cite par Bertrand BADIE, in cultures, identité, relations internationales, op. cit, p 9.

(83) DRUMMOND. L, cite par Philippe POUTIGNAT et ..., op. cit, p 121. Philippe POUTGNAT et... op. cit, p 121. Ibid, p 122.

(84) Ibid, p 135.

يمكن أن تكون حسب الوضعية متماثلة أو متشابكة أو غير محددة .(٨٥) ولكن الاختلافات الثقافية فى ذاتها ليست مصدرا لبروز الظاهره الاثنية إنه التواصل الثقافى الذى يسمح برسم الحدود بين المجموعات عبر رموز مفهومة ومتداولة.(٨٦)

٣ - الظاهرة الإثنية شكل من التفاعل الاجتماعى

يدخل الفاعلون الاجتماعيون وهم يمارسون حياتهم فى أشكال متعددة ومختلفة من التفاعلات الاجتماعية . وتؤدى بهم هذه التفاعلات الاجتماعية إلى بناء فكرة عن ذواتهم وعن الآخرين . ويتصرفون كأناس لهم دراية بما يحوم حولهم وينشطون كلما تعلق الامر بانجاز الحدود المادية والرمزية التى تفصلهم عما يسمونه آخر . ولكن وصولهم إلى بناء آخرية يعرفون من خلالها أنفسهم إنما يتم عبر التفاعل الاجتماعى . الانزواء والعزلة لا يخلقان صورة عن الذات ، والاكتفاء بالملامح الثقافية كملامح متأصلة وثابتة وجوهرية يعيق إلى حد بعيد فهما دقيقاً للذات وللآخر . يمارس الافراد إذن هويتهم ويتولون بناءها باتباع مسارات متعددة ولا يعنى هذا غياب عناصر ثقافية أو قيم تساهم فى هذا البناء. إن حضورها ليس ثابتاً وليس معطى غير قابل للحركة ، إذ فى تفعيل هذه العناصر الثقافية وشحنها كل مرة بمضامين مناسبة للوضعية وللسياق تكمن القدرة التفاعلية للفاعلين الاجتماعيين .

إن الظاهرة الإثنية بما هى شكل من أشكال التفاعل الاجتماعى لا تتناسب مع المقاربة الجوهرية لأن التفلعل الاجتماعى هو فى الوقت نفسه حركه مستمره

(85) Ibid. p 122.

(86) Ibid. p 135.

وسعى إستراتيجى وبحث عن دلالة وتلاؤم مع سياق وتكيف مع حدث وإنتاج لرموز ومفاوضة من أجل معنى وصراع حوله . وبما أن الظاهرة الاثنية شكل من أشكال التفاعل الاجتماعى فهذا يعنى أنها مسار متواصل من أجل التمييز بين الأنا والآخر لا يمكن إنجازه ولا يحقق جدواه إلا ضمن نسيج من العلاقات الاجتماعية ذات البعد التفاعلى .

يؤكد "فريدريك بارث" فى نظريته حول الحدود الإثنية أن ما نسميه مجموعات إثنية لا يستوى إلا حين نعرفها كوحدات تتحرك من أجل الإبقاء على حدودها. ويعنى تحركها للإبقاء على هذه الحدود ورعايتها أنها فى حالة تفاعل اجتماعى . فكلما تحركت المجموعة الإثنية من أجل هذه المهمة كان ذلك ضامنا لوجودها . ويصبح السؤال المهم متعلقاً بالشروط الاجتماعية المولدة لظهور الفوارق مع التغيرات الثقافية (٨٧).

تتشكل الهوية الإثنية وهى فى حالة إنجاز تقورها استراتيجيات الفاعلين ورهاناتهم. وتعنى حالة التشكل هذه تغير المضامين التى يلحقها الناس برموزهم وبمعيشهم الاجتماعى . فنقف كل مرة على تحوير فى دلالات الأشياء نابع من الاستعمالات المختلفة لهذة الأشياء وفق الوضعيات السياقات التى قدر الفاعلون أنها مناسبة لهم. فليس للأشياء طبيعة ثابتة بل لها على العكس استعمالات متعددة ومضامين متجددة .

يظهر تجدد المضامين فى ما تخفيه هوية السود فى واحات نفراوة مثلاً . فهل يمكن الحديث عن هوية جامدة لهذه المجموعة ترتكز أساسا على عناصر اللون

(87) Ibid, p 124.

والأصل والوضعية الاجتماعية المتردية وكأنها عناصر موروثة؟ أم أننا أمام حالات تعاقدية تفاوصية يسعى بمقتضاها السود إلى إعطاء معنى جديد لحدودهم الإثنية وبالتالى لهويتهم الإثنية؟؟

تجربتنا فى دراسة حول قرية واحية بنفراوة (٨٨) يعيش فيها البيض والسود دلت على أن هوية السود ، والشواشين إذا استعملنا العبارة المحلية ، بناء اجتماعى يتشكل تفاعليا مع الآخرين أى البيض .فأن تكون من الشواشين فى هذه القرية يختلف إلى حد كبير عما كان عليه "الشواشين" فيها سابقا . إن تغير الوضعية وبالتالى تغير النظرة والحدود يعود إلى أن هؤلاء "الشواشين" قد دخلوا الآن فئة مالكى غابات النخيل ولم يعد "الشوشان" إذا عرفناه هو ذلك الشخص الذى يتبع سيده ويقوم بكل الخدمات الزراعية فى الواحة وتتولى زوجته "الشوشانة" الإعتناء بكل طلبات المنزل. إن "الشوشان" داخل هذا السياق لاحق له فى الملكية وغياب هذاالحق أبدى لأن هؤلاء "الشواشين" جعلوا لخدمة "أسيادهم" من البيض ولأنهم سود فهذا مبرر كاف كى يتم إقصاؤهم عن مواقع الحياة الرئيسية . هذا شكل من الحدود الإثنية التى يرسمها الفاعلون لتعريف ذواتهم وتعريف الآخرين ولكن هذه الحدود ليست ثابتة ، وإنما تقع صياغتها وإعادة تشكيلها من جديد . فهولاء "الشواشين" تمكنوا من إعطاء تعريف مغاير لهويتهم يرتكز على دخولهم فئة المالكين لغابات النخيل. ولكن كيف تم بناء هذه الهوية المبتكرة؟؟

---

(٨٨) محمد جويلي : سود الواحات : دراسة سوسيو ـ أنتربولوجية في استراتيجيات المعني ، أطروحة دكتوراه في علم الاجتماع ، كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية ، تونس ، فيفري ٢٠٠٢ ، إشراف ، د. طاهر لبيب .

لقد انفتحت أمام "الشواشين" مجالات الهجرة منذ بداية السبعينات ومكنتهم هذه الظاهرة من مراكمة ثروة مناسبة لشراء النخيل فى القرية . واستغلوا تراجع اهتمام مالكيها الأصليين بها ليشتروا ما يرونه مناسبا لهم. ويتمثل تراجع الاهتمام بغابات النخيل من طرف البيض أولا فى توقف استمرارية العمل فى هذه الغابات ، فمن جهة شهدنا مغادرة الذين كانوا يعملون فى الغابات إلى بلدان الهجرة ومن جهة ثانية دخل أبناء المالكين من البيض إلى الوظائف الحكومية وغادرواالقرية إلى جهات مختلفة ومنها العاصمة فلم تعد ملكية غابات النخيل لوحدها مناسبة للإرتقاءالاجتماعى . هذا الفراغ استثمره "الشواشين" الذين هاجروا إلى فرنسا واقتنوا مزارع نخيل كانوا فيها خداما فى السابق فأصبحوا الآن أسيادها. شكل من الثأرالرمزى يريد "الشواشين" تحقيقه فى القرية ليثبتوا لأنفسهم وللآخرين أن مضمون تسمية "شوشان" قد تغيرت . وأن اللايقين الذى ميز هويتهم الإثنية قد غدا شعورا بالثقة والفخر . يذهب "الشواشين" إلى أبعد من هذا فى بناء هويتهم الجديدة إنهم يؤجرون عمالاً من جهات مجاورة للإشتغال فى غابات نخيلهم . ولكن المثير فى هذا أن هؤلاء الأجراء هم من البيض . وكأن "الشواشين" يريدون بذلك تذكير أنفسهم وخصوصاً البيض بأنهم أصبحوا الآن أسياد القرية.

لم يكن دخول "الشواشين" لفئة المالكين لغايات اقتصادية فقط إنما هم يبحثون عن الرموز وعن المعنى الذى يساعد على بناء تصورات مغايرة لما كانوا عليه فى السابق. وتكفى الإشارة إلى أن القيمة الرمزية لغابات النخيل المقتناه ليست واحدة إذ تأتى فى القمة عملية اقتناء لغابة كان شاريها أحد"الخماسة" ممن

تولوا زراعتها والاعتناء بها. هذا حدث مثير فى القرية لأنه يشكل خرقا مهما للحدود الإثنية التى بناها البيض بل أنه المستوى الأكثر إهانة من الناحية الرمزية لمن يعتقد بأن الحدود الإثنية حدود أزلية لا تتغير.

إن البناء الرمزى للحدود الإثنية فى هذه القرية هو بناء تفاعلى يخضع لرؤية الفاعلين ولتعاملهم مع الوضعيات والسياقات المختلفة. ولذلك يميز " الشواشين" بين مكونات فئة المالكين فلا تشابه بين من اشترى غابة نخيل كان فيها"خماسا" وبين من امتلك غابة نخيل هبة من الدولة . بين الإثنين ثمة فوارق فى الأداء وفى رد الاعتبار وفى القدرة على المفاوضة لا من أجل امتلاك غابة النخيل فقط بل امتلاك الوضعية واكتساب القدرة على تعريفها.

لقد منح دخول "الشواشين" لفئة مالكى غابات النخيل مضمونا جديدا للواجهة التى يريدون بها تفاعلاتهم فى الفضاءات القروية المختلفة. وأعطى هذا الدخول شحنة مغايرة لمعنى أن تكون من "الشواشين" كهوية يقع توارثها . البعد التعاقدى خلافا للبعد الموروثى منتجا لعلاقات جديدة ورموز متجددة وحدود إثنية فى حالة تفاعل رمزى. والإبقاء على هذه الحدود الإثنية ورعايتها إنما بتأتيات من تحريك هذه الحدود والسعى إلى إعادة تشكيلها كل مرة وابتكارها بطريقة يتخلص بها "الشواشين" من أسر مرجعية لطالما أرهقتهم هى الهوية المبنية على عناصر اللون والأصل والماضى. وهى غير قابلة فى نظرهم لأن تبقى ثابتة ودائمة كما يريدهاالآخرون ... الظاهرة الإثنية فى هذه الحالة جاهزة لأن تكون ظاهرة تفاوضية باستمرار...

٤ - البناء الاجتماعي للإثنيات

ليست الظاهرة الإثنية معطى اجتماعيا إنها على العكس بناء اجتماعي . والفارق بين المعطى والبناء هو أن الأول ثابت في حين أن الثاني متحرك وتكفي الإشارة هنا إلى مجموعات المهاجرين في الدول الغربية أو غيرها . فبمجرد وصول المهاجر إلى بلد الاستقبال تنفتح أمامه أشكال لا حصر لها لتعطيه هويته الجديدة. وتبدأ الحدود الإثنية بالتشكل عبر مسارات اجتماعية ورمزية متعددة . وتدخل في بناء هذه الإثنية الجديدة مفاهيم الاندماج والاستيعاب والتكاتف وغيرها .

لقد برزت الظاهرة الإثنية كبناء اجتماعي مع مدرسة "شيكاغو" السوسيولوجية في دراساتها حول العلاقات الإثنية التي تشكلت بتوافد المهاجرين على المجتمع الأمريكي . واتجهت اهتمامات هذه المدرسة السويولوجية إلى بحث الأشكال التي توفر لهذا المجتمع توازنا يستوعب به التنوّع الإثني وخلقاته.

اقترح "بارك"Park وهو أحد علامات السوسيولوجيا الحضرية الأمريكية دورة للعلاقات الإثنية متركبة من أربعة عناصر(٨٩) هي:

- التنافس
- التكيّف
- الصراع
- الإستيعاب

وتعني هذه العناصر، وهي مترابطة، الكيفيةالتي يؤسس بها الأفراد علاقاتهم الاجتماعية اعتمادا على اختلافاتهم الإثنية.

● **التنافس :** هو الشكل الأولي للتفاعل ولكنه تفاعل دون اتصال اجتماعي. ويتأسس هذا التنافس من غير أن تكون بين الأفراد علاقات

(89) Alain COULON, L'école de chicago, que saisje, P.U.F, 1994, p 37

اجتماعية. ولكنّه بالمقابل منفذا لتوزيع العمل وتأسيسا لقاعدة اقتصادية مميزة لكل مجموعة. ويسمح هذا التنافس بتشكيل علاقات ارتباط اقتصادية تبدأ ببلورة اتجاهات الأفراد نحو الصراع والتكيف والإستيعاب(٩٠).

- **الصراع :** ينشأ بين المجموعات والأفراد عندما يظهر لديهم هذا الوعى بأنهم متنافسون مع مجموعات أخرى. ويقترن هذا الصراع بحالة اندماج أكبر فى المجتمع فتظهر أشكال بين الأقليات ويبرز البُعد السياسى الذى يتدخل لتقوية شعور الأقلية بذاتها وباستعدادها للمواجهة(٩١).
- **الكيّف :** هو المجهود الذي يبذله الأفراد والمجموعات التى يواجهونها خلال مرحلتى التنافس والصراع. ويتولى التكيّف الإبقاء على وضعيات التنافس بين المجموعات أو الأقليات ولكنه يجلعها قابلة للإختلافات. ويقع تنظيم العلاقات الاجتماعية بين المجموعات بهدفس التنقيص من الصراعات ومراقبة التنافسات وضمان أمن الأفراد واستقرارهم(٩٢).
- **الاستيعاب:** هو وضعية تتغير معها أشكال العلاقات الاجتماعية السابقة ومضمونها. ويحدث خلال هذه المرحلة أن يقترب الأفراد أكثر من بعضهم البعض بالرغم من اختلافاتهم الكبيرة. ويحلّ الآخر محلّ الذات ويشترك الأفراد فى مسائل كانت تفرّقهم فى الماضى مثل

---

(90) Ibid, p 38.

(91) Ibid, p 38

(92) Ibid, p 39

الذاكرة والمواقف والمشاعر والتجارب الشخصية. إن الاستيعاب هو مسار يتولى خلاله الأفراد أو المجموعات أو الأقليات المشاركة في أداء وظائفهم كعناصر في مجتمع مع المحافظة على خصائصهم الثقافية(٩٣).

تمثيل هذه المراحل الأربع نموذجا لأهمّ النظريات الاستيعابية التي سادت طويلا في الولايات المتحدة الأمريكية. ولكن يفقد هذا النموذج إلى خلفية تاريخية وإلى رؤية ديناميكية لأنه يحصر العلاقات الإثنية في مجردّ تطوّر نحو الإندماج والتثاقف(٩٤) وحتى المحافظة على الخصوصيات التي يعتبرها هذا النموذج جزءا من عملية الاستيعاب لا تعدو أن تكون سوى خصوصيات إثنية بلا حركة أي أنها مجرّد خصوصيات وصفية أو إسنادية. وخلافا لهذه الرؤية الستاتيكية للعلاقات الإثنية ولوجود المهاجرين في مجتمع متعدّد الإثنيات والثقافات يقترح "ميشال فيفيوركا "Michel WIEVIORKA شكلا لبناء المجموعة الإثنية لذاتها ولعلاقاتها مع الآخرين ويأخذ نموذج المجموعات المهاجرة في فرنسا التي مرّت بثلاث مراحل حتى تدخل ضمن الفضاء الإثني الفرنسي(٩٥).

المرحلة الأولى:

هي مرحلة الصّحوة الإثنية مع نهاية الستينات من القرن الماضي والمقترنة ببدايات أزمة الدولة الأمة في أوروبا. وسعت المجموعات الإثنية المختلفة في هذه

---

(93) Ibid, p 40.

(94) William A. DOUGLASS et Stanford M. LYMAN, L'ethnie: structure, processus et saillance, in cahiers Internationaux de sociologie, volume, LXI, 1976, p 210.

(95) Michel WIEVIORKA, la democratic a l'epreuve, nationalisme, populisme, ethnicite. Editions la decouverte, Paris, 1993, pp 1 10-1 15.

المجتمعات إلى التعبير عن خصوصياتها الثقافية وبدأت فى البحث عن جذورها وتحركت من أجل إعلان خصوصياتها. وبدت الظاهرة الإثنية تأكيدا ثقافيا بالرغم من شحنتها الاجتماعية.

المرحلة الثانية:

بدأت هذه المرحلة مع الثمانينات من القرن الماضى واتّسمت بحضور مكثف للمهاجرين فى تأكيد الهوية الإثنية وهؤلاء المهاجرون هم أساسا قادمون إلي فرنسا بعد حصول مستعمراتها القديمة على استقلالها. وميزة هذه المرحلة أنها بدأت تشهد مسارات متعدّدة من الإقصاء والميز العنصرى وكُره الأجانب ضمن سياق اقتصادى مشحون بالبطالة وبأزمة اقتصادية عالمية وتوجه نحو تراجع الدولة عن مهامهَا التقليدية. لقد أصبح المهاجر فى هذه الظروف حاملا لصورة المنافس لأهالى البلد وجزءا من حالة التردّى العام. ومن هنا أصبح المهاجرون يدخلون شيئا فشيئا لما يُسمّى المجموعات الإثنية وبدأت وسائل الاتصال العام تستخدم المصطلحات الإثنية لتمييز تلك المجموعات الهاجرة عن بقية المجموعات الأخرى أو لوصف الفضاءات التى يرتادها المهارجون أو يستقرّون بها. وعلى النقيض من هذا المسار المتجه نحو نعت المهاجرين بأوصاف إثنية لم يكن ينظر للمهاجرين قبل هذه المرحلة إلا باعتبارهم عمّالا مهاجرين لا زالوا يحافظون بشكل واضح على اختلافاتهم الثقافية والاجتماعية ويندمجون فى سوق العمل ولا يشكلون مأزقا أمام الثقافة السائدة.

المرحلة الثالثة:

هى مرحلة بدأت تتضح فيها الرؤية للمجموعات المهاجرة وأخذت فكرة الدفاع عن الحدود الإثنية فى التبلور على كلّ المستويات. وظهرت مخاوف عديدة

لدى الأغلبية من أن المجتمع الفرنسى وثقافته يعيشان تهديدا مستمراً وخصوصا إذا اقترنت أشكال إثبات الهويات الإثنية بالبُعد الدينى. وتحركت المواقف المعادية للمجموعات الإثنية على أسس البحث عن الأمان والإستقرار وذلك بطرد من هم فى وضع غير قانونى وعزل البقيّة أو إخضاعها لقيم الثقافة السائدة أو إدماجها.

كليا فى المجتمع الفرنسى. وظهرت فى هذا السياق أو صاف عديدة تخصّ علاقات هذه المجموعات الإثنية بكل الفضاءات المستعملة كان توصف أحداث الشغب الحضرية بأنها أحداث شغب إثنية أو الأحياء التى يقطنها المهاجرون بأنها أحياء إثنية وهناك من الباحثين فى العلوم الاجتماعية من لا يتوانى عن استعمال مفهوم الفاعل الإثنى L'acteur ethnique .

لم يكن المهاجرون لمّاقدموا إلى فرنسا يشكلون مجموعات إثنية ولم يكون يُنظر إليهم كذلك. ولكن حين ظهرت الأزمات الاقتصادية والأجتماعية وتناقضت المعالم وتباينت الاستراتيجيات وتكاثرت الأزمات الحضرية وصعدت الخصوصيات الثقافية وقتها نُعت الأجانب والمهاجرون خصوصا بصفات إثنية وبرزت الظاهرة الإثنية كتشكيلة اجتماعية تصنع الهويّات وتدافع عنها.

لقد نظر لهذه الهويات الصاعدة فى علاقتها الجدالية مع المواطنة كتهديد مستمر لمبادئ الجمهورية ومنهامبدائك اللائكية واعتبرت المجموعات الإثنية فى الفضاءات الحضرية بالخصوص أكثر ترشيحا من غيرها لحمل هذا التهديد[٩٦]. ويكاد يكون هذا التهديد منحصرا فى المجموعات الإثنية ذات المرجعية الدينية الإسلامية.

(96) Christian RINAUDO, L'ethnicite dans la cite, jeux et enjeux de la catégorization ethnique, Editions l'Harmattan, 1999, pp 8-9.

خاتمة

لم يكن سهلا إعطاء تعريف للجماعة الإثنية وللظاهرة والإثنية. وتتواصل هذه الصعوبة إذا اخترنا المقاربة الديناميكية التى لا تكفى بالنظر للجماعة الإثنية كجملة معطيات وصفية إسنادية ثابتة وجوهرية. إن الجماعة الإثنية على العكس من ذلك بناء اجتماعى ما يستدعى البحث فى السياقات التى أفرزت هذه التشكيلة الاجتماعية. ولم تكن الجماعة الإثنية بناء أنتربولوجيا نشأ فى سياق استعمارى، إنها أيضا صياغة أو ابتكار ما قبل استعمارى ولكن بأدوات وخلفيات وظروف مغايرة. إلا أن المثير فى كلّ هذا هو انتقال المفهوم من مجتمعات سُمّيت "تقليدية" إلى مجتمعات صناعية وما بعد صناعية أنجزت هى الأخرى جماعاتها الإثنية. فبدأت بمجموعات المهاجرين الوافدة وأعطتها الصفات والنعوت الإثنية كلّ حسب أصوله ولغته وديانته ولونه وظروف قدومه . ولهذا يتميّز الأمريكين بين المجموعات الإثنية ذات الأصول الأوروبية والتى يسهل عليها الاندماج وبين الأقليّات العرقية كالسود والهنود الذين يصعب عليهم التلاؤم والتكيف مع القيم السائدة فى المجتمع.

ولم تكتف العلوم الاجتماعية برصد الظاهرة الإثنية كظاهرة مهاجرين بل تجاوزتها إلى البحث فى أشكال التضامن الناشئة فى هذه المجتمعات وبرزت الإثنيات الجديدة كطوائف عبدة المش ومجموعات الضغط الأقتصادية وجماعات الدفاع عن البيئة وغيرها والمشتغلة بمنطق مخالف عن إثنيات المهاجرين. ولكن ما يتميّز الظاهرة الإثنية فى المجتمعات الغربية أنها نتاج لحركة هذه المجتمعات وفى الوقت ذاتهنقيض لمبادئها الكبرى كالمواطنة واللائكية والفردانية والمساواة ما جيعل الظاهرة الإثنية رهانا ثقافيا ورهانا سياسيًا أيضا.

المراجع باللغة العربية

١- جاك بيرك، "فى مدلول القبيلة" بشمال إفريقيا، فى كتاب الأنتروبولوجيا والتاريخ (مؤلّف جماعى) دار توبقال للنشر، الدارالبيضاء المغرب ١٩٨٨.

٢- محمد نجيب بوطالب، سوسيولوجيا القبيلة فى المغرب العربى، نشر مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان،٢٠٠٢.

٣- عبد الله الحمودى، الإنقسامية والتراتب الاجتماعى والسلطة السياسية والقداسة، ملاحظات حول أطروحات كلينر، الأنتروبولوجيا والتاريخ (مؤلّف جماعى)، دار توبقال للنشر. الدار البيضاء، المغرب ١٩٨٦.

٤- محمد جويلى: سُود الواحات : دراسة سوسيو - أنتربولوجية فى استراتيجيات المعنى ، أطروحة دكتوره فى علم الاجتماع، كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية، تونس، فيفرى ٢٠٠٢، إشارف، د. طاهر لبيب.

المراجع باللغة الفرنسية

1- Jean Loup-AMSELLE, Article «ethnic», in Encyclopédia Universialis corpus 7.

2- Jean Loup AMSELLE, L'ethnicité comme volonté et comme representation, A propos des Peul du Wasolon, In Annales, Economie, Sociétiés civilisation, 42éme Année n°2 Mars-Avril 1987.

3- Jean -Loup AMSELLE, Logiques metisses, Anthropologie de l'identité en Afrique et ailleurs, Editions PAYOT, 1990.

4- Marc AUGE, ethnologue dans le metro, Paris, Editions Hachette, 1991.

5- Raymond ARON, La société americaine et sa sociologic, In cahiers Internationaux de sociologic, volume XXVI, 1959, reaparudanslescahiers, volume 101, 1996.

6- Fredrick BARTH, Les groupes ethniques etleurs frontieres, In theories de l'éthnicité.

7- Bertrand BADIE, Culture, identité, relations internationales, In Etudes Maghrébines, n°7, 1998.

8- Jean BAZIN, A chacun son Bambara, In au caeur de l'éthnie.

9- Philippe BATAILLE, La sociologic des mouvements sociaux et l'ethnicité, Une comparaison internationale, In Sociologies et sociétiés, volume XXIX n°2, automne, 1997.

10- Blumer, cite par T.K Oommen, In les relations entre race, ethnicité et classe, Revue Internationale des sciences sociales, n°139, Fevrier 1994.

11- Paul BRASS, Cite par POUTIGNAT et STREIFF-FERNART, In theories de l'éthinicité.

12- Christian BROMBERGER, Le match de footbal, ethnologic d'une passion partisane a marseille, Naples et Tunis, Paris, Maisan des sciences de l'homme, 1995.

13- Jhon CROWLEY, Ethnicité, Nation et contrat social, In theories du Nationalisme, Gil DELANNAI et P.A. TAGUIEFF (Dir), Editions KIME, 1991.

14- Alain COULON, L'école de chicago, que saisje, P.U.F, 1994.

15- Jean-François DORTIER, Les sciences humains, Panorama des connaissances, Editions sciences humains, Janvier 1998.

16- Jean-Pierre DOZON, Les Bété: une creation coloniale, In au coeur de l'éthnie, Sous la direction de Jean Loup AMSELLE et elikia M'BOKOLO, Editions la decouverte, Paris 1985.

17- DRUMMOND. L, cite par Philippe POUTIGNAT .
18- William A. DOUGLASS et Stanford M. LYMAN, L'ethnie: structure, processus et saillance, in cahiers Internationaux de sociologic, volume, LXI, 1976.
19- Clifford GEERTZ, savoir Iocal, savoir global, Editions PUF, 1986, Traduit de l'anglais par denise PAULME.
20- Mondher KILANI, Lignages et identité ethnique dans l'oasis de Gafsa, In IBLA, n°160, tome 50, 1987.
21- Guy NICOLAS, Fait « Ethnique » et usages du concept d'Ethnie », In Cahiers Internationaux de sociologic. Volume LIV 1973 .
22- T. KOOMMEN, Les relations entre races, ethnicite et classe, In Revue Internationale des sciences socilaes, n°139, Février 1994.
23- Philippe POUTIGNAT et Jocelyne STREIFF-FENART, Theories de L'ethnicite, Editions PUF, Paris 1995.
24- Jean POIRIER, Ethnologie regionale, In Encyclopédie de la pleiade, Editions Gallimard, 1972.
25- Christian RINAUDO, L'ethnicité dans la cite, jeux et enjeux de la catégorization ethnique, Editions l'Harmattan, 1999.
26- Taylor A.C, Article << ethnic >>, in Dictionnaire de l'Anthropologie et ltethnologie, Publié sous la direction de P. BONTE et M. IZARD, Editions, PUF 1991.
27- Alain TOURAINE, Le racisme aujourd'hui, In Racisme etmodernite, sous la direction de Michel WIEVIORKA, Editions la découverte, 1993.
28- Lucette VALENSI, La tour de Babel, groupes et relations ethniques au Moyen-orient et en Afrique du Nord, InAnnalesE.S.C, juillet-aout, 1986 n°4.
29- Lucette VALENSI, Presentation du numéro: les societesplurielles, In Annales E.S.C.1986,n°4.
30- MaxWEBER, Economieetsociete, Editions Plon, 1971 et Editions Pocket, 1995, Tome 2.
31- Michel WIEVIORKA, La sociologic sous tension, in cahiers Internationaux de sociologic, volume 101, 1996.
32- Michel WIEVIORKA, la democratic à l'épreuve, nationalisme, populisme, ethnicité, Editions la découverte, Paris, 1993.

حول إطار نظرى لمستقبل اللغات النيلية - الصحراوية فى دارفور

د. كمال محمد جار الله

مقدمة :

تحاول هذه الورقة استنباط إطار نظرى يمكن من خلاله استشراف مستقبل اللغات النيلية - الصحراوية فى دارفور استناداً على ميادين الدراسات المستقبلية للعلوم ، وذلك عبر دارسة وقائع وضع هذه اللغات فى الماضى والحاضر ومن ثم محاولة تبنى فرضيات تقضى إلى تصور مستقبل نظرى لهذا اللغات .

ولكى تحقق هذه الورقة ما ترمى إليه فإنها ستفرد حيزاً للموضوعات التالية :

١- الوضع اللغويّ فى دارفور وتصنيف لغاتها .

٢- اللغات النيلية - الحصراوية فى دارفور .

٣- اللغات النيلية - الحصراوية فى دارفور فى مواجهة اللغة العربية .

٤- مستقبل اللغات النيلية - الحصراوية فى دارفور .

الوضع اللغوى فى دارفور وتصنيف لغاتها :

تمثل دارفور منطقة تقليذية تاريخية لعدد من اللغات مثل لغة الفور ولغة المساليت ولغة الزغاوة ولغة الداجو وغيرها على الرغم من أن هناك حيويا لهذه اللغات تقل وتكثر خارج منطقة دارفور تمت بفعل الهجرات الفردية والجماعية .

(*) شعبة اللغات الإفريقية ـ مركز البحوث والدراسات الإفريقية ـ جامعة إفريقيا العالمية .

ومما يلاحظ أن بدارفور لغات حية استطاعت أن تصمد فى ظل صراع حضارى طويل مثل اللغات التى عرفت بحكم الجغرافيا والتاريخ ارتباطا بالمنطقة التى ذكرنا منها طائفة قبل قليل ، وعلى العكس من ذلك فإن هنالك لغات أخرى عجزت عن مواصلة مسيرتها عبر حقب التاريخ انقرضت لتفسح المجال للغات غيرها أكثر فاعلية للحياة ، وأقدر على العيش بين رصيد معتبر من اللغات المحلية واللهجات العربية المتنوعة ، منها اللغات التالية : البرتى والبرقد والبيقو والقيلى (الفونجورو) (١) .

إن الخريطة اللغوية لدارفور تكشف لنا أن هناك فصيلتين لغويتين رئيستين ، الأولى هى مجموعة اللغات الدارفوريةوتمثل اللغات التقليدية والتاريخية بالمنطقة، وهو تصنيف جغرافى فى المقام الأول . والثانية تشمل اللغة العربية بلهجاتها المختلفة (بنى هلبه وهبانية وماهرية ومعاليا...) هذا إلى جانب بعض لغات غرب ووسط إفريقيا كالفولانى والهوسا والمبا (لغة البرقو) وبعض لغات جنوب السودان كالدينكا .

كم عدد اللغات المتحدثة فى دارفور ؟ هذا السؤال حاول بعض الباحثين الإجابة عن . يرى ثوال (٢) أن هناك على الأقل ست عشرة لغة محلية غير العربيةتتحدث فى دارفور وقد أقرنها بنسبة المتحدثين بها كلغة أم (العربية ٥٥٪ والفور ٢١٪ والمساليت ٥ . ١٢٪ والزغاوة ٥٪ من مجمل سكان دافور) (٣).

والحق أن تلك النسب التى أوردها ثلوال فى دارسته إنما تعبر عن مرحلة سابقة فى حياة دارفور . تلك الفترة التى أقيمت فيها الدراسة ، أما الآن وقد مر على دراسته عقدان ونيف حدثت فيهما تحولات كبرى أهما المجاعة والجفاف

والتصحر الذى ضرب دول إفريقيا جنوب الصحراء ٨٣ - ١٩٨٥، بالإضافة إلى ظروف دارفور الخاصة بها منزحف صحراوى وحروب مستمرة إلى الآن وصراعات قبلية مزمنة كل تلك ساعد ويساعد فى الهجرة والتجهير القسرى نحو المدن الكبرى بالولاية كنيالا والفاشر الجنينة بالإضافة إلى هجرة متزايدة نحو كردفان ووسط السوادن والعاصمة وربما حركة لجوء إلى الدول المجاورة ، ولا شك أن لهذه أثره على الوضع الديمغرافى وبالتالى اللغوى بالولاية.

وفى دارسة لغوية يورد لنا يوسف الخليفة أبو بكر والأمين أو منقا [٤] أثنين من لغات دارفور المحلية ذات الأكثرية المتحدثة فى السودان ، وهما : الفور (٦٦٣٩١٣ متحدث) ، والمساليت (٤٠٦٣١٠ متحدث) ، وذلك ضمن ثلاث عشرة لغة سودانية محلية غير العربية تتميز بأكثرية المتحدثين بها كلغات أم ، وذلك بعد أن اهتديا بما قدمه سيد حامد حريز وهيرمان بل (١٩٧٥) [٥] ، ثم حولا نسبة المتحدثين وعددهم من تعداد سكان السودان عام ١٩٥٦م إلى تعداد ١٩٩٣م حسابياً . غير أن مثل هذ الطريقة النظرية تعوزها الدقة فهى إذا صلحت فى بناء تقدير حسابي يقرب من فهم الوضع اللغوى في السودان ارتكازا على معلومات تاريخية قديمة فإنها لا تستبطن خصوصية دارفور التى تناولناها قبل قليل .

وبما أن كثيراً من الدراسات اللغوية - الاجتماعية التى أجريت حول الأوضاع اللغوية فى السوادن أفضت إلى اكتساح اللغة العربية لمساحات واسعة كانت وقفا للغات سودانية محلية دون استثناء لمناطق القطر كافة - فإن تلك الظروف البيئية وغيرها فى ولاية دارفور والتى تمت الإشارة إليها تكون قد ساعدت فى زعزعة التوزيع التقليدى التاريخى للقبائل بالمنطقة ، وعليه يتوقع أن تكون العربية قد

كسبت أرضا جديدة خلال العقدين السابقين من القرن الماضى فى مقابل انحسار للغات الدارفورية وغيرها [٦] وستناول وضع اللغة العربية فى دارفور فى وضع متأخر ضمن هذه الورقة .

نستنتج مما سبق ذكره عن اللغات فى دارفور أن هذه المنطقة بها عدد قليل من اللغات إذا قارناها - مثلا - بجنوب السودان الذي يعتبر امتدادا جغرافيا لما يسمى بالحزام شبه الصحراوى للتفتت اللغوى المنطلق منفكرة ديفيد دالبى الذى يعتبر أكثر مناطق العالم من حيث التعقيد والتباين اللغوى ويتحدث فيه ٢/٣ من مجمل اللغات فى إفريقيا [٧] .

سنحاول ههنا أن نصنف لغات دارفور وفقا لتصنيف عالم اللغة الأمريكى جوزيف غرينبيرج للغات إفريقيا التى ضمنها فى كتابه «لغات إفريقيا» Language of Africa ، وهو تصنيف رائج فى بابه ويعتد بالعلاقة الوراثية. وقد رجعنا فى تناولنا لتصنيف لغات دارفور الإضافة إلى كتاب غرينبيرج - إلى عدد من الكتب والمقالات الخاصة باللغات والغويات الإفريقية والسودانية [٨] .

وكان نتاج ذلك أن وجدنا أن بدارفورلغات تنتمى لثلاث أسر من الأسر الأربع التى صنف بها غرينبيرج لغات إفريقيا (عدا الكويسانية) ، وهى :

١- أسرة اللغات الإفريقية والآسيوية .

٢- أسرة اللغات النيجر - كردفانية .

٣- أسرة اللغات النيلية - الحصراوية .

وبما أن للأسرة الأخيرة نصيب الأسد من اللغات بدارفور كما هو الحال نفسه بالنسبة للغات فى عموم السوادن (تقدر بحوالى ٧٠ ٪) فسوف يتم التركيز

عليها فى الموضوع التالى ضمن هذه الدراسة باعتبارها (الأسرة) قضية أساسية فيها (الدراسة) بينما سنشير إلى الأسرتين الأخريين إشارات غير متأنية .

تتمثل أسرة الإفريقية والآسيوية فى دارفور بثلاثة أفرع وهى [٩] .

١- السامى وتمثله العربية بلهجاتها المختلفة .

٢- التشادى وتمثله الهوسا .

٣- البربرى ، وتمثله الطارقية (التماشيك) [١٠] .

إما أسرة اللغات النيجر - كردفانية فتمثلها على الأقل فى دار فور لغة واحدة ، وهى اللغة الفولانية التى تندرج تحت فرع غرب الأطلسى ، وبذا تكون هذه الأسرة أقل الأسرة حضوراً فى دارفور .

٣- اللغات النيلية - الصحراوية فى دارفور :

تسجيل اللغات النيلية - الصحراوية حضوراً كبيراً فى دارفور بغرب السودان ، ووفقاً لتصنيف غرينبيرج الذى تبنيناه فى هذه الورقة فإن هذه الأسرة حظيت بتمثيل أربعة أفرع من ستة [١١] . وبالإمكان تفصيل ذلك فيما يلى :

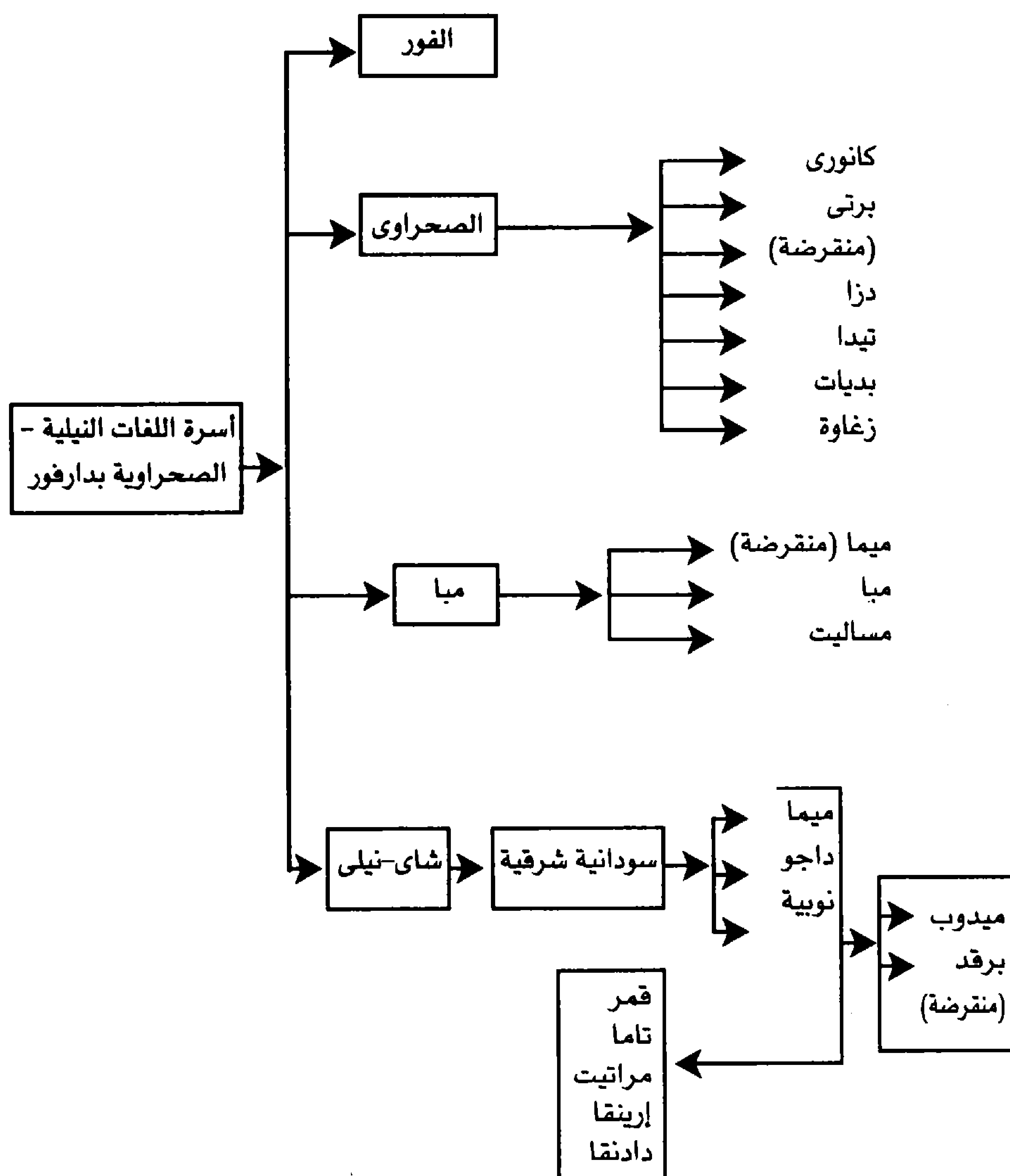
١- الفور ، وتمثله لغة الفور .

٢- الصحراوى وتمثله البرتى (منقرضة) والزغاوة والبديات والتيدا والدزا والكانورى .

٣- المبا ، وتمثله المساليت والمبا (لغة البرقو) والميما (منقرضة) .

٤- الشارى - نيلى ، وهو فرع تندرج تحته اللغات السودانية الشرقية التى تنفلق إلى التاما والداجو والنوبية لتنشطر التاما إلى التاما والمرايت والقمر والإرينقا والدادنقا . وتنشطر النوبية إلى الميدون والبرقد (منقرضة) .

وبما أنه ليس هناك إحصاءات علمية حول المتحدثين بهذه اللغات فى دارفور فإن هناك دارسة تدرج لغتين نيليتين - صحراويتين بدارفور وهما الفور والمساليت ضمن اللغات المحلية ذات الأكثرية المتحدثة فى السودان (١٢) . وقد نستشهد بهذه الجزئية مرارا وتكراراً .



شكل يوضح أسرة اللغات النيلية - الصحراوية فى دارفور

كيفما كان الحال ، وارتكازا على ما أجملنا سابقاً نستطيع أن نعرض اللغات النيليـة - الصـحراوية فى دارفـور فـى الشكل التـالى ثم نعلق على بعض مانلاحظه فيه :

إذا تمعنا الشكل السابق يمكننا زن نخرج بالملاحظات التالية :

١- تتمثل أسرة اللغات النيلية - الصحراوية على الأقل بأربعة أفرع فى دارفور وهى الفور والمبا والشارى - نيلى والصحراوى .

٢-أن فرع الشارى - نيلى يستأثر بأكبر عدد من اللغات فى دارفور (مجموعة اللغات السودانوية الشرقية) . وهذا الفرع على مستوى اللغات النيلية - الصحراوية يحتوى على معظم اللغات داخلها [١٣] .

٤- اللغات النيلية - الصحراوية فى دارفورفى مواجهة اللغة العربية :

يتحتم علينا قبل أن نضع العنوان أعلاه فى إطار التناول أو نفرد حيزاً لتاريخ اللغة العربية فى دارفور ووضعها ثم ندلف إلى وضع هذه اللغات ومن بعد ذلك نسعى إلى معالجة موضوع هذه اللغات فى مواجهة العربية .

من خلال ما توفر لنا من معلومات تاريخية يمكن أن نطمئن إلى أن العربية دخلت دارفور فى فترة مبكرة وذلك أنها كانت بجانب لغة الفور تمثل لغة البلاط بمملكةالفور [١٤] . ويفهم من هذا أن العربية سبقت قيام المكلة الحضور إلى المنطقة ، إذ يرجع تاريخ دخول العرب إلى دارفور إلى القرن الرابع عشر الميلادى، أما قبل ذلك فقد وفدوا إليها كأفراد لقصد التجارة أو الحماية. وتكون بتدفق العرب على دارفور قبائل البقارة فى الجنوب ورعاة الإبل فى الشمال [١٥] .

وقد كان هناك شبه اتفاق عند المؤرخين وغيرهم الذين تناولوا موضوع الجهات التى دخل منها العرب إلى دارفور . فقد ذكرت كل الاتجاهات عدا الجنوب . ونرى زن المحصلة النهائية لهذا الأمر يمكن إجمالها فى الآتى : وهى أنهم دخلوا إلى دارفور من الشمال والغرب والشرق ، ودخولهم من الشرق لم يكن بذى الأثر الجوهرى ، بينما دخولهم من الغرب كان لهم عظيم الأثر فى حياة الدارفوريين ، أما طريق الشمال فقد كان تغلب عليه التجارة .

مهما يكن من أمر فإن العرب دخلوا دارفور من جهات عدة يحملون معهم الدين الإسلامى والثقافة العربية الإسلامية واللغة العربية وأسبح للغة العربية فى دارفور شأن عظيم لارتباطها بالدين الإسلامى الذى وجد موطئ قدم فى البيئة التى كانت تنتشر فيها الوثنية .

ومما ساعد على انتشار العربية فى دارفور أسباب عديدة منها : بروز مدينة الفاشر العاصمة السياسية والدينيةوالاقتصادية التى غدت إذ ذلك تجتذب تحت رعاية السلاطين أعداد هائلة من العلماء من مصر والحجاز وغيرها ، ومن طلاب الدين والدينا ولا شك أن لهولاء دوراً مباشراً فى نشر الإسلام واللغة العربية(١٦). ومنها أيضاً نزوح كثير من القبائل العربية إليها للاحتماء بأراضيها الواسعة، وهذه القبائل ترجع إلى خلفيات مختلفة مما ساعد على تنوع اللهجات العربية فيها ، ومرد هذا النزوح أن هذه المنطقة لم تنشأ فيها ممالك فى قوة الممالك التى ظهرت فى شمال ووسط السودان ، إذ حالت الظروف دون قيام دويلات قوية، وهى بهذه الصفة تعتبر جنة فى حساب عرب البادية الدين ينفرون بطبعهم من أية سلطة مركزية (١٧) .

كيفما كان الحال فإن للغة العربية أقداما راسخة فى دارفور. وعلى الرغم من وجود كثير من القبائل العربية بالمنطقة إلا أنها تصنف لغويا بمنطقة للتداخل اللغوى لأنها أيضا تعج بالقبائل غير العربية (الدارفورية وغرب ووسط الإفريقية وغيرها) . وعندنا أن أنتشار العربية فى دارفور على مر الحقب على حساب لغات المجموعات القبلية التى دخلت الإسلام مرده إلى قوة وفعالية العامل الدينى وأثره فى نفوس أصحاب تلك اللغات ، وبهذا تختلف دارفور قليلا أو كثيرا عن مناطق التداخل اللغوى الأخرى فى السوادن كجنوب النيل الأزرق وجبال النوبة ، إذ قد يكون انتشار العربية مرتبطاً بأسباب أخرى ليس من بينها هذا العامل الذى يعد حاسماً وجوهرياً يتضافر مع عوامل أخرى .

هل لنا أن نسأل بعد هذا العرض المسهب عن ماهية وضع اللغة العربية فى دتوفور ؟

حاول عدد من الدراسات المتخصصةالإجابة عن سؤال ، حيث يرى ثلوال أنها تقوم بدور اللغة الوسيطة فى أنحاء ولاية دارفور (١٨) . وترى أنجيليكا ياكوبى أن العربية تستخدم لغة للتواص بين المجموعات متعددة الأغراق فى دارفور ، وأنها فى حالة تزايد مستمر لاستخدامها كلغة أم ، فالولدان يفضلان تعليم الأطفال العربية فى فترة مبكرة ليستفيدوا منها عندما يلتحقون بالمدارس ، ولتعود عليهم بالنفع عندما يلتحقون بحرفة التجارة . كما ترى ياكوبى أيضا أن تسارع انتشار اللغة العربية يبرز فى شرق وجنوب دارفور على نحو أخص، وقد أدى هذا إلى زن تكف كثير من القبائل عن التحدث بلغاتها الأصلية كالبرد قد والبرتى والميما والبيقو (١٩) . وأغلب الظن أن انتشار اللغة العربية على حساب

اللغات المحلية لا يتم بصورة معتمدة ، بل هو التحول الذى يحدث فى ظروف الأغلبية مع الأقلية أوسيطرة ثقافة على أخرى .

وفى دارسة أخرى لايستبعد دورنبوس أن العربية بعد أن أصبحت لغة التواصل ولغة التجارة التعليم أن تصبح اللغة الأم لأغلبية سكان دارفور بلا منازع [٢٠] وهو بذلك يحكم لها بمستقبل باهر انتشار وتمددا ويذهب جابر محمد جابر فى بحث له إلى أن الغالبية العظمى لسكان دارفور تتحدث لغة واحدة هى العربية حيث يتحدثها ٨٢ ٪ ، والعدد المتبقى يتحدث لغتين إحداهما العربية[٢١]. غير أنه لا يذكر لنا كيف تحصل على هذه النسبة .

أما دارسة هاشم محمد محمد صالح بمنطقة نيرتتى فتوضح بجلاء أن اللغة العربية تنتشر من خلال حركة تغير مستمرة فى الإوضاع اللغوية باتجاه الاستخدام المتزايد للغة العربية . ويتمثل هذا الانتشار فى سيطرة اللغة العربية الكاملة على مجالات التواصل بين الجماعات وفى الاستخدام المتزايد لها من قبل أطفال المجموعات العرقية غير العربية داخل البيت وتحول بعضهم نحو اتخاذها لغة أولى بدلا عن اللغة المحلية [٢٢]. وإذا علمنا أن نيرتتى إحدى قرى الفور المتيمزة - ولغة الفور تسند على إرث ثقافى وسياسى تلدين - لأدركنا أن اقتحام العربية لا يتمحور فى مناطق اللغات ذات الثقل الديمغرافى القليل فحسب وربما يتجاوز ذلك إلى واحدة من أكبر اللغات المحلية فى دارفور إن لم تكن أكبرها إطلاقا .

وإذا ولجنا دار الزغاوة (كنموذج للدارات القبلية الحصينة فى دارفور) نجد أن العربية سيدة الموقف فى هذه الدار وتتمتع بوضع خاص بحيث لا تنافسها لغة أخرى فى هذا الأمر حتى لغة الزغاوة نفسها ، لذا تظل العربية فى حالة تمدد ، بل

أكثر من ذلك بحيث يتوقع لها المزيد من الانتشار ، وربما يؤدى هذا إلى إنهاء دور لغة الزغاوة فى المنطقة كلغة للتواثل بين الزغاوة أنفسهم ، ومما يدل على ذلك أن هناك مناطق فى دار الزغاوة لا يتحدث أفرادها لغة الزغاوة وإنما يستخدمون العربية كلغة بديلة لها (٢٣) ويفهم من هذا أنه على الرغم مما عرف عن ازغاوة من تشبث بلغتهم وتراثهم لم يشفع لهم كل ذلك فى انسراب هذه اللغة من بين أيديهم وتبنى لغة أخرى تقوم لهم بدور التواصل مع الجامعات الأخرى وفيما بينهم أنفسهم .

وعليه يمكن القول إن دافور كجزء من السودان وكمنطقة للثنائية اللغوية تشهد تحولا من هيمنة اللغات المحلية إلي هيمنة اللغة العربية ، وهذه العملية توكد حقيقة تاريخية ثابتة وهى تقدم العربية حساب اللغات المحلية وفقا لكل المسوحات اللغوية - الاجتماعية التى تناولت رصد أنماط السلوك اللغوى فى السودان (٢٤) .

عرفنا من عرضنا السابق وضع اللغة العربية فى دارفور فماذا عن وضع اللغة المحلية فى دارفور خصوصاً اللغات النيلية - الصحراوية فى الحياة العامة ؟

عادة ما يعنى مصطلح الحياة العامة فى عزف علم اللغة الاجتماعى:

الإعلام والإدارة والمحاكم وماشابهها . والذى يمكن الإشارة إليه فى هذا هذا المجال - ابتداء - أن الحياة العامة فى دارفور وربما تكون هذه المنطقة ليست استثناء) تشهد سيطرة محكمة للغة العربية ، فلا مجال للغة محلية للاستخدام فى المحاكم والإدارة (٢٥) - أما الإعلام فكان يلجأ فيه للغات المحلية لا سيما

فى الإذاعة والتلفزيون المحليين فى حالات خاصة وعلى نطاق ضيق جدا مثل حدوث مشكلة قبلية أو إشكال أمنى [٢٦] ويلاحظ ههنا أن الاستعانة باللغات المحلية طابعها توظيف هذه اللغات وفقا للإدارة السياسية . ومن أمثلة اللغات التى كان يلجا إليها لغة الفور والمساليت والزغاوة وذلك نسبة لما تمثله جمعيها من ثقل ديمغرافى .

وعلى ذلك يمكن الاستنباط بأن اللغات النيلية - الصحراوية كجزء من اللغات المتحدثة فى دارفور -لاتجد فرصا فى الحياة العامة لاسيما فى الإدارة والمحاكم ، بينما تجد فى الإعلام النذر اليسير. وكل هذا يشى بأن هذه اللغات ستفقد عنصر الاستمرارية تدريجا . وأغلب الظن أن المرحلة الحالية التى تمثل حالة كمونها داخل البيت فى أحسن الأحوال- كما أسلفنا الذكر - وتتحدثها فئة عمرية محددة تمهيد لتوقف التحدث بها نهائياً .

لنرجع الآن إلى الموضوع الذى تصدرنا به هذا الجزء من هذه الدراسة وهو وضع اللغات النيلية -الصحراوية فى مواجهة اللغة العربية .

نستطيع أن نجمل القول بأن اللغة العربية ظلت فى مواجهة مستمرة مع اللغات المحلية فى السوادن، وذلك منذ دخول العرب بلغتهم إليه . وقد استطاعت العربية بعد طول صراع أن تدحر عددا منها . وقد استطاع البعض الآخر من هذه اللغات أن يتهادن معها مهادنة مؤقتة ينتظر دوره فى سلم الانقراض التدريجى . وكان هذا أيضا حال اللغات النيلية - الصحراوية فى السودان مع مختلاف النسب .

وإذا انتقلنا إلى اللغات النيلية الصحراوية فى دارفور سنجد أنها ظبت فى مواجهة غير متكافلة فى العربية إذ استطاعت العربية مدعومة بأسباب لا علاقة

لها باللغة نفسها ، وأسباب وراءها الاقتصاد والسياسة والبيئة والأيديولوجيا وغير ذلك ، استطاعت أن تحجم دور تلك اللغات تمهيداً لاجتثاثها والقضاء عليها. ومن هذه الأسباب ما يلي :

أولاً : الجفاف والتحصر والزحف الصحراوى : وهى كوارث بيئية ضربت دارفور لاسيما فى الثلاثة عقود الأخيرة من القرن الماضى مما أدى إلى حركة نزوح وزحف من المناطق الأصلية التى سكنتها القبائل الدارفورية عبر حقب التاريخ والتى كانت توفر بيئة متجانسة لها تجد فيها اللغة المحلية مساحة واسعة للتحديث بها . فأصبحت المناطق الأصلية بفعل هذه الكوارث تفقد قاطنيها تدريجيا ليتمركزا حول المدن الكبرى بالولاية كالفاشر ونيالا والجنين أو ليبدأوا رحلة شاقة تجاه العاصمة القومية .

ثانياً: ظاهرة نشأة المدن وتوسعها : وهذه الظاهرة كانت إفرازا لازم كوارث الجفاف والتصحر والحرب . إذ هناك توسع هائل للمدن بدارفور بل أخذت الأحياء الجديدة تتضاف إلى المدن بصورة متسارعة لايكاد يحكمها ضابط. وذلك أن هذه المدن أخذت تستقبل موجات كبيرة من النارحين الباحثين عن الخدمات والأمن بعد تخلخل الأوضاع الأمنية والاقتصادية فى البيئات الأصلية . وقد أدى هذا الحراك الديمغرافى إلى خلق وإضافة تركيبة سكانية ولغوية جديدةومعقدة فتريفت بذلك المدن الكبرى فى دارفور (٢٧) .

ثالثاً : نشؤ الأسواق ذات الطابع الشعبى : وهى أسواق تكتظ بتجمعات سكانية متزاحمة لقبائل مختلفة إثنيا وثقافيا ولغويا احتاجت للغة للتواصل فيها بينها بيعا وشراء وتواصلا .

رابعاً : التوسع فى التعليم بمستوياته المختلفة (الأساس والثانوى الجامعى الذى تم تعربيه موخراً) وقد ساعد فى معدل نشر العربية، إذ إنها لغة التدريس ولا يتعلم متعلم إلا بها .

خامساً : تأثير الآلة الإعلامية بوسائلها المختلفة (إذاعة وتلفزيون وصحف وأطباق فضائية) [٢٨] .

سادساً : انتقال المجتمع الدارفورى فى معاملاته المحلية الضيقة إلى آفاق أكثر انتفاحاً بمجتع المدينة وبالتالى بمجتمع السوادن القومى .

سابعاً : الحرب القائمة الآن فى دارفور وما تحمله من إفرازات تقلب الولاية رأسا على عقب .

نستنتج مما سبق ذكره من أسباب داعمة للغة العربية فى الانتشار والسيطرة على اللغات المحلية فى دارفور - زن اللغات النيلية - الصحراوية فى مواجهتها مع العربية تقود معركة خاسرة ، المنتصر فيها تسلح بكل عدة وعتاد والمنهزم فيها أعزل لايقوى على شئ إن المستقبل أمام العربية تسنده قوة دفع ذاتية لاتفتر، كما تنسنده سياسات لغوية تتبناها الدولة السودانية منذ عقود بصورة مباشرة وغير مباشرة [٢٩] . وعلى ضوء ما ذكرنا فهل يمكن وضع تصور نظرى لمستقبل اللغات النيلية - الصحراوية فى دارفور انطلاقا مما ت عرضه فى هذه الدراسة ؟

مستقبل اللغات النيلية - الصحراويةفى دارفور :

هل بالفعل يمكن تصور مستقبل للغات النيلية - الصحراوية فى دارفور على نحو علمى منطلقه دارسة هذه اللغات ماضيا وحاضراً ؟ أم أن هذا النوع من التصور ضرب من الفرضيات الوهمية ؟

الحق أن إدارج هذا النوع من الأسئلة التى يطلع للأجابة عنها بعض الدراسات اللغوية الاجتماعية - أصبح علماً تفسح له الدراسات المستقبلية ميادينها ومناهجا الخاصة وذلك بعد أن أصبحت لهذه الدراسات التى تعنى بالمستقبل مداخلها العلمية ومناهجها البحثية . وقد أخذت تعبر بأن المستقبل لا ينشأ من فراغ وإنما تتحدد معامله وتتبلور أشكاله من خلال قضايا الواقع ، ومن خلال بزوغ إشياء كانت الجنيهات لها موجودة فى أرض الواقع (٣٠).

وانطلاقا من هذا المفهوم الذى قدمناه ، واستنادا على ما تم تناوله من موضوعات تتصل بمتضى وواقع (حاضر) اللغات النيلية - الصحراوية فى دارفور يصبح بالإمكان استشراف مستشقبل هذه اللغات ولو على المستوى النظرى الجدلى .

إن أول ما يقال فى هذا المضمار هو أن مستقبل اللغات النيلية - الصحراوية فى دارفور يختصر فى ثلاث لغات هى الفور والمساليت الزغاوة (٣١)، وهى لغات يتوقع لها أن تستمر متحدثة لأطول فترة ممكنة للغات محلية فى دارفور وذلك تم تحديده لاعتبارات منها أنها :

١- تكاد تكون متحدثة فى جميع إنحاء دارفور ولاسيما فى المدن الرئيسة .

٢- تمثل الثقل الديمغرافى الذى يسمح لها بالتوظيف فى مجالات عديدة .

٣- بعض أصحاب هذه اللغات ذوو تطلعات سياسية ، مما حدا بالاهتمام بلغاتهم ومحاولاتهم الجادة لخاق أبجديات لها مثلاً .

٤- ضمنها لغتان هما : الفور والمساليت تعدات ضمن أكثر ١٣ لغة محلية غير العربية تمثل اللغات الكبرى المتحدثة فى السودان .

مما يجدر التطرق إليه هو أن فهمنا لمستقبل هذه اللغات يمكن تصوره نظرياً واستشرافه جنينياً من خلال محددات أسياسية لعل أهمها :

أولاً : يمكن فهم المستقبل لهذه اللغات من خلال السياق العام لأنماط الاستخدام اللغوى فى السودان على جهة العموم ، وهو أن اللغات المحلية تشهد ترجعاً كبيراً وانحساراً متسارعاً عن مواقع استخدامها فى مقابل تقدم كاسح مهيمن للغة العربية ، والدارفور (على الأخص فى شرقها وجنوبها) خصوصة فى هذا المجال تتميز بها مناطق الثنائية اللغوية والتداخل اللغوى فى كونها أكثرها تقبلا للثقافة العربية الإسلامية التى تتجلى مظاهرها فى انتشار الخلاوى وهى خصوصية يسندها العامل الدينى .

ثانياً : يمكهن فهم المستقبل لهذه اللغات من خلال السياسات اللغوية التى ظلت تتبع فى السودان لاسيما فى الخمسة عقود الأخيرة من القرن الماضى . ولا يخفى ما تقوم به السياسات اللغوية فى تحديد مستقبل اللغات . والذى يلاح عليها فى السودانَ أنها ماتزال تلعب دوراً مباشراً فى دعم العربية ، والذى يتبدع فى قصر هذه السياسات فى أطر التنظير وعدم إنزالها إليها إلى أرض الواقع ركوناً إلى ضعف التنفيذ وضآلة الإمكانات ، فقط حبيسة الدساتير المتتالية والاتفاقيات المتعاقبة (ولاشك أن العربية استفادت وتستفيد من هذا الوضع المتفرد) .

ثالثاً : يمكن فهم المستقبل لهذه اللغات من عدم وجود فرص لها - وقد يكون هذا أحد إفرازات السياسات اللغوية المتبعة - فى الحياة العامة مثل الإعلام والإدارة والمحاكم وكذلك التعليم . بل إن الاتصال البينى (بين القبيلة الواحدة بلغتها المحلية) قد تراجع فى أحسن الأحوال إليالاستخدام لها بالمنزل

ناهيك عن الاتصال البين - قلبى (بين القبائل المتعددة بلغة محلية) . وهذا يشير إلى عدم وجود لغة تواصلية أو مشتركة من بين هذه اللغات غير ما ذكرنا من قبل من أن لغة الفور تتحدثها قبيلتان غير الفور ، هما الداجو والسنير واللتان تقطنان بوادى كاجا ووادى أزوم ، وقد كان هذا مرده التزاوج بين القبيلتين مع الفور (٣٢) . وغير ما ذكرنا فى أطروحاتنا عن مدينة الفاشر حيث أن بعض أفراد القبائل فى دارفور تتحدث بلغة أو لغات غيرها (٣٣). ومن المعلوم بالضرورة أن اللغة متى ما أنسحبت من أداء وظيفتها فى الحياة العامة كان ذلك أوعى إلى انحسارها .

رابعاً : يمكن فهم المستقبل لهذه اللغات من خلال حقيقة تاريخية ثابتة وهى أن عدد هذ اللغات فى تناقص مستمر إذ انقرض عدد معتبر منها كالبرتى والقمر والميما والبيقو والبرقد فى القرن الماضى . وجميعاً بالتالى يعكس استعراباً كاملاً أو شبه كامل ، وآية ذلك أن - مبلغ علمنا - فيها أكبر معدل للانقراض العام للغات السودانية المحلية .

بقى أن نقول إن التصورالنظرى لمستقبل اللغات النيلية - الصحراوية فى دارفور يمكن تلمسه من خلال تلك الأسباب التى ذكرناها مجملة ، وهو تصوريعكس إنزواء كاملا لهذه اللغات يقابلة انداياح كامل للغة العربية فى السودان عبر حقب من الزمن قد لا تكون بعيدة .

خـاتمـة

نلخص مما سبق تناوله فى هذه الدراسة حول اللغات النيلية - الصحراوية فى دارفور أنه يتحتم علينا نظريا - إذا استمرت الأوضاع على ما هو عليه الحال - إسقاط كل تصور مستقبلى لاستمرار حيوية هذه اللغات فى الإستخدام والتواصل فى ظل هيمنة اللغة العربية وسيطرتها وإغلاق كل نافذة أمام هذه اللغات. كما يستبعد كل تصور لوجدة ثنائية لغويةتتعايش فيها هذه اللغات مع اللغة العربية، وهى الحالة الراهنة التى عليها ما تبقى من هذه اللغات التى يستخدمها الناس فى نطاق ضيق أغلبه داخل المنزل ، ويستخدمون اللغة العربية فى المجالات الرسمية وغير الرسمية . وفى رأينا أن هذه الحالة انتقالية لن تصمد بأية حال من الأحوال أمام اندفاعية العربية .

كما نخلص إلى ما خلص أحد الباحثين من قبلنا حين ذهب إلى أنه فى إطار عملية السريان التاريخى المتسارع للغة العربية والمدعوم اقتصاديا وسياسيا وأيدولوجيا ، يضحى الحديث عن تطوير اللغات المحلية فى السودان والمحافظة عليها وحمايتها من الأندثار ضربا من ضروب التفاؤل (٣٤) ويصدق هذا مع توالد الظروف المساعدة لهيمنة العربية وتجددها - على جميع اللغات المحلية فى السودان بما فيها اللغات قيد الدراسة .

الهوامش والاحالات المرجعية

1- See : Doornbos , P. (1984) : "Language use in Western Sudan' . a paper presented to Ist International Lunguistics Conference (13-16 Oct) Khartoum I.A.A.S., University of Khartoum , P.(1)

2- See : Thelwall , R.S.(1978) : Aspects of Language in the Sudan . Cleraine The New University of Ulster , P.p. (8 - 9).

٣- أنظر : ثيوبولد ، أ. ب. (١٩٩١) : على ينار آخر سلاطين دارفور ، ترجمة : صديق إبراهيم (نسخة مكتوبة باليد ومصورة) ، ص (٣١) .

4- See : Abu - Bakr , Y.A. and A. Abu - Manga (1997) : "Language Situation and Planning in the Sudan ", a paper presented to the Intergovernmental Conference and Language Policies in Africa (17 - 21 March) Ilarare, Zimbabwe , P. (3).

5- See : Hurreiz , S.H. and H. Bell (1975) (eds) : Directions in Sudanese Linguistics and Folklore , Sudanese Studies Library , No (4) I.A.A.A., Khartoum , Khartoum University Press .

٦- انظر : مثلا هاشم محمدمحمد صالح (١٩٨٧) : الأوضاع اللغوية في نيرتتي ، دارسةفي التحول اللغوى - الاجتماعي ، رسالة ماجستير ، الدراسات الإفريقية والآسيوية ، جامعة الخرطوم ، وأنظر أيضاً : كمال محمد جاه اﷲ (٢٠٠١) : الأوضاع اللغوية في مدينة الفاشر دراسة في التحول اللغوى - الاجتماعي ، رسالة دكتوراه ، معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية ، جامعة الخرطوم .

٧- انظر : دالى د. (١٩٨٠) : « خريطة لغوية لإفريقيا » تاريخ إفريقيا العام ، المنهجية وعصرنا ما قبل التاريخ ، المجلد الأول ، إشراف : ج . زيربو (اليونسكو) ، تورينو (إيطاليا) : مطالع كانالى ، ص (٣٢٢) .

8- See : Bell , H. (1970) : Place Names in the Belly of Stones , Linguistic Monograph Series No (5) , Sudan Research Unit , Faculty of Arts , Uofk., Doornbos , P. (1984) :, Opcit , and Tucker , A.N. and M.A. Bryan (1956) : The Non - Bantu Languages of North - East Africa , London , O.U.P.

٩- يختفى من أسرة اللغات الإفريقية فرعام فى دارفور وهما الكوشى والمصرى القديم المنقرض أصلا.

١٠- يوجد بدارفور إعداد من الطوارق الملثمين الذى يسمون محلياً « بالكنين » . وقد استوطن بعض هؤلاء مدينة الفاشر وبعض القرى حولها . قدم الطوارق إلى دارفور فى مفتتح القرن العشرين هروباً من المستعمر الفرنسى .

١١- الفرعان لا تمثلهما لغة فى دارفور هما الكوما والسنغاى .

12- See : Abu - Bakr , Y.A. and A. Abu - Manga (1997) : , Opcit ,P.(3)

١٣- انظر : ج. (١٩٨٠) : « تصنيف لغات إفريقيا » تاريخ إفريقيا العام ، مرجع سابق ، ص (٣١٤) .

١٤- انظر : عبد الرحمن موسى أبكر (١٩٨٩) : «انتشار الإسلام واللغة العربية العربية فى دارفور» ، نقله إلى العربية : بشير عبد الواحد بشير ، دراسات إفريقية ، إصدار : مركز البحوث والترجمة ، جامعة إفريقيا العالمية ، العدد (٥) ، أكتوبر ، ص (١٣٦) .

١٥- انظر : موسى المبارك الحسن (١٩٧٠) : تاريخ دارفور السياسى (١٨٨٢) - (١٨٩٨) ، الخرطوم : أو الطباعة بجامعة الخرطوم ، ص (٢١) .

١٦- انظر : يوسف أحمد عبد البارى (١٩٩٣) : « الفاشر مدينة محورية» ، صحيفة دارفور الجديد ، تصدر عن ولاية دارفور ، العدد (٦٠) ، ص (٤) .

١٧- انظر : عبد الرحمن موسى أبكر (١٩٨٩) : ، مرجع سابق ،ص (١٣٣) .

18- See : Thlwall , R.S. (1978) :, Opcit , P. (9).

19- See : Jakobi , A. (1999) : "Current research on language of Darfur a paper presented to the Sudanese - German Conference on Sudan on Sudan studies with special reference to Darfur , Al - Fashir (6 - 8 Oct.) University of Al-Fashin ,P.(1)

20- See : Doornbos , P. (1984) , P.(1) .

٢١- انظر : جابر محمد جابر (٢٠٠٠) : التنوع الثقافى والتداخل اللغوى ، أم درمان : دار جامعة القران الكريم والنشر ، ص (٧٢) .

٢٢- انظر : هاشم محمد محمد صالح (١٩٨٧) : مرجع سابق .

٢٣- انظر : عصام عبد الله على (٢٠٠٤) : « الزغاوة : اللغةوالتاريخ » ، أوراق من منتدي مركز البحوث والدراسات الإفريقية ، المجموعة الأولى ، إصدارة رقم (٤٦) تحرير : كمال محمد جاه الله (د.ن) ، ص (١٠٧) .

٢٤- لق قمنا بعرض عدد من الدراسات التى تناول موضوع المسح اللغوى فى السودان ، انظر : كمال محمد جاه الله (٢٠٠١) مرجع سابق ، ص (١٢ - ٢٠).

٢٥- مقابلة مع الملك رحمة الله محمود ومعه شيخان كبيران بمكتبه المحكمة الشرعية بالفاشر بتاريخ ٢٧/١٠/١٩٩٩ م .

٢٦- استقى الباحث هذه المعلومات من زيارته لإذاعة وتلفزيون ولاية شمال دارفور بالفاشر ولقائه بالمسؤولين هما بتاريخ ٢٧/١٠/١٩٩٩م .

٢٧- يمكن تطبيق ما ذكرنا على مدينة الفاشر انظر : كمال محمد جاه الله (٢٠٠١) ، مرجع سابق ، ص (٦٤ - ٨٦) .

٢٨- أثناء زيارتنا لمدينة الفاشر فى مهمة بحثية رأينا أن بعض الجهات مثل الحدائق العامة تفرض فيها فى الغالب قنوات معينة كالجزيرة ، والـ MBC ، ونتوقع أن تكون قد أضيفت فيما بعد « العربية » لأسباب لانكاد نتحقق منها .

٢٩- انظر : كمال محمد جاه الله : « السياسات اللغوية فى السودان مع التركيز عليعهد حكومة الإنقذ الوطنى » ، غير منشورة .

٣٠- انظر : محمد بريس (٢٠٠٠) : دراسة المستقبل حديث حول المفهوم ، اتجاهات مستقبلية ، تصدر عن مركز دراسات المستقبل الإسلامى ، وإيران : قم ، العدد (٤) ، ص (١٤) .

٣١- لغة الزغاوة لم تذكر ضمن أكثر ١٣ لغة محلية ذات أكثرية متحذثة فى السودان ، ولكن دراستنا لمدينة الفاشر المشار إليها سابقاً ترى أن هذه اللغة معتبراً يحتاج إلى مزيد من الدراسة .

32- See : Thelwall , R.S. (1978) : , P.(9).

٣٣- أنظر : كمال محمد جاه الله (٢٠٠١) ، مرجع سابق ، ص (١٠٩ ١٢٢) .

٣٤- انظر : عشارى أحمد محمود (١٩٨٥) : » جدلية الوحدة والتشتت فى قضايا اللغة الواحدة الوطنية فى السودان « المجلة العربية للدراسات اللغوية، إصدار :معهد الخرطوم الدولى للغة العربية ، العدد الأول المجلد الرابع ، أغسطس ، ص (١٢٢ - ١٢٣) .

الحقيقة والمجاز في لغة الهوسا

دكتور/ صبري إبراهيم على سلامة (*)

مقدمة:

لغة الهوسا واحدة من أوسع وأكبر اللغات الأفريقية انتشاراً ، وهي إحدى لغات الفرع التشادي الذي ينتمي إلى أسرة اللغات الأفروأسيوية.(١)

وهذه اللغة في الحقيقة تجمع بين عدة ظواهر لغوية ومتنوعة تميزها ، الأمر الذي يجعلنا نقول إن هذه الظواهر تمثل القواعد والأعمدة الأساسية التي تقوم عليها هذه اللغة . لأنه بدون واحدٍ منها تهتز دعائمها ، فهي كل متكامل لا يتجزأ ، ولا يمكن لأحد من متعلمي هذه اللغة أو دارسيها أن يغفل هذه الدعائم.

والظواهر التي تمثل هذه الدعائم في لغة الهوسا خمس ، هي:

١ - المجاز. ٢ - التراكيب.

٣ - النبر. ٤ - النغمة Tone .

٥- طبيعة الحرف المتحرك "ما بين كونه حركة طويلة أم قصيرة".

وإننا في هذا البحث سوف نتناول ظاهرة "المجاز" باعتبارها أحد هذه الظواهر الخمس الأساسية.

(*) أستاذ مساعد لغة الهوسا وآدابها - معهد البحوث والدراسات الأفريقية -جامعة القاهرة

(١) أحمد عوض - تصنيف اللغات الأفريقية - المجلد الثالث - معهد البحوث والدراسات الأفريقية - جامعة القاهرة ١٩٩٧م .

ولكن هناك إشكالية تواجه المقبل على عمل مثل هذه الدراسة في أية لغة من اللغات ، وهذه الإشكالية تحددها عدة استفسارات ، أهمها : أهذه الدراسة تعد دراسة لغوية ؟ أم دراسة أدبية ؟ أم ماذا ؟ . وفي الحقيقة وللإجابة عن هذه الاستفسارات أرى أن ظاهرة المجاز في واقعها ظاهرة بلاغية ، وهي امتداد أو أحد مشتملات علوم اللغة ، والبلاغة تظلل اللغة بأكملها وترتبط ارتباطاً مباشراً بالمعنى ومعنى المعنى. ولافرق هنا بين النص الأدبي والنصوص اللغوية الأخرى. ويمكن للباحث تناولها من خلال مواد لغوية مختلفة ، لأنها بالفعل متناثرة في اللغة ، فنراها تارة في النص النثري البحت وأعني بالنص النثري المقال والخبر وما إلى ذلك ، ونراها تارة أخرى في النص الشعري ، وكلها لغة ، كما نراها أيضاً في الاستعمال اللغوي الدارج.

وبالتالي فإن الباحث حينما يقدم هذه الدراسة فإنما يتناولها من حيث التفريق أولاً بين المعنى الحقيقي والمجازي ، والعلاقة التي تربط بين المعنيين ثم يوضح الكلمات والعبارات التي تطورت عن الاستعمال الحقيقي إلى المجازي _ في بادئ الأمر _ ثم أصبحت تستعمل استعمالاً اصطلاحياً لما أطلقت عليه.

وقبل الحديث عن المجاز في الهوسا ، نشير أولاً وفي إيجاز إلى اللغة باعتبارها الوعاء الأكبر الذي يحتوي كل هذه الظواهر ، وكذلك إلى "الكلام" باعتباره القناة التفسيرية لهذه اللغة.

حول مفهوم اللغة:

اللغة هي وسيلة الاتصال بين الشعوب ، وقد عرفها اللغوي العربي ابن جني (٣٩٢هـ) بقوله: "حد اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"(٢) .

---

(٢) محمود فهمي حجازي مدخل إلى علم اللغة دار الثقافة والنشر، القاهرة الطبعة الثانية ١٩٧٨، ص١٠.

ويعرفها "أنيس مزيحة" بأنها ظاهرة بسيكولوجية اجتماعية ثقافية مكتسبة، لا صفة بيولوجية ملازمة للفرد ، تتألف من مجموعة رموز صوتية لغوية اكتسبت عن طريق الاختبار معاني مقررة في الذهن".[٣] وقد يختلف الناس في مفهوم اللغة بحسب الزمان والمكان ، كما يختلفون في النظر فيها وإليها وفقاً لمواقعهم في المجتمع ودرجات اهتمامهم ، فمنهم من نظر إليها على وظيفتها في أنها أداة تعبير وتوصيل وتأثير ، بينما يقول آخرون وهم الأنثروبولوجيون بأنها: "ظاهرة اجتماعية ونمط من السلوك الواقعي الحي ، يفصح عن شخصية الإنسان وهويته ومعارفه وخبرته".[٤]

واللغة هي قدرة ذهنية مكتسبة يمثلها نسق يتكون من رموز اعتباطية منطوقة يتواصل بها أفراد مجتمع ما . وهذا التعريف يفصح عن أنه يتكون من ثلاثة أقسام يكمل بعضها بعضاً ، الأول أن اللغة قدرة ذهنية تكتسب ، والثاني أنها نسق يتكون من رموز منظومة تتراوح بين الصوت والجملة ، والثالث أنها ذات طبيعة اجتماعية.[٥]

ولم يفكر الإنسان في كلامه ، فقد انطلق في مزاولة هذه الحاجة "العملية الكلامية" كما انطلق في المشي والحركة والبحث عن الطعام ، غير أن هذا الإنسان قد بدأ في عصور مبكرة يفكر في الحقيقة اللغوية حيث بدأ يفكر في سائر مظاهر الحياة الإنسانية. وقد أدى تفكيره هذا إلى أن يقرر الحقائق ويعللها، ومن هنا نشأ التفكير اللغوي.[٦]

(٣) أنيس فريحة - اللهجات وأسلوب دراستها - دار الجيل - بيروت - الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م - ص ٣٧.

(٤) كمال محمد بشر - خاطرات مؤتلفات في اللغة والثقافة - دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة ١٩٩٥- ص ٢٥ .

(٥) روي سى هجمان - اللغة والحياة والطبيعة البشرية - ترجمة وتقديم دكتور داود حلمي أحمد السيد الطبعة الثانية سنة ٢٠٠٠م - عالم الكتب - القاهرة- ص١٥.

(٦) إبراهيم السَّمرائي - التطور اللغوي التاريخي - دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان - الطبعة الثالثة ١٩٨٣م - ص١٣.

ويعّرف اللغويون الكلام بأنه وسيلة التعبير الإنساني عن الأفكار وخوالج النفس عن طريق جهاز النطق لتوصيلها من مُرسل إلى متلقٍ في مجتمع ما وفقاً لنواميس اللغة التي يتفاهم بها أبناء ذلك المجتمع. وقد عرّف اللغويون الكلام أيضاً بأنه ما اجتمع فيه أمران ، هما : اللفظ والإفادة(٧) .

وبعد الحديث الموجز عن "اللغة والكلام " نتحدث هنا أيضاً وبإيجاز عن مفهوم "المجاز" كظاهرة لغوية.

حول مفهوم المجاز:

المجاز في واقع الأمر هو أحد مشتملات علم البيان الذي يعد هو الآخر ثالث علوم ثلاثة تتألف منها البلاغة العربية، هذان العلمان الآخران هما "علم المعاني"، و"علم البديع" فمن المباحث التي يتولى دراستها "علم البيان" ـ في رأي السكاكي وتلاميذه - هي التشبيه والمجاز [ومنه الاستعارة بالطبع ، والكناية ، أما العلمان الآخران "علم المعاني ، علم البديع" فيدرسان ظواهر أسلوبية أخرى .

وفي الحقيقة أن مثل هذا التفسير السابق ، وإن كان يتفق عليه البعض كالسكاكي والخطيب القزويني وغيرهم ، فإنه من جانب آخر يلقى اعتراضاً عليه من جانب البعض الآخر من المحدثين، ومنهم الدكتور شفيع السيد(*) فيقول : "علم البيان لا يقدم إحصاء بكل الاستعمالات المجازية والكنائية البعيدة عن الغموض ، كما لا يقدم معياراً منضبطاً تقاس به تلك الاستعمالات . ومرد إدراك تعقيد المعنى في الكناية هو التذوق المرهف لأساليب اللغة ، واستيعاب ذخائر أدبها ، والبصر بطرائقها في التعبير ، وهي أمور لا تتوقف على دراسة علم

(٧) محمد إبراهيم عبادة - الجملة العربية دراسة لغوية ونحوية - الإسكندرية - ١٩٨٨ م ص ١١ .

(*) الدكتور شفيع السيد - هو أستاذ البلاغة والنقد الأدبي بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة.

البيان. ومكمن الخطأ لدى الخطيب ومن سار على نهجه ، هو انطلاقهم من نظرة معيارية ، تلك النظرة التي صبغت دراستهم لعلوم البلاغة بأسرها ، وبمقتضاها تكون وظيفة علم البيان تقديم قواعد معينة يجب أو ينبغي الالتزام بها عند صوغ الكلام شعراً ونثراً ، ومثل هذه القواعد لا محل لها في الواقع ، فأساليب التشبيه والمجاز وليد عمل الخيال ومجال نشاطه ".(٨)

وعلم البيان كما يعرفه الخطيب القزويني هو :" علم يُعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه". ويقصد بهذا التعريف إيراد المعنى مرة بطريق التشبيه ، ومرة أخرى بطريق المجاز ، وثالثة بطريق الكناية . وهذا هو المراد بقوله "إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة"(٩) .

ويرى شفيع السيد أن علم البيان لا يجب أن تقتصر اختصاصاته فقط على دراسة التشبيه والمجاز والكناية، وإنما يجب أن تشمل الظواهر البلاغية الأخرى الموزعة بين علمي المعاني والبديع، فهي جميعاً ظواهر بيانية أيضاً . وبذلك تكون وظيفة علم البيان هي دراسة التعبير اللغوي الذي يؤدي المعنى أداءً غير مباشر ، وهذا التعبير يتنوع ما بين أسلوب التشبيه ، أسلوب المجاز ، وأسلوب الكناية. بل ويعتبر شفيع السيد الكناية في رأيه ضرباً من ضروب المجاز ، ولذلك يعود ليقصر وظيفة علم البيان في دراسة التعبير اللغوي المتنوع ما بين التشبيه ، وأسلوب المجاز فقط.(١٠) .

---

(٨) شفيع السيد - التعبير البياني رؤية بلاغية نقدية - دار الفكر العربي - الطبعة الثالثة ١٩٨٨م - القاهرة.

(٩) شفيع السيد - ص٢٠ بتصرف.

(١٠) شفيع السيد - ص٢٤ بتصرف.

وأن الأصل في كل لغة أن يوضع فيها اللفظ الواحد لمعنى واحد ، أي أن يكون بإزاء المعنى الواحد فيها لفظ واحد، ولكن ظروفاً تنشأ في اللغة تؤدي إلى تعدد الألفاظ لمعنى واحد، أو تعدد المعاني للفظ واحد(١١) .

ويعد التعبير المجازي في أي لغة إنسانية حية قسيماً مقابلاً لنوع آخر من التعبير، هو التعبير الحقيقي.

والحديث عن المجاز يقتضي أولاً الوقوف على معنى الحقيقة، لأن كلمة "المجاز" في معناها المعجمي، تعني الطريق الذي يؤدي من مكان إلى مكان، أو ذات الشئ الذي يجاز من موضعه إلى موضع آخر، فإذا وصفت كلمة ما من كلمات اللغة بأنها مجازاً، فدلالة ذلك أنها طريق ومعْبَر إلى معنى غير معناها الذي تدل عليه في الأصل، أو أن المتكلم جاز بها إلى معنى آخر. وأياً كان المراد بها فإن ذلك المعنى الذي تنقل منه الكلمة هو ما يعرف لدى البلاغيين باسم "الحقيقة"، والمعنى الذي تنقل إليه هو ما يعرف باسم "المجاز" ومن ثم يبدو الارتباط وثيقاً بين الكلمتين(١٢) .

وقد حاول بول هانل Pole Henle وهو باحث إنجليزي معاصر أن يضع أساساً للتفرقة بين الحقيقة والمجاز ، فذهب إلى أن المعنى الحقيقي هو ما تدل عليه الكلمة في سياقات أخرى ، وغالباً ما يكون هو المعنى المعجمي ، وأن المجاز هو معنى خاص تعتمد عليه الاستعارة وترتبط به (١٣) .

ويتصل المجاز بالاستعمال اللغوي اتصالاً مباشراً ، وأول ما وضع فيه عند العرب هو كتاب "مجاز القرآن" لأبي عبيدة الشهير بـ "علاّمة أهل البصرة" والذي

(١١) رمضان عبد التواب - فصول فى فقه العربية - ط ٣- القاهرة ١٩٩٤م - ص ٣٠٨ .

(١٢) المرجع السابق ص٠٠١ .

(١٣) محمود سليمان ياقوت - علم الجمال اللغوي (المعاني - البيان - البديع) - دار المعرفة الجامعية الإسكندرية - الجزء الأول ١٩٩٥م - ص ١٨٤ .

بدأ تأليف كتابه هذا في عام ١٨٨ هجرية، وعرض فيه لبعض الظواهر اللغوية التي تطبع الأسلوب القرآني العظيم.(١٤) ويربط علماء اللغة المحدثون ظاهرة المجاز بظاهرة التطور الدلالي التي تعد حلقة من حلقات التطور اللغوي بعامة.(١٥) فاللغة في رأيهم في حركة دائبة وليست كماً هامداً أو ساكناً ولهذا تكون عرضة للتغير والتطور في كل عناصرها من الأصوات ، والمفردات والتراكيب والدلالات وتتفاوت نسبة التطور في هذه العناصر سرعة وبطئاً من لغة إلى لغة تبعاً للظروف الثقافية والاجتماعية لكل منها ، بل تتفاوت نسبة التطور بين هذه العناصر نفسها داخل اللغة الواحدة ، ومن فترة زمنية إلى أخرى ، والمهم أن جزءاً من التغير الذي يطرأ على دلالات بعض الكلمات هو ما نسميه مجازاً ، وهكذا يكون المجاز ضرباً من التطور في الدلالة عند هؤلاء اللغويين.

ويقول مصطفى الجويني* : " يقع المجاز حين تتطور اللفظة من معناها الوضعي اللغوي الأول إلى معنى اصطلاحي جديد". والمجاز يعني عنده "التوسع في التعبير" وهذا التوسع يستهدف - كما قال - الإثارة الجمالية (١٦).

ويقول أحمد سليمان ياقوت (**) بأن المجاز نهر واسع ضارب بجداوله وروافده في كثير من العلوم كالبلاغة والأدب والنحو وفقه اللغة وعلم المعاجم وعلم التفسير، وفي فنون المنطق والجدل(١٧) .

---

(١٤) شفيع السيد - مرجع سابق ص ١٠٤ .

(١٥) مصطفى الصاوي الجويني - البلاغة العربية تأصيل وتجديد- منشأة المعارف الإسكندرية - ص١٠٣.

(*) هو : مصطفى الصاوي الجويني - أستاذ البلاغة والنقد الأدبي - كلية البنات - جامعة عين شمس.

(١٦) السيد أحمد الهاشمي - جوهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع - دار ابن خلدون - الإسكندرية - ص٢٣١.

(**) أحمد سليمان ياقوت هو أستاذ الدراسات اللغوية بجامعة الإسكندرية ، وكان عميداً لكلية الآداب - بجامعة بيروت العربية .

(١٧) أحمد سليمان ياقوت - علم الجمال اللغوي - ص١٨٩-١٩١ .

وكما يقع المجاز في النص النثري ، نراه أيضاً في الشعر ، وكذلك مثلما تظهر الصورة المجازية المفردة ، تظهر أيضاً الصورة المجازية المركبة.

أنواع المجاز:

ينقسم المجاز إلى أربعة أنواع ، هي:

١- التشبيه :

يكشف أسلوب التشبيه عند تأمله عن دلالتين اثنتين ، إحداهما المقارنة والأخرى الوصف غير المباشر ، والثانية ناشئة عن الأولى ومرتبطة بها وهذه المقارنة لا تهدف إلى تفضيل أحد الشيئين على الآخر ، وإنما وصف أحدهما بما اتصف به الآخر (١٨) .

وتكون العلاقة فيه بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي علاقة مشابهة مع ذكر ركني التشبيه "المشبه والمشبه به" مع وجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي ، وهي قرينة معنوية ، مثل محمد كالأسد.

٢- الكناية:

وهي نمط من التعبير يؤدي المعنى أداء غير مباشر لعلاقة بين المعنى الأصلي والمعنى المراد. وهذه العلاقة هي علاقة اللزوم فالمتكلم فيها يريد إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن يجيئ إلى معنى آخر يلزمه فيومئ به إليه ، ويجعله دليلاً عليه ، كما في قوله تعالي" ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً " . فليس المراد من عض الظالم على يديه هو تلك الحركة المادية التي تتمثل في وضع اليدين بين الأسنان . وإنما

---

(١٨) شفيع السيد - مرجع سابق ، ص ٣٢ .

هو الإحساس بالندم والتحسر على ما فات ، ومنه أيضاً "فلان كثير الطهي" وهذا يستلزم أنه كريماً.

٣- الاستعارة:

وهي أشهر صور المجاز وأوسعها آفاقاً وأكثرها حاجة إلى البحث والدراسة ، والعلاقة فيها بين المعنى الأول للكلمة ومعناها الثاني هي المشابهة ، وذلك كما في قوله تعالى : "أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها". وهنا ليس المراد بكلمة "ميت" الشخص الذي مات ، وإنما المراد هو " الإنسان الذي ضل في عقيدته" . وكذلك كلمتا "نوراً والظلمات" فكلتاهما نقلت من معناها الحسي لتدل على معنى آخر يشبهه.

٤- المجاز المرسل:

وهو ذلك النوع الذي يقوم الارتباط فيه بين المعنى الأول للكلمة ومعناها الثاني على ملابسة من نوع ما ، غير علاقتي اللزوم والمشابهة ، والارتباط بين المعنيين على هذا النحو من التعميم يفسح المجال لاستيعاب عدد كبير من العلاقات تصل إلى ما يقرب من عشرين علاقة ، منها:

١- تسمية الشيء باسم الغاية التي يصير إليها ، وهذا على نحو تسميتهم "العنب" بـ "الخمر" لما كان يصير إليها ، و"العقد" بـ "النكاح" لما هو موصلاً إليه.

٢- تسمية الشيء بما يشابهه ، نحو تسميتهم "المرض الشديد" بـ "الموت".

٣- تسميتهم "اليد" بـ "القدرة" كقوله تعالى "يَدُ الله فوق أيديهم"(***).

٤- تسميتهم "الشيء" باسم "قابله" ، حيث قالوا "سال الوادي" والحقيقة "سال ماء الوادي".

٥- تسميتهم "الشيء" باسم "ما يكون ملابساً له" كتسميتهم "المطر" بـ "السماء" فقالوا "جادتنا السماء" لما كان المطر نازلاً منها.

٦- إطلاقهم "الاسم" أخذاً من غيره لاشتراكهما في معنى من معانيه ، كإطلاقهم "الأسد" على "الشجاع" باعتبار الشجاعة ، و" الحمار" على "البليد" ، وهذا النوع من باب الاستعارة.

٧- تسميتهم "الشي" باسم "ضده" كقوله تعالى "وجزاءُ سيئة سيئة مثلها" (****).

٨- تسميتهم "الكل" باسم "الجزء" ، كإطلاق لفظ العموم مع أن المراد منه الخصوص.

٩- تسمية "الجزء" باسم "الكل" كما يقال للزنجي أنه أسود ، فقد اندرج بياض أسنانه وبياض عينيه في هذا الإطلاق.

١٠- إطلاق اللفظ المشتق بعد زوال المشتق منه كإطلاق قولنا "قاتل" و "ضارب" بعد فراغه من "القتل والضرب" فإن إطلاقه على جهة الحقيقة في الحال ، فأما بعد ذلك فهو مجاز.

١١- المجاورة ، نحو تسميتهم "الشراب" بـ "الكأس" ، لأجل مجاورته له.

(***) سورة الفتح - آية رقم ١٠ .

(****) سورة المائدة - الآية رقم ١٢٠ .

١٢- إطلاق لفظ "الدابة" على "الحمار"، فإنه كان بالوضع اللغوي لكل ما يدب كالدودة والنملة، ثم تعورف على ذوات الأربع من الدواب، فإذا قُصِرَ من ذوات الأربع على الحمار، كان هذا مجازاً بالإضافة إلى العُرف.

١٣- مجاز بالزيادة ، كقوله تعالى "ليس كمثله شئ"(*****) ، فالكاف هنا مزيدة لأنها لو أُسقِطت لاستقام الكلام ، فلهذا كان مجيئها للزيادة مجازية.

١٤- المجاز بالنقصان ، وهذا كقوله تعالى "واسأل القرية"(******) فإن المراد "أهل القرية" ، ولهذا فإنه لو جيء بها لصح الكلام واستقام.

١٥- تسمية " المُتَعلّق " باسم "المُتَعلّق" كتسمية المعلوم علماً ، والمقدور قدرة ، كما في قوله تعالى "ولا يحيطون بشيء من علمه"(*******) ، أي "معلومة".

وبعد هذا العرض لـ "مفهوم المجاز" ، فنتناوله هنا بالتفصيل في لغة الهوسا:

أولاً: أسباب وقوع المجاز في لغة الهوسا:

يرجع السبب وراء حدوث المجاز _ كظاهرة لغوية _ في أية لغة من اللغات إلى "الحاجة" إلى التعبير عن شئ مستحدث في عالم المادة أو عالم الفكر ليس له رمز لغوي سابق ، فيلجأ المتكلم حينئذ إلى استخدام كلمة موجودة سلفاً في اللغة للدلالة على هذا الشئ المستحدث . والمجاز هو أحد هذه الوسائل اللغوية التي تعبر عما يستجد في البيئة المعينة ، حيث يأتي جنباً إلى جنب مع الاشتقاق

(*****) سورة الشورى - الآية رقم ١١ .

(******) سورة يوسف - الآية رقم ٨٢ .

(*******) سورة البقرة - الآية رقم ٢٥٥ .

والنحت والتوليد والاقتراض.[١٩] ويذهب بعض علماء اللغة الفرنسيين إلى أن ظاهرة تغير المعنى أو الدلالة _ والمجاز جزء منها _ ترجع إلى عدة أسباب لغوية ، تاريخية واجتماعية ، فهي مجتمعة تستطيع أن توضح حالات كثيرة من تغير المعنى ، لكنها لا تستطيع تفسير البواعث الإبداعية أو الخلاقة التي تكمن خلف بعض المجازات المستعملة في الشعر ، أو حتى في الكلام العادي.[٢٠]

وفي الحقيقة اتفق أيضاً مع ما يقول أن الحاجة إلى التعبير عن شئ مستحدث في عالم المادة أو عالم الفكر وليس له رمز لغوي سابق _ هي السبب الأول لحدوث ظاهرة المجاز في اللغة عامة وهذا ينطبق أيضاً على لغة الهوسا لأنه بنظرة فاحصة إلى معاجم لغة الهوسا القديم منها والحديث نرى مادتها اللغوية مقارنة بمعاجم اللغة العربية والإنجليزية والألمانية _ مثلاً _ ضئيلة ، فكان لابد من وسيلة للتعبير عن المستجدات والمستحدثات في اللغة _ فكان المجاز واحداً من هذه السبل التي تؤدي إلى هذا .

والحاجة التي تدعو إلى المجاز في الهوسا قد تتنوع ، ولكن يمكن ذكر بعضها على النحو الآتي:-

١ - مواكبة ما يستجد من ألفاظ وتعبيرات نتيجة التقدم التكنولوجي الهائل .

٢ - التعبير عن المصطلحات الجديدة التي تظهر نظراً لمستجدات السياسات العالمية المتغيرة .

٣ - صياغة المثل الشعبي أو القول المأثور .

---

١٩ - شفيع السيد - مرجع سبق- ص١٠٤ بتصرف.

٢٠ - نفس المرجع - ص١٠٥ - بتصرف.

٤ - الرغبة في التلطف في تعبير قد لا يكون لائقاً حين الإفصاح به مباشرة كما في "لقيط" للولد "غير الشرعي" .

٥ - الرغبة في إثارة الدهشة وشد الانتباه ، كما في "ابن ليل" حين يراد التعبير عن "لص" أو "سارق"، و"يعقد هذا ويفك هذا" وذلك "للمتحير" أو "المرتبك".

٦ - وقد تكون هناك أسباب أخرى غير هذه .

ثانياً: أهمية المجاز في لغة الهوسا:

المجاز في لغة الهوسا يأتي _ كما ذكرنا _ جنباً إلى جنب مع الصور اللغوية الأخرى كالاشتقاق والنحت والتوليد والاقتراض وغيرها ليعالج قصوراً في الأداء اللغوي ، ويكمل فراغاً في قاموسها.

وإضافة إلى هذا نرى المجاز يساهم في تكوين وإنشاء تراكيب ومصطلحات جديدة ، ويدخل في صوغ الحكم والأمثال كما ذكرنا بأسلوب تظهر معه البلاغة في اللغة من خلال توضيح الدلالات المقصودة وتبيينها . وعلى حد تعبير أحد أبناء الهوسا عن المجاز في لغة الهوسا نراه يقول :" لغة الهوسا من اللغات التي تعتمد على المجاز وتستقي منه معظم معانيها"(********) وضرب مثالاً بكلمة "الأرض- Kasa " حيث أشار إلى أنها تأتي بمعنى "الأرض _ الكرة الأرضية" تارة ، وتأتي لتدل على جزء من كل وهو "التراب" ، وتأتي للدلالة على معنى "الظرف" ، "تحت" ، وغير ذلك.

(********) يهوذا سليمان - ناطق لغوي - هوساوي من زاريا - نيجيريا.

ثالثاً: مستويات استعمال المجاز في لغة الهوسا :

لا يقتصر وجود المعنى المجازي في لغة الهوسا فقط على الكلمة المفردة ، سواء أكانت اسماً أم فعلاً ، بل يتعدى هذا إلى مستوى الاسم المركب ، وكذلك الفعل المركب ، ثم ينتقل أيضاً إلى العبارة الاسمية والأخرى الفعلية ، ولهذا سوف تتناول الدراسة المجاز في الهوسا على النحو الآتي:

أ- المجاز على مستوى الكلمة المفردة ، ويشمل:

أولاً- الاسم ، وينقسم إلى :

أ - اسم بسيط. ب - اسم مركب.

ثانياً- الفعل وينقسم إلى :

أ - فعل بسيط. ب - فعل مركب.

ب - المجاز على مستوى العبارة اللغوية ، وينقسم إلى :

أولاً - عبارة اسمية. ثانياً- عبارة فعلية.

أ: المجاز على مستوى الكلمة المفردة:

أولاً- المجاز على مستوى "الاسم Noun- Suna"

أ- الاسم البسيط:

يراد به الوحدة المعجمية البسيطة الواحدة ذات الدلالة على معنى اسمي بسيط، ونعني بقولنا "بسيط" أنه لا تتداخل معه صور كلامية أخرى، أي لا يشترك معها لا عن طريق الإضافة، ولا عن طريق غيرها ، ويخرج من هذا الفعل

والحرف وغيرهما، وذلك كقولنا "زيد _ عمرو _ إسلام _ عبير - مكتب _ بلد _ نهر _ أرض _ سماء -.. الخ. ومن مثل هذا أيضاً في الهوسا "مدرسة Makaranta _ سوق Kasuwa - أرض Kasa _ سماء Sama".

ويظهر المجاز في هذه الأسماء حين تتحول عن معناها الأصلي إلى معنى آخر فرعي، ويمكن بيان ذلك على النحو التالي:

الاسم البسيط	المعنى الأصلى والمعجمى	المعنى المجازى	الاستعمال اللغوى	
			استعمال حقيقي	استعمال مجازى
Kasa	أرض - كوكب الأرض	١ - تراب - رمل وفي هذا الاستخدام تضييق للمعنى، حيث انتقل من الأعم إلى الأخص، لأن التراب جزء من كل وهو الأرض، وفي حين أن المعنى الأصلى للكلمة تراب هو، rairayi وهذا من نوع المجاز المرسل حيث سمى "الجزء" وهو "التراب rairayi" باسم "الكل" وهو	.... Ruwan sama ne fa, in ya fado, sai kasa ta shanye shi. Ikon Allah p.20 - L.3o إذا سقط المطر، فسوف تشربه الأرض.	... Ka yi maza, ka zuba mata kasa. Ikon Allah p. 14- L.21. ... أسرع، وأفرغ عليها "النار المشتعلة" ترابا. ... Mutum ya. sani akwai ruwa a kasansa,sabo da haka ya sami dabara ta haka rijiya. Ikon Allah p.20- L.27. ..يعرف الإنسان

الاسم البسيط	المعنى الأصلى والمعجمى	المعنى المجازي	الاستعمال اللغوى	
			استعمال حقيقي	استعمال مجازى
		"الأرض kasa ٢ - تحت"ظرف مكان" أسفل		بوجود ماء تحته ، ولذلك فكر فى حفر الآبار.
Duniya	دنيا - الحياة الدنيا	الأرض-الكرة الأرضية وهذا مجاز مرسل حيث سمى"الجزء" وهو "الأرض- Kasa" باسم "الكل" وهو " الدنيا Duniya	... ko da ya ke su suna gudun duniya, ba su watsa wa kowa kura Ikon Allah p .2- L.ll. ... على الرغم من أنهم زاهدون فى الدنيا إلا أنهم لم يثيروا غباراً على أحد. ...Wannanduny a ta mu tana cike da abu buwa iri iri. Ikon Allah p.l L.l. ... دنيتنا هذه مليئة بالعديد من الكائنات .	nisan rana daga nan duniya ya yi mil 92, 800,000. Ikon Allah p.38- L.16. ... بُعدُ الشمس عن الأرض يصل إلى حوالى ٩٢٨٠٠٠٠٠ ميل ...Ban da wannan irin mirdawa da duniya take yi, tana kuma tafiya cikin sararin sama Ikon Allah p.41-L. ll. ... علاوة على هذا الدوران الذى تحدثه الأرض ، فإنها تسبح فى أجواء السماء.

الاسم البسيط	المعنى الأصلى والمعجمى	المعنى المجازي	الاستعمال اللغوى	
			استعمال حقيقي	استعمال مجازى
				... Duniya kamar katon kwallo ne. Ikon Allah p.40 - L.II. ... الأرض مثل الكرة الضخمة .
Gari	مدينة - حضر	دولة . وفى هذا الاستخدام توسيع للمعنى حيث انتقل من الأخص إلى الأعم ، وهذا مجاز مرسل ، حيث استخدم الجزء وهو "مدينة gari - للدلالة على الكل وهو "دولة kasa"	... Tana tafiya cikin hamada ba ta kai wani babban gari ba. Kome nisan dare p.53-L.5. ...تسير فى الصحراء ولم تصل إلى أى مدينة كبيرة .	... Ga Waz-irin sarkin si-nari ya zo da wadansu man-yan garinsu. Magana jari ce. P.3- L.29. ... ها هو وزير أمير سينارى ، لقد حضر ومعه بعض كبار دولتهم.

ب - الاسم المركب:

ويـراد بـه الاسـم المفـرد الـذي تكون من كلمـتين أو أكـثـر ، كل واحـدة منهم ذات دلالـة ومعـنى خـاص كـمـا في "عـبـد الله ، دار الشـفـاء ، ... ومـا إلى ذلك" ولكن بإضـافـة كل منهـمـا للآخـر تكون مـعنى مـجـازي آخـر ، ومن ذلك في لغـة الهوسا ،ما يأتي:

الاسم المركب	المعنى الأصلى والمعجمى	المعنى المجازي	الاستعمال اللغوى	
			استعمال حقيقي	استعمال مجازى
Mai duniya	صـاحب الدنيـا صـاحب - ذو mai الدنيـا duniya وهى كلمة من أصل عربى «الدنيا» .	سـمـو الأمـيـر- صاحب السعـادة - جـلالة الملك - صاحب العرش - الحـاكم- رئيس الدولة . ووجـه الشـبـه هنا هو «التـمـلك والاسـتـحـواذ» وهذا أيضاً مجاز مـرسل لإطلاق العـمـوم على الخـصـوص ، فى حين أن مـعـنى «أمـيـر - ملك» فى الهـوسـا هو sarki	... Allah shi ne mai duniya . ... الـلـه هـو صـاحب الدنيـا «يهوذا سليمان- ناطق لغوى» .	... Sarakunsa Suka shiga tsakani tsakani suna hucewa mai duniya . Magana jari ce p.4-L.11. ... لقـد تدخل وزراؤه قـائلين : «اهدأ ياجـلالة الملك» .

الاسم المركب	المعنى الأصلى والمعجمى	المعنى المجازي	الاستعمال اللغوى	
			استعمال حقيقي	استعمال مجازى
Majalisar dinkin duniya	مجلس حياكة الدنيا مجلس Majalisa وهى كلمة من أصل عربى «مجلس» حياكة dinkin	الأمم المتحدة. ووجه الشبه هو التوحد والتماسك، وهنا نلحظ تطوراً دلالياً فى استخدام كلمة «مجلس» لأنها تشير فى الأصل إلى «مكان الجلوس»، ولكنها هنا أصبحت تدل على «الأعضاء السياسين» الذين يتكون منهم «مجلس الأمم المتحدة». وهذا أيضاً مجاز مرسل والعلاقة فيه هنا بين المعنى الحقيقى والمعنى المجازى هى علاقة «محلية». حيث يطلق اسم	Inka lura da dukan halittar Allah, saika ga kamar duk dinke a ke. Ikon Allah p.3-L.30 . ...لو أنك أمعنت النظر فى مخلوقات الله، سترى وكأنها متشابكة مع بعضها البعض .	... Shugaban Iraki maigida Saddam Husein ya Shaida wa majalisar dinkin duniya . Gaskiya ta fi kwabo 20 Yuli-1990.P.1 ... لقد ندد الرئيس العراقى صدام حسين بالأمم المتحدة .

الاسم المركب	المعنى الأصلى والمعجمى	المعنى المجازي	الاستعمال اللغوى	
			استعمال حقيقي	استعمال مجازى
		المكان على من يحل فيه . أما صورة المجاز فى كلمة dinki – يحيك– يخيط «فهى» تشبيه حذف أحد طرفيه، حيث شبه توحد العالم سياسياً فى صورة «الأمم المتحدة »بـ «ربط بلاد الدنيا بعضها ببعض عن طريق الخياطة» . وانتقل هذا الشكل من صورته الأولية حتى أصبح تعبيراً اصطلاحياً متعارفاً عليه ، وفى هذا الاستعمال المجازى نلحظ		

الاسم المركب	المعنى الأصلى والمعجمى	المعنى المجازي	الاستعمال اللغوى	
			استعمال حقيقي	استعمال مجازى
Fari ciki	بيـــاض داخلى Fari – أبـيـض اللـون الأبـيـض . cilki فى -داخل	فـرح – سـرور- سعادة بهجة . ووجـه الشـبـه هنا النقـاء من كل مـا يعكر الصـفو وهذه كناية، فـالعـلاقـة هنا لزومية .	- Ki kawo jar kaza mai tukku da farin zakara maras tukku. - Kome nisan Dare . أحـضـرى ديكاً أحـمـراً ذى عـرف أبيض وديكاً بدون عرف .	... Saboda haka sarkin nan ya zama ba wani wanda zaigani ransa, yayi fari cikin fadan nan taso duka. Magana jari ce.1.p.1-L.16 ... ولذلك أصـبح هذا الأمير فى حالة لا يسـتطيع أحـد مـعـهـا فى بلاطه الملكى هذا أن يدخل السعادة إلى قلبه .
Bakin ciki	ســـواد داخلى baki – أســـود اللون الأسود .	حزن – هم . وجه الشبه هو وجود ما يعكر الصـــفـو، وهذه أيضـاً كناية والعـــلاقـــة بين المعنيين عـــلاقـــة لزومية .	... Domin bakin nan yanuna cewa digo- digon ruwa dake ciki sun gama tattaruwa ke nan Ikon Allah .1.P 29 L.35 ... لأن هذا السواد	...Yana nan cikin wannan bakin ciki, sai ran nan wani shaihun malami ya zo ya ce masa. magana jari ce 1.P1-L.26 .

الاسم المركب	المعنى الأصلي والمعجمي	المعنى المجازي	الاستعمال اللغوي: استعمال حقيقي	الاستعمال اللغوي: استعمال مجازي
			الذي بداخلة «في السحاب» . فسر أن هذه القطرات «المائية» قد اكتمل تجمعها هكذا «كونت السحاب الكثيف» .	... بينما هو «الملك» في حزنه هذا ، إذ بأحد الشيوخ في ذات يوم من الأيام جاء له وقال ...» .
Dadin bakin	لذة الفم لذيذ -جميل dadi فم - حنك baki	فصاحة - كلام فصيح . وصورة المجاز هنا استعارة تصريحية، فالعلاقة بين المعنى الأول والثاني هي علاقة المشابهة ووجه الشبه هنا الجمال والاستساغة .	-Kurege ya ce, " ke bushiya" zaman nan namu da ke ba shi da dadi . Ka kara karatu P.3-L.5. -قال السنجاب - أنت أيها القنفد. إقامتنا هذه معاً ليست ممتعة . -Buda baki, ka shaki sabuwar iska. Ikon Allah. 1-p.8- L.5,6 - افتح الفم واستنشق هواءً جديداً .	-Takamar da na ke yi ba don saboda kyaun jikina kadai na ke yi ba, ba ko don saboda dadin bakin nan da Allah ya bani ba, amma saboda baiwa wadda Ubangijimmu ya yi mini ta wajen iya duba. Magana jari ce.p.6-L.3 إن التشدق الذي ابديته ليس من أجل جسدي الجميل

الاسم المركب	المعنى الأصلي والمعجمي	المعنى المجازي	الاستعمال اللغوى	
			استعمال حقيقي	استعمال مجازى
				فقط، وليس من أجل فصاحتي هذه التي وهبني الله إياها، ولكن من أجل الموهبة التي وهبني بها الله تعالى والتي تتمثل في بعد نظري .
Hanyar jini	طريق الدم طريق- درب hanya دم jini	كلمة hanya التي معناها الأصلي «طريق-درب» في تركيب إضافي مع كلمة «دم Jini " بمعنى «عرق - شريان» على اعتبار أن العروق أو الشرايين هي «مجرى الدم» وهذا النوع من نوع المجاز المرسل، لأن الارتباط فيه بين المعنى الأول والثاني قائم على المشابهة	...Sai suka hangi wani kunshi agefen hanya. wani kunshi agefen hanya. Ka kara karatu p.10-L.8 وعندئذ رأيا صرة من المال على حافة الطريق . ... Sai ka ga mutum ya haukace ya riko cizon jikinsa wai zai sha jininsa. Ikon Allah1.p.18-L.27	... An allura a cikin tsokar jiki, ko cikin Fata , ko cikin hanyar jiki, ko cikin gaba. Aikinlikita. يحقن«المريض» في العضل، أو في الجلد أو في الوريد، أو في المفصل .

الاستعمال اللغوى: استعمال مجازى	الاستعمال اللغوى: استعمال حقيقي	المعنى المجازي	المعنى الأصلى والمعجمى	الاسم المركب
	وعندئذ ترى الإنسان قد تملكه الجنون فأخذ يعض في جسدة ليشرب من دمه .			
... Ministan sakafa ya tabattar da cewa za akafa sabon gidan tarihi. صرح وزير الثقافة بأنه سوف ينشئ متحفاً جديداً	-ya dawo gida عاد إلى المنزل -tarihin haifuwa تاريخ الميلاد «يهوذا سليمان- ناطق لغوى» .	«متحف» وذلك على اعتبار أن «بيت التاريخ» هو الذى يضم أو يحتوى على آثار وشواهد السابقين وهذا مجاز مرسل .	بيت التاريخ بيت منزل - دار gida وهذه الكلمة تساهم عن طريق الإضافة في تكوين معان «مجازية عديدة تاريخ tarihi وهي كلمة من أصل عربى وتعنى «الأزمنة والعصور المختلفة» وليست بمعنى «التقويم الحسابى date ».	Gidan tarihi
Babban matimaki ya nufi gidan Al-kali . ... توجه النائب العام إلى المحكمة . «صبرى سلامة المصطلحات السياسية - رسالة ماجستير» .	wani mutum ya sayi nama, ya ce yaron mahauci ya kai masa gida. Ka kara karatu p.12-L.9. ... لقد اشترى أحد	«محكمة - دار قضاء» وهذا الاستخدام يقابله أيضاً مجازيا التعبير Wurin alkali «والذى يعنى حرفياً» مكان القاضى ومجازيا «المحكمة»	بيت القاضي بيت منزل gida القاضى al-kali الحاكم ، وهى كلمة من أصل عربى .	Gidan al Kali

الاسم المركب	المعنى الأصلى والمعجمى	المعنى اللغوى	الاستعمال اللغوى استعمال مجازى	 استعمال مجازى
		وهذا مجاز مرسل ، العلاقة فيه هنا علاقة محلية أو مكانية .	الناس لحماً فطلب من صبى الجزار أن يوصله له إلى البيت . ... Alkali ya ga haka sai ya yanke sharia. ka kara karatu .p.6-L.1 ...نظر القاضى هذا فأصدر حكماً	
Taurarin dan Adam	نجوم ابن آدم نجم taura نجوم taurari ابن da آدم Adam	أقمار صناعية . وذلك على اعتبار التمييز بين الأقمار والكواكب والنجوم الطبيعية وبين الأقمار الصناعية التى تنسب إلى بنى الإنسان وصورة المجاز هنا «استعارة» فالعلاقة بين المعنيين هى علاقة المشابهة .	Rana da wata da taurari الشمس والقمر والنجوم . عنوان موضوع فى كتاب Ikon Allah p.38 Taurari iri biyu ne. Ikon Allah - p.45- L.22 النجوم نوعان	Sakayan aiki na bincike ya nuna cewa an samu yawaici na taurarun dan Adam ...كشف التقارير عن وجود العديد من الأقمار الصناعية . «صبرى سلامة المصطلحات السياسية- رسالة ماجستير»

الاسم المركب	المعنى الأصلى والمعجمى	المعنى المجازي	الاستعمال اللغوى	
			استعمال حقيقي	استعمال مجازى
Yan Sanda na duan	أبناء العصا فى الدنيا أبناء yan مفردها ابن dan عصا sanda خاص بـ دنيا na duniya	شرطة دولية وفى ذلك كناية عما اشتهر به جنود الشرطة من كثرة حملهم الهراوات فى أيديهم . العلاقة بين المعنيين «أبناء العصا» Yan sanda و«شرطة» هى علاقة لزوم حيث لا يعبر عن المعنى باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن بمعنى آخر ملزم يشار به إليه ويكون دليلاً عليه . أما استعمال كلمة « دنيا - duniya « بمعنى دولى» فهذا استعمال من نوع المجاز المرسل وهنا تحولت كلمة «duniyaa من معناها الأصلى «دنيا » إلى اسم صفة «دولى» .	... ya dakko dan sanda a al-jihonsa . أخذ عصا صغيراً من جيبه . «يهوذا سليمان - ناطق لغوى»	...kasashen da ke dako ga halayen da ake ciki sun nemi cewa ya kamata a zamun yan sanda na du-niya a wannan yanki. طالبت الدول المراقبة لهذا الوضع القائم حالياً بضرورة وجود الشرطة الدولية فى هذا القطاع . « صبرى سلامة المصطلحات السياسية- رسالة ماجستير»

الاسـم المركب	المعنى الأصلى والمعجمى	المعنى المجازي	الاستعمال اللغوى	
			استعمال حقيقي	استعمال مجازى
Yan Sanda	أبناء العصا - أبناء الهـروات والمفـرد منها- شرطى Dan sanda «ابن العصا»، أى «شرطى» أبناء عصا 'Yan sanada	شـرطة - جنود الشرطة وذلك كناية عمـا اشتهر به جنود الشـرطة من استخدامهم للعصا التى يستخدمونهم كثيـراً فى فض الاشتباكات	Dabbobi da it-atuwa da' yan Adam duk suna bukatar abinci . Ikon Allah. p.3-L.8 الدواب والأشجار وأبنـاء آدم «الإنسان» كلهم يحتاجون إلى الطعام .	... A makon da ya gabata' yan sandan Iraki sun gamu da munanan hare-hare. Almizan- February ص١ 2004- 24 واجهت الشرطة العراقية فى الأسبوع الماضى أسوء هجوم شن عليها ... Dan sanda ya harbi dan sanda. Almizan- 23 sha aban 1422 - ١ شرطى يقتل شرطياً.
Majalisar jagorancin Kasa	«مجلس قيادة الأرض» مجلس majalisar وهى كلمة من أصل عربى «مجلس»	«مجلس رأس الدولة» جـائت هنـا كلمة «الأرض» Kasa بمعنى «الدولة»	... halittun ruwa sun fi na kasa yawa . الكائنات البحرية أكثر من كائنات الأرض عدداً	... Shugaban Mubark ya sadu da shugaban majalisar jagorancin kasar Sudan المصطلحات

الاسم المركب	المعنى الأصلي والمعجمي	المعنى المجازي	الاستعمال اللغوي: استعمال حقيقي	استعمال مجازي
	قيادة jagorancin الأرض Kasa	وفي هذا الاستخدام تضييق للمعنى ، حيث أن كلمة «دولة» تعد جزء من كل وهو «الأرض» بشكل عام ، وهذا مجاز مرسل.	makaho da jagora . الأعمى ومصطحبه . na tafi majalisar wakilai . ذهبت إلى مجلس النواب «يهوذا – ناطق لغوى»	السياسية- رسالة ماجستير . التقى الرئيس مبارك برئيس مجلس رأس الدولة السوداني .
majalisar juyin juye hali	تغيير الأوضاع أوالحال. مجلس majalisar تغيير juyin – استدارة juye – الحال hali وهي طبيعة كلمة من أصل عربي «حال» .	مجلس قيادة الثورة وهذا مجاز مرسل والعلاقة فيه سببية حيث تتسبب الثورة في تغيير أوضاع المجتمع من حال إلى حال آخر .	...in rana ta juya bisa kan hamada sai ta sa wurin ya yi zafi ainun. Ikon Allah. 1. p. 16-L.14 لو أن الشمس استدرات فوق الصحراء ، عندئذ ستجعل المكان حاراً جداً . Halin Ruwa طبيعة الماء عنوان موضوع في كتاب Ikon Allah.1.p.24.	... Shugaban majalisar juyin juye hali na kasar Sudan ya dawo daga Bagadaza safiyar wannan yau المصطلحات السياسية رسالة ماجستير . عاد صباح هذا اليوم قادماً من بغداد رئيس مجلس قيادة الثورة السوداني .
Mai	صاحب الناحية ذو – صاحب mai	عمدة هذه كناية،	Musa ya zama mai kudi, ya	Mai unguwar birnin konakiri

الاسم المركب	المعنى الأصلى والمعجمى	المعنى المجازي	الاستعمال اللغوى	
			استعمال حقيقي	استعمال مجازى
unguwa	ناحية- ضاحية unguwa	والعلاقة هنا بين المعنيين هى علاقة لزوم ووجه الشبه هنا . هو التملك والسلطة .	saye unguwa duka, ya zama mai unguwa . ... أصبح موسى ثرياً فقد اشترى الضاحية كلها وأصبح صاحبها. «يهوذا سليمان - ناطق لغوى» .	ya yaba da kyakkyawar dangantaka tsakanin kasashen . biyu . المصطلحات السياسية رسالة ماجستير أشاد عمدة مدينة كوناكرى بالعلاقات الوثيقة بين البلدين.
Gidan 'yan sanda	بيت أبناء العصا بيت gida أبناء 'yan العصا sanda	قسم شرطة وهنا استخدمت كلمة «بيت gida مجازاً بمعنى «قسم -مركز» وهذا مجاز مرسل .	لقد سبق الاستخدام	...ya nufi gidan yan sanda bayan an kama masu laifi . صبرى سلامة - رسالة ماجستير. توجه إلي قسم الشرطة بعد أن القى القبض على الجناة.
Babban mataimaki	مساعد كبيرُ كبير، ضخم ، رئيسى Babba مساعد mataimaki	نائب عام وهنا جاءت كلمة «كبير - ضخم babba التى تستخدم فى الوصف المادى والمعنوى - بمعنى معنوى وهو «عام»	... Wani abu kuma babba, wanda ya rabo abu mai rai da mara rai. Ikon	...Babban mataimaki ya nufi gidan Al-Kali المصطلحات السياسية

الاســم المركب	المعنى الأصلى والمعجمى	المعنى المجازى	الاستعمال اللغوى	
			استعمال مجازى	استعمال مجازى
تابع Babban mataimaki		وهى صـفـة تلازم المناصب والمراكـز الهامة . كـذلك من الدلالات المعنوية لهـذه الكلمـة كبـير- babba"حاد عنف ، وذلك كما فى «أزمة حادة babban rikici ويقـابلهـا فى هذا الاسـتـخـدام كلمـة manya كبير ، عظيم sarki كما فى ya sa aka tara masa manyan malamai arba, in. magana jari ce.1 p.2.L.1 أمر الأمـير أن يجـمع له أربعون عالماً. وهذا من نوع المجاز المرسل	Allah.1.p.3-L19 شـئ هـام هـو الـذى يفـصـل بين الكائن الحى والجماد.	- رسالة ماجستير . ... توجـه النائب العام الى المحكمة .
Dan aiki na musamman	«ابن العمل المعلوم» ابـن dan عمـل aiki إضافة na	«مبعوث خاص» جاء	...Duk da haka murnarsa ragaggiya ce domin dan mace	...Wani dan aiki na musamman ya iso nan Al-kahira daga ka-sar Namibia.

الأسم المركب	المعنى الأصلى والمعجمى	المعنى المجازي	الإستعمال اللغوى	
			استعمال حقيقي	استعمال مجازى
	معلوم مخصوص musamman	«مبعوث خاص» هنا التركيب «ابن العمل dan aiki» من قبيل المجاز بمعنى «مبعوث» وهو الشخص الذى يكلف بمهمة رسمية أوخاصة ، وهذا كناية والعلاقة هنا بين المعنيين هى علاقة لزوم .	ba ya gado. Magana jari ce1.P.1-L.24 ...على الرغم من ذلك فان فرحته لم تكتمل لأن أبن المراة لايرث . In ka kama aiki da himma ... Ikon Allah 1.P.9.L.19 ...لو أنك بدأت العمل بهمة»	صبرى سلامة رسالة ماجستير وصل إلى القاهرة مبعوث خاص قادماً من ناميبيا .
Kasashen' yan ba ruwammu	أراضى الأبناء «الذين يقولون» هذا ليس مائنا »- أى ليس شأننا. Kasashen أراضى 'yan أبناء ba نفى ruwa ماء mu ملكية للجمع المتكلم نحن .	«دول عدم الانحياز» هذه أيضاً كناية والعلاقة هنا علاقة اللزوم بين المعنيين .	...Ruwa da ke gudu cikin rafi ba shi da rai. ikon Allah 1.p.2.L.18 الماء الذى يجرى فى النهر ليس حياً .	...A taron koli an kasashen yan ba ruwammu, manyan kusoshi sun nuna da muwansu game da wannan matsayi. المصطلحات السياسية ، رسالة ماجستير. ...فى اجتماع قمة دول عدم الانحياز، أعرب المسؤلون عن قلقهم تجاه هذا الوضع .

الاستعمال اللغوى		المعنى المجازي	المعنى الأصلى والمعجمى	الاسم المركب
استعمال مجازى	استعمال حقيقي			
...Wadansu kamar malam-bude littafi su na da wani irin kamar dam famfo dogo. Ikon Allah. p.235-L.37 ... بعضها «الحشرات» مثل فراشة أبى دقيق، لها فم طويل يشبه يد طلمبة المياه الصغيرة .	... Malamin ya ce shi ba kudi suka kawo shi ba ... magana jari ce1.p.1-L.31 قال المعلم ليس بالمال هم جاءوا به . ...Littafin nan da ka ke karantawa ba shi da rai. Ikon Allah. P.1.L.11. ..هذا الكتاب الذى تقرأه-ليس لديه روح...	«فراشة أبو دقيق» والمجاز من قبيل تشبيه فراشة أبي دقيق -التى كثيراً ماتفرد جناحيها - بالكتاب المفتوح صورة المجاز هنا هى «الاستعارة»	«أيها المعلم - افتح الكتاب» معلم malam وهى كلمة من أصل عربى «معلم» كما تستعمل كصيغة احترام كما فى «سيد-أستاذ» . فعل بمعنى «إفتح» Bude كتاب li ttafi وهى أيضاً كلمة من أصل عربى «كتاب»	Malam-bude littafi
...Mohammad. an raine shi a dangin nononsa ... تربى محمد عندأخواله«-ناطق لغوى-أ.يهوذا »	...A shayar da shi da nono da danginsa . ... يرضع باللبن وما يائله «إضافة» «يهوذا- ناطق لغوى»	عائلة الأم - أخوال وهذا مجاز مرسل	فصيلة أو سلالة اللبن عائلة-سلالة dangi لبن- ثدى nono	Dangin nono
...Sun je bakin daga. ...لقد ذهبوا إلى جبهة القتال .	...Buda baki ka shaki sabuwar iska... Ikon Allah. P.8-L.5	ساحة القتال والمعنى «فم الصلابة» تصوير لساحة القتال بأنها الميدان الذى	«فم الصلابة» فم - حنك baki صلابة - قوة da ga متانة ويأتى منها	Bakin daga

الاستعمال اللغوى		المعنى المجازي	المعنى الأصلى والمعجمى	الاسم المركب
استعمال مجازى	استعمال حقيقي			
«ناطق لغوى- أيهوذا»	... افتح فمك واستنشق هؤلاء جديداً ...	يفرز صلابة وشدة المتحاربين وهذا مجاز مرسل .	«الفعل أصر ya dage وكذلك «عنيد mai dagewa	
...Shi bakin ganga ne. إنه منافق «ناطق لغوى- يهوذا»	... buda baki ka shaki sabuwar iska. Ikon Allah. P8-L5. ... افتح فمك واستنشق هواء جديداً . ...Da ta duba sama, ta ga ganga a rataye a bisa itaciya. Ka kara karatu. P.17-L.23. ... عندما نظرت «الذئب» إلى أعلى ، وجدت طبلة معلقة على الشجرة .	«منافق » وفى ذلك تشبيه للمنافق بأن له وجهين كالطبلة بوجهيها ، وهذه كناية عن ظهور الشخص تارة برأى ، وتارة أخرى مع أخر برأى حول نفس الموضوع .	فم الطبلة فم - مدخل baki الطبلة ganga	Bakin kaza
...Shi bakin kaza ne. ... إنه جاحد للفضل وللنعمة . «ناطق لغوى- يهوذا»	...Wata rana dila yana cin kaza ... ka kara karatu. P.6110 ... فى ذات يوم كان الثعلب يأكل	«جاحد ومنكر للفضل والنعمة» . وذلك على اعتبار أن فم الدجاجة لا يمل ولا يكل من كثرة الأكل وهذا كناية عن الإنكار والاجحاد . والعلاقة هنا علاقة	«فم الدجاجة» فم - مدخل baki دجاجة kaza	Bakin Kaza

الاستعمال اللغوى		المعنى المجازي	المعنى الأصلى والمعجمى	الاسم المركب
استعمال مجازى	استعمال حقيقي			
...Shi yana da bakin jini. ...إنه منبوذ وغير مرغوب فيه . «ناطق لغوى- يهوذا»	الدجاجة .. ...Sai ka ga mutum ya haukaca, ya rika cizon jininsa wai zai sha jininsa. Ikon Allah. P.18-L.27. ...سوف ترى الشخص وقد جن جنونه ، فأخذ يعض فى جسده، ليشرب من دمه .	لزومية . «منبوذ - غير محبوب» والمعنى من «أسود الدم » يقابل في العربية تعبير «دمه ثقيل » أى شخص غير مرغوب فيه وهذا كناية عن عدم الرغبة وعدم الاستلطاف . والعلاقة لزومية .	«دم أسود » أسود baki دم jini	Bakin jini
...Bai aikata wani abin azo agani ba. «ناطق لغوى- يهوذا» ... لم ينجز شيئاً هاماً .	...wani abu kuma babba wanda ya raba abu mai rai da mara rai. Ikon Allah. P.3-L.19. ... شئ ما هام الذى يفصل بين الكائن الحى والجماد	«شيء مهم - إنجاز» وذلك على اعتبار أن الشخص إذا انجز شيئاً هاما فسوف يفخر به ويقدمه للناس أو يخبرهم به . وفى هذا كناية عن الافتخار والتباهي. والعلاقة هنا لزومية	شيء يؤتى ويرى شيء abu يؤتى azo يرى agani	Abin azo agani

الاسم المركب	المعنى الأصلى والمعجمى	المعنى المجازي	الاستعمال اللغوى: استعمال حقيقي	الاستعمال اللغوى: استعمال مجازى
		حيث تم التعبير عن المعنى المطلوب بمعنى آخر ملزم له ودال عليه .	...ya kuma ce zai zo gidanku. Komé nisan dare. P.11-L.24. ... هو أيضاً سوف يجئ إلى بيتكم . ...Ko da ay ke ba ma iya ganin iska, muna iya ganin aikinta. Ikon Allah .P.5-L.12. ...على الرغم من أننا لم نستطع رؤية الهواء، إلا أننا نستطيع أن نرى أثره .	
Dadin bakin	« لذة أو حلاوة الفم » - سعادة لذيذ - ممتع dadi فم baki	«فصاحة القول» وهذا كناية عن الفصاحة والبيان فى القول . والعلاقة لزومية . ووجه الشبه هنا أن الكلام يلقى اهتماما لحلاوته أى لفصاحته.	...Bushiya ta ee, "Ashe" Ni ko dadi na ke ji. Ka kara karatu.P.5-L.7 ...قالت القنفد «عجباً» أما أنا فأشعر بالسعادة .	...takamer da na ke yi ba don saboda kyaun jiki kadai na ke yi ba, ba ko don saboda dadin bakin nan da Allah ya ba ni ... ... إن التبختر هذا ليس من أجل منظرى الجميل فحسب،ولا من أجل فصاحة القول التى وهبنى الله إياها فقط ...

الاسم المركب	المعنى الأصلى والمعجمى	المعنى المجازي	الاستعمال اللغوى	
			استعمال حقيقي	استعمال مجازى
Farin bera	فار أبيض أبيض fari فأر Bera	«منافق» صورة المجاز هنا هى «الاستعارة». والعلاقة بين المعنيين هى علاقة المشابهة . ووجه الشبه هو «الخبث والخداع» على اعتبار أن الفأر الأبيض لديه من طرق الخبث ما يتميز به . وهذا التركيب يقابل ويتطابق فى المعنى مع كلمة "منافق "munafuki التى من أصل عربى «منافق»	... Zaki kawo farin zakara wanda bai shige shekara biyu ba. Kome nisan dare . P.42-L. 25. «قال لها العراف» أحضرى ديكاً أبيضاً لم يكمل عامين من عمره . ... Ta sayo duk abin da ake nema amma ban da kashin bahagon bera da kashin jinjirin jaki. Kome Nisan dare . P.58-L. 12. ... لقد اشترت كل شئ طلب منها علاوة على روث الفأر الأشول وروث الجحش حديث الولادة .	...Wane farin bera ne. ...إنه منافق «ناطق لغوى-يهوذا»

الاستعمال اللغوى		المعنى المجازي	المعنى الأصلى والمعجمى	الاسم المركب
استعمال مجازى	استعمال حقيقي			
... Wane mai farin jini ne. ... فلان محبوب. «ناطق لغوى-يهوذا»	... na dauki farin zare ... أخذت خيطاً أبيضاً. ... Launin jini jane . ... لون الدم أحمـر. «أ. يهوذا سليمان»	محبوب - مرغوب فيه». وذلك على إعتبار أن اللون الابيض من الألوان المحببة إلى النفس . وفيه إشارة إلى النقاء والصفاء وهذه إستعارة ، والعلاقة هنا علاقة المشابهة .	«دم أبيض» أبيض fari دم jini	Farin jini
... Allah Ya baka nisan kwana. ... أطال الله عمرك. «ناطق لغوى-أ.يهوذا»	... Su tabbatar mana cewa nisan rana daga nan duniya ya yi mil 92.800,000. Ikon Allah. P. 38-L-15. ... لقد أكد «العلماء» لنا أن بعد الشمس عن الأرض يصل إلى ٩٢,٨٠٠٠٠٠ ميل . ... Amma ba ruwa yana iya kwana uku, kila har hudu. Ikon allah .p.18 - 1.10 ... ولكن بدون ماء يستطيع «الإنسان» أن يعيش ثلاثة أو أربعة أيام.	«طول العمر - عمر مديد». وصورة المجاز هنا هى «مجاز مرسل» وقد حدث بسبب تسمية الشئ باسم الغاية التى يصير إليها ، وهى هنا «العمر المديد»	« بُعد الأيام » بعد - طول nisan أيام Kwana	Nisan kwana

٢ - المجاز فى الأفعال:

أ - الفعل البسيط:

ونعنى به استعمال الفعل البسيط عن طريق المجاز للدلالة على معنى آخر غير معناه الحقيقي . ومن أمثلة ذلك، ما يأتي :

الفعل البسيط	المعنى الأصلي والمعجمى	المعنى المجازي	الاستعمال اللغوى: استعمال حقيقي	الاستعمال اللغوى: استعمال مجازى
Rada	يهمس إلى - يوشوش	« يسمى ». وهذا مجاز مرسل	... Ali ya yi ma Musa rada . ... لقد همس على لموسى. «أ. يهوذا سليمان»	...aka dai rada wayaron nan suna Musa. Magana jari ce1. P.2 - L . 9 ... لقد سمى هذا الطفل باسم موسى .
Kulle - Kulle	«يربط - يعقد» فى حين أن الفعل يربط «شيئاً فى شئ آخر» هو "daure"	يدبر - يخطط بمكر وخديعة. وهذه الصورة هى كناية عن السعى والتدبير للمكائد والعلاقة هنا علاقة لزوم .	...Ya Kulle Igiya. ... لقد ربط الحبل «أ. يهوذا سليمان»	... Ya Shiga Kulle -Kulle Kullum na yadda zai ya kashe Musa. Magana Jari ce 1. P.2 - L28. ... لقد أخذ «الوزير» يدبر كيفية قتل موسى
Kashe	يقتل - يزهق الروح	يطفئ. مجاز مرسل قائم على علاقة الملابسة بين المعنيين ،وهناتقوم على	... Ya Shiga kulle - kulle kullum na yaddazai yi ya kashe Musa.	...in kana son Ka kashe wuta, sai ka hana ta samun iska Ikon Allah.

الفعل البسيط	المعنى الأصلى والمعجمى	المعنى المجازى	الإستعمال اللغوى	
			استعمال حقيقي	استعمال مجازى
		تسمية الشئ باسم الغاية التى يصير إليها. ووجه الشبه بين الاستخدامين هنا هو التحول من الحياة إلى العدم .	مكرر ...لقد أخذ «الوزير» يدبر كيفية قتل موسى	P.14 - L.19. ... إذا أردت أن تطفئ النار ، فامنعها أن تجد الهواء .
Mutu	« يموت »	« يطفئ » . مجاز مرسل	... Suka yi ta yawo cikin hamada, su yi gaba, su yi baya, har duk suka mutu. Ikon allah. P.20 - L.15. ... لقد مشوا «الجنود» في الصحراء كثيراً «تائهين» يذهبون ويعودون ، حتى ماتوا جميعاً .	...Ka yi maza ka zuba mata kasa, sai ta mutu. Ikon Allah. p.14-L.21. ... إذا أردت أن تطفئ النار، فامنعها أن تجد الهواء ، فعندئذ سوف تنطفئ .
Yi	يعمل -يفعل - يحدث	يحين - يأتى موعده - يمكث » . وهذه الكلمات من الكلمات التى تشترك مع كلمات أخرى	... Amma za mu yi dan kokari dai. ikon allah. p. 34 - L.4	... Im magariba ta yi, ka ce rana ta fadi ikon Allah. p. 40 - L.5

الفعل البسيط	المعنى الأصلى والمعجمى	المعنى المجازي	الاستعمال اللغوى	
			استعمال حقيقي	استعمال مجازى
		بالإضافة لتساهم فى تكوين العديد من الكلمات المركبة«الأفعال المركبة».	... ولكن سوف نعمل محاولة صغيرة.	... إذا حان وقت المغرب ، تقول الشمس قد غابت «غربت» ...Im maraice yayi, sai naman dawa duk su nufi koramu su sha ruwa ikon allah. p.18 - l.3 ... إذا حان وقت المساء سوف تتوجه حيوانات الغابة إلى المنابع المائية لتشرب الماء. ... duk zaman da mutum zai yi a duniya tun daga haihuwa har mutuwa. ikon allah. p. 5 - l. 11. ...كل عمر الانسان الذى سيمكثه فى الدنيا ، منذ الولادة حتى الموت.

الفعل البسيط	المعنى الأصلى والمعجمى	المعنى المجازي	الاستعمال اللغوى	
			استعمال حقيقي	استعمال مجازى
FADI والفعل فى أصله fada ويأتى بنهايات مختلفة قد تكون I أو e أو o وذلك حسب المفعول إذا كان اسماً أو ضميراً .	يقع - يسقط	«يغيب - يغرب» وتأتى «يركع- ينحنى فى تذلل وخضوع إنحناءً لتحية الأمراء والملوك . وتأتى أيضا بمعنى «القتال- الشجار» وفى هذا كناية عن «الأفول».	...ya saka ta-barma, ya shim-fida, ya fadi kanta. ka kara karatu. p.7 - l.22. ... لقد نسج حصيرة ، وفرشها ، ووقع عليها.	... im magariba ta yi, kace rana ta fadi ikon Al lah. p. 40 - l.5 ... إذا حان وقت المغرب، تقول الشمس غابت " غربت". ...ya fadi gaban sarki ya ce wayyo Allah, ka yi mana agaji. magana jari ce. p.7-l.9. ... لقد انحنى أمام جلالة الملك قائلاً " باللهول - يا للهول " أغثنا يا جلالة الملك. ... suka hau masa da zagi. sai fada ya tashi. ikon allah. p. 20 - l. 10 ... لقد انهالوا عليه سباً وشتماً، وعندئذ نشب الشجار

ب- الفعل المركب :

ونعني به الفعل ذى الدلالة الواحدة والذى يتكون من كلمتين أو أكثر، وقد استعملتا عن طريق المجاز للدلالة على معني آخر غير معناهما الحقيقى. ومن أمثلة ذلك ما يأتى.

الفعل المركب	المعنى الأصلى والمعجمى	المعنى المجازي	الاستعمال اللغوى	
			استعمال حقيقي	استعمال مجازى
Saki jiki	يطلق الجسد يطلق saki يترك - يرخى جسم - جسد jiki	«يثق - يطمئن». وفي هذا كناية وتشبيه للواثق بالذى اطمأن لمن حوله فأرخى جسده ونام . ويأتى أيضاً من هذا التركيب . ... Na Saki Jiki da abokina. أي : اطمأن قلبي لصديقي . وكذلك التعبير Da dukiya أطلق الجسد للأموال أي " اغتر بالأموال" والعلاقة هنا علاقة لزوم .	...sai ka ga zarenka na farko bai isa ba, sai ka kara saki. IKon Allah . P. 7 - L. 22. ... سوف ترى أن الخيط الأول لم يكن كافياً ، ويجب أن ترخى«الخيط» أكثر . ... jikinki ya cika tsini, sai ki sake wuri. ka kara karatu. p. 5 - l. 6. ... جسدك مليئ بالشوك ، وعليك تغيير المكان .	... Sai ya takalo maganar yaki. ya ce, " mu dai mun da mu saki jiki da duniya yanzu. ba mu shirin kome. magana jarice. p. 3 - L.4. ... ثم أثار« الوزير» الحديث عن الحرب ، فقال «لقد اطمأننا إلى الدنيا ، ولم نستعد لأى شئ»
Karya kumallo	يكسر بمعنى «يغير» وتجئ أيضاً karya بمعنى «يشطر»	«إفطار» . والمعنى هنا قاصر فقط على «إفطار	... ya karya katako. ... لقد كسر الخشب	... Bayan na karya kumallo. na debo ruwa

الفعل المركب	المعنى الأصلى والمعجمى	المعنى المجازي	الاستعمال اللغوى	
			استعمال حقيقي	استعمال مجازى
	وليس شرطاً فيه التساوى بين الجزئين المشطورين. أما كلمة kumallo فتعنى اللعاب أصفر اللون ذى الطعم المرير والذى تفرزه المعدة فى حالة الجوع الشديد أو آلام البطن ، والذى يؤدى أحياناً إلى القئ أو الغثيان .	الصباح »أماالتعبير عن «إفطار الصيام» فهو « buda baki" أى «فتح الفم» وهذا من نوع المجاز المرسل .	... yana amai yana fitar da kumallo ... يتقيئ ويخرج بهذا القئ. «أ.بهوذا -ناطق لغوى»	na kuskure baki . Nuradden A. (AZARA) karshen kiyayya. zamani books Ltd - kano - Nigeria . p.L - l. 13. ... بعد أن تناولت طعام الإفطار اغترفت ماءً ومضمضت فمى .
Mika wuya	يد الرقبة يد mika رقبة - عنق wuya	«استسلام» وذلك كناية عن الخضوع والاستسلام	...in ka waiwaya, tsokar wuyanka ita ce ta juya kanka. ikon allah. p.8- 1.27 ... لو أنك استدرت ، فإن عضلة رقبتك هى التى أدارت رأسك.	...matabbacin jagoranci ya sanar da mika wuya da yawaici da yawa na sojoji. المصطلحات السياسية رسالة ماجيستير .أعلن مركز القيادة عن إستسلام عدد كبير من الجنود .

الفعل المركب	المعنى الأصلي والمعجمي	المعنى المجازي	الإستعمال اللغوى	
			استعمال حقيقي	استعمال مجازى
Sa han-nu	يضع اليد يضع sa يد hannu	«توقيع - إمضاء» وهذا مجاز مرسل والعلاقة بين المعنيين هنا علاقة المشابهة	... Amakera mai zuga shi ke jan iska cikin zugazugai, kuma ya sake ta da tafin hannunsa. Ikon Allah . P.8 - L.14 ... فى ورشة الحدادة نافخ الكير هو الذى يسحب الهواء فى آلة الكير، وأيضاً يطلقه من خلال حركة يده .	... Masar da Gini Bisau za su sa hannu wata yarjejeniya tsakaninsu ayau المصطلحات السياسية رسالة ماچيستير. ... سوف توقع مصر وغينيا بيساو معاهدة بينهما اليوم.
Yi kasa	يعمل أرضاً يعمل - يصنع yi أرض kasa	«يهبط» والمصدر منه «هبوط- yin kasa" أى» عمل الأرض" وهذا مجاز مرسل	...ka yi tubali, ka kara aza masa. Ikon Allah. P.2-L. 37 ... اصنع طوباً للبناء ورص فوقه «فوق الحائط»	... Wajen hakarkarinsa yana motsi, ya yi sama, ya yi kasa a hankali . Ikon Allah. P. 7 - L.8. ...ناحية ضلوعه «الكلب وهو نائم» تتحرك ، تعلو وتهبط فى هدوء .
Yi sama	يعمل سماء يعمل - يصنع yi سماء sama وهى كلمة من أصل عربى «سماء»	«يرتفع لأعلى» والمصدر منه " إرتفاع - yin" sama وهذا أيضاً	... Allah shi ne ubangijin sama da kasa. ... الله هو رب الأرض والسماء. «أ. يهوذا سليمان »	

الفعل المركب	المعنى الأصلى والمعجمى	المعنى المجازي	الاستعمال اللغوى	
			استعمال حقيقي	استعمال مجازى
kashin baki	قتل الفم يقتل kashi فم - حنك baki	مجاز مرسل إفحام . هذه كناية عن الإسكات والغلبة . ووجه الشبه هنا هو منع الآخر من الكلام والعلاقة سببية	...kashe wannan kwaro ... اقتل هذه الحشرة. ... buda bakinka. ... افتح فمك «أ. يهوذا سليمان»	... Suka ce wa sarki, " Allah ya ba ka nasara, ka ko kashe mana bakinsa. Magana jari ce. P.6 - L. 24 ... قالوا للأمير، نصرك الله، افحمه لنا .
Ajiya zuciya	وضع القلب يضع - يخزن ajiya القلب zuciya	«يطمئن - يطمأن» استعارة، ووجه الشبه هو «الاستقرار»	... Ajiya kome a wurinsa. ... ضع كل شئ في موضعه . ... Alkur'ani hasken zuciya da hankali ne . ... القرآن ضياء القلب والعقل . «يهوذا سليمان»	... ya yi ajiyar zuciya ya ce... لقد اطمأن فقال ... «ناطق لغوى-أ.يهوذا» ... ba ya fada mini siri saboda bai yi ajiyar zuciya da ni ba. ... لم يقل لي شيئاً لأنه لم يطمئن لي . «ناطق لغوى-أ.يهوذا»
Tsolma baki	« حشر الفم » حشر-إدخال tsolma فم - حنك baki وكلمة tsolma تعنى أدخل جزءاً	«تدخل فى الحديث مقاطعة فى الكلام». وهذه كناية عن التدخل فى أمر معين دون سبب أو	...Ya tsolma burodi ashayi . ... وضع الخبز فى الشاى . ...buda bakinka . ...افتح فمك .	... Musa da ke nan sai ya tsolma baki ya ce, " in dai don a dauke

الفعل المركب	المعنى الأصلى والمعجمى	المعنى المجازي	الاستعمال اللغوى: استعمال حقيقي	الاستعمال اللغوى: استعمال مجازى
	مـن شئ فـى شـئ سائل كالماء والزيت وغـيـره بخـلاف Shigar الـتـى تحـمـل المعنيين إدخال جزء أو كل.	ما يدعو إلى ذلك .	«أ. يهوذا سليمان»	mahmudu ne, abar ni ni ka-dai, ni ban yar-da ba. Magana jari ce. 1. p.3-L.19. ... موسى الموجود هنا فى نفس المكان تدخل فى الكلام قائلاً ، «لأن يؤخذ محمود وأترك أنا هنا فلن أوافق.
Taka rawan gani	«وطأ - رقص- الرؤية» وطأ بقدمه taka مشى - سار رقص rawan اهتزاز رؤية gani	« ـــ أنجز » . والتعبير " أحدث رقصة ترى " أى أن هذه الرقصة جميلة وأسـرت الناظرين وهذا التعبير يشير إلى " الإنجاز فى العمل " حيث أن الإنجاز دائما يلفت النظر ويفخر صانعه به ، كما تفخر الراقصة أو الراقص من رقصته التى	...Yi taka tsant-san da kuniya . Ka kara karatu p.13 ... سر بتأنى فى الدنيا . ...Ba ma iya ganin iska. Ikon Al-lah.p.6-L.5. ...لم نستطع رؤية الهواء ...kayi tubali, ka	...Ba su taka rawan gani ba game da yakin Iraki. لم يفعلوا شيأ تجاه أزمة العراق. ... Wajen hakarkarinsa yana motsi, ya yi sama, ya yi kasa a hankali. Ikon Allah . P.7-L.8. ... ناحية ضلوعيه «الكلب وهو نائم»

الفعل المركب	المعنى الأصلى والمعجمى	المعنى المجازي	الاستعمال اللغوى	
			استعمال حقيقي	استعمال مجازى
		يعـجب بهـا الناظرون . وهذه كناية والعلاقة لزومية	kara aza masa. Ikon Allah.P.2.L.37 ... اصنع طوبا للبناء ورص فوقه «فوق الحائط».	تتحرك،تعلو وتهبط فى هدوء .
Bugunru wan ciki	«ضرب ماء البطن» bugun ضرب ruwa ماء ciki بطن	«استخبار-استجواب بطريق خبيث وفيه لؤم وخداع» . والمعنى من «يضرب ماء البطن» أى يستخرج ما لدى الإنسان من كلام حول قضية أو موضوع معين . وهذه كناية والعلاقة لزومية .	.... In kaji iska na bugun fuskar, ka ka zaci tana yaw on banza ne. ikon Allah.P.15 L27. ... إذا شعرت بأن الهواء يضرب وجهك ، فلا تظن أنه يمضى عبثاً .	...Na bugi ruwan cikinsa. «ناطق لغوى-أ. يهوذا» ... لقد استدرجته فى الحديث .
Yi hannun riga	عمل يد القميص عمل - فعل - صنع yi يد hannu قميص riga	«افترق - ودع - ذهب بلا رجعة» . والمعنى مأخوذ من تباعد كمى القميص حين يكون مفروداً، أى أنهما فى هذه الحالة لا يلتصقان لأن صدر	Rigar da ka ke sanye ba ta da rai . Ikon Allah. P,1 - L.17. ... القميص الذى ترتديه ليس فيه روح . ...Kuma ya sake ta da tafin han-	...Mun yi hannun riga da talauci . «ناطق لغوى- أ. يهوذا» ... لقد ودعنا الفقر . ... Ya yi hannun riga da duniya . ...لقد مات . «ناطق لغوى- أ. يهوذا»

الفعل المركب	المعنى الأصلى والمعجمى	المعنى المجازي	الاستعمال اللغوى	
			استعمال حقيقي	استعمال مجازى
		القميص يفصل بينهما . هذه استعارة والعلاقة هنا هى المشابهة .	nunsa . Ikon Allah. P.8- L. 14. ... وأيضاً يطلقه «الهواء» بحركة يده	...ya yi hannun riga da bakin ciki ... لقد ودع الأحزان (أى فرح فرحاً مستديماً) ، أسرته الدنيا . «ناطق لغوى- أ. يهوذا»
Ba marada kunya	«يعطى وشاية الخجل» يعطى ba وشاية marada خجل-حرج Kun-ya	«تحدى - أخذل - أخجل -رد عليهم كيدهم» . مجاز مرسل	Yana jin kunga. يشعر بالخجل أ. يهوذا	...Uba sanjo ya ba marada kunya na komawa kan karaga mulki . ... لقد أخذل أويا سانجو الحاقدين بعودته إلى كرسى الحكم . «ناطق لغوى- أ. يهوذا».
Bakunci n lahira	«ضيافة الآخرة» ضيافة bakunci الآخرة lahira وهى كلمة من أصل عربى «الآخرة».	موت. وهذا مجاز مرسل وجاء المعنى من تسمية الشئ بما سيؤول إليه .	...Hukamar Masar ta bakunci taron, samari na duniya . ...استضافت مصر مؤتمر الشباب العالمى. ...Allah ya taramu a lahira . ...بجمعنا الله فى الآخرة.	... Sarkin kano Sanusi ya bakunci lahira . ... توفى السنوسى أمير كانو «ناطق لغوى- أ. يهوذا»

الفعل المركب	المعنى الأصلى والمعجمى	المعنى المجازي	الاستعمال اللغوى	
			استعمال حقيقي	استعمال مجازى
Yi nisan Kiwo	«عمل بعد المرعى» عمل - صنع yi بعد nisa مرعى kiwo	«ذهاب لبعيد - تأخر عن موعده» . كناية والعلاقة لزومية .	...Suka yi ta har rana ta tako. ka kara karatu P. 9-L.22. ...لقد رعينا «الفيلة والدجاجة» كثيراً حتى انتصف النهار .	...ya yi nisan kiwo . ...لقد ذهب بعيداً «ناطق لغوى- أ. يهوذا»
Yi kukan Kuran	«عمل عواء «صراخ» الذئب» . عمل - صنع yi بكاء - صراخ - عواء kukan الذئب kura	«مغامرة - إقتحام - هجوم» . استعارة والعلاقة هنا هى المشابهة ووجه الشبه هنا هو «الشجاعة».	...Ga tsuntsaye na kuka can-waje, suna da rai . Ikon Allah. P.1- L.7. ... ها هى الطيور التى تصيح هناك خارج «حجرة الدراسة» لديها روح	Ya yi kukan kura ya shiga bakin daga . ... لقد هجم ودخل المعركة «ناطق لغوى- أ.يهوذا»
Yi kukan zuci	«عمل بكاء القلب» عمل - فعل yi بكاء -صراخ ku-kan القلب zuci وهى اختصار لكلمة "zuciya "	« حزن - أسف ». استعارة والعلاقة هنا هى المشابهة ووجه الشبه هو«الحزن والأسى»	... yi aiki . أدى العمل . kada kayi kuka ga abinda ya wuce . ...لا تبكى على ما فات «أ. يهوذا»	... Na yi ku-kanzuciya abin da ya faru . ...أسفت على ما حدث «ناطق لغوى- أ.يهوذا»

ب - المجاز على مستوى العبارة اللغوية :

ويقصد به الصورة المجازية الموجودة داخل العبارة ، سواء أكانت اسمية أو فعلية .

أولاً : العبارة الاسمية :

ويقصد بها العبارة أو الجملة الإسمية المتكاملة التى تحمل معنى مجازياً بداخلها ، وذلك مثل :

العبارة الاسمية	المعنى الأصلى والمعجمى	المعنى المجازى	الاستعمال اللغوى	
			استعمال حقيقى	استعمال مجازى
Halin la haula wa la kuwata	«حال لا حول ولا قوة» حال - وضع hali لا حول la haula ولا قوة wa la kuwata وهو تعبير عربى خالص	«مأزق -مصيبة - بلاء» وهذا تعبير عن ضيق الحال وقلة الحيلة، ويقابله فى المعنى التعبيرات الآتية : Halin ni 'yasu أى : «حال أنا ابنتهم» وهذا كناية عن «اليأس»	... Halin yanzu . الحال الراهن . ... Lahaula wala kuwata illa bil lahi. ...لا حول ولا قوة إلا بالله. «أ. يهوذا سليمان»	... Wannan ta-kunkumi ya jefa kasar Iraki cikin halin la haula wa la kuwata. Gaskiya ta fi kwabo 20 yuli 990 - p.1 ...هذا الحظر وضع العراق فى مأزق كبير .
Hannun kuturu da hannun makaho	يد المجزوم بيد الأعمى يد hannu مجزوم kuturu بـ da الأعمى makaho	بيع حاضر بالدفع الفورى. كناية ، والعلاقة لزومية	... Ka yi riko da hannun dan uwanka . ... خذ بيد أخيك . ...taimaki ku-turu da makaho. ... ساعد المجزوم والأعمى «ناطق لغوى-أ. يهوذا»	...Mu yi hannun kuturu da han-nun makaho . ...لقد باع كل منا للآخر بالدفع الفورى . «ناطق لغوى-أ. يهوذا»

العبارة الاسمية	المعنى الأصلى والمعجمى	المعنى المجازى	الاستعمال اللغوى	
			استعمال حقيقى	استعمال مجازى
Jakin Kano	حمار كانو حمار jaki مدينة كانو النيجيرية Kano	فصاحة - طلاقة لغوية . ويستخدم هذا التعبير حين يرادوصف إنسان ما بأنه يتكلم لغة أخرى بفصاحة وطلاقة وأنه على علم ودراية بها ، وربما يحمل التشبيه فى هذا المقام بـ «حمار كانو» على أمرين الأول أن «الحمار» صوته دائماً مرتفعاً ومدوى فى المكان الذى هو فيه بالإضافة إلى قوته وجهره .	...Tana fasawa sai ta ga taron kutare da makafi da guragu sun hau kan jakai, akadora ta akan jaki . Tatsunyoyi da wassani . ... عندما كسرت البيض رأت جمعاً من المصابين بالجزام والعمى والمعوقين مبتورى السيقان ، وهم راكبين الحمير ، ثم حملوها على ظهر حمار .	... Yana jin Hausa sosai kamar jakin kano . «ناطق لغوى-أ. يهوذا» ...يتكلم الهوسا مثل «حمار كانو» يراد بهذا أنه : «يتكلم الهوسا جيداً وبلسان طلق فصيح» . ومن أمثلة ذلك أيضاً ما جاء فى إحدى صفحات جريدة "Albishir البشر" الهوساوية فى عددها الصادر بتاريخ ١٤ أغسطس ١٩٩٨م حيث أجريت حواراً مع الزميل الدكتور / محمد نوفل أثناء زيارته لنيجيريا ، ففى هذا الحوار أشادت به وبقدرته الملحوظة على التحدث بلغة الهوسا بقوة وطلاقة، فقالت عنه :

العبارة الاسمية	المعنى الأصلى والمعجمى	المعنى المجازى	الاستعمال اللغوى	
			استعمال حقيقى	استعمال مجازى
		الأمر الثانى على اعتبار أن «كانو» هى موطن الهوسا الأصلى ولذلك فإن لهجتها هى القياسية. وفى مثل هذا المقام يقال «فلان يتكلم الهوسا جيداً مثل حمار كانو» ولو حدث هذا فإن هذه العبارة بوضعها عبارة مدح للموصوف وتعظيم من شأنه أما إذا استبدلت مدينة «كانو» بمدينة أخرى كأن يقال «يتكلم الهوسا أو اللغة الفولانية مثل حمار كاتسينا» لكان هذا سبباً ونيلاً من قدر الإنسان المراد الحديث عنه.		...Dakta Noufal dan shekaru 32 da haihuwa, Bal-araben Masar ne da ya lashi tak-obin ganin cewa nan ba da ji-mawo ba, zai iya ja-in -ja ko da ja-kin Kano ne a wajen lakanta, da fahimta da kuma sarrafa harshen Hauas أى: الدكتور نوفل يبلغ من العمر اثنين وثلاثين عاماً، وهو عربى مصرى ولديه القدرة على استيعاب الهوسا والتحدث بها كحمار كانو، هذا فضلاً عن أنه يفهم خباياها ونحوها وصرفها جيداً .

العبارة الاسمية	المعنى الأصلى والمعجمى	المعنى المجازى	الاستعمال اللغوى	
			استعمال حقيقى	استعمال مجازى
Beran Masar	« فأر مصر » فأر bera مصر Masar	ذكاء - مهارة ويستخدم هذا التعبير بأن يشبه المراد الحديث عنه. و«فأر مصر» فيقال «فلان لديه ذكاء ومهارة مثل فأر مصر» وحينما يقال هذا التعبير فيعتبر من باب المدح والتعظيم لشأن هذا الإنسان المراد الحديث عنه وربما يرجع السبب فى تشبيه الإنسان الذكى بفأر مصر على اعتبار أن «الفأر» بطبيعته لديه القدرة على التسلل دون أن يشعر به أحد أما اختيار «مصر» فالحقيقة لا يعرف السبب ولكنه لايزال قيد البحث . وإذا شبه أحد الناس بذكائه بفأر أى بلد آخر لتحول الأمر إلى استخفاف واستهزاء	...Bayan wannan zaki samo kashin bahagon bera da kashin jinjirin jaki . Kome Nisan dare. ... بعد ذلك سوف تقومين باحضار روث فأر أشول وروث جحش حديث الولادة	...Yana da wayo kamar beran Masar. ... لديه ذكاء ومهارة مثل فأر مصر . «ناطق لغوى- أ.يهوذا»

ثانياً: العبارة الفعلية:

ويقصد بها العبارة أو الجملة الفعلية المتكاملة التى تحمل معنى مجازياً بداخلها ، وذلك مثل :

العبارة الفعلية	المعنى الأصلى والمعجمى	المعنى المجازى	الاستعمال اللغوى	
			استعمال حقيقى	استعمال مجازى
...Ya dauki ransa ya kallafa bisa kan...	لقد أخذ روحه وعلقها على ... هو ya أخذ dauki روحه - حياته ransa علق رفع على kallafa فوق bisa kan	أحب حباً شديداً وتعلق به جداً. والصورة هنا كناية وتشير إلى مدى التعلق الشديد بحب الآخر .	...ya zo yau. ...لقد حضر اليوم. ... ya dauki ra-bonsa. ... أخذ نصيبه «ناطق لغوى-أ.بهوذا»	...Sarki kuwa ya dauki ransa ya kallafa bisa kan yaaron nan (Musa) magana jari ce, P.2-L.11 ...لقد تعلق الأمير جداً بهذا الولد «موسى» :، أى أحبه حباً كبيراً .
Yana alla-alla	«يقول الله الله» وفى هذه العبارة حذف للفعل «يقول cewa» لأن الأصل فيها أن تكون Yana cewa ya alla. ya alla. وبهذا الشكل يكون معناها «الدعاء لله» أما دلالة حذف الفعل فتشير إلى معنى آخر وهو «التمنى باستعجال».	« يتمنى شيئاً أن يحدث على وجه السرعة » . الصورة هنا مجاز مرسل، والعلاقة بين المعنيين هى الترجى والتمنى .	...Yana tafiya gida. ...يذهب إلى البيت . ... taima keni Allah ya tai-makeka. ...ساعدنى ليساعدك الله «ناطق لغوى-أ.يهوذا»	...Yana alla-alla Sarki ya mutu bai haihu ba. المصدر السابق P.2-L.21 ...وكان «الوزير» يتمنى أن يموت الملك دون أن ينجب

العبارة الفعلية	المعنى الأصلى والمعجمى	المعنى المجازى	الاستعمال اللغوى: استعمال حقيقى	الاستعمال اللغوى: استعمال مجازى
Ya bi uwa duniya	«تبع الدنيا الأم» هو ya تبع سارخلف bi أم uwa الدنيا duniya	« يتشرد. ـ » استعارة ، والعلاقة هنا بين المعنيين هى «المشابهة» .	...ya bi shi har gida. ... تبعه حتى المنزل ...ka bi uwarka da ubanka. ... أطع أمك وأباك . «ناطق لغوى- أ.يهوذا»	...Ya shiga kulle kulle kullum na yadda zai yi ya kashe Musa. ko kuwa ye sa ya bi uwa duniya. abin ya gagara. ...لقد بدأ «الوزير» يخطط كيف سيقتل موسى، أو يجعله يتشرد إذا لزم الأمر .
Ba afafa gora ranar tafiya .	«لا تقور القرعة يوم السفر». أداة نفى ba دالة المجهول a يقور -يفرغ fafa يوم - نهار rana سفر-ذهاب tafiya	«يجب الاستعداد دائما وأخذ الحذر». وهذا التركيب الذى جرى مجرى الحكمة يقال فى أحد موقفين ، إما للتحذير من التعثر فى تحقيق الهدف ، وإما للتوبيخ حين الفشل فى تحقيق أمر معين ، وهذا مجاز مرسل والعلاقة فيه لزومية .	bai zo yanzu. ... لم يحضر الآن. ... matafiyi ya fafa gorarsa ... قشر المسافر قرعته ... ya zuba ruwa a gora . ... وضع الماء فى قرعته . ... yau ranar jum'a ce ... اليوم هو يوم الجمعة . «ناطق لغوى- أ.يهوذا»	Gwamma ko mu zauna da shiri, don ba afafa gora ranar tafiya . المصدر السابق P.3-L.9 ... «قال الوزير للملك» من الأفضل أن نجلس ونحن مستعدين «للحرب» من أجل ألآ نندم .

العبارة الفعلية	المعنى الأصلى والمعجمى	المعنى المجازى	الاستعمال اللغوى	
			استعمال حقيقى	استعمال مجازى
Ya fi kyau Abar kaza cikin gashinta	من الأفضل أن تترك الدجاجة فى ريشها من الأفضل ya fi kyau تترك abar الدجاجة kaza فى داخل cikin ريش شعر gashi. رابطة الإضافة n ضمير ملكية للمفردة المؤنثة ta	يترك الأمر مستوراً أفضل . مجاز مرسل، والعلاقة المشابهة . ووجه الشبه هنا هو ستر الشئ حيث أن ريش الدجاجة يغطى لحمها ويستره . والمعنى هو الستر أفضل من الفضيحة، أصبحت هذه العبارة اصطلاحا لغويا متعارفا عليه، ويجرى مجرى الأمثال الشعبية والحكم والأقوال المأثورة، وفى هذا تطور دلالى واضح .	... Abar kaza acikin keji . ... دع الدجاجة فى القفص . ...gashinta ya yi tsawa . ... لقد طال شعرها . «ناطق لغوى- أ.يهوذا»	.. Aku ya ce,. “Ba za ka so ji wannan al’ amari ba, don zai bata maka rai kwarai, ya fi kyau abar kaza cikin gashinta. Magana jari ce 1.p.6- L.39. ... قال البيغاء « إنك لن تحب أن تسمع هذا الكلام ، لأنه سوف يغضبك ، فمن الأفضل أن يظل الأمر مستوراً
Tura ta kai bango	دفعة توصل إلى الحائط دفعة tura هى ta يوصل kai الحائط bango	تأزم الأمر - لم تعد هناك طاقة للتحمل . وهذا مجاز مرسل قائم على الملابسة بين المعنيين .	... ya tureni har bango. ... دفعنى حتى الحائط Ya kai mini sako gida. ...لقد أوصل لى	...Shugaban Ira-ki maigida Sad-dam Husein ya shaida wa ma-

العبارة الفعلية	المعنى الأصلى والمعجمى	المعنى المجازى	الاستعمال اللغوى	
			استعمال حقيقى	استعمال مجازى
	وتأتى بمعنى « غلاف الكتاب »		الأمانة إلى البيت . «ناطق لغوى- أيهوذا »	jalisar dinkin duniya ta tura ta kai bango, ya ce ya gaji da wan-nan takunkumi da aka sa wa kasarsa. Gaskiya ta fi kwabo- 20 Yuli1995 P.1. ... لقد ندد الرئيس العراقى صدام حسين بالأمم المتحدة التى صعدت الأزمة ، فلم يعد هناك قدرة على تحمل هذا الحظر المفروض على العراق
Shara ta ya keyi	« كنسا كثيراً يعمله » كنس تنظيف الأرض بالمكنسة shara كثيراً ta هو ya دالة الحال ke يعمل - يفعل yi	« يسترسل فى الكذب » وحينما يراد توجيه الحديث لآخر فيستدبل الضمير "ya" بالضمير المراد وصفه والحديث عنه ، فمثلاً : "shara ta su ke yi. » يسترسلون فى الكذب .	shara mana daki ... اكنس لنا الحجرة «ناطق لغوى- أيهوذا »	... In ma mutum ya ce zai tsaya ya bayyana ar-zikin sarki Ab-durrahman ga wadanda ba su abin da ake kira duniya ba sai su yi tsammani shara ta yake yi.

العبارة الفعلية	المعنى الأصلى والمعجمى	المعنى المجازى	الاستعمال اللغوى	
			استعمال حقيقى	استعمال مجازى
		وهذا كناية عن المبالغة فى القول الكاذب .		Magana jari ce 1. p.1-L.12 ... لو أن شخصاً سوف يقف ليوضح ثراء الملك عبد الرحمن لهؤلاء الذين لا يعرفون شيئاً عن الدنيا ، لقالوا أنه يكذب ويبالغ .
... Suka rasa abin da ke masu dadi.	«فقدو الشئ الذي يحبونه». هم فى الماضى فقد suka - أضاع rasa الشئ الذى abin da ke لهم masu لذيذ- ممتع -جميل dadi	«ضاقت عليهم الدنيا بما رحبت» . ... ويمكن أن يتغير الضمير «هم- su» إلى أى ضمير آخر وهذا من نوع المجاز المرسل .	...In suka rasa daya daga ciki. sai su mutu. Ikion Allah. P.3-L.17 ... لو أنهم «الكائنات الحية» فقدوا واحدة منهم «الماء - الطعام - الهواء» فسوف يموتون .	... Ko da suka ji wannan magana kuma kowa ya cinye shi, duk suka rasa abin da ke masu dadi, sai na ce da ama zo mu tafi . Magaji A. Dambatta Amadi na Mallam, Amah. P.23-L 32. ... عندما سمعوا هذا

العبارة الفعلية	المعنى الأصلى والمعجمى	المعنى المجازى	الاستعمال اللغوى	
			استعمال حقيقى	استعمال مجازى
				الكلام شعروا وكأنهم غرقو فى الماء وضاقت عليهم الدنيا بما رحبت، وعندئذ قلت لأمة هيا بنا لنذهب .
Ya kulla wannan ya kwance .	« يعقد هذا ويفك » هو ya kulla يعقد -يربط هذا wannan يفك - يحل kwance	« قلق-تحير- ارتباك - أصابة أرق » . استعارة ، والعلاقة بين المعنيين هى المشابهة . وجهه الشبه عدم الاستقرار وعدم الثبات على وضح معين .	... Na kwance agogo . ... فككت المنبه . « يهوذا سليمان - ناطق لغوى »	...Daren nan ya kasa barci, ya kulla wannan ya kwance, har asuba . Magan jari ce 1.p.5-L.10 ... لقد عجز « الوزير » عن النوم هذه الليلة وظل مرتبكا حائراً حتى الصباح .

خاتمة ونتائج:

الدراسات اللغوية فى واقع الأمر أحد أهم الدراسات العلمية على الإطلاق ، وذلك لكونها أنها تستطيع أن تكشف عن خبايا وأسرار اللغة الإنسانية التى تجمع بداخلها عدداً من الظواهر المختلفة، والتى من بينها ظاهرة "المجاز" التى تعتبر بحق ركناً أساسياً فى لغة الهوسا.

والحقيقة التى يجب التنويه إليها ، هى أن المجاز فى لغة الهوسا له دور كبير وهام جداً بالنسبة لهذه اللغة ، فهو يشكل بمفرده قدراً كبيراً من الدلالات اللغوية التى لا تستطيع الكلمة الهوساوية المفردة أن تؤديها ، فكثير_من الألفاظ الهوساوية التى يتضح معناها المعجمى من خلال السياق ، يختلف أيضاً معناها من خلال السياق عن طريق المجاز ، أى يكون لها معنى آخر غير معناها المعجمى والتى وضعت له ووضع لها أصلاً.

ولا يكفى فقط لمتعلم هذه اللغة أن يعرف المعنى المعجمى لكل لفظة من ألفاظها ، بل يجب أن يعرف المعنى الآخر المجازى والكائن وراء معناها الحقيقى ، لأنه فى الحقيقة يسهم بقدر كبير فى تشكيل المعنى فى لغة الهوسا ، ولا تقل نسبة إسهامه فى هذا عن ستين (٦٠٪) فى المائة إن لم يكن أكثر من هذا.

وقد قامت هذه الدراسة على مادة عشوائية مختلفة ومتنوعة ، وأثبتت الآتى:

١- المجاز هو أحد الصور البلاغية التى تتسم بها اللغة بصفة عامة والهوسا بصفة خاصة.

٢- من خلال (٦٤) أربعة وستين مثالاً قامت عليها الدراسة ، تبين الآتي:

أ- كانت أعلى النسب وروداً فى المجاز للمجاز المرسل أولاً ، فقد بلغت نسبته فى الأمثلة المذكورة ثمانية وعشرين مثالاً.

ب- جاءت الكناية فى الترتيب الإحصائى الثانى بعد المجاز المرسل مباشرة ، فقد بلغت نسبتها ثلاثة وعشرين مثالاً.

جـ - كان للاستعارة الدور الأقل وروداً من خلال الإحصاء ، فقد جاءت فى الترتيب الثالث بعد المجاز المرسل والكناية ، وجاءت بنصيب أحد عشرة مثالاً.

د- إختفاء الصورة الرابعة للمجاز وهى «التشبيه الصريح» ، مثل «محمد كالأسد» ، وإن كانت موجودة تضميناً فى داخل الصور الثلاث السابقة.

٣- وجود ظاهرة المجاز بقدر كبير فى لغة الهوسا ، ويتشكل فيها على مستوى المواضع الآتية:

أ - مجاز يأتى على مستوى الاسم البسيط.

ب - مجاز يأتى على مستوى الاسم المركب.

جـ - مجاز يأتى على مستوى الفعل البسيط.

د- مجاز يأتى على مستوى الفعل المركب.

هـ- مجاز يأتى على مستوى العبارة الاسمية.

و- مجاز يأتى على مستوى العبارة الفعلية.

٤- هناك بعض التعبيرات المجازية التى تطورت فى استخدامها وأصبحت

تعبيرات اصطلاحية ثابتة ، وذلك مثل :

- مجلس الأمم المتحدة Majalisar dinkin duniya

-دول عدم الانحياز Kasashen 'yan ba ruwammu

٥- ضرورة معرفة المعنى المجازى فى لغة الهوسا أمر فى غاية الأهمية بالنسبة لدارس هذه اللغة.

وفى النهاية أرجو لهذه الدراسة المتواضعة أن تكون قد أضافت شيئاً جديداً للمكتبة العلمية. فإن كان الأمر هكذا ، فهذا فضل من الله ونعمة ، وإن كان غير ذلك فاسأل الله الهداية والتوفيق.

المصادر والمراجع

أولا: مصادر البحث:

أ _ مصادر هوساوية:

1- Al.haji Abubakar Imam- Ikon Allah - NNPC- Zaria - Nigeria 1986.

2- Aikin likita.

3- Al.haji Abu bakar Imam - Magana Jari ce 1 NNPC - 2001 - Zaria. Nigeria.

4- Ibrahim Yaro Yahaya - tatsunyoyi da wasanni - 1979 - Zaria - Nigeria.

5- Jaridar Albishir - Juma'a 14 Augusta - 1998 - Nigeria.

6- Jaridar Almizan -23 Sha'aban 1422 - Nigeria.

7- Jaridar Almizan- February 24-2004 - Nigeria.

8- Jaridar Gaskiya ta fi kwabo - 20 Yuli - 1995 - Nigeria.

9- Jaridar Gaskiya ta fi kwabo- 20 Yuli 1990 - Nigeria.

10- Ka Kara Karatu - 1969 - Nigeria.

11- Magaji A. Dambatta - Amadi na Mallamal - NNPC - 1984 - Zaria - Nigeria.

12- Mahmud Barau Bambale- Kome nisan Dare - Kamfanin Ibramud Nigeria Limited - 1994 - Zaria - Nigeria.

13- Nuradden A. (Azara) Karshen kiyayya - Zamani books LTD Kano - Nigeria.

ب _ مصادر عربية:

- صبرى سلامة _ المصطلحات السياسية فى البرامج الموجهة المصرية بلغة الهوسا _ دراسة دلالية ومعجم لعام ١٩٨٩م _ رسالة ماجستير غير منشورة _ معهد البحوث والدراسات الأفريقية - جامعة القاهرة.

ج- مصدر سماعى:

- أ. يهوذا سليمان إمام_ ناطق لغوى هوساوى_ زاريا _ نيجيريا ويعمل مدرساً للغة الهوسا بالمعهد

ثانياً: المراجع:

١- إبراهيم السمرائى _ التطور اللغوى التاريخى _ دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع _ بيروت _ لبنان _ ط٣ - ١٩٨٣م.

٢- أحمد سليمان ياقوت _ أبحاث فى اللغة _ دار المعرفة الجامعية _ الإسكندرية ١٩٩٤م.

٣- أحمد عوض _ تصنيف اللغات الأفريقية _ الموسوعة الأفريقية _ المجلد الثالث _ معهد البحوث والدراسات الأفريقية _ جامعة القاهرة ١٩٩٧م.

٤- أنيس فريحة _ اللهجات وأسلوب دراستها - دار الجيل _ بيروت _ ط١ ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٥- رمضان عبد التواب _ فصول فى فقه العربية _ ط٣ _ القاهرة ١٩٩٤م.

٦- روى _ سى _ هجمان _ اللغة والحياة والطبيعة البشرية _ ترجمة وتقديم

دكتور داود حلمى أحمد السيد _ الطبعة الثانية ٢٠٠٠م _ عالم الكتب - القاهرة .

٧- السيد أحمد الهاشمى _ جوهر البلاغة فى المعانى والبيان والبديع _ دار ابن خلدون _ الإسكندرية.

٨- شفيع السيد - التعبير البيانى _ رؤية بلاغية نقدية _ دار الفكر العربى _ القاهرة _ ط٢- ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م .

٩- كمال بشر_ خاطرات مؤتلفات فى اللغة والثقافة _ دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع _ القاهرة ١٩٩٥م .

١٠- محمد إبراهيم عبادة _ الجملة العربية _ دراسة لغوية ونحوية _ الإسكندرية ١٩٨٨م .

١١- محمود سليمان ياقوت _ علم الجمال اللغوى (المعانى _ البيان _ البديع) _ دار المعرفة الجامعية _ الإسكندرية _ جـ ١ ١٩٩٥م .

١٢- محمود فهمى حجازى _ مدخل إلى علم اللغة _ دار الثقافة للطباعة والنشر _ القاهرة _ ط ٢ ١٩٧٨م .

١٣- مصطفى الصاوى الجوينى _ البلاغة العربية تأصيل وتجديد منشأه المعارف _ الإسكندرية.

تم الطبع :
بمطبعة جامعة القاهرة

مدير عام المطبعة
محمد عمر عبد العـال
٢٢/١٢/٢٠٠٤

(مطبعة جامعة القـاهرة ٢٣١١ /٢٠٠٣/ ٤٧٥)

Cntribution to this magazine are welcomed and should be sent to:

Prof. Dr. El- Sayed A. Flefil

Inst. of African Research & Studies, Cairo University, 12613 Giza, Egypt

AFRICAN STUDIES REVIEW



Vcl. 25 2003

Issued by the Institute of African Research & Studies, Cairo University.